سلسلة النقد الأسلوبي

نحو نقد عربي أصيل وهادف وبناء وجاد ومحترم (دراسة أدبية)

دراسة أسلوبية في شعر حسان بن ثابت

نقد وتحليل

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو شعر عربي أصيل هادف محترم جاد

سلسلـــة النقـــد الأدبـــي

(قراءة أسلوبية في شعر حسان بن ثابت:)

حسّان بن ثابت الأنصاري

نقد وتحليل

الفقير إلى عفو ربه تعالى أبي عبد الله

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

الشاعر السلفي المصري الصعيدي

راجعه الدكتور عدنان النحوي والأستاذ سالم النوبي

الطبعة الأولى

مُجمّعة من المجلات والصحف والدَوريات والجرائد

ومُراجعة ومُصحّحة ومُحَققة ومُنقحة ومَزيدة

الإهداء

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، إقراراً به ، وتوحيداً بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً ، أما بعد: فهذه كليمات صدّر بها الدكتور عبد الله عزام كتابه الجميل: (العقيدة وأثرها في بناء الجيل) أجعلها مقدمة دراستنا الأسلوبية: (قراءة أسلوبية في شعر حسّان بن ثابت الأنصاري). ألا إن هذه عقيدتنا وهي عقيدة الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة (أهل السنة والجماعة) وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره. * الإيمان بالأسماء والصفات: ومن الإيمان بالله الإيمانُ بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل ولا تشبيه ، بل نؤمن ونعتقد أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فنحن نثبت لله عز وجل أسماءه الحُسنى وصفاته العليا ، التي وردت في الكتاب والسنة الصحيحة. ونعتقد أن السلف (رضوان الله عليهم) وأهل السنة والجماعة يعلمون معنى الصفات ، ولكنهم يفوّضون علم الكيفية والكُنه إلى الله عز وجل ، فنحن نعتقد كما اعتقدوا ، أن الله عز وجل موصوفٌ بهذه الصفات حقاً لا مجازاً ، على الوجه الذي يليق بجلاله ، من غير أن يُشابه خلقه شيء من صفاته. وكما قال مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن كيفيته بدعة) ، فنحن نؤمن أن لله يداً ليست كأيدينا ، وله بصرٌ ليس كأبصارنا ، ونؤمن بنزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا ، فنقول: النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عن كيفيته بدعة. * الاستواء والفوقية: ونحن نؤمن أن الله عز وجل مستو على عرشه بائن عن خلقه فوق السماء السابعة (ولا نقول الاستواء بمعنى الاستيلاء أو الهيمنة أو السيطرة) ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن أن يُحد بزمان أو مكان. المعية: وهو تعالى معنا بسمعه وبصره وعلمه. * الإيمان بالقدر: ونؤمن أن الله خالقنا وخالق أفعالنا مع كون العبد مختاراً في أفعاله ، ونؤمن أن الله فعال لما يريد. ونؤمن ألا يكون شيء إلا بإراداته عن تقديره ، ولا يصدر عن تدبيره ولأ محيد لا حد عن القدر المحدد ، ولا يتجاوز ما خطه له في اللوح المحفوظ ، وعقيدتنا وسط بين القدرية التي تسند الفعل إلى العبد وتجعله خالقاً لفعله من خير أو شر ، ونخالف الجبرية فلا نقول العبد مجبور على فعله من خير أو شر ، بل كما قلنا نعتقد أن الله خالقنا وخالق أفعالنا والعبد مختار بفعله. * الإيمان: نحن نعتقد أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان ، تزيده الطاعة وتنقصه المعصية. * الذنوب والكبائر: وعقيدتنا وسط بين المرجئة والحرورية (الخوارج) والمعتزلة ، فنحن لا نقول كالخوارج بأن مرتكب الكبيرة كافر ، إلا إذا استحلها ، ولا نقول كالمرجئة أن الإيمان لا يضر معه معصية ، ولا نقول كالمعتزلة أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ، بل نرجو للمحسن العفو ونخاف على المسيء العقاب ، وإن مات ولم يتب فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. * الصحابة: وعقيدتنا وسط بين الروافض (الشيعة الروافض) والخوارج ، فنحن نعتقد بفضل الصحابة كلهم ولا نغلو في أهل البيت ، بخلاف الخوارج فإنهم قد كفروا عثمان وعلياً وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص والعياذ بالله ، ونؤمن بأن أفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي رضي الله عنه ، ثم بقية العشرة

(سعد وسعيد وطلحة والزبير وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف) ، ثم أهل بدر ، ثم أهل الشجرة (بيعة الرضوان) ، ثم سائر الصحابة رضوان الله عليهم. ونتولى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم ، ونستغفر لهم ، ونذكر محاسنهم ، ونكفّ عن مساوئهم ، ونسكت عما شجر بينهم ، ونقرّ بفضلهم ، ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، أو يعمل عملاً لا يحتمل إلا الكفر ، مثل السجود للصليب ، ونرجو للمحسنين أن يغفو الله عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بجنة ولا نار ، إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء. * الأولياء: ونقر بكرامات الأولياء ، والمؤمنون المتقون كلهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن والسنة. * التشريع بغير ما أنزل الله: ونرى بأن التشريع بغير ما أنزل الله كفر ينقل عن الملة ، ونرى القضاء في ظل هذي القوانين الوضعية باطلة لا تلحقها الإجازة ولا التصحيح! ونعتقد أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة (منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم) إلى أن يقاتل آخر أمته الدجال ، لا يُبطله جورُ جائر ولا عدلُ عادل. وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يخلدون في النار إذا ماتوا موحدين - وإن لم يكونوا تائبين - فهم في مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم بفضله وإن شاء عذبهم بعدله. ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة ، وعلى من مات منهم ، ولا نشهد على مسلم بكفر ولا نفاق ولا شرك ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، وندع سرائرهم إلى الله تعالى ، ولا نصدق كاهناً ولا عرّافاً ، ونكره أصحاب البدع ، ونرى أن الاستغاثة بالأموات وطلب الحاجات منهم شرك! وأما التوسل بأي أحد من الخلق فهو غير جائز ويجب تركه. ونرى أن البناء على القبور واتخاذ المساجد عليها ووضع السرج فوقها والرايات وتعليق الستور عليها وإقامة السدنة حولها من البدع المحرّمة التي يجب محاربتها. ونؤمن بفتنة القبر ، ونعيمه ، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد ، وبقيام الناس لرب العالمين حُفاة عُراة غرلاً ، وينصب الموازين ، وتنشر الدواوين ، ونؤمن بالصراط المنصوب على شفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم ، ونؤمن بحوض نبينا صلى الله عليه وسلم وبشفاعته ، وأنه أول شافع ، وأن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ، وأنهما الآن موجودتان ، وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين وخير الخلق أجمعين. وأن الله تعالى منزهٌ عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، ونؤمن أن العرش والكرسي حق ، وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، فمن اعتقد عقيدتنا وصلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو مسلم ، له ما لنا وعليه ما علينا. ونعتقد أن القرآن منزل من عند الله ، وهو كلام الله غير مخلوق. ورحم الله الدكتور عبد الله عزام وأسكنه فسيح جناته ، فلقد كفاني تلخيص كل هذه النقاط! وأنا أوردتُها هنا بشئ من التعديل اليسير ، لأدلل على أنها عقيدتي أدين الله بها وأحيا عليها ، وأموت عليها وألقى ربي – سبحانه وتعالى - عليها. كما وأعتقد كشاعر أن جُل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانوا شعراءَ مُجيدين فحول! وفي الذؤابة منهم حسانُ بن ثابت الأنصاري – رضي الله عنه – وأنه شاعرُ الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكفى به شرَفاً ومكانة ولقباً! ومن هنا آثرتُ الكتابة عنه كنموذج لشعر المُخضرمين (الذين أنشدوا في الجاهلية وفي الإسلام)! وأسأل الله تعالى أن يُقِيمني في الأواخر مقام حسان في الأوائل ، أذود عن الإسلام ونبيه ورسالته ومُتبعيه من الصحابة ومن تبعهم إلى يومنا هذا!

المقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله الصادق الوعد الأمين ، بعثه الله رحمة للعالمين وحُجة على المُعاندين ، وأيَّده بالآيات والمُعجزات والبراهين ، فعلّم به من الجهالة ، وهدى به من الضلالة ، وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا ، وجعله حرزاً للأميين ، ولم يزل منذ بعثه الله برسالته قائما بأمر ربه على أكمل الوجوه وأفضلها ؛ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبين للناس ما نزل إليهم من ربهم غاية التبيين ، حتى ترك أمته على المَحَجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين ، وما من شيء يقربهم من الجنة إلا وقد أمرهم به ، وما من شيء يقربهم من النار إلا وقد حذرهم منه ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيّ عن بينة ، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ، فجزى الله عنا نبينا أفضل ما جزى أحداً من الأولين والآخرين ، فلقد بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح أمته غاية النصح ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين. صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه دائما إلى يوم الدين ، وعلى سائر إخوانه من المرسلين والنبيين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وبعد ، فإنني أهدي هذه الدراسة الأدبية لكل المؤمنين الموحدين في شتى بقاع الأرض! وأتمنى أن تستثير الهمم والعزمات لتتصدى لما يواجهه الإسلام من تحديات في زماننا هذا! يقول الأستاذ أنور الجندي في مقال له عنوانه: (أقدِّم لك الإسلام) ما نصه: (الإسلام منهج رباني جامع ، يعمل على بناء الفرد والأسرة والجماعة على أساس الإيمان بالله ، وعلى أساس التكامل والتضامن والعدل والرحمة والإخاء الإنساني ، وهو دعوه إلى بناء مجتمع ومنهج حياة يقام لإسعاد البشرية ، وهو مختلف تماماً عن المناهج والأيديولوجيات التي قدمها الإنسان لنفسه ، والتي ما تزال تضطرب وتتخبط ولا تحقق للبشرية شيئاً إيجابياً ، وها نحن نرى كيف يعيش المجتمع العالمي حياة مأزومة مضطربة ، لأنها خلت من الاستمداد من الله والتماس منهجه! ولما فصلت المناهج البشرية نفسها عن دين الله المنزل عجزت عن تحقيق الأمن للناس ذلك أن هذه المناهج فصلت بين الروح والمادة وبين السياسية والأخلاق وبين الدنيا والآخرة ، وما تزال المجتمعات العالمية تضطرب منذ أربعمائة عام وتتخبط ، عندما أقامت المنهج المادي العلماني الذي يُمزق وحدة الإنسان الجامع بين الروح والمادة ، فأنت أيها الأخ الكريم ترى كيف نتخبط هذه المناهج ، وتضيف وتحذف ، ولا تستطيع أن تحقق شيئاً. وقد نشأت في المجتمع العالمي تلك الأزمة العميقة: وتلك الغربة والتمزق والغثيان نتيجة الانفصال عن الإيمان بالله وأخلاقية المجتمع والحضارة ، وقد ثبت لصيحات الأعلام والبارزين من المُفكرين الغربيين بأنه لا طريق صحيح للبشرية إلا بالإسلام وحده وقد اعتنق هؤلاء الأعلامُ العقيدة الإسلامية بعد أن بحثوا سنواتٍ طويلة وعجزوا عن أن يجدوا سبيلاً ، إلا عن طريق هذا النور الإلهي (وإسلام الدكتور بوكاي والفيلسوف جارودي) أخيراً من العلامات التي سبقتها علامات كثيرة. ولقد جرب الغرب مذاهبَ ودعواتٍ مختلفة من الشرق والغرب ، وقد فشلت جميعها والعالم يتطلع إلى منهج جديد يحرره من العبودية والإباحية والشك والتمزق ، وليس غير الإسلام هو الذي ينقذ البشرية ، ولكن كيف يمكن ذلك وأهل الإسلام أنفسهم مكبلون بقيود وثيقة للنفوذ الغربي بشقيه ، أنهم لا بد أولاً أن يتحرروا من هذه القيود وأن يقيموا مجتمعهم ثم يقدموا الإسلام للبشرية. والحقيقة

أن الإسلام يواجه تحديات خطيرة اليوم ، ويطالب المؤمنين به بأن يؤمنوا حتى يقوم الصف المسلم القادرعلى حماية الأمة من الانهيار والتمزق والسقوط في حلقة التبعية الخطيرة ، وهي المؤامرة التي تعمل الحضارة العالمية لتذويب المسلمين فيها بعد أن تفسد مفهومهم الصحيح لعقيدتهم ، وإثارة الشبهات حولها حتى يضيع ذلك النور القوي الذي يملأ القلوب ويدفعها إلى العمل لحماية بيضة هذا الدين ، والدفاع عنها والإعداد لمقاومة كل من يفكر في السيطرة عليها! وذلك بالمرابطة في ثغور الإسلام المادية والمعنوية لحماية الأمة من مؤامرة إذابة هذه الأمة في بوتقة الأممية ، فليس للمسلمين اليوم من مهمة في الحقيقة أكبر من الحفاظ على ذاتيتهم الإسلامية وشخصيتهم التي كونها لهم الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، حتى يظلوا مسلمين حقيقة ، وليسوا صورة ممسوخة من الأمم الأخرى ، وفي سبيل حماية هذه الذاتية يجب أن يحافظ المسلمون على عقيدتهم وعبادتهم ومفاهيمهم في المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية ، حقيقة واضحة ، فلا يقبلون بالتبعية لفكر غير فكرهم ، أو الانبهار بمذاهب أو مناهج غير مذهبهم ومنهجهم الأصيل الذي كونهم منذ أربعة عشر قرناً وحماهم من الذوبان أو التمزق في حضارات أخرى ، فلن تستطيع أي أيديولوجية وافدة أن تعطي المسلمين قوة لتمكنهم من امتلاك إرادتهم وقد حدثت التجربة خلال السنوات الماضية وعجزت عن أن تحقق لهم شيئاً ، بل كانت سبيلاً للأزمة والهزيمة والنكسة وسقوط بيت المقدس وفلسطين في أيدي أعدائها ، وقد جرى ذلك نتيجة الخداع الذي كان يخدع هذه الأمة بأن التبعية للغرب هي التي ستمكنهم من الوصول إلى القوة وامتلاك الإرادة ، وقد ظهر كذب هذا ، وكانت كل الخطوات ترمي إلى إذابتهم في البوتقة العالمية وإضاعة ذاتيتهم ووجودهم الخاص المستقل ، كافة تحمل رسالة التوحيد الخاص ، إن المحافظة على الذاتية الإسلامية بعيدة الانصهار في بوتقة الأمم الأخرى هي أساس عميق من أسس الإسلام الذي جاء ليعيد الإنسان إلى الفطرة بعد أن أفسدته المطامح والشهوات التي غيرت كلمة الله ، وأن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين هي خطر النفوذ الغربي والصهيوني والماركسي (مجتمعين) على إذابة المسلمين في بوتقة الحضارة الغربية التي تمر بأسوأ مراحل انهيارها).هـ. وصدق الأستاذ أنور الجندي فيما قال! ونحن على ذلك من الشاهدين ، وينبغي على المسلمين أن يعتزوا بإسلامهم ويتقدموا للغرب والشرق بهذا الدين العظيم الذي سوف ينقذ البشرية من المصائب التي تحتويها ومن الدمار الذي يحيق بها. ذلك أن حضارة الرجل الأبيض قد استهلكت وأصبحت عاجزة عن أداء ذلك الدور العظيم! وقد أعطتها البشرية الفرصة تلو الفرصة لتصنع ذلك فما فعلت! إن دراستنا الأسلوبية لشعر حسان بن ثابت الأنصاري لتخدم هذه الفكرة ، حيث نقدِّم حسان بن ثابت كنموذج للشعراء المتحمسين الذين نذروا حياتهم وشعرهم وجهادهم بالكلمة من أجل هدفٍ واحدٍ محددٍ ، ألا وهو الذودُ عن الإسلام ، والدفاعُ عنه ضد الهجمة الشرسة التي كان يتعرضُ لها النبي ورسالته بالأمس! وإنْ كانت الهجمة الشرسة تلك قد عادتِ اليوم في ثوب جديد خلَق من أثوابها العفِنة! ومتصورٌ من كل الكُتاب والأدباء والشعراء المسلمين المؤمنين الموحدين أن يتصدوا لها اليوم ، كما تصدى لها بالأمس شعراءُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وفي الذؤابة منهم حسان بن ثابت الأنصاري! ومن هنا وجبَ علينا بيان أسلوبية حسان بن ثابت في شعره لينتهجها من يريد أن يكمل دوره ويواصل مشواره! ونسأل الله أن ينجحَ شعراءُ الإسلام المعاصرون في صد الهجمة العدوانية الشرسة وإيقاف المفسدين عند حدودهم! إن الله لا يصلح عمل المفسدين! والله الموفق ، وهو - سبحانه وتعالى - الهادي إلى سواء السبيل.

الافتتاحية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه. وبعد ، في كتابه العظيم المعنون له بـ: (ماذا يقرأ الشباب؟) للأستاذ أنور الجندي يبين لنا ماذا نقرأ وكيف نقرأ ولمن نقرأ ولماذا نقرأ فيقول ما نصه: (يجب أن يستجيب الكاتب المسلم في هذه الآونة لهذه الدعوة الملحة الموجهة من الشباب تحت عنوان (ماذا نقرأ) حتى تكون في مأمن من ذلك الإعصار الخطير الذي يتمثل في عشرات من المؤلفات ذات مظهر براق وعناوين لامعة وتخفي في أطوائها السموم. يجب أن لا تخدعنا الأسماء ذات الدوي ولا الأثواب البراقة ولا أرقام التوزيع أو براعة الإعلان وأن نكون قادرين على الحكم على الكتابات المطروحة من خلال قيمتها الحقيقية ومن خلال معرفتنا لمدى إيمان كتابها بأمتهم وفكرهم ، ذلك أن هذه الدعوة: هي بمثابة خطوة أساسية وثابتة على الطريق الصحيح. ذلك أننا إنما أوتينا من قِبل الكتب اللامعة والأسماء البراقة. وإن أول علامات الصحة في حكمنا على الأمور أن نحاكم الفكر نفسه بإخلاص والإيمان وأن يكون الكتاب المقرون لدينا الموحدين ، نأخذ منهم ونتلقى عنهم ، هو أولئك الذين عرفوا بنصاعة الصفحة وصدق الإيمان وسلامة الماضي ونقاء الوجهة والتحرر من التبعية والولاء لغير هذه الأمة وفكرها. وليكن دليلنا دائماً: أن نقرأ الكاتب قبل كتابه ، فإذا طبقنا علم الجرح والتعديل استطعنا أن نعرف مدى إيمان الكاتب وصدق انتمائه إلى أمته وفكرها ، وهذا هو ما نتقبل منه عطاءه أما غيره فلنكن منه على حذر فإذا قدم شيئاً نافعاً فلنقبله إيماناً بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ولنكن على إيمان كامل بأن الكاتب الصادق يستمد قوته من الحق ويستمد مظهره من تراث الأنبياء والأبرار ويكون في دعوته وهدفه وكتاباته مطابقاً للآية الكريمة: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً". فهو لا ينكر العلم ولا يكتمه ، وهو في نفس الوقت لا يشتري بالحق ثمناً قليلاً. ولا يكون أبداً أداة لتزييف الحق أو تضليل الناس أو إعلاء شأن الأهواء وخداع الناس بها تحت عناوين الفكر الحر أو الانطلاق أو غيرها. إن الكاتب الذي يطمع في أن يكتب ثقة الشباب المسلم المثقف يجب أن يكون قادراً على تحمل أمانة الكلمة مقدراً للأبعاد المختلفة لهذه الأمة وفكرها والتحديات التي تواجهها. وأن يكون من كرامة الشخصية بحيث لا يغش ولا يموه ولا يزدري مقدرات هذا الفكر. وليعلم أنه سوف لا يمر وقت طويل حتى تكشف الحقائق أمره ودوره ونِحلته ومن ثم يسقط سقوطاً لا سبيل معه إلى استعادة الثقة. ذلك أن القارئ المثقف في هذا العصر على الرغم من وجوده على حافة الدائرة وليس في قلبها فإنه قد آمن بأن أمته تواجه اليوم تحديات خطيرة عن طريق الغزو الثقافي والتغريب وأن الثقة لم تعد في المستطاع الحصول عليها إلا لعدد قليل ممن برهن تاريخهم وكشفت وقائع حياتهم عن الصدق والإخلاص. إن في الساحة كُتاباً كثيرين ، وهناك من قد يستطيعون عن طريق البراعة والذكاء وإحسان العبارة وإخفاء الهوى أن يصلوا إلى بعض العقول والنفوس نتيجة لمرحلة القصور الذاتي الموجودة بين الشباب الذي لم يتعلم من أصول فكره الإسلامي العربي إلا شذرات قليلة ، بينما أتخم بفنون مختلفة من فكر الغرب. إن الكتب البراقة والصحف اللامعة والأسماء الشهيرة قد كانت على مدى هذا العصر الحديث تخطت الأبصار ولكنها كانت عاجزة عن أن تمتلك القلوب والنفوس. أن عشرات من هذه الأسماء التي لمعت لم تلبث أن سقطت وانكشفت زيفها ، وأن عشرات من هذه الكتب التي أحدثت ضجة لم تلبث أن انطوت ، وظهرت عشرات الكتب والأبحاث في كشف زيفها والرد عليها. إن هناك نظريات كثيرة سادت بسلطان التغريب زمناً ثم

سقطت. فعلى الكتاب الذين يتصدرون اليوم أن يعرفوا هذه الحقيقة. إنهم سوف لا يستطيعون الصمودَ فوق المسرح وتحت الأضواء إلا زمناً قليلاً ثم ينكشف زيفهم. أما الكُتاب الصادقون فإنهم مهما عجزوا عن تسنم المنابر الضخمة والصحف الكبرى ، فإنهم معروفون بأعيانهم أن وجودهم في الظل هو علامة على قدرتهم على التمسك بالحق وصمودهم بعيداً عن مغريات الأضواء. إن الكاتب الذي يصطفيه الشباب المسلم هو القادر على أن يقول الحق ، وأن ينصح للأمة ، وأن يدل على الطريق الصحيح. وأن أخطر أخطاء الكتاب هو التعصب الخفي المستور وراء مظاهر المنهج العلمي ، بينما تبدو الأحقاد واضحة ليست في حاجة إلى من يكشف عنها. وأن أكبر أخطاء الكُتاب هو العجز عن النظرة الكلية والكلمة المُنصفة. إن الكاتب القادر على الإنصاف من النفس هو القادر على أن يكسب ثقة القارئ ، ليس من شأن الكاتب أن يجعل نظرته الذاتية قانوناً شاملاً. وليس من شأن الكاتب أن يتطرف إلى جانب أو يقف عند النظرة الجزئية. ليكن الكاتب مُنتمياً إلى أمته وفكرها وعقائدها. وليكن صادقاً في هداية قومه إلى الحق. ذلك أن الباطل مهما أسبغ عليه من صور العلمية أو بريق العبارة ، فإنه سوف ينكشفُ ويتعرى ، والشيء المصادم لطبائع الأشياء لا يدوم. إن كل دعوى إلى نظرية لا تندمجُ في العقيدة الأساسية للأمة سوف يرفضها هذا الفكر مهما حشد لها من قوى وأقلام كما يرفضُ الجسم الحي أي جسم أجنبي غريب. إن الكاتب الذي هو معقد المسؤولية والأمانة: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق. وهو الذي يتعصب للحق وحده ، وينكر ذاته وينكر التبعية عن أي صورة من صورها. ولا قيمة للكاتب الذي يفصل بين القيم فيعجز عن معرفة الصورة الكاملة ، ويجهل أبعاد القضايا. لا قيمة لكاتب بلا عقيدة كاملة ، تستطيع أن تضع كل شيء موضعه ، وتقف من كل الأمور موقفاً حاسماً. إن الكاتب بلا عقيدة كالربان الذي فقد اتجاه الريح ، وعلامات السماء ، لقد استطاعَ الفكرُ الوافدُ أن يخلق طبقة تقول أنني مشتغلٌ بالأدب فلا أعرف في العقائد أو المناهج ، بينما كل ما يعرض عليها في الفكر الغربي من وجودية أو علمانية أو مادية أو لا معقول له ارتباط كامل بكل قيم الإنسان. والمجتمع مؤثر فيها ، هادف إلى أحداث آثار بعيدة المدى بالقيم والعقائد. على الكاتب الذي يحمل أمانة هذه الأمة أن يكون قادراً على التحرر من التبعية الفكرية وأن يكافح من أجل تحرير فكره وأمته منها وأن يعرف أن المعرفة الإنسانية عامة وأنة العلم عالمي وأن العقائد والثقافات خاصة بكل أمة. وأن يؤمن بأن هذه الأمة لها رسالة مستمرة ما زالت تؤديها للبشرية. وأنه ليس من عمل الكاتب المسلم تبرير الواقع بل عليه أن يضع المعالجات لإصلاحه وأن يدعو إلى تغييره إذا تطلب التغيير. وأن يرد كل تغيير وإصلاح إلى الإطار الأصيل الذي يتحرك فيه الفكر الإسلامي العربي. وليؤمن الكاتب الذي يريد أن يكسب ثقة الشباب المثقف أن انبعاث الأمم إنما يستمد قوته من فكرها ومقوماتها وأن انبعاث المسلمين والعرب لن يكون من خارج مقومات فكرهم وعقائدهم. وأن الكاتب ليس بهلواناً جاء لإضحاك الناس وإرضاء غرائزهم وهدهدة أهوائهم ، ولكنه جاء ليصحح الأخطاء ويكشف الزيف ويضيء الطريق إلى الحق).هـ. ألا وإنني قد آليت على نفسي منذ كتبت الشعر أن أتناول القضايا المهمة وأرسخ للقيم والأخلاق في شعري ، وأن أتقي الله فيما أكتب ، لأن قلوب الناس وعقولهم أمانة يسألني الله عنها يوم القيامة! ومن هنا نفتتح هذه القراءة الأسلوبية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري لبيان ما ينبغي أن يكون عليه الشاعر والكاتب المسلم من خلق ومن أدوات وأسلوبية في التصدي لمحاولات التغريب والإقصاء وفرض التبعية الزائفة الفجة التي لا تختلف عن محاولات الأمس!

ماهية النقد الأسلوبي

إن النقد الأسلوبي يختلف كثيراً عن النقد الأدبي ، وإن كان واحداً من صوره ومواده وآلياته! حيث إنه يعنى بالأسلوب ويقوم على مبدأ الإحصاء لما يستخدمه الشاعر في الهداف الشعرية والألفاظ والمحسنات البديعية! ويعرّف النقد الأسلوبي في الأدب العربي ويُحدّد ما هيته الدكتور أنور غني الموسوي فيقول ما نصه: (إنه لا ريب أنّ الأدب انجاز إنساني رفيع ، افتتن به الإنسان منذ قديم الأزمان ، وبدأ يتحرك نحو أسراره الكبيرة ، وأسباب الإبهار والدهشة المتحققة به ، فكان النقد بأشكاله المختلفة وطرقه المتعددة متصديا لذلك. وكثيراً ما كان يصيب نقاطاً من الحقيقة حتى بالرؤية الانطباعية والذوقية العامة. لقد أجاب النقد الأدبي حتى في صوره البدائية عن تساؤلات مهمّة تخص الأدب وجمالياته ، وكان للبلاغة العربية وعلمي البديع والبيان بناءات شاهقة عملاقة في هذا الشأن ، نجد غيرها عاجزاً عن بلوغ تلك المباني. ورغم تطور الفهم الإنساني للغة وعوالم الدلالة ، إلا أنّ نظرية النقد بقيت غير مستقرة ، حتى ظهر اتجاهان متطرفان حديثان: الأول أدبية النقد الأدبي بأن يكون النقد نصّاً جمالياً فوق النص مليء بالعبارات الشاعرية والفنية لا يقيم ولا يصف حتى ، وفي تسمية هذا الشكل نقداً إشكال عريض. والاتجاه الثاني تذويب النقد في علم اللغة ، هذا العلم الذي يتفاخرُ البعض أنّه أول من سبر غوره واكتشف عوالمه ، إلا أنّ الكثيرين لا يعلمون أنّ المشتغلين بعلم أصول الفقه لديهم أبحاثٌ دقيقة وعميقة في علم اللغة والدلالة والإشارات والتفريق بين مستوى الفكر والوضع للغة ومستوى الاستعمال والكلام يمتد إلى مئات السنين. إنّ في أبحاث الأصوليين المسلمين كمّا هائلاً وعظيماً من التحليل الدقيق جداً لمستويات القول والكلام واللغة يفوق كل تصوّر حتى تصورات الألسنيين أنفسهم ، فهناك بحثٌ مطولٌ جداً عن الوضع وأقسام الوضع ونشأة اللغة وتصور الموضوع له ، والأصول اللفظية التي لا نجد لها أثراً أصلاً عند الألسنية المعاصرة والنقد المتكئ على علم اللغة. إنّ تعكّز النقد الحديث على علم اللغة الوصفي والألسنية الحديثة ارتكب خطأ فادحاً ، حينما اختزل الظاهر الأدبية في مفهومين ضيقين هما الخطاب والخرق ، فما عاد الأدب إلا اعتداء على القاعدة اللغوية ، واستعمال خارق للمعروف بين النوع ، ووضعت تحت عنوان فضفاض اسمه الأسلوبية. إن النقد الأسلوبي وإن كان يحقّق وصفاً جيداً لجانب مهم من عملية الإبداع ، إلا أنّه ينظر إليها من زاوية ضيقة بل وميتة ، كما أنّه يختزل العمل الإبداعي في هذا الجانب غير متعرض ، بل ولا مستوعب لجوانب جمالية كثيرة وكبيرة في لغة الإبداع وأساليبه ، بمعنى أن الأسلوبية لم تكن وفية لاسمها أيضاً إذا اقتصرت على جانب من الأسلوب وادعت أنها تدرس الأسلوب كله. ومع أن الأسلوبية تنقل النقد الأدبي إلى مكانه الصحيح بتخليصه من الأبحاث الخارجية كالنفسية والاجتماعية ، إلا أننا نرى أنّ تلك النقلة مهزوزة وغير واثقة ، لذلك نجد أحياناً أن هناك عودة إلى الغرق في الأبحاث الخارجية وخلط فظيع بين البحث الجمالي ومرتكزات الأسلوب ومبادئه العامة من ظروف وأحوال نفسية وتاريخية واجتماعية. ولو عدنا إلى تحليل دقيق عميق للنقد الأسلوبي فإنا نجده وبوضوح يهتم بالتوظيف الفني ، ولأنّه يرتكز على قواعد ومسائل علم اللغة العام والألسنية والتخاطب ، فإنه لا يستطيع أن يرى ذلك التوظيف إلا من جهة الأسلوب الخارق للقاعدة ، بينما الواقع ليس كذلك! فجماليات اللغة غير محصورة في أسلوب الخرق ، بل أحياناً يكون في توظيفٍ راقٍ للمعهود والمعروف ، وربما تكون تلك النتائج ناتجة عن تأثيرات الحداثة على النقد الأسلوبي. أما التوظيف الفني الذي هو أحد عوامل الإبهار فهو أوسع بكثير من أسلوبية النقد الأسلوبي

كما أن المدقق يجد أن الأسلوبية ليست في واقعها تتبع حر لمظاهر الإبداع الأسلوبية كلها ، وإنما يختصر بحثه على جزءٍ صغير من المظاهر الأسلوبية ، والتي يمكن تلمسها عن طريق علم الإشارات والعلامات والدلالة ، وأما غير ذلك من الأسلوبيات اللغوية فخارجة عن دائرة النقد الأسلوبي وأداوته ، وهذه هي المُعضلة والمُشكلة الأهم التي توجه النقد الأسلوبي ، لذلك ظهرت دعوات إلى التحرر من مستوى النص إلى ما بعد النص ، وفي الحقيقة هذه الحركة أيضاً قاصرة لأنّها محدودة في هذا الفضاء الضيق. إنه لا ريب في أنّ الإبداع هو شيء من التفرّد والأسلوب الخاص ، وتتبعه وتفسيره وقراءته تحتاج إلى أدوات واسعة بسعة التجربة الإنسانية ، لذلك يجب أن ينتقل النقد الأسلوبي من الأسلوبية الألسنية السائدة إلى الأسلوبية الإنسانية الكبيرة وتوظيفات اللغة الواسعة المنبثقة واللصيقة بالتجربة الإنسانية ، في نقد جمالي يقدم تفسيراً واقعياً لظاهرة الإبداع الأدبي يميز بين فنية الفن وعناصر جماليتها ومظاهر الإبداع الرسالية ، في غنى وثراء واضح تقف الألسنية والأسلوبية بصورتها الحالية مدهوشة ومبهورة تجاه عظمته).هـ. ولقد أصدرت الناقدة مديحة جابر السايح دراسة نقدية تحت عنوان: "المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي في مصر" في سلسلة "كتابات نقدية" التابعة للهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر. تقول الناقدة في مقدمتها للدراسة التي تقع في 466 صفحة من القطع المتوسط: "يعد المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي المعاصر حلقة في سلسلة متشابكة من التطورات الفكرية والأدبية والنقدية التي بدأت في مصر منذ عهد النهضة العربية الحديثة أوائل القرن العشرين ، وقد تأثر هذا التطور في مراحله كلها بالعلاقة مع الآخر ، أعني الثقافة الغربية ، تأثراً مباشراً أو غير مباشر". هذا وتحتوي الدراسة على مدخل وستة فصول ، المدخل يتحدث عن الأصالة العربية المعاصرة ، والحاجة إلى منهج نقدي جديد ، ووسائل تحقيق الأصالة العربية المعاصرة. ويتناول الفصل الأول قضايا التعرف ويشتمل على ثلاثة مباحث ، الأول عن مفهوم الأسلوب عند النقاد والأسلوبيين في مصر ، والثاني بعنوان: "تعريف الأسلوبية وعلم الأسلوب والنظرية الأسلوبية" ، والثالث تحت عنوان: "الأسلوبية بين العلم والمنهج". والفصل الثاني يلقي الضوء على المفاهيم الأساسية في الأسلوبية ، ويتناول مفهوم الاختيار ، الانحراف ، المتلقي ، السياق ، ومفهوم النص. أما الفصل الثالث فيحمل عنوان: "صلة الأسلوبية بالبلاغة العربية" ويحتوي على كيفية قراءة التراث البلاغي في ضوء الأسلوبية. ويقدّم الرابع خصائص الدراسات التطبيقية ويشتمل على مجالات الدراسة التطبيقية واتجاهات التحليل الأسلوبي. وأما الخامس فيدور حول رؤية التراث البلاغي ، ويقترح ملامح منهج في الدراسات الأسلوبية لإعادة قراءة التراث البلاغي العربي. ويناقش الفصل السادس قضايا المصطلح الأسلوبي. وورد في شبكة فصيح بعض التعليق على النقد الأدبي الأسلوبي ما نصه: (لقد تقدمتِ المناهجُ النقدية في عالمنا العربي تقدماً ملحوظاً ، وإن لم تكن قد وصلت إلى المستوى الذي وصلتْ إليه أوروبا ، بيد أن النقاد العرب قد شغفوا بها وأخذوا بلجامها في دراسة وتحليل وتقويم النص الأدبي. ومن هذه المناهج الفذة التي خدمت النصوص الأدبية وبلورت جمالياتها هي الأسلوبي. فماذا يقصد بالمنهج النقدي الأسلوبي أو "الأسلوبية"؟ ولنبدأ بالمنهج ، وهو كما عرفه الجيلالي: (طريقة موضوعية يسلكها الباحث في تتبع ظاهرة ، أو استقصاء خبايا مشكلة ما لوصفها أو لمعرفة حقيقتها وأبعادها ليسهل التعرف على أسبابها وتفسير العلاقات التي تربط بين أجزائها ومراحلها وصلتها بغيرها من القضايا ، والهدف من وراء ذلك هو الوصول إلى نتائج محددة يمكن تطبيقها وتعميمها في شكل

أحكام أو ضوابط وقوانين للإفادة منها فكرياً وفنياً). أما الأسلوب: ففي لسان العرب يقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والأسلوب الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول: أي أفانين منه. وعرف "ريافتير" الأسلوب بأنه: "كل شيء مكتوب وفردي قصد به أن يكون أدباً". ويعتبر شارل بالي الفرنسي النمساوي تلميذ دي سوسير "مؤسس المنهج البنيوي" من أوائل المؤسسين لهذا المنهج وتبعه جاكبسون الذي عرف الأسلوبية بأنها "البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً ، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً". وقد ألمح عبد القاهر الجرجاني إلى الأسلوب في نظرية النظم ، فالنظم عند الجرجاني هو الأسلوب ، ومن هذه النظرية بنى الأسلوبيون منهجهم الحديث "الأسلوبية" فأضحت بفضل الكثير من الملاحظات المتراكمة علماً خاصاً بدراسة جماليات الشعر والنثر. ولم يعد المنهج الأسلوبي يعتمد على الألفاظ وعلاقاتها بالجمل والتراكيب والقواعد النحوية فحسب بل "توسع مفهوم علم الأسلوب ليشمل كل ما يتعلق باللغة من أصواتٍ وصيغ وكلمات وتراكيب فتداخل مع علم الأصوات والصرف والدلالة والتراكيب لتوضيح الغاية منه ، والكشف عن الخواطر والانفعالات والصور ، وبلوغ أقصى درجة من التأثير الفني ، بل توسع أكثر من ذلك أخيراً ، واشتمل على علم النفس والاجتماع والفلسفة وعلوم أخرى شهدت دقة مناهجها ومدى صلاحيتها في إغناء المنهج الأسلوبي. ويقول غزوان: "وقد أدى الاهتمام بدراسة الأسلوب وتحليله لغوياً على وفق معايير لغته أو فنياً على وفق المعايير الفنية ، إلى ظهور ما يسمى بالأسلوبية اللغوية التي ترى أن الأسلوب قد يكون انزياحاً أو انحرافاً ، أو عدولاً عن السياق اللغوي المألوف في هذه اللغة أو تلك ، أو قد يكون تكرارا للمثال ، أو النموذج النصي الذي يهتم به الذوق العام أو قد يكون كشفاً خاصاً لبعض أصول اللغة ومرجعياتها ، ولا سيما في الوجه الجمالي للتعبير أو ما يسمى بالوجه البلاغي أو البياني". ومن هنا نستخلص بأن الأسلوبية إنما تعتمد اعتماداً كبيراً على الدراسات اللغوية التي تُمهد لدراسة النص الأدبي ، لأن الناقد الأدبي - على حد تعبير غزوان - قبل كل شيء يجب أن يكون لغويا جيداً لأنه "لا وجود لأي نص أدبي خارج حدود لغته". وهذا يدفعنا إلى أن الأسلوبية لا تكتفي البتة ببنية النص كما هي البنيوية ، بل تنظر إلى ما يحيط بها نظرة شمولية تهدف من وراءها إلى خلق جماليات النص الأدبي وتنويره للقارئ. هذا بالإضافة إلى علاقتها بالبلاغة العربية وما يعرف بالانزياح والتكرار والإيحاءات التي يستشفها الناقد من السياقات المختلفة. ويتحدد المنهج الأسلوبي وفق خمسة اتجاهات: الأول: الأسلوبية الصوتية: وهي التي تهتم بالأصوات والإيقاع والعلاقة بين الصوت والمعنى. والثاني: الأسلوبية الوظيفية: وتهتم بدراسة العدول أو ما يسمى بالانحراف أو الانزياح. وتقوم على مبدأين: أ- دراسة نصوص كثيرة تمثل أنواعاً أدبية مختلفة وأجناساً متعددة وعصوراً بغية الكشف عن الآليات التي تتحكم في تكوين الأسلوب الشعري. ب- الإفادة من نتائج علم النفس. فدراسة العمل الأدبي أسلوبياً تتطلب التحرك بمرونة قصوى بين الأطراف والمركز الباطني للنص ، والوصول إلى تلك النتائج يتطلب إعادة قراءة النص مراراً. والثالث: الأسلوبية التعبيرية: وكان رائدها بالي الذي شق الطريق للتفريق بين أسلوبين أحدهما ينشد التأثير في القارئ و الآخر لا يعنيه إلا إيصال الأفكار بدقة. وطور تلاميذه هذا الاتجاه عن طريق التوسع في دراسة التعبير الأدبي ، فالكاتب لا يفصح عن إحساسه الخاص إلا إذا أتيحت له أدوات ملائمة ، وما على الأسلوبي إلا البحث عن هذه الأدوات. والرابع: الأسلوبية الإحصائية: تقوم على دراسة ذات طرفين ، أولهما: هو التعبير بالحدث ، و الثاني هو

التعبير بالوصف ، ويعني بالأول الكلمات أو الجمل التي تعبر عن حدثٍ ما ، وبالتالي الكلمات التي تعبر عن صفة ، ويتم احتساب عدد التراكيب و القيمة العددية الحاصلة تزيد أو تنقص تبعاً لزيادة أو نقص عدد الكلمات الموجودة في هذه التراكيب ، وتستخدم هذه القيمة في الدلالة على أدبية الأسلوب والتفريق بين أسلوب كاتب و كاتب. فمثلاً كتاب "الأيام" لطه حسين تبين مثلاً أن نسبة الجمل الفعلية إلى الوصفية 39% في حين أن نسبة تكرار هذه الجمل في كتاب "حياة قلم" للعقاد لا تتعدى 18% ، ومعنى ذلك أن كتاب الأيام أقرب إلى الأسلوب الانفعالي والحركي من كتاب العقاد الذي يميل فيه إلى الطابع الذهني العقلاني. والخامس: الأسلوبية النحوية: وتهتم بدراسة العلاقات والترابط والانسجام الداخلي في النص وتماسكه عن طريق الروابط التركيبية المختلفة ، ومن هذه العلاقات: استخدام الضمائر والعطف والتعميم بعد التخصيص... وهذه العلاقات يلجأ إليها الكاتب لتنظيم جملة بعضها إلى جانب بعض مما يؤدي إلى تماسكها وترابطها. وعلى هذا فإن الأسلوبية تواصل تأملها لعالم النص عن طريق القراءة المتعددة الوجوه ، وتتحدد هذه الاتجاهات بعضها مع بعض في كيان عضوي يجذب القارئ ويستثير تساؤلاته. يقول غريماس:"ثمة ما يبرر للتكرار وجوده ، أنه يسهل استقبال الرسالة". ويقول عياشي:"غير أن وظيفة التكرار لا تقف عند هذا الحد ، ذلك لأنها تخدم النظام الداخلي للنص ، وتشارك فيه ، وهذه قضية هامة لأن الشاعر يستطيع بتكرار بعض الكلمات أن يعيد صياغة بعض الصور من جهته كما يستطيع أن يكشف الدلالة الإيحائية للنص من جهة أخرى". هذا بالنسبة إلى ذات النقد ، أما بالنسبة إلى المنهج المتبع وهو المنهج الأسلوبي فإنه يعيد لنا نشوة التراث حيث "نظرية النظم" عند عبد القاهر الجرجاني ، فقد دعا إلى النظرة الشمولية التي تمكن القارئ من الوقوف على جماليات النص الأدبي ، فلا يستطيع القارئ الحكم على النص من قراءة بيتٍ أو عدة أبيات ، وإنما يقتضيه النظر والتأمل في القطعة الأدبية بكاملها. ومن هنا يستطيع أن يتبين المزايا التي تجعله يقف على ما في النص من براعة النقش وجودة التصوير والتعبير. فلا مزية للألفاظ – عند الجرجاني - من غير سياق ولا تفاضل بينها ، وإنما تأتي مزيتها وأهميتها من خلال علاقة اللفظة بما سبقها من ألفاظ وما يليها من ألفاظ. فاللفظة لا يمكن أن توصف إلا باعتبار مكانها في النظم. وهذه من الأدلة التي يستند عليها الأسلوبيون في منهجهم النقدي. وبنظرة أكثر شمولية ينفرد "حازم القرطاجنّي" بتميزه عن غيره من أهل النظر في علوم البيان والبديع. فهو أول من قسم القصيدة العربية إلى "فصول" ، وأول من أدرك الصلة الرابطة بين مطلع القصيدة وآخرها الذي يحمل في ثناياه الانطباع الأخير والنهائي عن القصيدة. وبناؤه لهذه النظرة على الاستهلال والخاتمة قائم على أسس نفسية تراعي شعور القارئ ونمو التأثير العاطفي والوجداني فيه ، فمن طبيعة القارئ الإحساس والتجاوب مع المشاعر المتجانسة التي تفيض في جوٍ أو مناخ خال من التقلبات العاطفية". وتلتقي نظرة القرطاجني في تقسيمه للقصيدة إلى "فصول" مع نظرة الأسلوبيين المعاصرين في تقسيمهم النص الأدبي – بغض النظر عن جنسه - إلى "أبنية" ، فما "البنية" إلا مصطلح مقابل لما أسماه القرطاجني بالفصل حين قصد به: التقاء أبيات القصيدة وترابطها مؤلفة وحدة معنوية. لذا من الرائع بل من الأروع أن نجمع بين تلك المناهج النقدية قديمها وحديثها ، ونأخذ منها ما نراه من نظرةٍ فاحصة أنها ستخدم النص الأدبي وتكسيه حلة جديدة ، وتعطي كل ذي حق حقه سواء كان من جهة المبدع أو النص أو المتلقي أي (المرسل ، والرسالة ، والمرسل إليه). أي بذات المماثلة).هـ. وفي قسم الدراسات العربية بجامعة القاضي عياض في مراكش كانت هناك

دراسة مطولة عن المنهج الأسلوبي ، جاء في بعض سطورها ما نصه: (تعد الأسلوبية من المناهج النقدية الحديثة التي تركّز على دراسة النص الأدبي ، معتمدة على التفسير والتحليل ، وهي تمثل مرحلة متطورة من مراحل تطور الدرس البلاغي والنقدي ، فقد استطاعتِ الأسلوبية أن تتجاوز حالة الضعف والقصور الموجودة في البلاغة العربية لتمثل منهجاً حديثاً في التحليل والنقد ، فهي تتجاوز الدراسة الجزئية أو الشكلية إلى دراسة أعمق وأشمل. والأسلوبية تركز - بحكم نشأتها - على اللغة أساساً في تحليل النص ودراسته ، عندما تكشف عن جوانب الخصوصية والتميز في اللغة ، فإذا كان اللغوي يدرس ما يقال ، فإن الأسلوبية تدرس كيفية ما يقال ، ويوجد فارقٌ شاسعٌ بين الدراسة اللغوية والدراسة الأسلوبية ، صحيح أن الدراسة الأسلوبية اعتمدت في نشأتها الأولى على تطور الدرس اللغوي ، واستفادت منه ، ولكنها حددت مسارها – فيما بعد – في دراسة الظواهر اللغوية في النص الأدبي وتحليلها ، واستطاع دارسو الأسلوبية أن يوظفوا الدراسات اللغوية توظيفاً نقدياً وبلاغياً. واستطاعت الأسلوبية أن تتفوق في دراستها اللغوية على الدراسات النقدية القديمة التي كانت تعتمد على دراسة اللغة باعتبارها وسيلة لشرح النص ، وتبسيط معانيه ، وصولاً إلى الفكرة الأساسية فيه ، ولم يلتفت اللغويون قديماً الى القيمة الفنية للغة ، وقدرة المبدع على الخروج عن القواعد الأساسية للغة! أو ما نسميه باللغة المِعيارية المباشرة ، الى اللغة الفنية التي يتشكل منها النص الأدبي ، الأمر الذي انعكس سلباً على تقييم الصورة الفنية ومحاولة فهما. أما الأسلوبية ، فإنها تتعامل مع لغة النص وسيلة لفك رموز اللغة في النص ، بما ينعكس بشكل واضح على تحليل جوانب الإبداع فيه ، وعلاقتها بالمبدع ، خصوصية الإبداع في الظواهر اللغوية المستخدمة. وقراءة النص الأدبي قد تكون قراءة أسلوبية نقدية ، وذلك عندما تتعامل مع التراكيب الجمالية والفنية الموجودة فيه ، والتعامل مع التراكيب اللغوية للوصول إلى الدلالات ، واستخراج المعنى ، ليصل الناقد بذلك إلى دراسةٍ واعيةٍ للنص. وإذا كان النقد القديم لم يُرَكز على لغة النص ، وتعامل معه من خلال محيطه الخارجي ، والعوامل المؤثرة فيه ، وعلاقته بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، والظروف الخاصة لمؤلفه ، فإن النقد الحديث ، ومن خلال تطور الدراسات اللغوية ، ركز بشكل أعمق على العلاقات الداخلية في النص ، التي أساسها اللغة ، وتحليل اللغة يعني تحليل النص ، لأنه لا يمكن أن تتشكل رؤية نقدية حول النص إلا من خلال فهم مكوناته ، وما تتميز به هذه المكونات من خصوصيات تفرض نفسها على النص أولاً ، وعلى الناقد ثانياً. ويمتاز منهج النقد الأسلوبي بالموضوعية وغياب ذاتية الناقد ، لأن الناقد يتعامل مع مفردات النص ولغته ، ويصدر حكمه على هذه المكونات التي يتشكل منها النص دون أن يلتفت كثيراً إلى صاحب النص. فالنص نثراً أو شعراً هو الذي يوضعُ تحت المجهر للدراسة والتحليل ، بهدف الوصول إلى المعنى المقصود أو المراد بطريقة صحيحة تسمح لقارئ النص أن ينتقل من المعنى المباشر إلى المعنى الغائب الذي يهدف كاتب النص إلى إيصاله للمتلقي بطريقة تحدث فيه هزة التفاعل مع هذا المعنى ، بعد أن يكتشف بنفسه هذا الغائب الذي هو جوهر العملية الإبداعية ، والغرض الذي من أجله وجد النص أصلاً. وتعتمد الأسلوبية دراسة الظواهر اللغوية في النص الأدبي ، ومحاولة تفسيرها ، فمثلاً اذا أكثر صاحب النص من استخدام ضمير الجماعة (نحن) ، فهذه ظاهرة أسلوبية تستوقف الدارس محاولاً تفسيرها وإيجاد علاقة لها بالمعنى العام في داخل النص ، وكذلك ظواهر لغوية محددة مثل أفعال الأمر ، النهي ، أساليب الاستفهام ، النداء ، التمني ، وهكذا. وتقوم الدراسة الأسلوبية

على إحصاء هذه الظواهر اللغوية بهدف تحليلها ، وليس لمجرد إحصائها. وإذا كانت الدراسة الأسلوبية تعتمد الإحصاء وسيلة لكشف الظواهر اللغوية في النص ، فإن بعض الدارسين يقع في إشكالية الوقوف عند الإحصاء كهدفٍ وليس وسيلة ، الأمرُ الذي يخرج الدراسة الأسلوبية عن مسارها الصحيح).هـ. ولقد اعتمدتُ في دراستي الأسلوبية عن شعر الصحابي الجليل حسان بن ثابت على الأشعار المُوَثقة له ، ولم أتخيرْ ما عليه الخلاف أو ما ليس له به علاقة من الشعر المنحول الضعيف الركيك الذي نسِب إلى حسان زوراً وبهتاناً! وهناك قصة مكذوبة منتشرة في إسلام حسان بن ثابت ، وفيها قصيدة مطلعها: (لما رأيت إلى أنواره سطعت)! حيث أعطى كفارُ قريش الشاعر حسان بن ثابت مبلغاً من المال وذلك قبل إسلامه ، وذلك ليهجوَ النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف حسان على ربوة ينتظرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي لينظر إلى صفةٍ من صفاته فيهجوه بها ، ومرّ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مرّ جميل الشيم ، مرّ مصباح الظلم ، فلما رأه حسان رجع إلى قريش فرد لهم المال ، وقال: هذا مالكم ليس لي فيه حاجة! وأما هذا الذي أردتم أن أهجوهُ اللهم إني أشهدك أني أشهد أنه رسول الله. فقالوا: ما دهاك؟ ما لهذا أرسالناك؟ ، فأجابهم بقوله:

لما رأيت إلى أنــواره سطعـــــــتْ وضعتُ مِن خِيفتي كفي على بصري

خوفاً على بصري من حسن صورتـه فلستُ أنظره إلا على قـــــــــدري

روحٌ من النـــور في جسم من القمر كحليةٍ نسجت من الأنجــم الزهـــر

وهذا الكلام كذب لا أصل له في دواوين الإسلام المعتبرة ولم يذكره أحد من أئمة الإسلام. إنما ذكرها بعض القصَّاصِين في مُحاضرةٍ له ، وأنشدها المدعو إدريس بن أبكر! وأفادنا بعض الناس أن الأبيات المذكورة موجودة في موقع (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) للأسف ، في ترجمة الشاعر محمد بن عبد الله سعاد الصوفي على الطريقة القادرية)! والمولود عام 1861 م في بلدة فوتاطور بالسنغال ، وله قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مذكورة في الموقع ، ومن ضمنها الأبيات المنسوبة لحسان بن ثابت رضي الله عنه! والأبيات لا تناسبُ شعر حسان رصي الله عنه ، وحسان صحابي أنصاري مدني لم يلتق كفار قريش قبل إسلامه ، ولم يكن من أهل مكة أصلاً! فقبح الله واضع هذه الحكاية على الصحابي الجليل رضي الله عنه! فهذا الخبر كذبٌ كما تقدم ، لا يجوز نشره بين المسلمين إلا لبيان أنه مكذوب موضوع).هـ. ونحن نورده هنا لبيان زيفه وكذبه! ونبين كذلك ما به من رَكاكة ، فإن شعرَ حسان أرقى وأسلوبيته أسمى بكثير من هذا المستوى!

ترجمة حسان بن ثابت

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واحد في ألوهيته ، وواحد في ربوبيته ، وواحد في أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعي التابعين أجمعين. وبعـد: إن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، خلق الإنسان ، وخلق الملائكة ، وخلق الليل والنهار ، وهو كما قال عز وجل: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ). فاختار الله تبارك وتعالى مَن فضَّله على غيره من مخلوقاته. فاختار الأنبياء والرسل – عليهم صلوات الله وتسليماته - ، واصطفاهم عن سائر خلقه لمهمة البلاغ عن ربهم ، واختار منهم أولي العزم ليكونوا الصفوة منهم ، واختار محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليكون أفضل أولي العزم من الرسل ، وفضَّله على سائر البشر ، وفضَّل بعض النبيين على بعض. واختار البلد الحرام مكة المكرمة ، وفضلها على جميع الأرض. واختار جبريل عليه السلام وفضَّله على جميع الملائكة. واختار أصحاب محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفضلهم على جميع الأمة. واختار من الأزمان كما اختار من الأمكنة ، فاختار الشهر العظيم - شهر رمضان - وفضله على سائر الأيام والشهور. واختار – أيضاً - من هذا الشهر العشر الأواخر. واختار سبحانه من العشر ليلة القدر ، فليس في ليالي السنة ليلةٌ هي أفضل من ليلة القدر ، وليس هناك من ليالٍ هي أفضل من الليالي العشر. وأما الأيام ؛ فإن أفضل أيام العام أيام العشر الأول من شهر ذي الحجة ، فتلك أفضل الليالي وهذه أفضل الأيام ، كما رجح ذلك بعض العلماء الأجلاء ، ومنهم شَيْخ الإِسْلامِ ابن تيمية - رحمه الله - جمعاً بين الأقوال في التفضيل. وذلك أن لهذه الليالي من ليالي رمضان فضل عظيم اختصت به من حيث العبادات ، كما أن أيام الحج امتازت عن سائر الأيام بكثير من العبادات (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار). والله تبارك وتعالى جعل الليل والنهار يتعاقبان كما قال: (خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) ، فالإنسان يتبلد إحساسه ويغفل ، إذا كان على حالة واحدة ، فإذا تغيرت الحالة بحالة أخرى ، كان ذلك أدعى إلى أن يفكر ويستيقظ وينتبه! وجعل الله تبارك وتعالى فصلاً للحر ، وفصلاً للبرد ، وبين ذلك فصلان ؛ لكي يتذكر الإنسان. قال تعالى: (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ)! فهذه ذكرى حاضرة ، ثم قال: (أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) ، أي: أن يشكر الله تبارك وتعالى ، والشكر يشمل جميع العبادات والطاعات. والإنسان لو تأمل في أمر واحد من هذه الأمور لكفى ، فلو أن الخلق تأملوا في طلوع الشمس وفي غروبها ، وفي إدبار الليل وإقبال النهار ، لكفاهم ذلك ، ولكانت ذكرى وأيما ذكرى. لكن القلوب إذا تعودت شيئاً غفلت عنه ونسيته ، فقليل من الناس من يُفكر ويعتبر بمرور الليل والنهار ؛ لماذا؟! لأنه أمر متكرر! ولكن أولياء الله وعباد الرحمن ، ومن كان قلبه معلقاً بالدار الآخرة لا تزيدهم إلا عبرة وعظة ، فتتجدد لهم العبر والعظات بتجدد الليالي والأيام. فما هذه الأيام والليالي إلا رواحل ، تنقلنا من دار إلى دار ، وتقربنا من دار هي الدار الآخرة ، وتباعدنا عن هذه الدار الدنيا ، لكن من الذي يستشعر ذلك؟! وكما قال بعض السلف: الأيام والليالي خزائن ، فضع في خزينتك ما شئت ، فسوف تلقاه. فإن وضعت ذهباً وفضة ، وجدت النهاية هناك ذهباً وفضة ، وإن وضعت تراباً أو فحماً أو حصىً ، وكذلك فإن الخزائن هناك إذا فتحت تجد فيها ما وضعت ، فهذه الليالي والأيام هي بهذه المثابة. وإن الله

تبارك وتعالى قد فضَّل هذا الشهر على سائر الشهور ، وكان أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهم أكثر الأمة اجتهاداً وعبادةً واعتباراً واتعاظاً - يقدرون لهذا الشهر قدره ؛ تأسياً واقتداءً بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. واختار الله تعالى أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – لصحبة نبيهم والبلاغ عنه لمن بعدهم! واختار الله من التابعين صفوة تتلقى عن الصحابة وتنقل لغيرهم! واختار الله من تابعي التابعين صفوة تتلقى عن التابعين وتنقل لغيرهم! إلى أن بلغنا ذلك الدين نقياً صافياً ليس فيه خللٌ ولا عيبٌ ولا نقص! واختار الله من العلماء في عمومهم صفوة تثبت في إيمانها وعقيدتها وتصدق مع الله لتثبت للطواغيت أن دين الله أغلى من حياتهم! واختار الله تعالى من بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم صفوة منهم يُجيدون الشعر ويوظفونه في الذود عن الله ورسوله والإسلام! وكان من الذؤابة في هذه الصفوة بلا منازع حسان بن ثابت الأنصاري! نعم كان في الذؤابة ديناً وشعراً وحسباً ونسباً! فأما عن نسبه: هو أبو الوليد حسان بن ثابت من قبيلة الخزرج ، التي هاجرتْ من اليمن إلى الحجاز ، وأقامتْ في المدينة مع الأوس. ولد في المدينة قبل مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنحو ثماني سنين ، فعاش في الجاهلية ستين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة أخرى ، وشب في بيت وجاهة وشرف ، منصرفًا إلى اللهو والغزل ، فأبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي ، من سادة قومه وأشرافهم ، وأمه الفريعة خزرجية مثل أبيه وحسان بن ثابت ليس خزرجيًّا فحسب ؛ بل هو أيضًا من بني النجار أخوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فله به صِلة وقرابة. وأما عن حياته قبل الإسلام ، فكانت المدينة في الجاهلية ميدانًا للنزاع بين الأوس والخزرج ، تكثُرُ فيها الخصوماتُ والحروب ، وكان قيسُ بن الخطيم شاعرَ الأوس ، وحسان بن ثابت شاعرَ الخزرج ، الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، فصارت له في البلاد العربية شهرةٌ واسعة. وقد اتصل حسان بن ثابت بالغساسنة يمدحهم بشعره ، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل أعطيات بني غسان ، وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارفة الظلال ، ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها النعمان بن المنذر ، فحلَّ محلَّ النابغة ، حين كان هذا الأخير في خلاف مع النعمان ، إلى أن عاد النابغة إلى ظل أبي قابوس النعمان ، فتركه حسان مكرهًا ، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه ، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه ، ولقد كان أداؤه الفني العظيم فيشعره يتميز بالتضخيم والتعظيم ، واشتمل على ألفاظ جزلة قوية ، وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد - صلى الله عليه وسلم – نبي الإسلام ، والمناضَلة دونه بسلاحَي مَدْحِه وهجائه. فأما عن حياته في الإسلام ، فالحقيقة أنه لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره ، وسمع بالإسلام دخل فيه ، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة ، ويدافع عن محمد والإسلام ، ويهجو خصومهما. كان النبي - صلى الله عليهوسلم - يثني على شعر حسان ، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل: - اللهم أيده بروح القدس - ، وعطف عليه وقرَّبه منه ، وقسم له من الغنائم والعطايا. وكان حسان بن ثابت لا يقوى قلبُه على الحرب ، فاكتفى بالشعر ، ولم ينصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم – بسيفه ، ولم يشهد معركةً مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا غزوةً. وأما عن أغراض شعره ، فإن أكثر شعر حسان كان في الهجاء ، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمداً - صلى الله عليه وسلم - والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام ، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي

اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّرالإيمانُ قلوبَ الشعراء ، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة. فإن كلاً منها يعبر عن موضوع واحدٍ ؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم. وأما عن شخصيته الشعرية وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام ، هي: شعره القبلي قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام ، كان منصرفًاً إلى الذَّود عن حِياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة الفخر ، أما الداعي إلى ذلك فالعَداءالذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس. ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا. ارتباطه بالغساسنة اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيرًا من أمراء غسان ، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم ، وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوا له مرتبًا سنويًّا ، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره! وليس بدعاً من الشعراء ، بل كلهم كذلك:

يسقون من ورد البري عليهم بردى يصفق بالرحيق السلل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول

ومنذ دخوله الإسلام نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء ؛ بل للدفاع عن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم - وهذا ينقسم لقسمين: أما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد ، فهو مقصورعلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه وكبار الصحابة ، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا ، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَّة والعقيدة النفيسة ، قال حسان:

نبيٌ أتانا بعد يـــأس وفتـــــــرة من الرسْل والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سراجًـــا مستنيـــرًا وهاديًا يلـــوح كما لاح الصقيل المهنـــد

وأنذرنا نارًا وبشـــــر جنـــــة وعلمنا الإسلام ، فالله نحمـــــــد

وأنت إله الخلـــــــق ربي وخالقي بذلك ما عمـــرت في الناس أشهد

ويلحقُ بهذا المدح رثاء محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - فقد ذرف الشاعر دموعًا حارة ، وضمنه لوعة وتذكرًا لأفضال رسول الدين الجديد ، وحنينًا إليه في النعيم: مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذلك اليوم أسعى وأجهد. وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا فيوجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد - صلى الله عليه وسلم – من نسب. وأما أسلوب حسان في الهجاء فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل

والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. واستمر على ذلك إلى أن توفي في المدينة المنورة سنة (54 هـ = 674 / 673 م) في عهد معاوية بن أبي سفيان عن عمر قد ناهز المائة والعشرين عامًا). وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي محمد بن عبد الله.
وأهدى لهُ النبي محمد جارية قبطية قد أهداها لهُ المقوقس ملك القبط واسمها سيرين بنت شمعون فتزوجها حسان ، وأنجبت منهُ ولدهُ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وحسن إسلامها وهي أخت زوجة الرسول مارية القبطية. ولقد سجلت كتب الأدب والتاريخ الكثير من الأشعار التي ألقاها في هجاء الكفار ومعارضتهم ، وكذلك في مدح المسلمين ورثاء شهدائهم وأمواتهم. وأصيب بالعمى قبل وفاته ، ولم يشهد مع النبي مشهدًا لعلة أصابته ويعد في طبقة المخضرمين من الشعراء لأنه أدرك الجاهلية والإسلام. وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه ، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه ، ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم ، واشتمل على ألفاظ جزلة قوية ، وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد نبي الإسلام ، والمناضَلة دونه بسلاحَي مَدْحِه وهجائه. لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره ، وسمع بالإسلام ، دخل فيه ، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة ، ويدافع عن محمد والإسلام ، ويهجو خصومهما.. قال يومًا للأنصار: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟!" فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء".» ، ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء ؛ بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صَحَّ إسلامهم ، وكان النبي يثني على شعر حسان ، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل: "اللهم أيده بروح القدس" ، وعطف عليه وقرَّبه منه ، وقسم له من الغنائم والعطايا ، إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشًا بالكفر وعبادة الأوثان ؛ وإنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها ، ويُعيرهم بالمثالب والأنساب ، ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغًا. ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظى بمنزلةٍ رفيعةٍ ، يُجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه ، فإننا لا نجد في خلافةِ أبي بكر - رضي الله عنه - موقفًا خاصًّا من الشعر ، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم ، في حين نجد أن عمر بن الخطاب يحب الشعر ، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى ، وقد روِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشدَين عددٌ من الأبيات. قال رسول الله : «"اهجُ قريشًا ، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل" ، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم" ، فهجاهم فلم يُرْضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل عليه ، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنَبه ، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه ، فقال: والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم. فقال رسول الله: "لا تعجل ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبًا ، حتى يلخص لك نسبي" ، فأتاه حسان ، ثم رجع فقال: يا رسول الله ، قد لخص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله" ، وقالت: سمعتُ رسول الله يقول: "هجاهم حسان ، فشفى واشتفى".» ، اشتهرتْ مدائحُه في الغسانيين قبل الإسلام ، ومن أشهر ما وصلنا من تلك القصائد لاميته التي جاء فيها:

لله درّ عصابـــــةٍ نادمتهـــــــم يوماً بجِلَّقَ في الزمــان الأولِ

أولاد جفنة حول قبـــــر أبيهمُ قبر ابن مارية الكريـم المفضلِ

يسقون من ورد البريص عليهمُ برَدى يصفّق بالرحيق السلسلِ

بـِيضُ الوجوه كريمـةُ أحسابهم شمَ الأنوف من الطــراز الأولِ

يغشون حتى ما تهـــــرّ كلابهم لا يسألون عن الســواد المقبلِ

يؤكد الناقدون أن ما نظمه حسان بعد إسلامه افتقر إلى الجزالة وقوة الصياغة التي كانت له في الجاهلية. ولكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الحيوية والرقة والسلاسة ، ويتوهج من حين إلى آخر بتدفق عاطفي يكشف عما في قلبه من دفءٍ وحرارة. ويتفقُ النقادُ على أن أساليب حسان بن ثابت بعد إسلامه قد سلمت من الحوشية والأخيلة البدوية ، ولكن خالطها لين الحضارة ، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة اللفظ وفخامة المعنى والعبارة كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي ورسالته ومعارضته المشركين وهجومهم. ويقول الناقد محمد مصطفى سلام: "لقد غلبت على أساليب حسان الشعرية الصبغة الإسلامية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته ولطيف كناياته ، وضرب أمثاله ، واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين ، كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال ، واكثر ما نرى ذلك في شعر الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه ، وتهجين عبادة الأوثان ، ووصف الشعائر الإسلامية وذكر مآثرها وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين وبعض ما مدح به الرسول أصحابه أو رثاهم به." ، وقال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمانيين في الإسلام. وقال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان فإنهم يعدون ستةً في نسق كلهم شاعر وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام. ونظرًا لمكانته كشاعر الرسول ، فقد لقي حسان بن ثابت من نحل الأبيات والقصائد على لسانه ما لم يلقه كثير من الشعراء ، كما أدت المنافسة بين قريش والأنصار في عهد بني أمية ، ثم الصراع بين القبائل اليمانية (الذين منهم الخزرج قوم حسان) والقيسية إلى المزيد من القصائد المختلقة على لسانه. وقد أشار إلى ذلك النقاد الأولون! يقول ابن سلام الجمحي: "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضدت قريش واستبت ، وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى." وقد حذف ابن هشام من سيرة ابن اسحاق خمس عشرة قصيدة منسوبة إلى حسان ، عشر منها قد وردت في ديوانه ، ويقدّر أحد الباحثين المعاصرين نسبة الأشعار المنحولة في ديوان حسان بن ثابت بما بين 60 و 70%. وله قصيدة مشهورة جداً ، وهي أشهر من نار على علم كما يقولون ، وهي:

عفتْ ذاتُ الأصابـعِ فالجـــواءُ إلـى عـــــذراءَ منـزلـها خـلاءُ

ديارٌ منْ بَنِـي الحسحـــاسِ قفرٌ تعفيهـا الـروامـــسُ والسمـاءُ

وكانـتْ لا يـزالُ بِهـا أنيـــــسٌ خـلالَ مروجهـا نعمٌ وشـــــاءُ

فدعْ هـذا ، ولكـن منْ لطيـــفٍ يـؤرقنِـي إذا ذهـبَ العشـــــاءُ

لشعثـاءَ التـي قـدْ تيـمتـــــــهُ فليسَ لقلبـهِ منهـا شـفـــــاءُ

كـأنّ سبيئـــــةً مـن بيتِ رأسٍ ... يكـونُ مزاجهـا عسلٌ ومـــــاءُ

عَلى أنيابـها ، أو طعمَ غـــضٍّ ... مـنَ التفـاحِ هصـــــرةُ الجنـاءُ

إذا ما الأسربـاتُ ذكـــــرنَ يومًا ... فهـنّ لطيـبِ الـــــراح الـفـداءُ

نوليهـا الـملامـــــةَ ، إنْ ألـمنـا ... إذا ما كـانَ معتٌّ أوْ لـحـــــاءُ

ونشربـها فتتركنـا ملـوكـــــًا ... وأسدًا مـا ينهنهنـا اللـقـــــاءُ

عدمنـا خيلنـا ، إنْ لَـم تروهـــــا ... تثيـرُ النقـعَ ، موعدهـا كـــــداءُ

يبـارينَ الأسنـةَ مصعـــــــداتٍ ... عَلى أكتافهـا الأسلُ الظمـــــاءُ

تـطـلُّ جيـادنـا متمطـــــــراتٍ ... تلطمهـنّ بالخمـرِ الـنســـــاءُ

فإمـا تعرضـوا عنـا اعتمرنـــــا ... وكانَ الفتحُ ، وانكشـفَ الغطـاءُ

وإلا ، فاصبـروا لـجـــــلادِ يـومٍ ... يـعزُّ اللهُ فيـهِ مـنْ يـشـــــاءُ

وجبـريـلُ أميـنُ اللهِ فـينـــــا ... وروحُ القدسِ ليسَ لهُ كفـــاءُ

وقالَ اللهُ : قـدْ أرسلـتُ عبـــدًا ... يقـولُ الحـقَّ إنْ نفـعَ البـــلاءُ

شهـدتُ بـهِ فقومـوا صدقـــوهُ ... فقلتـمْ : لا نـقـومُ ولا نشـــاءُ

وقالَ اللهُ : قـدْ يسرتُ جنـــدًا ... همُ الأنصـارُ ، عرضتـها اللقـاءُ

لَنَـا فِي كـلّ يـومٍ مـنْ معـــــدٍّ ... سبـابٌ ، أوْ قتـالٌ ، أوْ هجـــاءُ

فنحكمُ بالقَوافِـي مـــــنْ هجانـا ... ونضربُ حينَ تَختلـطُ الدمـــاءُ

ألا أبـلـغْ أبـا سفيـــــانَ عنِّـي ... فأنتَ مجـــــوفٌ نَخبٌ هـواءُ

بـأنّ سيوفنـا تركتـكَ عبـــــدًا ... وعبـدَ الـدارِ سادتـها الإمـــــاءُ

هجوتَ محمـدًا ، فأجبـــتُ عنـهُ ... وعنـدَ اللهِ فِـي ذاكَ الـجـــــزاءُ

أتَهجوهُ ، ولستَ لـــــهُ بكـفءٍ ... فشركمـا لخيـركمـا الفـــــداءُ

هجوتَ مباركًا ، بـرًا ، حنيفـــًا ... أمينَ اللهِ ، شيمـتـهُ الوفـــاءُ

فمنْ يهجـو رســـولَ اللهِ منكـمْ ... ويَمـدحـهُ ، وينصـرهُ ســـواءُ

فـإنّ أبِـي ووالـــــدهُ وعرضـي ... لعرضِ محمدٍ منكـمْ وقـــــاءُ

فـإمـا تثقفنّ بـنـو لـــــــؤيٍ ... جذيـمـةَ ، إنّ قتلهـمُ شفـــــاءُ

أولئـكَ معشـرٌ نصـــــروا علينـا ... ففـي أظفـارنـا منهـمْ دمـــــاءُ

وحلفُ الحـارثِ بن أبِي ضـــرارٍ ... وحلـفُ قـريظـةٍ منـا بـــــراءُ

لسانِـي صـــــارمٌ لا عيبَ فيـهِ ... وبَـحـري لا تكـــــــدرهُ الـدلاءُ

ولقد اتفق الرواة والنقَّاد على أن حسان بن ثابت أشعر أهل المدر في عصره ، وأشعر أهل اليمن قاطبةً ، وقد خلف ديوانًا ضخمًا رواه ابن حبيب ، غير أن كثيرًا من الشعر المصنوع دخله للأسف ؛ لأنه لما كان لحسان بن ثابت موقف خاص من الوجهة السياسية والدينية ، دُسَّ عليه كثير من الشعر المنحول ، وقام بهذا العمل أعداء الإسلام ، كما قام به بعض كُتاب السير من مثل ابن إسحاق. وأكثر شعر حسان في الهجاء ، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام ، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّر الإيمان قلوبَ الشعراء ، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة. فإن كلاًّ منها يعبر عن موضوع واحد ؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم ، وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام ، هي: أولاً: شعر حسان بن ثابت القبلي: قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام كان منصرفًا إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة الفخر ، أما الداعي إلى ذلك فالعَداء الذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس ، ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا. ثانياً: ارتباط حسان بن ثابت بالغساسنة: اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيرًا من أمراء غسان ، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم ، وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوا له مرتبًا سنويًّا ، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول

ثالثاً: بعد دخول حسان بن ثابت الإسلام: نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء! بل للدفاع عن الرسول الكريم وهذا ينقسم لقسمين: 1- المدح: نجده في شعر حسان لهذا العهد ، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة ، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا ، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَّة والعقيدة النفيسة ، قال حسان – رضي الله تعالى عنه -:

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سراجًا مستنيرًا وهاديًا يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا نارًا ، وبشر جنة وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد

وأنت إله الخلق ربي وخالقي بذلك ما عمرت في الناس أشهد

ويلحق بهذا المدح رثاء محمد فقد ذرف الشاعر دموعًا حارة ، وضمنه لوعة وتذكرًا لأفضال رسول الدين الجديد ، وحنينًا إليه في النعيم:

مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذلك اليوم أسعى وأجهد

وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا ، وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد – صلى الله عليه وسلم - من نسب. 2- الهجاء: فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. توفي حسان بن ثابت في المدينة ما بين عامي 35 و40 هـ في عهد علي بن أبي طالب عن عمر ناهز المائة والعشرين عامًا. ورجح بعض المؤرخين ، أن حسان ابن ثابت: توفي في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان ما بين عام: 50 هـوعام 54 هـ. والحقيقة أنه في تاريخ الشعر العربي عدد من الشعراء الفحول لا تنحسر عنهم دائرة الضوء ، فأسماؤهم دائماً بارزة في قوائم المبدعين ووجودهم ساطع متألق لا يخبو وميضه مع حركة الزمن ، ولا تنقصف أعواده من مهب الريح والأعاصير. ويبرز من بين هذا الوجود الشامخ ، والحضور المتوهج شاعر ، لا باعتباره طاقة شعرية هائلة فحسب ، بل باعتبار أنه شاعر استطاع في مرحلة من مراحل حياته أن يوظف هذه الطاقة لتؤدي دوراً هو بلا شك أجل وأعظم دور قام به شاعر في تاريخ الشعر العربي كله. ألا وهو شاعر رسول الله حسان بن ثابت! إنه مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل في الجزيرة العربية ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في دين الله أفواجا ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم. وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين. ومعروف أن قريشاً حادت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث ، مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس. وبمجرد أن اشتبكت السيوف ، أخذ الشعراء في الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم دفاعا عن كل منهما ، وهجاء للآخر. إلا أن بعض الباحثين من عرب ومستشرقين أشاعوا فكرة ضعف الشعر العربي بعد الإسلام ، ويرددون أحكاماً وآراء أطلقها بعض النقاد ، عندما قرروا ضعف الشعر بعد الإسلام ، وانصراف الشعراء عن قوله ، وبُعد الناس عن الاهتمام بالشعر منذ أن نزلت الآية الكريمة: "والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون". ولعل سبباً آخر ما دفع الرواة واللغويين إلى المجاهرة بدعوى ضعف الشعر في العصر الإسلامي ، هو أن معاني الإسلام تطرقت إلى الشعر في موضوعاته وألفاظه ، فأصبح يغاير الصورة الجاهلية التي عرف بها ، وأول ما نلحظه في ذلك أن الجزالة البدوية القديمة التي كانت صفة غالبة على الشعر الجاهلي كادت تذوى تماما لتحل محلها بساطة في الأسلوب والألفاظ الرقيقة لأن الشعر انتقل من البادية إلى المدينة. ولقد كانت الأشعار الجاهلية الجزلة تمثل عند العرب النموذج الكامل للشعر العربي. وقالوا إن بعض الشعراء قد شغلوا عن الشعر بالجهاد في سبيل الله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشجع الشعر الجيد الذي تظهر فيه المثل العليا جلية واضحة ، وكان يستمع إلى ذلك الشعر ، ويعجب بحكمه وأمثاله. قال صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور: "إن من الشعر لحكمة". ومن أمثال هؤلاء الشعراء البارزين في

العصر الإسلامي ، حسان بن ثابت شاعر الإسلام. ومما لا شك فيه أن حسان بن ثابت كان يَحظى بمنزلة رفيعة عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يُجله الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء. في نفس الوقت ، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه موقفاً خاصاً من الشعر ، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردة لم تدع له وقتاً يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم. في حين نجد أن عمر رضي الله عنه يحب الشعر ، خاصة ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى. وقد روي عن كل من الخليفتين الراشدين عدداً من الأبيات لسنا في صدد إيرادها. وفي حادثة الإفك: يذهب بعض الرواة إلى أن حسان بن ثابت كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ونراه يُعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً كقوله:

حَصانٌ رَزانٌ ما تُظنُ بريبـــــةٍ وتُصبحُ غرثى من لحوم الغوافل

فإن كان ما قد قيـــل عني قلتـه فلا رفعـــت سوطى إلي أنامـــل

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجدا شديدا فقال – رضي الله تعالى عنه -:

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضـــة البلد

وأكثر شعر حسان كما أسلفنا كان في الهجاء ، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمد صلى الله عليه وسلم والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم. ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام. ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقة في التعبير بعد أن عمر الإيمان قلوب الشعراء ، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصة فإن كلاً منها يعبر عن موضوع واحد ، هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم. وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام هي: أولاً:- حسان شاعر القبيلة: قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام ، كان منصرفاً إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره النضال القبلي تغلب عليه صبغة الفخر. أما الداعي إلى ذلك فالعداء الذي كان ناشباً بين قبيلته والأوس. ولقد كان فخر حسان لنفحة عالية ، واندفاعاً شديداً. ثانياً:- حسان شاعر التكسب: اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيراً من أمراء غسان أشهرهم عمرو الرابع بن الحرث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم. وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوا له مرتباً سنوياً وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره:

يسقون من ورد البريص عليهمُ بردى يصفق بالرحيـــق السلـل

بيض الوجوه كريمـــة أحسابهم شم الأنوف من الطـــراز الأول

ثالثاً:- حسان شاعر الإسلام: نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجى فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء ، بل للدفاع عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وهذا ينقسم لقسمين: أما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد فهو مقصور على النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاءه وكبار الصحابة ، والذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسناً. وهو يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن

التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقة والعقيدة النفسية. ومن هنا جاءت نزعة الهجاء النضالي في شعر حسان ، فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدا صلى الله عليه وسلم . وكان موقف الشاعر تجاههم حربا لما بينهم وبين محمد من نسب. أما أسلوبه في هجائه فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائراً غريباً يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعناً شنيعاً ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقاً في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنا للجهل والبخل والجبن ، والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. قال حسان هاجياً بني سهم بن عمرو:

والله ما في قريش كلها نفـــــــــر أكثر شيخاً جباناً فاحشاً غمـــــــرا

هــذر مشائيـــم محـــــــروم ثويهمُ إذا تـــــــروح منهم زود القمـــــرا

لولا النبي ، وقــول الحق مغضبـــة لما تركـــــت لكم أنثى ولا ذكـــــرا

من جانب آخر ، فإننا نبعد عن حسان بن ثابت ما اتهمه الرواة به ، وألا نقبل من شعره إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب. رابعاً:- حسان شاعر اللهو : كان حسان بن ثابت متوفراً على شرب الخمر والاستمتاع بالغناء وما يتبعه من لهو وعبث ، ولا سيما قبل دخوله الإسلام. وله في الخمر أوصاف شهيرة تأتي خصوصا في مدائحه لملوك غسان ، كما له غزلٌ ، وشعره هذا غير مستقل يختلط عادة بالفخر والمدح. وغزله تقليدي في معانيه وصوره. وشعر حسان بن ثابت طبع مندفع ، وقريحة هائجة. ومن جوانب قيمة شعره: **1** القيمة الفنية: حسان بن ثابت شاعر شديد التأثر ، قوي العاطفة ، يفوته التأني ، ولهذا ترى شعره يتدفع تدفعاً ، متتبعاً في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمل. ومن ثم تلقى شعره خالياً من كل ما يتطلب النظر الهادئ المتفحص ، فمطالعه مقتضبة اقتضاباً شديداً ، يسرع في الانتقال منها إلى موضوعه الذي تحتدمُ به نفسه ، وانتقاله غير بارع عادة. ثم إن كلامه يخلو من الترتيب والتساوق لما في عاطفته في فوران. وهذا الفوران نفسه يحول دون التنقيح. وقد نتج عن ذلك لينٌ وضعفٌ في شِعره الإسلامي خصوصاً ، لتقدمه في السن ولما كان هنالك من أحوال مثيرة للعاطفة وقد حمي النضال واستعر القتال ، ولانصراف الشاعر إلى الارتجال والسرعة في القول والتدقيق الموضوعي بذكر الغزوات وأربابها. وقد يكون بعض ذلك الضعف ناتجاً عما أضيف إلى ديوان حسان بن ثابت من الشعر المنحول. ويخلو شعره من الوصف والتمثيل اللذين كانا في الشعر الجاهلي عموماً. إلا أنه لا يخلو على كل حال من الاندفاع العاطفي العنيف ، والصدق في ذلك الاندفاع ، وانتفاض العصب في الأبيات التي تنطلق أحيانا كالسهام أو كالسيل الذي يجرف السخط والهيجان ، والكلام المقذع الذي يهشم تهشيماً. وإننا نلمس في كلام حسان أثراً للدين الجديد وللقرآن ، وذلك ظاهر في المعاني الجديدة من ارتياح إلى المصير ، وتفصيل بعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب ، وذلك ظاهر أيضا في الألفاظ التي أعطاها الإسلام إيحاء جديداً ، ونثرها حسان في شعره. ولقد حق بعد ذلك أن يقال أن حسان بن ثابت هو مؤسس الشعر الديني في الإسلام. هذا ولشعر حسان فضلاً عن القيمة الفنية ، قيمة تاريخية كبرى ، فهو مصدرٌ من مصادر تاريخ تلك الأيام ، يسجل مآتي الغساسنة ويصف غزواتهم وممتلكاتهم ، ويسجل أحداث الفجر الإسلامي ، ويطلعنا على أخبار محمد صلى الله عليه وسلم في غاراته وغزواته وفتح مكة ، كما يطلعنا على أسماء الصحابة وأعداء الإسلام. وهكذا كان

حسان بن ثابت شاعراً ومؤرخاً كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي ازدهر في عهد بني أمية. إن من يتعمق في ديوان حسان بن ثابت ، يجد أن فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته وإسلامه وفي فخامته وعذوبته ، ولا شك في أن ما يظهر من ضعف ولين في بعض إسلامياته ليس أصيلاً في فنه وإنما هو عارض ، ساقته ظروف طارئة ، أو منحول دس عليه لغرض ديني أو فكاهي. فلقد كان حسان بن ثابت رمزاً من رموز المُدافعين عن حِياض الإسلام والمسلمين ، فلقد سخر هجاءه في ذم أعداء النبي عليه الصلاة والسلام ، ولقد مضى مفتخراً بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين ، وإخوانه الأنصار. إن هذه المعركة الكلامية التي دارت ـ قديماً للنيل من شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري – وتدور حديثاً على نفس النمط وبذلت الآليات ومن أجل عين الهدف ، لا يَكُف أوارها ولا تنطفئ نارها ، ولستُ أدري لماذا النيل من الصحابة والعلماء المسلمين؟! ولمصلحة من قتل رموز الإسلام في القديم والحديث؟! وأقسم بالله إن الهدف هو الضيق ذرعاً بالمخالف في الرأي وقتل رموز الإسلام ، وتمزيق الصف المسلم ، وإزاحة القدوات والأسوات من أمام أعين الشباب والمقتدين! حتى إذا لم يجد الناس أعلاماً يقتدون بهم ، اتخذوا قدواتٍ فاشلة فاسلة لا وزن لها ولا رصيد لها في عالم الإنجازات والعقائد والسلوكيات! وخاصة حسان بن ثابت لأنه مدرسة في الشعر الإسلامي غير مسبوقة! وُيمثلُ شعرُه الذودَ عن الإسلام والمنافحة عن شرائعه وشعائره ونبيه على حدٍ سواء! فلا يجد الشعراء اليوم إلا الشعراء الملاحدة أو المرتزقة أو المنافقين أو الخليعين المنحلين الساقطين من سوق القيم والأخلاق! وتحت عنوان: (الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام) وهو مقال نقدي لاذع ، يقول الدكتور حاتم العوني ما نصه: (من الناس من يصطنعُ الأصدقاء ، ومنهم من يَصطنع الخصوم والأعداء. ومن الناس من يسعى لتوحيد الصف ، ومنهم من يسعى لتفريقه. ومن الناس من يتسع خندقه لكل من لم يكن عدواً له ، ومنهم من يضيق خندقه إلاّ على من كان نسخة مطابقة له في آرائه وتصوراته. ومنهم من ينظر لكل من لم يكن ضده على أنه معه ، ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن معه أنه قد اصطفّ مع عدوه. إن صناعة الأعداء وتفريق الجماعات والتخندق ضد الآخرين واصطناع الصفوف المتضادة والاصطفاف فيها له وَصفَتُه السهلة ، والتي لا تحتاج ذكاءً ولا علماً ، ولا خططاً طويلة الأمد ، ولا أفكاراً عميقة. وإذن فعليك فقط بواحدٍ من المواقف التالية: أولاً: اجعل كل من خالفك في اجتهادك خصماً ، ولا تنس اتهامه في دينه بالبدعة أو النفاق (والنفاق أولى) ، وفي أمانته بالخيانة والعمالة (والعمالة أحرى). وثانياً: اجعل غالب اجتهاداتك الظنية مسائل مقطوعاً بها ، وابحث في التراث على دعاوى الإجماع عليها ؛ إذ كيف تهاجم مخالفك بترجيحاتٍ ظنية ، وأنت الذي يتشدق بكلمة الإمام الشافعي (قولي صواب يحتمل الخطأ ، وقول مخالفي خطأ يحتمل الصواب). فلا بد من ادّعاء شذوذ المخالف ، ومن ادّعاء مخالفته للإجماع ، ومن زعم مناقضة الأدلة القطعية. وثالثاً: عليك أن تتوجس خيفة من كل نقد ؛ فالنقد بريد الزندقة ؛ لأن نقدك هو كشف لعورتك أمام العدو ، ولا يكشف عورة الأتقياء أمام الأعداء إلاّ الزنادقة المنافقون. ورابعاً: لا تعترف بالخطأ ، بل اجعل الخطأ صواباً ؛ لأن اعترافك بالخطأ فتّ في عضد الأخيار ، وتخندق مع الأشرار. وخامساً: ارفض كل جديدٍ وتجديدٍ ؛ لأن التجديد لا يقوم إلاّ على أساس اعترافٍ بوجود الخطأ أو بوجود النقص ، والاعتراف بالخطأ خطر كبير على مسيرة الصحوة المباركة. بل يجب أن ترفض التطوير ؛ لأن قبول التطوير قبول ضمني بوجود نقص ، وهذا ينافي كمال منهج أهل السنة والجماعة الذي نحن عليه بكل حذافيره. فحذار من الانزلاق في وهم التطوير الخطير على

المعتقد ؛ فهو فساد الدين والدنيا. لكن لا بأس من تطوير يقوم على تبادل الأدوار ، وتغيير مكيفات الهواء ، وتكييف الغرف غير المكيفة ، وافتتاح موقع في النت ، فهذا ونحوه هو التطور المسموح به ، وتنبّه من أن يجعل المتلوّنون هذا التطوير وسيلة لتطوير الاعتراف بالخطأ والإقرار بالنقص ، فإن لزم الأمر فقم بسدّ هذه الذريعة السلولية (نسبة لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين) ، وهي هذا التطوير الخبيث. وسادساً: سيتهمك المنافقون باعتقاد العصمة والتنزّه عن الخطأ ؛ لأنك ترفضُ النقد والاعتراف بالخطأ ، فلا تلتفت لذلك ، فإن عصمة منهجك مستمد من عصمة الكتاب والسنة ، ومن عصمة منهج السلف الصالح. وأنت الوريث الشرعي الوحيد لذلك المنهج المعصوم ، فهجومك على مُنتقديك ليس ادّعاء لعصمتك في الحقيقة (وإن لزم منه ذلك) ، لكنه هجومٌ منطلقٌ من عصمة الوحي الذي تَمثّله السلف ، وكنت أنت امتدادهم. وسابعاً: واحذر من دعاة التوسط والاعتدال ؛ فهم لا يفهمون من التوسّط والاعتدال ؛ إلاّ تخطيئك ، وإلاّ التوسط بين الحق والباطل ، والاعتدال مع الأعداء بتمييع المبادئ وتضييع العقائد ؛ فالذي يتوسط بينك وبين خصمك كالذي توسط بين أبي جهل وأبي طالب ، ما زاده توسّطه إلاّ بعداً عن الحق الذي أنت عليه ؛ لأنك أنت هو الحق ، والحق معك حيث درت دار الحق معك. وأما الذي يعدل مع المخالفين فهو يعطيهم حقاً لا يستحقونه ؛ فالعدالة لا تكون مشروعة إذا شُرعت سيوف الحق ، ونادى منادي الجهاد (الله أكبر) ، فالظلم حينها هو قمة العدالة ، فكفّر وزندِق وفسِّق وتفاصح بالشتم والفحش والافتراء ؛ فالمؤمن يستحب له في بعض المواطن (مثل هذا الموطن) أن يكون فحّاشاً لعّاناً بصّاقاً ، بل ربما وجب ذلك عليه ، فأنت تقوم مقام حسان بن ثابت (أُهجُهم وروح القدس معك). وثامناً: أثبت ولاءك للعلماء الذين يقومون بدور الحارس لآرائك ، فأنت لا تدافع عنهم ؛ لأنهم على رأيك وموافقون لاجتهادك ، بل لأن رأيك واجتهادك لا يجوز أن يوصف أصلاً بأنه رأي واجتهاد ؛ فهو حكم الله ودين الله. ولا يُلبّس شياطين الإنس والجن عليك ، بأن دفاعك عن هؤلاء العلماء ما هو إلاّ دفاع عن نفسك ؛ فهذا غير صحيح ، فالحق ومنهج السلف لا يقبل التهاون بقبول النقد والتخطيء. وتاسعاً: من خالفك جاهل ، أو متجاهل. هذه هي تعويذة الصباح والمساء. وأما تسبيحات أدبار الصلوات: فسبحان من خلقنا على الهدى وخلق غيرنا على الضلالة ، والحمد الله على حفظ طائفتنا فهم أمان أهل الأرض ، والله أكبر ما أعظم فكرنا الذي احتكر الحق والحقيقة. فلا يعرف العلم غير مدرستنا ، ولا يمر الحق بغير دروبنا ، ولا يمكن أن يجتمع علماؤنا على ضلالة. وأما الاستغفار: فأكثر من الاستغفار للإمام مالك بن أنس ، كيف احتج بإجماع أهل المدينة (الذي يُنسب إليه)؟! أين هو عن عمل علمائنا الذين لا يجتمعون على ضلالة؟! ولو أن الإمام مالكاً فعل ذلك لما وجد من يأخذ عليه هذا الاحتجاج ، كما أُخذ عليه احتجاجه بعمل أهل المدينة. وعاشراً وأخيراً: من انتقد شيئاً من هذه المواقف السابقة ، فلا تتردّد طرفة عين في أن تجعله عدواً لك ، ولا تبخل عليه بالشتائم والاتهام في الدين بالتبديع والتفسيق ، وطالبه مع ذلك بأن يتسامح معك كما تسامح مع الكفار وأهل البدع. فما هذا التناقض الذي يمارسه هؤلاء المتلوّنون؟! فهم يتسامحون مع الكفار والمبتدعة بالمطالبة بعدم ظلمهم ، ولا يتسامحون معنا بمطالبتنا بالعدل معهم ، وينطقون بنقد أخطائنا وبيان ظلمنا ، مع أن أخطاء أهل البدع أقبح وظلمهم أشد. فلماذا لا يتسامحون مع نقدنا لهم؟! لماذا لا يتسامحون مع وصفنا لهم بالحق (وباسم أهل السنة والجماعة) بأوصاف التمييع والتضييع والجهل والفسق والنفاق؟! هذه مواقف عشرة ، كل واحد منها كافٍ وافٍ في اصطناع العداوات ، وخندقة الجماعات ، واختلاق

المعارك الوهمية ؛ فهم يلعبون بالشطرنج ، لكنهم نقلوه من رقعة اللعب ، إلى رقعة الأمة! فهم من رسم الرقعة التي على أساسها تكون العداوات ، وهم من يَصُفُّون من شاؤوا في صفِّ العدو أو في صف الصديق ، وهم من يختلقون المعارك ، وهم من يخوض هذه المعارك الوهمية. فليت هؤلاء حين أباحوا لأنفسهم أن يرسموا رقعة عداوات الأمة ، وقبل أن يَصفّوا من يعدونه عدواً أمام الصف الذي وقفوا معه ، ليتهم أباحوا رقعة الشطرنج أيضاً).هـ! ووالله لقد صدق الدكتور حاتم العوني فيما ذهب إليه! فكم عانى الصف المسلم من هذه المحاولات اليائسة المائسة البغيضة المريضة لمزيق الصف المسلم والنيل من القدوات! ألا إن حسان بن ثابت في الذؤابة من شعراء الإسلام في القديم والحديث! مهما تخرص الكاذبون المتخرصون وتقول المتقولون!).هـ. يُكنى: أبا الوليد ، وقيل: أبو الحسام ؛ لمناضلته عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، ولتقطيعه أعراض المشركين ، وأبو الوليد أشهرُ كُناه ، وعاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام ، وقال سليمان بن يسار: رأيت حسان بن ثابت وله ناصيةٌ قدْ سَدَلَها بَيْنَ عَينَيه. وكان حسانُ بن ثابت قديمَ الإسلام. وجعله النبي صَلَّى الله عليه وسلم مع النساء في الآطام يوم الخندق ، وكان يقال له شاعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقال قائل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: اهْجُ عنَّا القوم الذين يهجوننا. فقال: إنْ أذنَ لي رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فعلْتُ. فقالوا: يا رسول الله ، ائذنْ له. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنَّ عليًا ليس عنده ما يُرَاد في ذلك منه" ، أو: "ليس في ذلك هنالك". وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: "كَيْفَ تَهْجُوهُمْ وَأَنا مِنْهُمْ؟ وَكَيْفَ تَهْجُو أَبَا سُفْيَانَ وَهْوَ ابنُ عَمِّي؟" فقال: والله لأسلَّنّك منهم كما تُسَلُّ الشّعرةُ من العَجِين. فقال له: "إيت أبا بكر، فإنه أعلمُ بأنساب القوم منك". فكان يَمضِي إلى أبي بكر ليقِفَ على أنسابهم ، فكان يقول له: كفَّ عن فلانة وفلانة ، واذكر فلانة وفلانة ، فجعل حسَّان يهجوهم. فلما سمعَتْ قريش شِعْرَ حسان قالوا: إنّ هذا الشّعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة ، أو: من شعر ابْن أبي قحافة. عن أبي هريرة أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقولُ لحسَّان: "اهْجُهُمْ ـ يعني المشركين ـ وَرُوْحُ القُدسِ مَعَكَ". وإنه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لحسّان: "اللَّهُمَّ أَيّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ ؛ لِمُنَاضَلَتِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ". ومرَّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بحسّان وهو يُنْشِد الشّعر في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال: أتنشد الشّعر في مَسْجد رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فقال له حسان: قد كنْتُ أُنْشد وفيه مَنْ هو خير منك ـ يعني النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ـ فسكت عمر. وقال أبو عُبيدة: فُضِّلَ حسّان على الشّعراء بثلاث: كان شاعرَ الأنصار في الجاهليّة ، وشاعرَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أيام النبوّة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وقيل لحسّان: لَان شِعْرُك أو هرم شِعْرُك في الإسلام يا أبا الحسام. فقال للقائل: يا ابْن أخي ؛ إن الإسلام يحْجِز عن الكذب ، أو يمنَعُ من الكذب ، وإن الشّعر يزينه الكذب ؛ يعني: إنّ شأنَ التجويد في الشّعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق ، وذلك كلُّه كذب. ومن جيّد شعر حسّان ما ارتجله بين يَدي النّبي صلّى الله عليه وسلّم في حين قدوم وَفْد بني تميم ، إذ أتَوْه بخطيبهم وشاعرهم ، ونادَوْه من وراءِ الحجُرات أَن اخْرُج إلينا يا محمّد ، فأنزل الله فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ). وكانت حجراته صلّى الله عليه وسلّم تسعًا ، كلُّها من شعر مغلقة من خشب العَرْعَر. فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم ، وخطب خطيبُهم مُفتخرًا ، فلما سكت أمرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثابت بن قيس بن شماس أنْ يخْطُبَ بمعنى ما خطب به خطيبُهم ، فخطب ثابت بن قيس فأحسن ، ثم قام

شاعرهم ، وهو الزّبرقان بن بدر فقال: نَحْنُ المُلُوكَ فَلَا حَيٌّ يُقَارِبُنَا فِينَا العَلَاءُ وَفِينَا تُنْصَبُ البَيْعُ وَنَحْنُ نُطْعِمُهُمْ فِي القَحْطِ مَا أَكَلُوا مِنْ العَبِيطِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ القَزَعُ وَنَنْحَرُ الكُومَ عُبْطًا فِي أَرُومَتِنَا لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبِعُوا تِلْكَ المَكَارِمُ حُزْنَاهَا مُقَارَعَةً إِذَا الكِرَامُ عَلَى أَمْثَالِهَا اقْتَرَعُوا ثم جلس. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لحسّان بن ثابت: "قم" ، فقام ، وقال: إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَاتَهُمْ قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ إِنَّ الخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا البِدَعُ فقال التميميون عند ذلك: وربكم إنّ خطيبَ القوم أخطَبُ من خطيبنا ، وإنَّ شاعرَهم أشعر من شاعرنا ، وما أنتصفنا ولا قاربْنَا. وقال عبد الملك بن عمير: جاء حسان بن ثابت إلى النبي صَلَّى الله عليه وسلم ، فقال: أُسْمِعُكَ يا رسول الله؟ قال: "قل حقا" ، قال: شَهِدْتُ بإذنِ الله أَنَّ محمدًا رَسُولُ الذي فوق السموات مِنْ عَلُ فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "وأنا أشهَدُ". وَأَنَّ الذي عَادَى اليَهُود ابن مَرْيم نبيٌّ أتى من عِنْدِ ذي العرش مُرْسَلُ فقال: "وأنا أشهد". وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما لَهُ عَمَلٌ في دينه مُتَقَبَّلُ فقال: "وأَنا أشهد". وأن أخا الأحقاف إذ يَعْذِلُونَه يُجَاهِدُ في ذَاتِ الإله ويَعْدِلُ فقال: "وأنا أشهد". وأن التي بالجزع من بَطْنِ نَخْلَةٍ ومَنْ دَانَها فلّ عن الخير مَعْزِلُ فقال: "وأنا أشهد". وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "من يحمي أعراضَ المسلم"؟ فقال عبد الله بن رَواحة: أنا، وقال كعبُ بن مالك: أنا ، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم:"إنك تُحسِن الشعر" ، وقال حسان بن ثابت: أنا ، قال: فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "اهجهُم فإن روحَ القدس سَيُعِينُك". وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ليلة وهو في سَفَر: "أين حسان بن ثابت"؟ فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال: "خُذ" ، فجعل يُنشده ويصغي إليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس الراحلة يمَس المُورِك حتى فرغ من نشيده ، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "لهذا أشد عليهم من وقع النبل". وروي أن عائشة كانت تقول: لا تُؤذوا حساناً ؛ فإنه كان ينصر رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم بلسانه! وتحت عنوان: (حسان بن ثابت) يقول الكاتب الأستاذ عباس توفيق ما نصه بتصرف: (إنه عند بلوغ الاسلام إلى المدينة كان حسان من المتقدمين في الإيمان به. واتهمه ابن قتيبة بالجبن حين ذكر أنه "لم يشهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَشهداً لأنه كان جباناً". وللكشف عن صفة الجبن فيه ، يمكن أن نرى عند أهل السير رواية تؤكدها ويكثر الاستشهاد بها ، وهي أن يهودياً طاف بحصنٍ للمسلمين كان فيه حسان مع النساء والصبيان "فقالت له صفية: إن هذا اليهودي لا آمنه أن يدلّ على عوراتنا ، فانزل إليه فاقتله ، فقال: يغفر اللَّه لك يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا ، قالت صفية: فلما قال ذلك أخذتُ عموداً ، ونزلت من الحصن حتى قتلت اليهوديّ ، فقالت: يا حسّان ، إنزلْ فاسلبْه ، فقال: ما لي بسلبه من حاجة". وتتبع الباحث الأستاذ أحمد سالم المصري هذه الرواية وسواها من الروايات التي ألصقت الجبن بحسان بن ثابت ممن ترجم له من أهل السير والتأريخ ، فدقق في متونها وأخضع رواتها للفحص والتوثيق ، فانتهى إلى أنها روايات باطلة أو ضعيفة وأنها تسيء إليه بما ليس فيه. وعلاوة على رده لتلك الروايات بمنهج بحثه الحديثي ، فإنه عَزز رأيه بما نقله المبرّد عن الأصمعي في أنْ لا أحد من الخلق الذين هاجاهم حسان عيّره بالجبن ، وأنه لو كان جباناً حقاً لما فوّت الشعراء الخصوم له ذلك ، كما أن عدم شهوده المشاهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو افتُرِضتْ صحة رواياته ، لم يكن بسبب جبنه بل بسبب كبر سِنّه ، فقد كان قد بلغ الستين

حين دخل الاسلام ، وكان من الطبيعي أن تنقص قواه ومقدرته. وأما عن شاعريته: فلقد كان حسان واحداً من الشعراء البارزين في العصر الجاهلي ، وأحد أعلام الشعر في العصر الاسلامي ، وصنّفه ابن سلام الجمحي في الفحول الخمسة من شعراء المدينة ، وجعله أولهم. وقدمه أبو عبيدة على غيره من الشعراء ، لأنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي - صلى الله عليه وسلم - في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام ، كما أنه كان أشعر أهل المدر. وعندما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، وانتهى إليه هجاء قريش ، طلب من شعراء المدينة أن يدافعوا عنه ، فقال - عليه الصلاة والسلام -: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟) فقال حسان أنا لها. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (كيف تهجوهم وأنا منهم؟... فقال: والله لأسلّنّك منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين ، فقال له: إيتِ أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك). وقد روي أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك هجيا قريشاً ، ولكنهما لم يشفيا غليلاً ، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت ، وأمره أن يردّ عنه ، وأن يأتي أبا بكر ليعلم منه معائب القوم ، وذلك ليضربهم بها ، وكان في بعض الأحيان يأخذ ما كانوا يفتخرون به فينقضه ويجعل مفخرتهم مثلبة ، وتم تخصيص منبر له في المسجد يقف عليه للمنافحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. لقد سلط حسان على قريش لسانَه وشجعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم – وأيده ، ورُويتْ في هذا الشأن أحاديث من مثل قوله - عليه الصلاة والسلام -: (هجاهم حسان فشفى واشتفى) ، وكقوله: (اهجهم أو هاجهم وجبريل معك) ، و(اهجهم أو هاجهم ، اللهم أيده بروح القدس) ، وكقوله - عليه الصلاة والسلام - مخاطباً إياه: (اهجهم كأنك تنضحهم بالنبل) ، أو (اهجُ قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل). وتخصيص جبريل بالذكر ؛ لأنه - عليه السلام - صاحب وحي الله إلى رسله ، وكان يتولى نصرهم وإهلاك أعدائهم المكذبين كما نصر لوطاً وموسى - عليهما السلام - بإهلاك قومهما ، فمن نصرَ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - كان جبريل معه مؤيِّداً ومسدِداً. ولم يكتف حسان بالذب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، بل كان يرد على المفتخرين فخرهم ممن اتبعوا الأعراف العربية ولم يقصدوا الهجاء بقولهم ، من ذلك أن وفد بني تميم جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعهم خطيبهم وشاعرهم ، فتكلم خطيبهم مفتخراً فلما انتهى أمرَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثابتَ بن قيس بن شماس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم فقال فأحسن ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فافتخر بقومه ، وجلس فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت بالقيام ، فقام فقال أبياتاً على الوزن والقافية اللذين استعملهما الزبرقان حتى إذا انتهى قال التميميون: "وربكم إن خطيب القوم أخْطَبُ من خطيبنا وإن شاعرهم أشْعَرُ من شاعرنا ، وما انْتصفْنا ولا قاربْنا". ومن هذا الموقف ومن أمثاله تتجلى مقدرة حسان الشعرية التي لم يبلغها خصومه والتي كان يخرس بها أعداء الاسلام. وقال عنه - عليه الصلاة والسلام - في حديث ضعفه الألباني: (حسانٌ حجازٌ بين المؤمنين والمنافقين ، لا يحبه منافق ولا يُبغضه مؤمن). ومر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد ، فلحظ إليه وكأنه كان مستنكراً لما يرى ويسمع فقال حسان: "قد كنتُ أنشد وفيه مَن هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (أجِبْ عني ، اللهم أيده بروح القدس؟ قال: اللهم نعم).هـ.

ماهية الشعر الإسلامي

إنه لمن الضروري لأي ناقدٍ لشاعر إسلامي أن يعرف ما هو الشعر الإسلامي؟ وماذا يختلفُ هذا النوع من الشعر عن سواه! وخاصة إن كان يستهدفُ فيما ينقده الأسلوب! لقد ضرب نقاد كثيرون أمثلة كثيرة لأسلوب الشعراء المسلمين ، فمدحوا تارة ، وقدحوا أخرى! وخرج نقدهم الأسلوبي عقيماً ميتاً لا حياة فيه! ذلك أنهم بكل صراحة كانوا فاقدين لمعرفة كُنه وحقيقة الشعر الإسلامي! وأجمل ما يُعرف النقد الأسلوبي ويُدرس فمن القرآن والسنة! وآخذ لذلك مثالاً هو القصة القرآنية وأسلوب حكايتها وسردها! إن استلهام القصص القرآني في الشعر العربي المعاصر يقول الأستاذ خلف أحمد محمود ما نصه بتصرف يسير: (لقد تحدَّى القرآن الكريم العرب في فنون القول ، وهُم فرسان الشعر وأرباب الفصاحة ، وتحدَّاهم أيضًا في القصص ؛ ذلك أنَّ تراثهم النثْري قبل الإسلام مليءٌ بالقصص والحكايات والأساطير والأخبار ، والأيَّام التي تعرض لحياتهم وتصوِّر العظة والعبرة فيها ، ومن ثَمَّ لم يكن عجبًا أن يحفل القُرآن الكريم بألوانٍ متعدِّدة من القصَص كنموذج صادقٍ لما يجب أن تكون عليه القصَّة ، حيث حوت آيات القرآن الكريم الكثير من الصُّور القصصيَّة الرَّائعة والمواقف الخالدة ، التي جسدت الصراع بين الحق والباطل ، وقد وجد العديد من أعلام الشُّعراء العرب المعاصرين في القصص القرآني كنزًا ثمينًا ومنهلاً عذبًا نهلوا من جمال لفظِه وروعة قصصه ؛ رغبة منهم في تقْديم النموذج والمثل الأعلى الذي يجب أن يَقتفي أثره الإنسان المعاصر ، ونتوقف عبر هذه السطور مع أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، ثمَّ من الشُّعراء المعاصرين الدّكتور محمد رجب البيومي ؛ لنلمس عن قُرْب كيف استلهم هؤلاء الشُّعراء القصص القرآني. ولنبدأ رحلَتَنا مع أمير الشعراء "أحمد شوقي" الَّذي نهل من معين القصَص القرآني ، فيكتُب في قصيدته الشَّهيرة "كبار الحوداث في وداي النيل" قصَّة سيِّدنا موسى ـ عليْه السَّلام ـ وانتِصار عقيدته على عقيدة الشِّرْك وعبوديَّة الإنسان للإنسان زمن فرعون ، وقد بدأ شوقي هذه القصَّة بتمهيدٍ وصَف فيه ما كان يُعانيه المجتمع من تخبُّط وجهل قبل مجيء موسى ـ عليْه السَّلام ـ بالدين الحق ، فيقول مصوراً البيئة التي سادت قبل مجيء موسى – صلى الله عليه وسلم -:

رَبِّ هَذِي عُقُولُنَا فِي صِبَاهَا نَالَهَا الخَوْفُ وَاسْتَبَاهَا الرَّجَاءُ
فَوَلِهْنَاكَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِي الرُّسْـ ـلُ وَقَامَتْ بِحُبِّكَ الأَعْضَاءُ
وَوَصَلْنَا السُّرَى فَلَوْلا ظَلامُ الْـ ـجَهْلِ لَمْ يُخْطِنَا إِلَيْكَ اهْتِدَاءُ

ثمَّ يعرض شوقي بعد ذلك لقصَّة سيدنا موسى ـ عليْه السَّلام ـ مع فرعون ، وكيف أنَّ موسى أتى بالمعجزات والبراهين السَّاطعة ، وفي مقدّمتها معجزة العصا التي أثبتت عجْزَ فرعون وبطلان زعمِه ، والذي أخذ يذكر موسى ـ عليه السَّلام ـ بأنَّه نشأ وتربَّى في قصرِه مشيرًا شوقي في ذلك إلى الآية الكريمة: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} ، إلاَّ أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ كان أكثر حبًّا وإخلاصًا لله ، وهذا من شِيَم وخصال الأنبياء ، فيقول:

وَاتَّخَذْنَا الأَسْمَـــاءَ شَتَّى فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى انْتَهَتْ لَكَ الأَسْمَـــاءُ
حَجَّنَا فِي الزَّمَـــانِ سِحْرًا بِسِحْرٍ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَى العَصَا السُّعَـدَاءُ
وَيُرِيدُ الإِلَهُ أَنْ يُكْرِمَ العَــقْـ ـلَ وَأَلاَّ تُحَقَّـرَ الآرَاءُ

ظَنَّ فِرْعَــوْنُ أَنَّ مُوسَى لَهُ وَا فٍ وَعِنْدَ الكِرَامِ يُرْجَى الوَفَــاءُ
لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ يَــوْمَ رَبَّى أَنْ سَيَأْتِي ضِدَّ الجَزَاءِ الجَزَاءُ
فَرَأَى اللَّهُ أَنْ يَعُــقَّ وَلِلَّ هِ تَفِي لا لِغَيْرِهِ الأَنْبِيَــاءُ

ويتناول شوقي في مقطع آخر من هذه القصيدة مولدَ السيِّد المسيح ـ عليْه السَّلام ـ وما صاحبَه من معجزاتٍ وإشاراتٍ ازْدهى بها الكونُ ، حيثُ سرتْ معجزة ميلاد المسيح آيةً عُظْمى أرشدتِ النَّاس إلى عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما حملتْ رسالتُه من معاني الحب والخير والسلام للبشَر ، وبيّن كُنهَ هذه الرسالة ، حتَّى رفعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى السَّماء ، فيكتب شوقي قائلاً:

وُلِدَ الرِّفْقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى وَالمُرُوءَاتُ وَالهُدَى وَالحَيَاءُ
وَازْدَهَى الكَوْنُ بِالوَلِيدِ وَضَــاءَتْ بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الأَرْجَــاءُ
وَسَرَتْ آيَةُ المَسِيحِ كَمَا يَسْــ ـرِي مِنَ الفَجْرِ فِي الوُجُودِ الضِّيَاءُ
تَمْلأُ الأَرْضَ وَالعَوَالِمَ نُـورًا فَالثَّرَى مَائِجٌ بِهَا وَضَّــاءُ
لا وَعِيدٌ لا صَوْلَةٌ لا انْتِقَامٌ لا حُسَــامٌ لا غَزْوَةٌ لا دِمَاءُ
مَلِكٌ جَاوَرَ التُّــرَابَ فَلَمَّا مَلَّ نَابَتْ عَنِ التُّرَابِ السَّمَــاء

وننتقل إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم ، الذي امتاز في شعره بالبساطة والوضوح والثقافة الإسلاميَّة العميقة ، حيث نهل من معين القصص القرآني وظهر ذلك جليًّا في قصيدة الشمس التي سرَد فيها جوانب من قصَّة سيدنا إبراهيم ـ عليْه السَّلام ـ مستلهمًا النَّصَّ القرآني الكريم الذي ورد في سورة الأنعام ؛ {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}. وقد مهَّد شاعر النيل لهذه القصَّة القرآنية ببيْتين من الشعر ، صوَّر فيهما ظهور الشَّمس ثمَّ كيف أنَّ النَّاس قد انبهروا بها عند بزوغِها في كلّ صباح ، فتطرَّق بعضهم إلى عبادتها وتفضليها على القمر الذي لا يفوقها شعاعًا وضياءً ، فالشمس مشرقة مضيئة. وكذلك القمر مضيء ، فليس بينهما اختلاف! فيقول:

لاحَ مِنْهَا حَاجِبٌ لِلنَّاظِرِيــــنْ فَنَسُوا بِاللَّيْلِ وَضَّاحَ الجَبِيــنْ
وَمَحَــــتْ آيَتُهَا آيَتَهُ وَتَبَدَّتْ فِتْنَةً لِلعَالَمِيــــنْ

ثمَّ انتقل بعد ذلك إلى جوهر القصيدة مصوِّرًا صراع سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بين الشَّكّ واليقين والحيرة والتردّد وصولاً إلى الخالق ـ عزَّ وجلَّ – وذلك في مجاراة قومه ثمَّ حواره مع قومه من عبَدة الشَّمس الذين انبهروا بها فضلُّوا الطَّريق إلى عبادة الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقول:

جَالَ إِبْرَاهِيمُ فِيهَا نَظْرَةً فَأُرِي الشَّكَّ وَمَا ضَلَّ اليَقِينْ
قَالَ: ذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَــتْ قَالَ: "إِنِّي لا أُحِبُّ الآفِلِينْ"

وَدَعَا القَوْمَ إِلَى خَالِقِهَـا وَأَتَى القَوْمَ بِسُلْطَانٍ مُبِيـــنْ

رَبِّ إِنَّ النَّاسَ ضَلُّوا وَغَوَوْا وَرَأَوْا فِي الشَّمْسِ رَأْيَ الخَاسِرِينْ

خَشَعَتْ أَبْصَارُهُمْ لَمَّا بَـــدَتْ وَإِلَى الأَذْقَـــانِ خَرُّوا سَاجِدِينْ

نَظَرُوا آيَاتِهَا مُبْصِرَةً فَعَصَوْا فِيهَا كَلامَ المُرْسَلِيـنْ

ثمَّ تطرَّق شاعر النِّيل بعد ذلك إلى فوائد الشَّمس ، وما تضفيه على الكون من جمالٍ ورونْق وبهاء مختتمًا قصيدته ببيتين يوضِّح فيهما حكمة القصَّة القرآنيَّة ، التي بيَّنت أنَّ الشَّمس من مخلوقات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومن الآيات الدَّالَّة على وجود الله خالقها ومبدعها ، فيقول حافظ:

صَدَقُوا لَكِنَّهُمْ مَا عَلِمُوا أَنَّهَا خَلْقٌ سَيَبْلَى بِالسِّنِينْ

أَإِلَهٌ لَمْ يُنَزِّهْ ذَاتَهُ عَنْ كُسُوفٍ بِئْسَ زَعْمُ الجَاهِلِينْ

ونختتم رحلتَنا مع الشَّاعر الدكتور/ محمَّد رجب البيومي ، الذي تأثَّر تأثرًا واضحًا بروعة القصص القرآني ، فأفرد لذلك ديوانًا كاملاً يحمِل عنوان "من نبع القرآن" يحتوى على خمس عشرة قصيدة من الشِّعر المقفَّى الموزون ، جال خلالها الدكتور البيومي مستلهمًا القصص القرآني في لوحات متكامِلة المشاهد ، متعانقة الصور ، متوهِّجة اللغة والمعاني ، ونقتطف له هذه الأبياتَ التي يصوِّر فيها الصراع بين ابني آدم ، حيث نسجَها الدكتور البيومي في ثوب قصصي قشيب متماسِك الألفاظ والمعاني ، مهتديًا في ذلك بالنصِّ القرآني الكريم الذي يُخاطب فيه قابيل نفسَه بعد حادثة قتْل أخيه: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} ، فيفتتح القصيدةَ بوصْفِ مشاعر الحسد التي دفعت قابيل إلى ارتِكاب جريمته البشعة فيقول:

عَظُمَ الشَّـــرُّ بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنِي إِنَّهَا وَحْـــدَهَا الَّتِـــي قَهَرَتْنِـي

لَمْ تَزَلْ تُلْهِبُ الدِّمَـــاءَ بِـــذَرًّا تِي كَأَنَّ النِّيـــرَانَ تَأْكُـــلُ مِنِّـي

كُلَّمَا قَدْ هَـــــدَأْتُ أَجَّ لَظَاهَا فَمَحَا فِطْنَتِي وَشَـــرَّدَ ذِهْنِـــي

هَائِجٌ لَسْتُ أَسْتَقِـــرُّ وَأَنَّى وَعُرُوقِي مَشْبُوبَـةٌ صَهَرَتْنِـي

وفي قصيدة أخرى يصور لنا قصَّة مريم العذراء على نحو ما وردت في القرآن الكريم ، وهي تمثل نموذجًا فريدًا لاستِكْمال عناصر التأثير بالقصص القرآني ، فالشَّاعر في هذه القصيدة لم يقِفْ عند حدود استِلْهام المعاني والصور ، ولكنَّه اقتبس من القُرْآن الآيات والصُّور وجعلها من مكوّنات النَّصّ الشِّعْري مع وضْع هذه الاقتباسات بين قوْسين إشارة إلى قدسيَّتها واستقلالها ، ونقتطف له هذه الأبيات التي استلهمها الشَّاعر من الآية الكريمة التي يقول فيها المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ، وعظيمٌ جداً من الشاعر المسلم أن يتأثر بالكتاب الذي يؤمن به! فيكتب قائلاً:

يَسْقُطُ الرِّزْقُ كَالغَمَـــامِ عَلَيْهَا إِذْ تَرُومُ الغِذَاءَ حُلْوًا شَهِيَّـــا

هُوَ مِنْ جَنَّةِ الخُلُـــودِ فَمَنْ ذَا وَرَدَ الخُلْـــدَ وَهْوَ مَا زَالَ حَيَّا

حَدَثٌ رَائِـــــعٌ تَعَجَّبَ مِنْهُ حِينَمَا طَـــافَ حَوْلَهَا زَكَرِيَّا

إيهِ يَا مَرْيَمُ العَجِيبَـــةُ "أَنَّى لَكِ هَذَا" لَقَدْ بَلَغْتِ الثُّرَيَّـــا

أَنْتِ مِنْ عَالَمِ السَّمَـــاءِ مَلاكٌ هَبَطَ الأَرْضَ فَاغْتَدَى إِنْسِيَّـــا

وفي النهاية نقول: هذا غيض من فيض في استِلْهام الشعراء المعاصرين للقصص القرآني ، كلّها نهلت من هذا الرَّافد العظيم القرآن الكريم ، الذي هو صانع التراث ومصدر مجْد الأمَّة الأكبر).هـ. وإذن فهذه ميزة في الشعر الإسلامي أنه شعر قيمي إصلاحي أخلاقي! شعرٌ ملتزم بأدب الإسلام في الكلمة ، حتى تكون مؤثرة في الناس! ويضاف إلى ذلك تأثر شاعره بالقرآن والسنة وأحكام الإسلام! وأكبر دليل على ذلك استشهاد أغلب شعرائه بنصوص الكتاب والسنة! فكما أن الشعر الإلحادي تكثر فيه أقوال الملاحدة وأمثالهم ومأثوراتهم ، وكذلك شعراء الاشتراكية ، تكثر فيها التضمينات التي تشرح أفكار لينين واستالين وماركس ، والشعر الماجن الفاحش البذيء تكثر فيه الألفاظ الخادشة الساقطة ، كما تكثر التضمينات والاستشهادات بأقوال الماجنين والساقطين والمتفحشين من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ومن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بعد أن شاعت وراجت في ديار الذين لم يؤمنوا! فإن الشعر الإسلامي تقوم أسلوبيته على الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة! ويبدو ذلك جلياً في إتيانه بنصوص الوحي أو شرح معاني تلك النصوص في شعره!

وتحت عنوان: (المؤدى الفني في الشعر الإسلامي بين التنظير والتطبيق) يقول الدكتور نبيل قصاب باشي ، ما نصه بتصرفٍ زهيد: (إن منهج الفن الإسلامي الذي طرحه الكاتب الإسلامي "محمد قطب" في كتابه الشهير: "منهج الفن الإسلامي" منذ قرابة نصف قرن مضى ، يُعَدّ التنظير الأعرق والأوفق الذي تنطلق منه محاور نظرية الأدب الإسلامي وأدواتها الفنية ؛ فما حظ شعراء الأدب الإسلامي من تمثل هذا المنهج واستيعاب محاوره؟ هل فقه شعراء هذا الأدب باستثناء القليل منهم غائية هذا المنهج؟ هل أدركوا المنظور الفني الذي ارتقى به الكاتب ارتقاء بوّأه بحق أن يصنع من الفنان الإسلامي مبدعًا إسلاميًا ، يتقن الأداة الفنية التي تسعفه من الانزلاق في هوة التقرير والتكرير والمباشرة؟ هل عقل جل شعراء هذا الأدب تجربة مُنظِّرِ هذا المنهج حينما عرض لها مشيرًا إلى مصيرها وإلى بواعث تأليفه كتابَه؟ يقول قطب: "....كنت في فترة من الفترات أقول الشعر ، وقد ظللت اثنتي عشرة سنة أو تزيد أقول في معنى متكرر ، كلما اتجهت إلى الكتابة وجدتني أكتب في نفس المعنى ، وإن اختلفت المشاعر المباشرة الدافعة إلى التعبير"! ويفسر الكاتب أزمة ضياعه الفني حتى ينتهي إلى القول: "ثم وجدتني دون قصدٍ مني أنصرف عن قول الشعر". لقد أدرك "قطب" غائية الفن الإسلامي الأصيل مُلمّحًا إلى أن الجمال الفني لا يكون في تداول المعنى وتكريره ؛ وهل تكرير المعنى سوى تعطيل لملكة الإبداع وتجهيل وقتل لثقافة المبدع والمتلقي على حد سواء؟ إن الشاعر المقلّد ناقل أمين فقط لما طرحه السلف وما يطرحه الخلف ، وليس في ذلك فضل؟ وليست هي رسالة المبدع التي يتوخاها منهج الفن الإسلامي. إن منهج الفن الإسلامي يسعى إلى توخّي الجمال وتصيّده ، واقتناص فرائده موازنًا بين جمال الشكل وجمال المضمون ، في منظومة علائق بلاغية صادمة للحس والخيال على حد سواء ، ولا يتأتى ذلك من اجترار المعاني وتكريرها ؛ وما لم يتسلح المبدع بأدواتٍ فنيةٍ جديدةٍ ؛ فإنه سيتخلف عن معطيات الثقافة الحضارية ، وسيجد نفسه تلوب

في مكانها ، وسيظل عاجزًا عن التصدي لتقاناتها الحديثة. إن نواتج منهجية قطب الفنية في محصول طائفة من النتاج الشعري الإسلامي مازالت خاوية ، لم تقدّم حتى اليوم حصيلة تجاربها التي ربت على نصف قرن ؛ وليست العِلة في المنهجية ؛ وإنما العلة في التقصير أو العجز أو التخلف عن استيعابها وتمثلها. وهذه إشارة واضحة إلى خواء ثقافة بعض المبدعين الإسلاميين الفنية ، وتقاطعهم مع أدبيات منهجهم الفني الذي بسطه "قطب" في كتابه. وهذا بالتالي يجرنا إلى الحديث عن نواتج إشكالية هذا التقاطع والبحث في عِلته وأزمته. إن أفظع نواتج هذا التقاطع هو قتل الذائقة الفنية الناجم عن نصوص مكرورة المعنى ، باهتة في علائقها البلاغية والبيانية ، وإنها لأشد وأنكى من قتل الذائقة الناجمة عن تذوق نصوص حداثية متطرفة ، وكلاهما يسهمان في إغلاق ملكة المبدع والمتلقي وإزهاقها ، ويحجبان عنها متعة التفتيش والإدهاش. وهذا ما يمضي بنا بادئ ذي بدء إلى التذكير بغائية الجمال الفني التي انطلقت منها محاور نظرية الفن الإسلامي. يرى "قطب" أن الجمال على إطلاقه هو منزع رئيس من منازع النفس الإنسانية ، يتأتى في توخي الجمال المنثور في الكون والحياة ، والذي يتمشى مع ناموس الوجود ، وهذا الجمال مطلق من الضرورة خلقه الله لنذوق متعته فحسب ؛ إن الإنسان في التصور الإسلامي ينشد الجمال لأنه فطرة الله في خلقه. وعليه ينبغي أن يتملى المبدع هذا الجمال ، في إطار من التوازن ، لا تتغلب فيه شهوة الجسد على ملكة العقل ، ولا ملكة العقل على واقع الأرض ، ولا عالم الروح على عالم الحس ؛ وهذا التوازن ينبثق منه فن إسلامي يوازن بين "عالم الضرورات القاهرة وعالم الأشواق الطائرة" وبغير هذا التوازن يتأطر الجسد في جمود المادة ، وتتأطر الروح في رهبانيتها ، ويتأطر العقل في جفاف التفكير الذهني ؛ وبذلك يشتط المبدع عن غائية الجمال في الفن ، فينعكس ذلك سلبًا على عواطف النفس الإنسانية ، وتنقطع صلتها بجاذبية الفن ومتعته. إن الفن فكرة صامتة تصيح بإيحاءاتها لا بمعانيها..تشف بدلالاتها وترف بإشاراتها فحسب ؛ لا فكرة مثرثرة برمجها العقل ونسقها المنطق ، تقدم لنا المعاني جاهزة على طبق من ذهب. إن الفن ومضة خاطفة تنبثق من باطن النفس ، فتعوم على سطحها عومًا نحاول أن نتغور أعماقه ، لعلنا نتلمّس من بين ومضاته برقًا ينذر بالغيث ، لكن لا نستطيع أن نتنبأ بالأرض التي سوف تحضن هذا الغيث ، ولا بالأزهار والأشجار التي ستنتشر في مختلف البقاع والأرباع ، ولا بالألوان والظلال التي سيختارها مُنزِل هذا الغيث ومُبدِع جماله. وقد يكون برق هذه الومضة برقًا خُلَّبًا يمضي بنا إلى سراب ، ويضرب بنا في غياهب من ضباب. وبين البرقين مفترق طريق بين جمود التقليد وجديد الحداثة ، وبين هذين البرقين أيضًا مفترق طريق آخر بين الحداثة الإيجابية والحداثة السلبية. وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نستطلع الملامح الجمالية في المؤدى الفني للأدب الإسلامي ، والمدى الذي حظي به سلبًا أو إيجابًا. إننا سنُمنَى بخيبة أمل إذا تبين لنا أن جل شعراء الأدب الإسلامي ، يعتقدون أن الفن الإسلامي هو الدعوة إلى الإسلام ، في إطار من الحِكَم والمواعظ والإرشادات أي: في إطار من المعاني الجاهزة والأفكار المتمنطقة. إن في هذا الاعتقاد فهمًا ضيقًا للدين والفن على حد سواء. يقول قطب: "إن الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن ، فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنّح لعالم الكمال ، وكلاهما ثورة على آلية الحياة". فالفن عند قطب انطلاق من عالم الضرورة...شوق مجنح..ثورة على آلية الحياة..ويرى أيضاً أن الإنسان إذا تلبّدت نفسه ، يمر مرورًا آليًا على هذا الكون ، فيتجمد شوقه العلوي ، ويضيّق على نفسه المنافذ ، فلا يرى نفسه منطلقة مجنّحة ، مرفرفة في عالم الجمال ، إنه "قد أغلق

نفسه دون عالم الفن والجمال ، وبالتالي يكون قد أغلق نفسه دون عالم العقيدة". فقطب يربط بين الفن والعقيدة ؛ لأنهما يلتقيان في أعماق النفس كما يلتقيان في عالم الوجود ، ثم تجده ينتهي إلى القول الصريح: "الفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام ، وهو على وجه اليقين ليس الوعظَ المباشر ، والحثَّ على اتباع الفضائل ، وليس هو كذلك حقائقَ العقيدة المجردة ، مبلورةً في صورة فلسفية ، فليس هذا أو ذاك فنًا على الإطلاق" فالفن الإسلامي في منهج قطب" هو الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود..هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان..". إن الفن الإسلامي يتناول ما يجري في هذا الوجود تناول استشعار واستشفاف بحس المؤمن الجميل المنطلق في عالم الجمال من شتى نوافذه المطلة على فضاءات الحق والجمال. إن "قطبًا" لا يقبل من المبدع أن يتناول شخصية الرسول وهو الأعلى مقامًا أو سيرتَه أو أيةَ غزوة من غزواته أو أية حقيقة من حقائق العقيدة في معزل عن التعبير الجميل الذي ينطلق من حقائق الوجود من خلال التصور الإسلامي لهذا الوجود ، "كأنْ يصور المبدع الحق حقيقة النبوة بأنها إشراقة كونية ، أو حقيقة واصلة بين السماء والأرض ، تسير بقدميها على الأرض ، وترفرف بروحها في السماء..فحين ذاك يكون فنه إسلاميًا صادق التصوير لحقائق الإسلام". أما أن يؤطر دلالة النبوة في أفكار وسير نبوية ؛ فذلك فن لا يكون إسلاميًا على حد تعبيره. فالأفكار المجردة والقوالب الذهنية في منظومة العلائق البلاغية القديمة ، تخرج من دائرة الفن الإسلامي الذي ينشد الجمال الفني. والجمال الفني لا يكون في إطار الإبداع المعجب إذا أسرف الفنان واشتط في التقريرية المباشرة والنمطية المكرورة ، إنه يفقد بهتته ودهشته ، فيعطل في نفس المتلقي ردة فعله الجاذبة الماتعة ، فينحرف بذلك مبتعدًا عن غائية الفن الإسلامي. إن "الفنان هو العدسة الكاشفة التي تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التي لا تراها العين" ، ولعل "ومضة واحدة في لحظةٍ خاطفة..تفعل في النفس مالا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس والثقافات والاطلاعات التي توسع مدارك النفس ، وتعمق صلاتها بالكون والحياة". إن كثيرًا من شعراء الأدب الإسلامي لم يفقهوا آلية هذه العدسة التي تفيض أطيافها بشتى ألوان الجمال وظلالها الممتدة في أعماق الأشياء والموجودات التي ينبغي أن يراها المبدع بعدسة بصيرته وحسه ، لا بعدسة عينه وبصره. ويكفي أن تنفذ هذه العدسة إلى بواطن الأشياء نفوذًا خاطفًا ، يترك في نفس المتلقي أثرًا عميق المدى والفضاء ، يجعله أكثر صلة بالكون والحياة. إن تقوقع كثير من شعراء الأدب الإسلامي في بوتقة الوعظ المباشر ، يحجب عن النفس مُوحياتها ، فيرتكس حُداؤها الصاعد عن نبش ما في طاقة الإنسان من مكنونات. يقول قطب: "الإسلام حداء إلى الصعود. والفن الإسلامي أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود. ولكن بالإيحاء بما في طاقة الإنسان من مكنونات...". وإذا نظرنا إلى فلسفة الجمال الفني في نظرية الأدب الإسلامي ، وجدناها تُجيب عن مجموعة من الأسئلة هي:- كيف تناول الإسلام فلسفة الجمال بوجه عام؟ وما مدى تمثل الشاعر الإسلامي محاورَ هذه الفلسفة وملامحها؟ وهل للفنان المسلم أن يختار الأداء الفني الذي يشاء؟ وما حدود معايير أدواته الجمالية؟؟ ينطلق الإسلام في فلسفة الجمال بوجه عام من دأب القرآن الكريم على التنبيه الدائم إلى مواطنه في كل مشهد من مشاهد الكون والطبيعة ، والحض على تذوقه وتوخيه فالله جميل يحب الجمال. ويذكر "محمد قطب" مُنظِّرُ منهجية الفن الإسلامي أن الباعث إلى تأليف كتابه هو ما كان يتحراه في كتاب الله عز وجل باحثاً عن إشارة لتذوق معاني الجمال ومجالاته المتعددة المتنوعة ، حتى وجده في

التوجيه الفني والجمالي الذي لمسه في تنبيه الإنسان إلى ما في هذا الكون من جمال ، وإلى ما في كتاب الله من صياغة جميلة معجزة في التعبير عن هذا الجمال بحيث يتسق جمالها مع جمال هذا الكون. ويتحدث "قطب" عن فرحته العظيمة يوم أن هزت نفسه هذه الآية: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ). إن لفظة الجمال فتحت للكاتب آفاقًا مشرقة ومنافذ عدة من التأمل والتدبر. ورأى أن القرآن الكريم استعرض بعض مشاهد الطبيعة فأفاض في تعدد أنواعها وألوانها "واستخدم لبيان التنويع أداة فنية معينة هي تنويع السياق، ليساعد على استنكاه التنويع في الطبيعة". ويعلق على قوله تعالى: (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) ، لم يقل هنا كلوا من ثمره لأن السياق سياق استشفاف لمواطن الجمال وألوانه ، قال: "انظروا بعيون مفتوحةٍ وحس مستشرفٍ لتملي الجمال..لأن المعرِض معرِض الجمال المبثوث في الطبيعة والقدرة القادرة التي تبدع الجمال" ، وانظر أيضًا إلى قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) ، إن القرآن الكريم هنا لا يلفت النظر إلى الطبيعة بقدر ما يوجه النظر إلى الجمال: الجمال الطبيعي الذي يتعانق مع جمال التعبير وأثر هذا الجمال في النفس والحس. وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) ، إن القرآن الكريم يرسم لوحة تشكيلية رائعة من لوحات الظلام في مشهد من مشاهد الطبيعة ليس لعرض المشهد فحسب ، "وإنما لتصوير حالة الظلام النفسي الذي يورثه الكفر للنفوس فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة يتملاها الحس والخيال ويعمل فيها الفن بحرية وانطلاق". فكيف يتناول الفنان المسلم ملامح هذا الجمال؟ وهل هو حر في اختيار أدواته الفنية؟ وهل استطاع أن يستوعب هذه الأدوات ويتمثَّلَها خير تمثيل؟ إن غائية الفن الإسلامي كما ألمحنا مرارًا هو "أن يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية.. وألوانُ الجمال لا حدود لها فهي لا تقف عند حد الحس ولا تنحصر في قالب محدود ". وإذا كانت أولويات الفن الإسلامي إبرازَ دور العقيدة في حياة الإنسان كما يرى "قطب" فإنه ينبغي على الفنان أن يحتاط الاحتياط الكامل من أن يصبح خطابه خطابًا وعظيًا أو قوالبَ فلسفية جامدة تنحرف بفنه عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص. ويرى أنه " ليس من الضرورة أن تُذكَر العقيدة صراحة أو أن يُذكَرَ الدين؛ وإنما تُرسَمُ الحياة من خلال العقيدة وأثرِها في النفوس ". وإذن فهل من الضرورة أن يتقيد الفن الإسلامي بالموضوعات القرآنية وأغراضها التعبيرية وطرائقها الفنية؟ إن الفن الإسلامي كما يرى "قطب" ليس مقيدًا بالموضوعات القرآنية ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا بطرائق التعبير"! إن طرائق التعبير ومضامين موضوعاتها متاحة أمام المبدع الإسلامي "فهو حر في اختيار موضوعه وفي طريقة أدائه وفي اختيار النسب والأبعاد والأضواء والظلال في كل لوحة مفردة يرسمها مادام لا يخرج عن النسب العامة التي ترسمها مفاهيم القرآن الكونية الكبيرة". فشرط قطب إذن هو أن تتطابق مقاييس الجمال الفني مع مقاييس الجمال الكوني الذي يستند إلى التناسق الملحوظ لا إلى العبثية والفوضى "فالنجم طليق في مساره الصحيح خفيف الحركة رشيق الانطلاق لكنه لا يخرج عن مساره ويصطدم بغيره من الأفلاك" ؛ وحال الفنان المبدع الملتزم حال النجم سواء بسواء ينبغي أن ينطلق في عوالمه المرفرفة ناشدًا الجمال ، مختارًا ما يشاء من طرق أدائه ، ولمحات تعابيره ورشاقة تصاويره ؛ لكنه لا يخرج به ذلك عن التناسق

الجميل إلى الفوضى المنفّرة والعبث الاعتباطي. فهل هذا يعني انعزالية الأدب الإسلامي بما فيه الشعر عن الأدب العالمي؟! إن رؤية نظرية الأدب الإسلامي في التلاقح الثقافي الفني بارزة جداً! فالإسلام لا يحجر على العقل كما لا يتقوقع في مكانه ، بل يأخذ من الآداب العالمية ما يتناسب وعقيدته وشريعته! ولقد توافق جل نقاد الأدب الإسلامي على التواصل مع فنون الأدب الحديثة والاقتباس من معاييرها الجمالية ؛ وقد نصّتْ مبادئ رابطة الأدب الإسلامي العالمية على أن "الأدب الإسلامي يفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة ، ويحرص على أن يقدمها للناس وقد برئت من كل ما يخالف دين الله عز وجل ، وغنيت بما في الإسلام من قيم سامية وتوجيهات سديدة" ، ولا يرفض الدكتور عماد الدين خليل أيضا أن يتعانق منهج الأدب الإسلامي مع آداب الأمم والجماعات والشعوب فيأخذ منها الصيغ التي تضيئ هذا المنهج ، ولا يرى أن يغفل الدارس "عاملاً منها مادام يخدم هذا التوجه الشمولي ولا يرتطم في أساسه ببداهات العقيدة وتوجهاتها ، فالأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص بالتقييد كما تقول القاعدة الفقهية". وهو التوجه نفسه الذي طرحه محمد قطب في "منهجه" قبل نصف قرن مضى حين لم ير حرجًا من الاستمتاع بالفن العالمي الذي قد تغاير مسيرته الفنية منهج الفن الإسلامي لكنها قد تتوافق معه أيضًا ، وقد يكون فيها لون من ألوان الجمال. ونحن نرى أن نقتبس من معايير الفنون العالمية الحديثة كل ما يتوافق مع طبيعة الفن الإسلامي ومذاهبه الأدبية. فالحداثة الإيجابية التي ننشدها ، ونرى فيها توافقًا مع معاييرنا الجمالية أمر لا ينبغي أن ندير ظهورنا له ، ونخسرَ بتجاهلنا له نوافذ عدة نطل منه على أدوات الجمال الفني الجديدة. إنه لا ضير أن نقتبس من معايير الحداثة ما يمنح نظرية أدبنا الإسلامي حركة ثقافية متنوعة ، يندفع فيها التوهج بأطيافه الجمالية المتنوعة ، ويقتلعنا من حال الركون والسكون إلى معايير مفعمة بالحركة ، ممتدة في اتساعاتها ومداراتها. إن تجديد الحياة الفنية ، وضخ ماء جديد في أوصالها ، يجعلها أكثر نضارة ، وأمتع حلاوة ، بما سيتمخض عن جديد مائها من جديد النبات والثمر ، ولا ضير أن نضخ هذه الحياة بجديد الحداثة الغربية ؛ ف "قطب" لا يرى حرجًا من أن يلتقي جميل هذا الجديد مع منهج الفن الإسلامي ، ولا يرى أن ننبذ هذا النتاج العالمي الضخم ، أو أن نمتنع عن قراءته ومدارسته ، والاستمتاع بما فيه من جمال جزئي. إذن لا ضير أن نستعير أدوات هذا الجمال الجزئي في أدبيات فنوننا الإسلامية ؛ وإذا كان "قطب" يلمّح بذلك إلى جمال المضامين الذي ينبثق من تصور معين للكون والحياة والإنسان ، فإن جمال الأداء الفني أولى وأشد ضرورة ؛ لأن المبدع في رؤيته حر في اختياره الأداء الذي يشاء ، في إطار الحفاظ على المفاهيم العامة للجمال في التصور الإسلامي كما ألمحنا إلى ذلك من قبل . إن الركون إلى مساحة من الجمال الفني أعني التراوح في ميادين العلائق البلاغية القديمة يقتل في النفس الحركة الجاذبة لكل مدهش ومذهل وعجيب ؛ وحين يصبح الجمال مألوفًا في الحس والخيال ، يعطّل مدارك النفوذ إلى المشفوف من مكنوناته المخبوءة ، وجولاته الماتعة التي تتقفى أسرار إيحاءاته ومغاورها العميقة. إن الطبيعة تعلمنا أسرار الجمال الذي فطرت عليه ، فتقدمه لنا في أزياء مختلفة من الزمان والمكان...فهذا مشهد واحد تفتنّ الطبيعة في عرضه: إنه الشمس مثلاً التي تفتن في زيها ، فتبدو جميلة حين تنسلخ أول الفجر من الليل ، فتنشق رويدًا رويدًا ، تكشف عن برقعها الجميل على استحياء ؛ ثم تتزيا زيًا آخر عندما تعرض جمالها في وضح الضحى الساطع ؛ ثم تذهب بك بعد طول سطوع في النهار إلى شفافية الغروب الذي يتأنق في وشاح ألوانه الشفقية. وكم تبدو الشمس جميلة حين تتمنع عن الظهور قليلاً خلف

غيمات متناثرة في الفضاء هنا وهناك ، كأنها خريدة حسناء تشتط في غنجها متوخية إثارة غيرتك ، ناهيك عن جمال غروبها في مشهدٍ بحري مدهش ، أو جمال اختفائها وراء واحة من الأشجار ، أو تواريها الأخير وراء قمة شامخة من شواهق الجبال ، أو بين مهاوي شعابه ، أو وراء الامتداد الواسع من كثبان الرمال الضاربة في مجاهل الصحراء. إنك لتشعر بحميمية واشجة ، وأنت غارق في قزحية هذه الألوان وأطيافها المختلفة في مخلوق طبيعي واحد في هذا الكون ؛ لهذا لا غرابة أن نستشعر هذه الحميمية العميقة في قولة النبي - صلى الله عليه وسلم -: "يا ليتني كنت شجرة تعضد" ، أو قولته في جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه". إنه استشعار بحقيقة الجمال ، وانسجام ضارب في عالم الأشواق مع الأشياء والأحياء ؛ إنه تفسير فطري لطبيعة النفس التي فطرت على حب الجمال ، ولطبيعة أجسامنا الماكثة في الأرض المرفرفة بأرواحها إلى السماء. فما المؤدى الفني بين تنظير المنهج ونواتج التطبيق؟ وهل امتثل شعراء الأدب الإسلامي لثقافة هذا المنهج الذي طرحه قطب منذ نصف قرن؟ وهل استطاع مؤداه الفني إثراء الأدب الإسلامي وبلورة نظريته النقدية؟ هذا هو السؤال الذي تنتهي إجابته عند المفارقة الواضحة بين تحديث المؤدى الفني في الأدب الإسلامي وبين التنظير والتطبيق. لقد استعرضنا فيما سلف المحاور الأساسية لنظرية هذا المنهج من حيث التنظير في الكشف عن معاييره وأدواته الفنية ، وبقي أن ننظر في تمثل هذا التنظير بعد مضي نصف قرن تقريبًا على طرحه. إن الإجابة على هذا السؤال في هذه العجالة لن أوفيها حقها تمام الوفاء وهي أقرب ما تكون ورقة بحث ليس غير. لكني سأجتهد اجتهاد المقل لا الممل. أزعم أن فريقًا كبيرًا من شعراء الأدب الإسلامي لم يتمثلوا هذا المنهج خير التمثيل والتطبيق ، ولم يستطيعوا هضمه واستيعابه وامتلاك أدواته الفنية وإدراك أبعادها الجمالية ؛ بل تراهم شذر مذر في مؤداهم الفني. ولا ضير أن يكون شعراء اتجاه عريض من اتجاهات الأدب مختلفي المنازع والأهواء في اختيار المؤدى الفني لطرائق أساليبهم الأدبية ؛ لكن العجز والقصور عن تحقيق أدنى معايير الجمال في هذا المؤدى أمر يحتاج إلى بيان واستقصاء. لقد تأملت أعدادًا كثيرة من "مجلة الأدب الإسلامي" التي تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، وعرجت على نماذج منها ، ابتداء من العدد الخامس عشر ، وانتهاء بالعدد الثاني والخمسين ، أتدبر قراءة نصوصها الشعرية قراءة أناة وتأمل ، متحريًا النظر في مؤداها الفني ، ومفتشًا عن أسرار جمالها ، وطرافة صورها البكر ، والافتنان في تناول مضامينها. وقبل أن أقدم النواتج التي انتهيت إليها يحسن بي أن أقدم نماذج من نصوصها الشعرية وأقتطف منها ما تتيحه لي هذه العجالة في هذه المجلة ، عازفًا عن ذكر أسماء أصحابها:

الغربة:-

غربة الإسلام عادت من جديد وقبضنا الجمر في عزم عنيد
نحن نمضي ، والرزايا حولنا تمطر الركب ببرق ورعود
لا نبالي سخر القوم بنا أم تلقونا بباقات الورود
نحن أغراب على درب الهدى نقتدي بالنجم في خطو وئيد

تأمل:-

لي في حياتك أمتي آيـــــــــاتُ ولنا إذا عبس الزمـــــــان عظاتُ
في عصر مبعوث الإله إلى الورى سمت الحياة ، وجادت الثمـــرات
والراشدون الأولون أئمـــــــــة صيد على نهج الرســـــول دعاة
والتابعون لهم بخيـــــــــر بعدما حل الفســـاد ، وجاءت الشبهات

ابتهالات:-

إلهي فك عن قلبي قتامـــــــــا وهيئ في رحابـــــك لي مقاما
فإن يشرق بهاؤك في ضميري وأوليت المحبـــــــة والسلامـا
أكن يا خالقي في الخلــق عبدًا أناب إليك إذ صلى وصامـــــا

عندما تبوحُ الجراح:-

قلب جريح في الدماء سيغـــــرقُ ومشاعـــر تسبى وحينا تعتــقُ
إن الصديـــق إذا تقادم عهـــــده خان الـــوداد وقد يخون الأوثق
لا تنكروا هذي الجراح تقــول ما فعل الصديق ودمعها يتدفـــــق
أخفيت دمعا قد بدا ومشاعـــــرًا فضحتك أبيات تنوح وتشـــــرق
قلت المصائب قد تنـــوء بحملها فتساعد الأبيـــــــات قلبًا يخفق

عُرس شهيد:-

أنت "رامي" ودرة ومحمـــــدْ وأزيز الرصاص والكون يشهدْ
مت ، بل عشت فالشهادة جسر لحياةٍ أعلى وأغلى وأرغـــــد
والذي يدرك الشهـــادة ضيف عند باريه في الجنـــــان مخلد
يصطفيه الرحمن فهـو المجلي في الحياتين والكريم المســود
يا قباب الأقصـــى التي نفتديها إننا عائدون ، والعود أحمـــــد
في زحـــــــوف يقودهن همام هو رام ودرة ومحمـــــــــــد

وكيف يُغرد السرب؟

من يدفع السرب كي يشدو على الوترِ بين الخمائل والأضـــــــواء والقمرِ
يا راية المجـــــــد من يُعليك مَكرمة يرنو بلهفته للمجد والظفـــــــــــر
قد أطلق القـــوس والأرماح غاضبة كي يشعل الأرض من جمر ومن شرر
يعانق الفجر أنواراً معطـــــــــــرة فيها من الذكـــــــر والآيات والسور

يسابق الطير في الأجـــــواء سابحة حيناً وآخر بين الـــــــدوح والشجر
يمضي وقد ملأ الأرجـــــــاء قاطبة من شعره طيب الأغـــــراس والثمر
كي ترتقي أمـــــــة الإسلام من وهن تعلو ذرى المجـــد بين الخلق والبشر

العيد في أريحا:-

العيد أقبل لا بشر ولا طـــــربٌ ولا سرور ولا ضحك ولا جـــــذلُ
المسلمـــــــون بأرض الله قاطبة في غاية السعـد لا شكوى ولا ملل
لكننا في أريحا في أســـى وضنى وضيق حال وبـــــؤس ما له مثل
إنا نعيش حياة لا ســـــرور بها في كل شبر لهيب المـــوت يشتعل
العيد جاء وولى دونما فـــــرح والحـــــال فينا له قد يسقط الجبل
متى تعود فلسطيـــــــن بكاملها لأهلها كي ينام القلـــب والمقـــــل

يا حامل القرآن:-

ماذا أخـــط إذا أتى القـــــرآنُ نورًا به كل الدنـــا تـــــــزدانُ
يا حامل القـــرآن علمنا الهدى كي نستبين إذا أتـــى الطوفـــان
علم لنا الأجيـــال من قرآننـــا فالنور ذكر في الدجـــى رنـــان
علمهم الترتيـــــل روحانيـــة بين الليالي إن أتى رمضـــــان
حتى يفوزوا بالجنان وبالرضـا ونصيبهم من قبلها الغفـــــران
هذا هو القـــــرآن في أنواره عبق تـــــذوب بحبه الأجفـــان
دوما يعطرنا بأنسام الصفـــا فإذا الوجـــــود تلفه الأفنـــان
وإذا الوجـــود مسبح ترنيمة سبحانك اللهـــم يا رحمـــــــن

غدر اليهود:-

جن اليهـــــود فأشعلوها نـارا عادت عليهم خيبـــــة وتبـارا
شعب الجبابـــرة الذين عرفتهم خاضوا الحروب ودوخوا الفجارا
ما آمنوا بالله والإســـــلام إلا زادهم إيمانهم إصـــــــرارا
أبطال جالـــــوت وحطين الألى طلعوا على هـــام الزمان فخـــارا

الحب:-

الأرض تسجد والجبيـــنْ لله في حب وديـــــــنْ

فالحب دنيا أشرقـــــت آفاقها بالساجديـــــــن

الحب نور مؤمـــــــن يأوي لصـــدر المؤمنيــن

الحب نجوى المتقيـــن الحب شكـــوى الصابرين

لقد آثرت في قراءة هذه النصوص أن أضمها في محورين: ذاتي وموضوعي ؛ تنوعت مضامينهما بين دينية ووطنية واجتماعية ووجدانية لنلاحظ كيف اختار شعراؤها نمطًا واحدًا من الأسلوب التقليدي تحسبها كأنها لمبدع واحد يكرر نفسه ويدور في فلك صياغة واحدة في شتى المضامين. لقد كانت هذه النصوص نماذجَ واضحةً للمباشرة والتقريرية في التعبير والتصوير. ويحسن بنا أن ننبه ها هنا أنه ليس في التقريرية والمباشرة عيب فني إذا كان لدى المبدع طاقة إبداعية يؤدي فيها المعنى أداء لا يخلو من طرافة وإدهاش. وشعرنا العربي قديمه وحديثه متخم بفرائد المعنى التي يغني جمال تفردها عن جمال ديباجتها الفنية ، وشفيف إشاراتها الدلالية ، وإيماءاتها الإيحائية. ولكن أن تخلو هذه النصوص مما يعجب ويغرب ، وتنتكس في رتابتها المملة ، فهذا ما نرغب أن نلفت إليه نظر المبدع كي يقلع عما هو فيه ، ويخرج من فلك الآخرين ، ليكون له فلك خاص ، تسبح فيه نجومه ومداراته فحسب. لقد تواكبت تراكيب هذه النصوص تواكبًا نمطيًا في رتابتها التقليدية ، وجمود مائها ، واصطفت ألفاظها باهتة عارية تمامًا من أية ومضةٍ من ومضات الإيحاء المشف ، والإشارات المرفرفة بأطياف دلالاتها ، والمتوهجة بلألآء حروفها. إنها ألفاظ في غاية التسطح والرتابة لا ماء فيها ولا حياة ، ناهيك عن خلوها من الديباجة المشرقة ، والسبك الأصيل ، والتركيب الرصين ، إنها تفتقر لأدنى المعايير التقليدية. وارتكس الخيال فيها ارتكاسًا كسيحًا تقوقع في صور مألوفة باهتة ؛ هذا فضلاً عن العيوب الأسلوبية كالألفاظ المترادفة التي أتخمت بها بعض النصوص من أجل الوصول إلى القافية نحو: (الأضواء والقمر /المجد والظفر/ الجمر والشرر/ الذكر والآيات والسور/ الدوح والشجر / الخلق والبشر) و (لا طرب ولا سرور ولا ضحك ولا جزل / لا شكوى ولا ملل). وتشتط هذه النصوص في اجترار الرموز الباهتة والتشابيه والاستعارات المكرورة التي لا تزال في مخيلة آلاف الشعراء منذ خمسة عشر قرنًا نحو: (البرق والرعود ، والأوراد ، والنجم ، وعبوس الزمان ، والقتام ، والقلب الجريح ، والغرق في الدماء ، والنور المعطر ، ولهيب الموت ، ونور القرآن ، والقرآن يأتي ، ورمضان يأتي ، والقرآن يُعطرنا بالأنسام ، واشتعال النار ، والأرض تسجد ، والحب نور ، والأبيات (الشعرية) تنوح ، وتحرق ، وتساعد القلب المخنوق). إنها نصوص صبت في موسيقا بحورها الشعرية ليس غير ، لم تذهب بنا في الخيال البعيد الذي يقتنص الصور البكر ، فتصدمنا تحليقاته المُجَنحة في إطار من العلائق البلاغية الجديدة. دعونا نؤكد مرة أخرى أن طرافة المعنى ربما تغني كما أشرنا سابقًا عن جمال التصوير ورشاقة التعبير ، لكنْ أي فضل في معاني هذه النصوص وأية صياغة حديثة تحمل بصمتها المتميزة؟ إنها معان شتى تعاورها الشعر العربي منذ أكثر من عشرة قرون ، فكيف تمثل مثل هذه النصوص حداثة في التعبير والتصوير تفضي إلى الجمال المتوخى في مؤداها الفني؟ أليس في مثل هذه النماذج ارتكاس لنظرية منهج الفن الإسلامي الذي دأب "قطب" على فلسفة أدواتها الفنية؟ إن مثل هذه النماذج تقتل فينا الذائقة الفنية ، وتغلق علينا منافذ مخزوننا الثقافي الفني فلا نستطيع أن نصول ونجول في تفسير أسرارها الجمالية ، فنحن

أمام نصوص خاوية من أدوات الجمال الفني، تحجبنا تمامًا عن الغوص في مجاليها ، وتؤطر فلسفة تذوقنا ومخزوننا النقدي في إطار مغلق ، لا نستطيع أن ننفذ منها إلى اكتشاف أية منظومة بلاغية فيها ، تكتظ بالمصطلحات الجمالية أو المعايير الفنية ، بحيث تغني نظرية النقد في مصطلح الأدب الإسلامي وتثري محاورها الفنية. إن مثل هذه النماذج يفضي بنظريتنا النقدية إلى العجز والجمود والتخلف عن مسيرة النقد الفني بعامة. ليس للمعاني ولا للألفاظ هنا أي فضل يرتجى في عالم الأدب ، وليس تعريضنا لها من قبيل التحليل والتفسير والنظر في مسألة تفضيل اللفظ على المعنى أو تفضيل المعنى على اللفظ ؛ فموضع النظر في هذه المسألة أتخم بحثًا وتنظيرًا في موروثنا البلاغي على امتداد أربعة قرون ابتداء من الجاحظ ومرورًا بالخطابي والرماني والجرجاني وانتهاء بالرافعي. تلك مسألة مضت وانتهت ، فنحن اليوم أمام مسائل نقديةٍ ونظرياتٍ فنيةٍ وفلسفاتٍ جماليةٍ تفرعت وتشعبت وغارت في مذاهبها الفنية غورًا بعيدًا، ينبغي أن نتهدّى إليها ونحذق أدواتها ، ونحسن اقتناص ما فيها من جمال ، واقتباس ما يتوافق مع أدبيات نظرية نقدنا العربية والإسلامية عل حد سواء.).هـ. وبعض الناس لا يريد أن يفهم أن الإسلام لا يعارض الشعر ، بل يُرشِّده فقط! فلا يسمح الإسلام للشاعر أن يسخر من القيم ، ولا أن ينال من الأخلاق ، ولا أن يعتدي على المبادئ ، ولا أن يتطاول على الدين ، ولا أن يتغزل بامرأةٍ ما بإشاعة الفاحشة ووصف مفاتنها الحسية بمنتهى الإسفاف! بداعي الحريات والنهوض بالشعر! بل يدعو الإسلام الشعر إلى أن يرقى بالغرائز ويرقى بالمشاعر والأحاسيس والعواطف! وتحت عنوان: (الشعر وموقف الإسلام منه) يقول الدكتور محمد بن سعد الدبل ما نصه: (لنقف على كل شيءٍ مِن خصائص الشعر في هذه المقطوعة مِن الشعر الإسلامي المعاصر الذي وَرِث الفضائل الإسلامية مِن إلهامات الشعراء في مختلف العصور الإسلامية التي اتخذت القرآن والسنة محرابًا لشِعرها وشُعورها ، ولنأخذ نموذجاً لهذي الإلهامات الندية:

ودعِ النايَ ، وخلِّ الوتـــــرا واهجرِ الكأس فقد طال السرى
لا الكَرى يُطبِــق أجفاني ، ولا عادت الأجفــان تَرضى بالكَرى
ولقد بتْنا سُكـــــارى لا نَعي واصطحبْنا نَستعيد الخِـــدرا
فإذا نحن على قارعـــــــة غادرتْنا طللاً مُندثِـــــــرا
لا تلوموا دولـــة البغي على بَغيِها الساحق حين انتصَــرا
السياســـات التي حاقت بِنا علَّمتها كيف تجني الظفـــرا
والقيـــادات هواها أن ترى أن كل الصَّيد في جــوف الفرا
والخيانـــاتُ حديثٌ يُفترى والعمالات كـلام يُمتـــرى
والشعـــارات لدَيهم ثروة تلمس الشمـــس بها والقمرا
فرَّقتْنا شيَعًا مجنونـــة ذهل العقـــل بها وانتحَرا
جرَّعتنا الســـمَّ مِن تأويلها ولقينا مِن أذاها الضـــرَرا

وبعد أن سكب الشاعر هذه العاطفة الإسلامية المتوهِّجة في هذه المعاني الإسلامية مؤنِّبًا ناصحًا لائمًا كل مسلم ، محاسبًا كان أو مسؤولاً عن المجتمع المسلم في كل أرض ، بعد أن تهدأ ثورة تجاربه الشعرية يأخذ في نفس طويل مِن الملحمَة مُعدِّدًا ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون المؤتَمنون على الإسلام ورسالة الإسلام فيقول:

أيها الساعون للمجـــــــد بِنا ... لن يكون المجـــــدُ إفكًا مُفترى
حـــــــرِّروا أنفسكم مِن إثمها ... واتركـــوا البغي وجافوا المُنكَرا
قد رجونا النصـــر مِن ثوراتكم ... فإذا نحن رجَعْنا القَهقـــــــرى
قِسمتنا قسمة ضيـــــزى بها ... بلَغ الأعـــــــداء مِنَّا الوطَرا
ما رأينا مِن فقيـــــــر يغتني ... منكم إلا الغنـــي افتقـــــــــرا
أشعلَت في كل نفس حســـــرة ... ورمَـت في كل قلب خنجَـــــرا
يا عذارى الشعر أَسدِلنَ الـرُّؤى ... بدَّد الخَطبُ خَيـال الشعـــــرا
أنا رجعيٌّ لأني مؤمـــــــــن ... أتقي الله ، وأخشى القـــــدَرا
عربيٌّ مسلمٌ لا أنثنـــــــــي ... أتحدى بثباتي الأَعصُـــــــرا
قِبلتي مكـــــة ، لا موسكو ، ولا ... أمريكا، لا ، لا ولا إنجلتـــــــرا
كان في الليل لدينا عَسكـــــرٌ ... وصحَونا ففقدْنا العَسكـــــــرا

وتستمر أبيات الملحمة على هذا النسق بشعر يقرع جرسه الأذن ، ويملأ الفم ، ويستثير العواطف ، ويلهب الوجدان والأحاسيس تحت مقاطع مِن عناوين الملحمة ؛ كتصوير الشاعر نكبة حزيران ، ومأساة فلسطين وجهاد الفدائيين ، من ذلك قوله:

الفدائيُّـــــون يا زرع الوغى ... يا جنود الثأر ، يا أُسدَ الشَّـرى
يا نـــــداء الوحي في إقدامه ... يا ضياءً في الدياجي نـــــوَّرا
وحِّدوا أشتاتكم ، واتَّحـــــدوا ... واربطوا أحزابكم ربط العُـــرى
واصبِروا ، إن عَظُم الخطبُ فما ... يُدرك النصـــرَ سِوى مَن صبَرا
وانصروا الله يهبْكم نصـــــرَه ... واشكـــــروه يُعطِ مَن قد شكَرا

وبيت القصيد في هذا الشعر الإسلامي يُلهب الشاعر حماس الفدائي المسلم ليجعله ـ حربه وقتاله واستشهاده ـ في سبيل الله وله ؛ ليهبه النصر أو يهبه الشهادة في سبيله. وبعد ، فقديمًا قال النقاد: "أعذب الشعر أكذبه" ؛ أي: إن الشاعر متى اعتمدَ في صوره الشعرية على الخيال المُجَنَّح الغارق في المعاني غير الحقيقية كان في إلهامه الشاعري بعيدًا عن الواقعية ، مما يفرض عليه التعمية والألغاز أحيانًا في تلمس المعنى والخروج به إلى المتلقِّي في ثوب قد يُعري مِن الصحة ، ويَنعكِس الإبداع فيه إلى صُورة مُشوَّهة يَمُجُّها الذوق ويَنفر منها العقل وترفضها الفِطرة السليمة ، وتلك المَآخذ قد عري منها شعر الأستاذ حسين

عرب في كثير من أبيات ملحمتِه؛ ذلك لأنه في نزعته الإسلامية تقيَّد بالمعاني الحقيقية التي يمنحها الإسلام كل فرد ولكل مجتمع ، فانطلق الشاعر في صوره ومعانيه وأخيلَته من هدي الإسلام الذي هو معانٍ حقيقيَّة لا تَحتمِل التأويل والتخييل المُفرِط. هذه هي النظرية التي يؤصل الإسلام لها! ومِن خلال أفكار هذا النص الشعري للأديب حسين عرب، ومِن خلال نظرة الإسلام وتصوُّره الشامل للحياة يُمكننا القول عن موقف الإسلام مِن الأدب بعامة ، ومِن الشعر بخاصة: إن أول ما يَحسُن ذكره في هذا المقام أن نقف على شيء مِن النُّظُم والعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدةً إبان العهد الجاهلي لتَّتضح الرؤية في تحديد موقف الإسلام مِن الأدب عامة ومِن الشِّعر خاصة. وإذا كنا بصدد الكلام على موقف الإسلام مِن الأدب بعامة وموقفه من الشعر بخاصة فإن هنالك عادات ونظُمًا وتقاليد وأعرافًا وأخلاقًا درَج عليها العرب في جاهليتهم ، وجاء الإسلام فأقرَّ مِن هذا كله ما هو وثيق الصلة بتشريعاته وَفق كتاب الله وسنَّة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم. فمِن العادات التي درج عليها الجاهليون: عادات في الزواج ، وعادات في المِهَن والصناعات ، إلى جانب التمرُّس بأخلاق إيجابيَّة وأخرى سلبيَّة. فمِن الأخلاق الحميدة: عزَّة النفس ، كُرْه الذلِّ ، بغْض الظلم ، الترفُّع عن أخذ الديَة ، إكرام الضيف ، حبُّ السلام ، حفظ حقوق الجار. ومن الأخلاق السيئة التي تفشَّت في المجتمع الجاهلي: لهْو الشباب ، قلخ الشيوخ ، ابتذال المرأة صغيرة كانت أوكبيرة ، مُعاقَرة الخمر ، لعب القمار ، الدعوة إلى الثأر ، تأريث العداوات. وقد خالَج هذه الأخلاقَ ألوانٌ من المحامد والفضائل ؛ كصفاء النفس ، والإيمان بالله – تعالى ـ وإكرام المرأة للرجل ، وإكرام الرجل للمرأة ، التأثر بالحِكم الصادقة وحب المشورة ، والحلم والأناة. وحين جاء الإسلام أقرَّ مِن هذه القيم ما يلي: حب السلام ، الشجاعة ، الإيثار ، الكرم ، صلة الرحم ، حسن الجوار ، مساعدة الفقراء ، حسن المعاشرة ، الحلم ، الصدق ، الأمانة ، الوفاء ، الرأفة بالحيوان ، التكافل الاجتماعي ، مقْت الظلم ، حقوق المرأة ، الحقوق الزوجية ، برُّ الوالدين ، ثم ختم هذه القيم الرفيعة والمثل العليا بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وهذا يعني ـ بالضرورة ـ أن الأدب الإسلامي بمصدريه النثر والشعر قد اتخذ من هذه القيم مادته التي ينزع عنها في معالجة الأدواء التي يشكو منها الفرد والجماعة على حدٍّ سواء. وعلى الرغم مِن أن نُقَّاد الأدب قد نادوا بتأثير العقل والعاطفة والخيال على العطاء الأدبي ، فإن الإسلام في نظرته إلى الأدب قد وسَّع دائرة النظرة عند النقاد فسَمَا بالعقل ، وسما بالعاطفة ، ولم يَحجب الرؤية الأدبية مِن خلال الخيال الشاعري ، ولكنه عمل على تهذيب العواطف والارتفاع بخيال الأديب عن سفاسف الأمور ؛ حتى لا يطغى جانب العاطفة على جانب العقل ، فلكلٍّ منهما أثره وجدواه في جودة الأدب ورفعته ، وقيمه الفنية. وقد تحدث الإسلام عن المَعين الأول للأدب والقيَم الإنسانية كلها ، ذلك المعين هو (العقل) ؛ فقد جعل له الإسلام مزية تَفوق أرقام الحساب ، ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع في تأييد هذه المزية إلى المناقشات والمذاهب التي قد تَختلِف فيها الآراء. وتلك المزية هي: التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف. ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو ضمنية إلى العقل أو إلى التمييز ، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة ، وقد يلمَح فيها القارئ ـ أحيانًا ـ شيئًا مِن الزراية بالعقل أو التحذير منه ؛ لأنه منزلة العقائد ، وباب مِن أبواب الدعوى والإنكار. ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتي في كل موضع مِن مواضعها

مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتتكرَّر في كل معرض مِن معارض الأمر والنهي التي يُحثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يُلام فيها المُنكر على إهمال عقله وقَبول الحَجرِ عليه ، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد مِن معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها. وتتعمَّد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا يَنحصِر خطاب العقل في العقل الوازع ، ولا في العقل المُدرك ، ولا في العقل الذي يُناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعمُّ الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني مِن خاصة أو وظيفة. فالعقل - في مدلول لفظه العام - ملَكة يُناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع مِن المحظور والمنكور ، ومِن هنا كان اشتقاقه مِن مادة "العقل" التي يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارَد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين مِن البشر. وهذا يعني أن الأدب فنٌّ جميل قوامه العقل والعاطفة معًا ، فلا يَحسن أن يَطغى جانب أحدهما على الآخَر ، وها هو "العقاد" يُناقش مسألة الفن الجميل من خلال المنظور الإسلامي - الذي العقل والعاطفة مادته - فيقول: إن كثرة الأنصاب والتماثيل في المعابد والصوامع والبِيَع ليست بالقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة مِن الدِّين الذي يُدان به في المعبد أو البَيعة ؛ لأن المعابد الوثنية كانت تتَّسع للأنصاب والتماثيل ، وليست بالنموذج الصالح للأديان في الهداية إلى معاني الجمال والحضِّ على الفنون الجميلة، وهي في جملتها لا تَخلو مِن العبادات البَشِعة والشعائر القبيحة ، والعقائد التي لا تَجتمِع والجَمال في شعور واحد. إنما يُقاس نصيب الفنِّ الجميل مِن الدِّين بالنظرة السوية المُعتدلة إلى الحياة ، فلا يُقال عن دينٍ إنه يُحيي الفنون الجميلة أو يتقبَّل إحياءها إذا كانت له نظرة زريَّة إلى الحياة ، وكان ينظر إليها كأنها وصمه زريَّة ، وإلى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول وانحراف بالإنسان عن عالم الروح والكمال ، إن هذا ليس من الجمال في شيء. والإسلام - وهو يرعى حقوق الجمال والاستمتاع به - قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحضِّ عليها وحسبانها مِن نعمة الله التي يَحرُم على المسلم رفضها ويُؤمَر بشُكرِها ، والتفكير في آلائها: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) ، (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) ، ثم إن الجمال بمفهومه الواسع يكون في الصورة والمشهد واللمس والذوق والتمييز بين الأشياء ، ويكون في المظهر والمخبَر ، والصوت الحسَن ، ناهيك عن ترتيل القرآن الكريم من ذي الصوت الحسن الجميل ، قد أبيح للمسلم الترتيل القرآني وطولب به ؛ (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) ، (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) ، ولا أعذب ولا أجمل من صوت القرآن يَسري في الوجود مع سكون الليل).هـ. وهكذا ندرك أن الإسلام ليس له موقف مُعاد لشعر القيم والأخلاق مطلقاً! ومن هنا يتبين لنا الفرق الجوهري بين شعر القيم والأخلاق والشعر الإباحي المنحرف عن العقيدة والتوحيد من جهة والمخالف للأخلاق النبيلة والمبادئ الفاضلة! إن الشاعر المسلم ينطلق في شعره من عقيدة لا إله إلا الله ، فلا يصدر عنه في شعره ما يخالفها أو يناقضها! ومن هنا كان شعره مسلماً متوضئاً طاهراً! وتحت عنوان: (الفرق بين الشعر الإسلامي وغيره) يقول الدكتور محمد بن سعد الدبل ، ما نصه بتصرف: (لئن قيل: هل هناك فرق بين هذا الشعر وغيره مِن نصوص الشعر العربي في المادة والغرض؟ لئن قيل هذا ، فالجواب: إنه لا فرقَ بين نصوص الشِّعر مِن حيث القوالب ، فهذا وذاك بلسان عربي مبين ، ولكن هناك فَرقٌ بين اللونَين

من حيث الغاية والغرض. ومن هنا نجد نصوص الشِّعر ذي النزعة الإسلامية متميزًا على غيره من نصوص الشعر في هذا الشأن ؛ لأن الشعر الذي غايته بسط محاسن الشريعة الإسلامية والذب عنها وتوجيه المجتمع وخدمة الفضيلة لا بد أن يكون متميزًا في شَكلِه ومضمونه. ولا بدَّ أن يَرقى في خصائصه الفنية إلى ذِروة الإجادة والإبداع ؛ لأنه ذو كلمة طيبة ، والكلمة الطيبة لا تخدم إلا معنى غائيًّا طيبًا. ولئن قيل: لكن مادة الشعر العربي كله هي الكون ومَن فيه ، ومن عليه ، فلا فرق بين نصوص الشعر التي تستمدُّ معانيها وأغراضها من عوالم الطبيعة صامتها ومتحرِّكها. فالجواب: نعم ، لا فرق في كُنْهِ المادة حَجمًا ولونًا ، ولكن هناك فرق في تسخير هذه المادة وتطويعها لخدمة الفِكر والأدب بما ينفعُ الناس. فهل نَقرِن قول الشاعر العربي:

دعِ المساجدَ للعُبَّـــاد تَسكُنها وقم بنا نحو حانوتٍ ومِزمار

هل نقرن هذا البيت الساقط ديناً وقيماً وخلقاً ، بقول الشاعر الإسلامي:-

فدع عنك سوءات الأمـــور فإنها حرامٌ على نفْـــسِ التقيِّ ارتكابها

وأدِّ زكاة الجاه ، واعلـــــم بأنها كمثل زكـــــــاة المال تمَّ نِصابُها

وأحسن إلى الأحرار تَملِكْ رقابهم فخير تجارات الكـــراء اكتسابها

إنه فرق ما بين الثَّرى والثريا ، وهل نَقرن نظرة الشاعر العربي والشاعر الإسلامي - سواء كان عربيًّا أو غير عربي - هل نَقرِن نظرة الشاعرَين إلى الحياة حين ينظر إليها الشاعر المسلم على أنها وسيلة لا غاية ، ويَنظر إليها الشاعر غير المسلم أو الشاعر المسلم الذي لا ينزع في شعره إلى معاني الإسلام فينظر إلى الحياة على أنها غاية يتمتَّع بها الإنسان ويُرضي عواطفه ، ويُشبع غرائزه بما أبيح وبما حرم ادعاءً بأن هذا من حرية الفكر والأدب؟ فلو صحَّ أن نقرن هذه النظرة بتلك ، لَمَا صحَّ أن يكون هناك قانون وتشريع يهدي الناس إلى ما يُقوِّم حياتهم ويُسعدهم ، ويربطهم بآخرتهم التي هي السعادة والحياة الصحيحة والأبدية. ومن هنا لا يوجد فرق في مادة الشعر العربي سواء كان مِن اللون الإسلامي أو غيره ، فإن الكون ومَن فيه ومَن عليه هو مادة الشعراء ، ولكن تَختلِف النظرة من حيث تسخير هذه المادة. ولا بدَّ أن تَختلف الأغراض الشعرية عن الشعراء تبعًا لاختلاف نظراتهم ؛ فالمرأة - مثلاً - إحدى موادِّ العطاء الشِّعري ، لكنها في نظرة الشاعر الذي لا يَزِن الكلمة الشاعرية بمِعيار الإسلام ونظرته إنما هي ألعوبة ومتعة وتسلية ووصف مجرد ، لكنها في نظرة الشاعر المسلم وروايته الأدبية بيتُ طمأنينة وسعادة وسكون وعفَّة وطُهْر. ولذلك نجد أغراض الشعر الإسلامي مِن أجلِّ الأغراض وأرفعها وأشرفها ، ويكفي أنه فوق أغراضه التي تتناول عفَّة المرأة وطُهرَها ، وتتناول وصف الطبيعة للعِبرة والعِظة وإبراز عظمة الخالق، يكفي أن أغراض هذا الشِّعر تُتوَّج بشرح محاسن الشريعة ، والذبِّ عن رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم - ، والدعوة إلى الجهاد ، ووصف البطولات الإسلامية ، وتجسيد غايات الدعوة إلى دين الله ، ورثاء شهداء الإسلام ، وهجاء أعداء الله تعالى ، والعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق).هـ. ولقد كانت هناك نماذج شعرية عظيمة لشعراء مسلمين مؤمنين موحدين في القديم والحديث ، في مقابل نماذج أخرى ساقطة منها قصائد إلحادية ملعونة تسب الله ونبيه والإسلام ، وإن كان الشعراء الذين كتبوها منتسبين إلى الإسلام زوراً وبهتاناً! فالشاعر المسلم الذي وقر الإيمان في قلبه ، ويعلم

يقيناً أنه ذات يوم سيلقى الله بما كتب من أشعاره ، لا يمكن أن يُتصور أنه يكتب مثل هذا الضلال ويزعم لنفسه أنه لا يزال في دائرة الإسلام! وتحت عنوان: (مفهوم نظرية الشعر الإسلامي ودوافعها) يقول الدكتور محمد ويلالي ، ما نصه بتصرف: (لا شك أن للشعر دورًا فعالًا في إمتاع الناس ، وإغناء وجدانهم وخيالهم بما يحثهم على الخير ، وينشر بينهم من كريم الخصال ، وجميل الصفات ، وإن الخير في الأمة باقٍ ، والدعاة المخلصون لهذا الأدب الذين يحملون هذه القيم يتنامَوْن يومًا بعد يوم ، والكتابات تترى هنا وهناك ، والوعي بالقضية أخذ ينمو وينضج ، في وقت (كان الاقتراب من الأدب الإسلامي كالاقتراب من حقل مَلغوم ، أو منطقة محرمة... حتى إنه كان يبدو لبعضهم أن هذه الخطوة لن تكون غيرَ صيحة في وادٍ ، أو نفخة في رماد) ، لكنها خطوة قيَّض الله لها من ينافح عنها ، ويدافع عن دعوتها ، فاستوى عُودها ، وانتشرت في بقاع الأرض ، حتى إنك لا تكاد تجد مكتبة تخلو من تأليف حولها. فالشعر قسيم النثر في تحقيق مسمى "الأدب" ، ولقد دأبت كتب النقد قديمًا وحديثًا على تناول مصطلح "الأدب" بالدراسة أولًا ، ثم الانطلاق منه إلى مُكَونيه: الشعر والنثر ، من باب البدء بالعام للوقوف على الخاص ، وما دامت "نظرية الشعر الإسلامي "جزءًا من "نظرية الأدب" بعامة ، فإني سأقتصر في بعض مواطن البحث على استعمال مصطلح "الأدب الإسلامي" ؛ إذ ما يصدق على الكل يصدق ـ هنا ـ على الجزء. والمقصود بالنظرية ـ هنا ـ محاولة إيجاد نسق أدبي يحكمه التصور الإسلامي ، ويلفه المشروع الدعوي العام ، الذي يحاول أن يجعل من هذا الأدب وسيلة ناجعة ، تجلي هذا التصور ، وتركزه في النفوس ، انطلاقًا من أن الأدب وسيلة تأثيرية قوية في النفس المنفعلة الحية ؛ فالنظرية عمل يستهدف محاولة وضع الخطوط الكبرى التي يجب أن تحكم الأدب. والتنظير في الإسلام ليس بحثًا عن أسس جديدة ، تكون محض اجتهاد بشري ، تبنى عليها المشروعات المُزمَعة ، وليس ضربًا من الخيال يدغدغ شعور المفكرين القابعين في البروج العاجية ، ينزلون عليه هموم الناس وقضاياهم.. ، بل هو إعادة النظر في ثوابت هي أصلًا موجودة ، أقرها الدين ، وركز قواعدها ، وعالجها علماؤنا عبر القرون المتوالية ـ فيما يسمح لهم به شرعًا من الاجتهاد ـ ، وتنزيلٌ للنصوص على الواقع ، وربطٌ للمتغيرات بالثوابت ، ومن ثم صياغة نسق ينظِم حياة الناس ، ويجمعهم حول مشروع موحد. فالتنظير في الإسلام ـ إذًا ـ (لا يكون إبداعًا لشيء غير موجود البتة ، ولا إقامة كيانات صناعية في الهواء.. ، بل النظرية هنا مجموعة حقائق موجودة ، أو موجودة أصولها ، وصياغة جديدة لمفهومات قائمة في الأذهان ، وربما مبعثرة في صفحات متباعدة). على أن مفهوم النظرية ـ بشكل مجرد ـ ليس بدعًا في التاريخ الإسلامي حتى يقال: إنه من الوافد الدخيل الذي يجب أن يرفض ؛ فقد استقر عندنا مصطلح "النظرية الإسلامية للاقتصاد" ، و"نظرية علم الاجتماع الإسلامي" ، و"نظرية السياسة الشرعية".. فلا مانع ـ إذًا ـ من صياغة نظرية في "الأدب الإسلامي". هذا على مستوى شيوع المصطلح واستقراره ، أما على المستوى المعجمي ، فليس ـ كذلك ـ ما يمنع من استعمال النظرية بمفهومها السابق ، الذي يتضمن معنى التأمل في التراث الأدبي الإسلامي ، واستنباط الخطوط العريضة التي تحكمه. جاء في "مختار الصحاح": (النظر والنظران بفتحتين: تأمل الشيء بالعين) ، وفي "اللسان": (تقول العرب: دور آل فلان تنظر إلى دورِ آل فلان ؛ أي: هي بإزائها ومقابِلةٌ لها... و"النظر": الفكر في الشيء ، تقدره وتقيسه منك). كما أشارت المعاجم الحديثة إلى ما يثبت ذلك ؛ ففي "المعجم الوسيط": (نظر بين الناس: حكم وفصل بينهم) ، وجاء في "معجم المصطلحات

العربية في اللغة والأدب": (نظرية الأدب هي: دراسة أصول الأدب بعامة، وفنونه ومعاييره ومذاهبه عبر العصور والحدود القومية). ولاشك أن النظرية هي نوع حكمٍ على أدب ما ، وإنصافه مما داخله وليس منه ، كما أنها محددٌ للفواصل التي تباين أدبًا ما عن غيره ؛ جاء في "المعجم الوسيط": (النظرية في الفلسفة: طائفة من الآراء ، تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية) ، وهو ما يؤكد ما سبق من أن "نظرية الأدب الإسلامي" ، ما هي إلا كشف وجلاء للمقومات التي وضعها الإسلام لفن القول ، خاصة وأن معجزة الإسلام ذاتها معجزة قولية بالأساس. ولو ذهبنا نستقرئ نصوص السنة ، والآثار المروية عن الصحابة والتابعين ، لحصلنا على كم هائل من المعايير والضوابط الكفيلة بضبط معالم هذه النظرية المنشودة. ونسأل: ما هي إذن دوافع التنظير للشعر الإسلامي: لا شك أن الأديب رائد من رواد البشرية ، والناقد عين عليه ، ترصده لتقومه وتوجهه ، وهما الكفيلان بتصحيح مسار الأدب ، وإزالة ما علق به من غبار وأدران طوال هذه الحقبة التاريخية ، التي تمتد من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا هذا ، ومن هنا تأتي أهمية التوطيد لهذا الأدب ، ووضع نظرية متكاملة له. ولقد بات من الضروري وضع هذه النظرية ؛ ليتميز خالص الشعر من زائفه ، عن طريق وضع المقاييس الحقيقية التي تحكم جودة الأدب ، وجعلِ حد لهذه المذاهب السائدة ، التي تقطع الطريق أمام كل محاولة تروم الحق ، وتنشد الفضيلة ، إن النظرية كفيلة بأن تجمع الغيورين على هذا الأدب في خندق واحد ، وتنتظِمهم في سلك واحد ، بدل تبديد الجهود هنا وهناك ، التي - في الغالب - تقتصر على الأدب الدفاعي ، والنقد المعياري ، الذي يسير خلف الأدب ولا يتقدمه. إن غياب البديل الإسلامي دافع لاستهلاك السائد من هذه المذاهب ، التي - للأسف الشديد - رأينا من أبناء جِلدتنا من يبالغ في حمل أفكارها ، ويتفانى في الترويج لمعتقداتها ، مقتنعين بأنها تقدم النموذج المثالي للأدب الإنساني الرفيع ، وانعكس ذلك على إبداعاتهم ، فجاؤوا بما يصادم الإسلام ، بل ويحاربه ، تارة بمعاول الماركسية ، وتارة بمعاول الوجودية ، وتارة بمعاول اللادينية.. ووجدنا أدباءنا ونقادنا الإسلاميين حيارى أمام هذا الزخم الهائل مما تطلع به علينا الصحف والمجلات كل يوم ، وما تلقي به المطابع بين الحين والآخر ، فإذا ما تحرك أحدهم للتغيير ، فمن منطلق دفاعي فردي ، وفي غياب منهجية موحدة ، مما يفسر أنه: (أصبح من الضروري وضع خطة واضحة ودقيقة ، من أجل مراعاة مبدأ تراكم المعرفة في الإنتاج الفكري والأدبي الإسلامي الجديد ؛ حفاظًا على الطاقات ، ورعاية للقابليات.. كما لا بد أن تقوم دراسات ناقدة ، تجيب عن مجموعة أسئلة تحدد أهداف العمل وغاياته ، والحدود والشروط والوسائل اللازمة لترشيده وتوجيهه الوجهة السليمة ، وتجلي السلبيات والإيجابيات ، وتفك قيود التحكم الثقافي الذي يشل ويعطل فاعلية المسلمين). ولا ندري كيف ينكر الكثير الدعوة إلى نظرية في الأدب الإسلامي ، وهذه الإيديولوجيات الأخرى جعلت لنفسها مذاهب ، وجعلت لكل مذهب نظريته الخاصة ؛ فالإباحية مذهب ، والشذوذ الجنسي مذهب ، والعبث مذهب.. أفلا يتحتم علينا - نحن أيضًا - التفكير في مذهب إسلامي للأدب ، ينعم بنظريته الخاصة ، تحكم تصوره ، وتوجه مساره ، وهو الأدب الأكثر رحابة وشمولية ، والقادر على الوقوف في وجه الأدب المكشوف والمتهتك ، الذي لا يواجه بمجرد المصادرة والشعارات ، وإبداء الغضب والقلق والتأفف ، وإنما بالبديل القادر على منافسته. على أن هذه النظرية لا يقصد منه إقصاء الآخر وتنحيته ، ولا تدعي أنها وحدها على الحق ، وكل ما سواها على الباطل ، وإنما تسعى لتوجِد لها مكانًا بين النظريات الأخرى ، وتنتزع حقها في الوجود ، وعلى القارئ بعد ذلك أن

يتفاعل مع ما يأنسه من هذه النظريات ، ويأخذ ما يناسب اعتقاده وتصوره. ويمكن حصر أهم الدوافع لإيجاد نظرية للشعر الإسلامي ونقده في النقاط الآتية: أولاً:- ما عرفه الأدب الإسلامي - والشعر منه بخاصة - من تهميش وإبعاد ، من طرف العديد من النقاد والمبدعين المسلمين ، الذين يرون أن غاية الشعر تحقيق الكمال الفني والمكنة التعبيرية ، وأن من سلامة التصور وكمال النباهة عزل الدين عن الفن ، وأن كل أدب يعالج قضايا الدين هو تراث قديم ، يجب القفز عليه وتجاوزه. ثانياً:- هذا التحدي الخطير الذي ترفعه الدول الغربية في وجه المجتمعات الإسلامية ، وهو تسخير الفنون - والأدب واحد منها - لخدمة الدولة ، ومعتقدات الحزب ، والنمط الذي تبغي هذه الدولة أن ينشأ عليه أبناؤها ، فجعلت من الأدب - وبخاصة الشعر والرواية والمسرحية - وسيلة فعالة لتغيير العقول ، وتشكيل الوجدان ، وتوجيه الفكر ، ومن ثم لم تتأخر في صياغة نظريات عديدة للأدب. وقد اعتقلت الدول الاشتراكية الأدب بسياج عقدي مكين ، وقصرت دور الأدباء على خدمة إيديولوجية موحدة ، بل وهددت من خرج عن هذه السبيل ، كما فعل "ستالين" حين كون (اتحاد الكتاب السوفييت ، الذي أصبح أداة مباشرة لسيطرة "ستالين" على الثقافة... وأصبح النشر محظورًا على غير الأعضاء فيه) ، وأكد "لينين" كون الأدب (ترسًا ولولبًا في آلة اشتراكية ديمقراطية واحدة عظيمة). ثالثاً:- ظهور تيار "الحداثة المتطرفة" المعارضة للأدب الملتزم بقيم الدين تصورًا ومنهجًا وهدفًا ، الذي يعلن الثورة على الموروث ، بل ويقصد الانقضاض عليه ، فلم يعد غريبًا أن نجد من يدافع عن ويرفع صوته قائلًا: (يلزمنا أن نحيي شعر) ، SATANISME مذهب "تمجيد الشيطان" وينقب في كتب التراث ليستخرج منها كل انتهاك رديء، فيعتبره النموذج الذي يجب أن ينسج على منواله ، ويجد ملاذه في عربدة "أبي نواس" ، وجرأة "ابن أبي ربيعة" ، مناديًا: (إن الانتهاك هو ما يجذبنا في شعرهما). رابعاً:- تجاهل الدعوة إلى تمحيص تاريخ الأدب العربي ، المسبوك - في غالبه - بيد المستشرقين ، من حيث تدوينه ، وتقسيمه ، ودراسته ، الذين لم يألُ كثيرٌ منهم جهدًا في تزوير بعض حقائقه ، والطعن على خلفاء المسلمين ، والاستنقاص من البارزين من الدعاة والصالحين ، والترويج لكتب تخدم أهدافهم ؛ ككتاب: "ألف ليلة وليلة"، و"حي بن يقظان". خامساً:- اختلال المعايير في اعتبار الشعر الجيد عند بعض نقادنا القدامى ، فمنهم من نظر إلى اللفظ مجردًا ففضَّله ، وجعله وسيلة الشعر المقبول ، ومنهم من اقتصر على المعنى ، فجعل جماله مناط الشعر الجيد ، ومنهم من اعتمد صدق عاطفة الشاعر ، ومنهم من قسم الشعراء بحسب البديع ، ومنهم من فضَّل بحسب التقدم الزماني ، فجرد المتأخرين من كل مِدحة ، لا لشيء إلا لأنهم تأخروا في الولادة ، ومنهم من جعل شرف الشعر بشرف صاحبه ، وغضاضته بغضاضته ، ومنهم من رأى الأفضلية لمن ينظِم في جملة أغراض ، لا في غرض بعينه... وكلها معايير - في تصورنا - تنكَّبت الطريق ، حين لم تضع في الحسبان المعيار الأخلاقي ، الذي يجب أن يحكم المضامين ، والذي على أساسه يجب تقديم الشعر أو تأخيره. ولا شك أن هناك بعض الكتابات التي حاولت معالجة الموضوع ، لكنها تبقى مفتقرة إلى تجميع الجهود المحددة للقواعد العامة ، والضوابط السليمة للبحث ؛ حتى لا يحصل التناقض بين أنصار هذا الأدب أنفسهم حول القضية الواحدة ، وهذا ما دعا إليه الباحث "عبد الرحمن حبنكة الميداني" ؛ حيث قال: (الأدب الإسلامي بوجه عام ، وأدب الدعوة بوجه خاص ، يحتاجان إلى نظر جدي جديد حقًّا ، ويحتاجان إلى إعادة كتابة تاريخهما ، مع فرز الأدب الإسلامي من عموم أدب المسلمين ، ولو على طريق تحديد قواعد عامة ، ومع فرز أدب الدعوة من عموم الأدب

الإسلامي بمصنفات خاصة). ولن تعوزنا النصوص الجادة المانحة للعناصر الفنية والمضمونية ، التي على إثرها يقوم صرح النظرية ، وفي تراثنا ما يغني من المواقف والإبداعات التي لا تزال قابعة في بطون الكتب ، تحتاج إلى من ينفض عنها غبار الإهمال والنسيان ، فلا بد إذًا من (دراسة النتاج الأدبي الأصيل في ضوء التصور الإسلامي والنقد الإسلامي ، لإبراز ملامح هذا الأدب ، وتقديمه إلى القراء من خلال الصورة النقدية الجادة). وهنا وقفة ضرورية لا بد أن تأخذها محاولة التنظير بعين الاعتبار ، وهي تتعلق بنضوب أقلام النقاد في مجال استقصاء الأحاديث النبوية ، وتمحيصها ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ؛ إذ نرى أغلب كتب الأدب والنقد تحشد كل ما نسب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يتعلق بالموقف من الشعر ، دون روية أو تدبر ، وهذا مجانف للقواعد العلمية ، ومنافٍ للضوابط الضرورية التي وضعها علماء مصطلح الحديث ، فكان لزامًا أن يعاد النظر في هذه الأحاديث ، وكذا الآثار المنسوبة إلى الصحابة والتابعين ، بعين الناقد البصير ، يستخرج صحيحها من ضعيفها وما لا يصلح منها للاحتجاج. وهذا "د. عباس الجراري" يعترف بكثرة الوضع والتزوير على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، ونِسبة أقوال وأحكام إليه لم تثبت ، وبخاصة ما يتعلق بموضوع الأدب ، فهو يقول: (إننا لا نشك في أن كثيرًا من الأحاديث قد وردت بالمعنى دون اللفظ ، وأن كثيرًا من الأحاديث كذلك ، قد حُرِّف أو وُضِع ونُسِب للرسول). وأمر التمحيص هذا ـ مع كونه ضروريًّا ـ ليس بالهين ؛ لأن كتب السير والتاريخ والنقد والأدب قد مُلِئت بهذه الأحاديث والروايات ، وبخاصة ما ينسب إلى الصحابة ؛ كاستحسان "عبد الله بن عباس" ـ رضي الله عنهما ـ لشعر "ابن أبي ربيعة" ، الذي اعتمد فيه على رواية منكرة عند صاحب "الأغاني" ، تفيد بأن "عبدالله بن عباس" رضي الله عنهما قد استمع إلى "عمر بن أبي ربيعة" ينشد رائيته في الحرم المكي ، فاستحسنها رغم ما فيها من مُجون وتهتُّك ، وهي رواية تعارض النصوص الشرعية والأحكام الفقهية ؛ روايةً ودرايةً. سادساً:ـ وجوب العمل على التأصيل لأدبنا الذي يعكس صورة المجتمع المسلم ، وعقيدته ، وأخلاقه ، وتصوُّره للكون والحياة والإنسان ، فإذا كان لكل أمة آدابها ، وثقافتها ، ونظرتها التي تصدر عنها ، فلماذا لا يكون لنا ـ نحن المسلمين ـ أدب يترجم عن حضارتنا وهمومنا ، ويقوم برسالة الشهود الحضاري ، ويجدد خصوصية هذه الأمة ؛ فلا بد من إعادة النظر في الأدب الإسلامي نفسه ، وإعادة الكتابة فيه ، (وإعادة فرز وضبط القواعد العامة ، والإشادة بالنصوص الإسلامية ، وتخصيصها بتأليف ومصنفات). سابعاً:ـ العمل على إعادة النظر في الكثير من المناهج النقدية ، التي تدرس الأدب خارج الإطار الديني ، والسياق الأخلاقي ، فيجب (دراسة النتاج الأدبي الإسلامي الأصيل في ضوء التصور الإسلامي ، والنقد الإسلامي ؛ لإبراز ملامح هذا الأدب ، وتقديمه إلى القراء ، من خلال الصورة النقدية الجادة) ، كما يجب توحيد الخطة بين النقاد الإسلاميين ؛ للخروج بنظرية متكاملة لهذا الأدب. ثامناً:ـ العمل على تحفيز أولي النهى ، ممن لهم اهتمام بالأدب والنقد ، إلى النظر إلى الأدب بعين الإنصاف والموضوعية ؛ لإزالة هذه المساحيق المستعارة عن وجهه ، وتقديمه للناس على صورته الحقيقية ، عبر الندوات ، والمحاضرات ، واللقاءات الأدبية.. فمما يحز في النفس أن نسمع بالندوات تعقد هنا وهناك ، لخدمة مختلف التيارات والاتجاهات الأدبية ، في حين تكاد تنعدم الدراسات الجادة للأدب الإسلامي ، خصوصًا وأن سلاح الأدب لم يكن ليخفى على أصحاب الاتجاهات المشبوهة ، الذين عرفوا خطورته وقدرته على تلوين العقول والقلوب ، يقول "محمد حسن بريغش": (إن أصحاب المذاهب المادية والجنسية ركبوا أجنحة الأدب

خاصة ، والفنون عامة ؛ ليصلوا إلى عقول الناس ونفوسهم ، وهكذا انتشرت مذاهبهم ، ونحن ـ كمسلمين ـ علينا أن نعرف أدبنا ، ونعرف أدباءنا ، بالحوار ، واللقاء ، والدراسة ، والعرض ، والتحليل ، والنقد ؛ حتى نفتح بينهم وبين القارئ دروبًا وأبوابًا ، ونلقي على مناحي هذا الأدب كلها أضواءً ، وسيجد فيه الجيل ـ إن شاء الله ـ شرابًا طاهرًا عذبًا ، يمجُّ بعده أشربة العابثين والمتاجرين بالجنس والمال والسلطان). تاسعاً:- وجوب الرد على شبهات بعض المستشرقين ، ومن تأثر بمنهجهم ، ومنها: أن الإسلام قد أدى دوره كاملًا في وقته، ولكنه عاجز عن مواكبة التكنولوجي والحضارة المعاصرتين ، عقيدة وسياسة وأدبًا. وجوب القطيعة مع التراث ، والفصل الكامل بين الحاضر والماضي. إن الأدب الإسلامي مغرق في الدين ، وإنه أدب فقهي يجب تجاوزه. وإحياء بعض مقولات النقاد المسلمين القدامى ، التي يفهم من ظاهرها تقديم المنحى الفني على المضموني ، ولا تبالي بتجاوز المقدسات إذا كان الشكل جميلًا ، كما أثر عن "الأصمعي" و"القاضي الجرجاني" ، و"قدامة" ، و"الصولي" وغيرهم. إن الشعر العربي ـ بعامة ـ والإسلامي ـ بخاصة ـ شعر ذاتي ، لا يعبر عن الجماعة ، ولا يعالج الواقع التاريخي والاجتماعي والسياسي. إن الأدب الإسلامي أدب وعظي خطابي تقريري، يكاد يخلو من المتعة الفنية. عاشراً:- من جهة أخرى، عرفت فكرة "الأدب الإسلامي" اعتراضات شتى، بدءًا من المصطلح ، وشرعيته ، ومقاييس استخدامه ، ثم ـ على افتراض قبوله ـ فهل هو مذهب واتجاه ، أم معيارية؟ ، ثم هل هو مضمون فقط ، أم مضمون وفن؟ وهل هناك ـ فعلًا ـ نماذج تمثل هذا الأدب أم لا؟... وهي كلها شبهات تحتاج إلى هتك ستارها ، وبيان زيفها ؛ لإقناع المعارضين ، وإزالة الغبش عن المحايدين ، الذين يقفون من هذا الأدب موقفًا وسطًا ، لا يؤيدون ولا يعارضون. حادي عشر:- وكثيرًا ما رُمِيَ هذا الأدب بالانزوائية ، والتقريرية ، والفقهية ، لا لشيء إلا لأنه يغلف موضوعاته بغلاف أخلاقي ، ويحكم الإسلام في تصوره ، فيدعو إلى الحق والصدق ، ويرفض الطيش والزيف ، أو لأن صاحبه قد يكون برع في فن آخر من فنون العلم الشرعي ؛ كأن يكون مُحَدِّثًا ، أو فقيهًا ، أو لغويًّا ، فصار الشِّعر يوزن بما عليه صاحبه ، لا بما هو شعر ؛ "فالشافعي" لأنه اشتهر بعلم الأصول والفقه ، شعره فقهي ديني ، و"عبدالله بن المبارك" لأنه فقيه زاهد ، شعره إرشادي توجيهي.. وهكذا ، مما حدا بالناقد الشيخ: "عبد الله كنون" إلى أن يقول عن هذا اللون من الشعر: (طالما أغفله الكُتاب ، وتجنى عليه النقاد ، وهو أدب الفقهاء ، أعني شعرهم المغموز ـ ظلمًا ـ بالضعف ، والمضروب مثلًا لكل شعر ليس بذاك ، فالآن أوان إنصافه ، ورد الاعتبار إليه). ويقول عن فرائد هذا الشعر: (درج مؤلفو الأدب على استبعادها من النصوص الأدبية ؛ لمجرد أنها إنتاجُ طائفة من الأدباء غلب عليهم وصف آخر غير الأدب ، وهو الفقه والعلم، مع أن في دراستها وعرضها ـ العرض الذي يجلو محاسنها ـ متعةً وإثراءً لأدبنا العربي الأصيل). ولطالما همش شعر "القاضي عياض"ـ مثلًا ـ ، لا لأنه شعر (ليس بذاك) ، ولكن لأن صاحبه اشتهر بالفقه والعلم والقضاء ، فشِعره شعر فقيه واعظ. ومناط هذه الشبهة هو الفصل المفتعل بين الأخلاق والقضايا الحضارية الأخرى ؛ من سياسةٍ ، واقتصادٍ ، وإدارةٍ ، وأدب.. والحق أن كل مجال خلا من الجانب الأخلاقي كان عُرضة للفشل ؛ لأنه فقد الصمام الذي يقيه العثرات ، ويوجهه إلى سبيل النجاة).هـ. والشعر الإسلامي له رسالته عبر التاريخ ، ولكن المفسدين لا يُفسحون له المجال ليأخذ طريقه إلى الإصلاح! ولو نظرنا للشعر الإسلامي الذي شارك به شعراء الصحابة في العصر النبوي الشريف ، وشعراء عصر صدر الإسلام ، وشعراء العصر الأموي ، وشعراء

العصر العباسي ، وشعراء عصر الأيوبيين والمماليك ، وصولاً إلى الشعراء الإسلاميين في العصر الحديث ، وجدناه شعراً نابضاً بالحياة ويحمل القيم والأخلاق والمبادئ والمثل في عمومه! ولقد انتفع به أناسٌ كثيرون في ديار العرب ، وفي غير ديار العرب ، حيث تمت ترجمته إلى لغاتٍ شتى! واهتدى على يديه خلق كثيرون ، ودانوا بالإسلام ، وجادت قرائحهم بمدح الإسلام وبيان عظيم رسالته وجميل منهاجه! وتحت عنوان: (الشعر الدعوي: مكانته ومميزاته) تقول الأديبة الدكتورة هند بنت مصطفى شريفي ، ما نصه بتصرفٍ زهيد: (الشعر الدعوي من الوسائل الدعوية الإعلامية المشروعة لنصرة الحق والدفاع عن النفس ونصرة المظلوم ، وهو جهاد بالكلمة ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً ، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم). وللشعر مكانة عظيمة ومنزلة كبيرة عند العرب ، لأنه ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم ، وما من حرب تقوم بينهم إلا هاجها الشعر وسجل أحداثها ، ولما جاء الإسلام مخالفاً للعرب في عقائدهم وعاداتهم الباطلة ، اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر سلاحاً يرد به كيد أعدائه ويناضل عنه ، وسلط على الأعداء أشعر أصحابه ، مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ممن استثناهم الله تعالى في قوله: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ). وسليقة العرب الشعرية الفطرية وفصاحتهم جعلتهم كثيراً ما يصوغون كلامهم شعراً ، فهذا عمرو بن سالم رضي الله عنه يقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم يتظلم ويشكو غدر بني بكر وقريش ، ومما قاله:

يا رب إني ناشـــــــد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلـــــــدا

فانصر رسول الله نصــراً أبـدا وادعُ عباد الله يأتوا مـــــددا

ونقضوا ميثاقك المؤكـــــدا وجعلوا لي في كداء رصـــدا

هم بيتونا بالوتيـــــــر هجدا وقتلونا ركعـــاً وسجـــــدا

ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ والاستعداد للقتال ، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه شعرا يحرض الناس فيه ويذكرهم بمصاب رجال خزاعة ومما قاله:

ألا ليتَ شعرِي هَلْ تَنَالنَّ نُصْرتِي ♦♦♦ سُهَيل بن عمرٍو حَرُّها وعِقابها

وهذا أبو سفيان بن الحارث رضي الله عنه من شعراء قريش ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يسل سيف شعره لهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما أراد الله تعالى له الخير أسلم فأنشد شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما بدر منه ، ومنه:

لعمرك إني يوم أحمـــل رايـــةً لتغلب خيل اللات خيل محمـــدِ

لكالمدلجِ الحيـران أظلم ليلـــهُ فهذا أوانُ الحق أهدي وأهتدي

هدانيَ هادٍ غيرُ نفسي ، ودلني إلى الله من طرَّدت كل مطـــرَّد

ومما سجله التاريخ من الشعر الذي قيل في الفتح ، قول حسان رضي الله عنه:

عَدِمْنا خَيْلَنا إنْ لَمْ تَرَوْهـــــا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِـــــدها كَدَاءُ

يُنازِعْنَ الأعِنَّـــــــة مُصْغِياتٍ على أكتَافِها الأَسَـــــلُ الظِّماءُ

تَظَلُّ جِيَادُنا مُتَمطِّـــــــــراتٍ يُلَطِّمهنَّ بالخُمُـــــــرِ النِّساءُ

فإمَّا تُعرِضـــــوا عَنَّا اعْتمَرْنا وكانَ الفَتحُ ، وانْكشَف الغِطَاءُ

وإلاَّ فاصْبرُوا لجِلادِ يـــــــومٍ يُعينُ اللهُ فِيــه من يشـــــــاءُ

وقيل إنه قالها قبل الفتح ، وروى الإمام الزهري أنه قال: لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء يلطمن الخيل ، تبسم إلى أبي بكر لصدق وصف حسان. فماذا عن مميزات وسيلة الشعر: وتظهر ميزة الشعر أنه يمكن استخدامه في الجانبين الترغيب والتأليف ، وفي والترهيب والتنفير ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أثر الشعر في تأليف القلوب وتنفيرها: إن ذلك الأثر يحصل بالحقائق كما قد يحصل بالمتوهمات ، ولهذا يؤثر قول الشعر في التأليف والتنفير ، بحيث يحرك في النفوس شهوة ونفرة تحريكا عظيمًا ، وإن لم يكن الكلام منطبقاً على الحق لكن لأجل التخييل والتمثيل. وإذا كان الناطق لم يعن إلا الحق ، صار ذلك موهماً للمستمع توهماً يؤلّفه تأليفاً يحبه الله ورسوله ، بمنزلة تأليفه وتنفيره بالأشعار التي فيها تخييل وتمثيل. ويمكن استخدام الشعر كوسيلة من الوسائل المؤثرة في إثارة الغضب لله تعالى ، وفي إشعال الحماسة للجهاد والدعوة في قلوب المؤمنين ، وفي الدفاع عن الإسلام، والرد على كيد أعدائه. واستخدم الشعر كذلك في حفظ المآثر الإسلامية ، وفي تقييد العلوم الإسلامية على هيئة متون مختصرة شاملة ، تعين على الحفظ مثل ألفية ابن مالك في اللغة العربية ، والرحبية في علم الفرائض ، والقصيدة النونية في العقيدة ، والسبل السوية في السنن ، وغيرها كثير.).هـ. ولكن ينبغي أن نقول هنا أن الشعر إذا تم توظيفه في تسهيل حفظ متون العلوم ، كألفية ابن مالك في النحو وألفية السيوطي في الحديث والرحبية في الفرائض ونونية ابن القيم في الانتصار للفرقة المُوَحدة الناجية ، ومُتون التوحيد والسيرة ، وما شاكل ذلك ، لا يُعد شعراً بالمعنى الأصيل للكلمة! لماذا؟ والجواب باختصار لأن الشعر يحتاج إلى الخيال والصور البديعية والبيانية والحبكة الدرامية (الكوميدية أو التراجيدية) ، مثله في ذلك مثل أي شعر في الأرض! فجزءٌ كبيرٌ منه الخيال بصوره المتعددة! أمَا وقد خلا من كل هذا فليس هو بالشعر ، وإن كان له شكل الشعر من ناحية الإطار العام من وزن وقافية! وإن أسميناه شعراً على سبيل مُجاراة الشكل ، ولكن اسمه الحقيقي هو (نظم) ، ولا يُسمى كاتبه شاعراً! بل هو ناظم! وفرقٌ كبيرٌ بين الشاعر والناظم! وإذن فالناظم رجل يلتقي مع الشاعر في الوزن والقافية والتقطيع والإطار العام! لكن الشاعر يتميز بصوره البديعية والبيانية وخياله وعاطفته وإحساسه! وكان أستاذنا الدكتور الشربيني أبو طالب – رحمه الله تعالى – يُشبِّه الفرقَ بين النظم والشعر بالفرق بين الورد البلدي الحقيقي بروائحه الطبيعية ، والورد الصناعي حيث لا رائحة تنبعث منه ، وإن كان له شكل الورود! وتحت عنوان: (لمحة عن الشعر في العهد الإسلامي) يقول الدكتور نزار نبيل أبو منشار ما نصه بتصرف: (ظهر الإسلام أول ما ظهر في بلاد العرب ، وكان من مقتضيات ذلك أن يتأثر المجتمع الإسلامي منذ نعومة أظفاره وحتى ترسيخ دعائمه في الأقطار بالحياة السائدة ، لاسيما الجانب الثقافي من الحياة

المجتمعية. فقد عني الإسلام بالأدب مكانة وموضعاً ، وأنزل الشعر والشعراء منازلهم ، فقد ذكره القرآن الكريم واضعاً حدّيه أمام كل ناظر ، فعاب على من اتخذ من الشعر وسيلة لهوٍ وترفٍ فكري ، ومجالاً للتفاخر المذموم والمديح الممقوت ، واستثنى زمرة الشعراء من أهل الإيمان والعمل الصالح ، ومن جعلوه مدرجة لذكر الله وتذكير الناس بالفضائل. قال تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا). شهدت روايات التاريخ الموثقة المتسلسلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمع الشعر يُنشد بين يديه ، بل وكان يطالب الشعراء أن يفيضوا بمعين أقوالهم أمامه ، وقد جعل ـ عليه السلام ـ للمعركة الإعلامية بين معسكر المسلمين ومعسكر خصومهم جبهة مفتوحة قاد ركابها حسان بن ثابت "شاعر الرسول" ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبد الله بن رواحة وغيرهما ، حيث جعلوا من قرائحهم الشعرية مادة ينصرون بها ـ بإذن الله ـ المد الإسلامي الزاحف ، وينصرون القيم الإيجابية في المجتمع ، وينسفون ما سواها. وبسمو الفهم ؛ كان خلفاء الدولة الإسلامية بعد رسول الله يتذكرون أنه كان ينادي على حسان بن ثابت في أوقات لا ينفع فيها سيف خالد ، فباتوا على صلة بالشعر ، وخاصةً: ما ينطق منه بالحكمة. تميز من بين الخلفاء بذكرهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حيث كان يتذوق القصائد الشعرية ويُعلّق عليها ، وكان من المعجبين بشعر النابغة الذبياني ، وقد وردت قصائد نسبت إلى على بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تبين النظرة الواعية لدور الشعر في حياة الأمة ـ والرسالة الحضارية التي يمكن إيصالها ما بين كل رويّ وقافية ، ومن حكمه وأشعاره ـ رضي الله عنه ـ لا زالت الناس تنشد ، وخصوصاً بعض أشعاره المشهورة بفخر المنتمي الأصيل لدين الله القويم. ومن ثم ازدهرت الحركة الأدبية في العصور الإسلامية اللاحقة ، فتراها ترتقي في العهد الأموي نتيجة كثرة الوقائع والمساجلات ، وإضافة حواضر إسلامية جديدة إلى جسد الدين الجديد ، فصارت بلاد الشام والعراق وغيرها منارات للأدب والشعر والمساجلات الشعرية بين دهاقنة الشعراء. بمثل هذا النعيم والإبداع تطورت المواهب ، وتخصصت المدارس ، وتنوعت المشارب الفكرية ، وبخاصة بمجيء الدولة العباسية ، يرفدهم خليفة خليفة. كلهم قد رعي العلم واعتنى بأهله ، وقدم أهل الشعر والفصاحة إلى منزلة عالية في قصور الإمارة ، حتى باتوا يصطحبونهم معهم في كل معركة وفي كل تحرك ، ليوثّقوا للدنيا أمجاداً ينبغي لها أن تُحفظ وتراعى. بذلك نجزم أن دين الشمول والوسطية قد أعطى كل إنسان حقه في الإبداع ما بين الضوابط ، بل وحثّ في أكثر من آية وأكثر من حديث على ضرورة إعمال العقل وتنوير الفكر ، وفتح آفاق الابتكار الذهني ، مما يثري البيئة الأساسية التي ينطلق منها الشعراء والأدباء).هـ. وتحت عنوان: (شروط التنظير للشعر الإسلامي) يقول الدكتور محمد ويلالي ، ما نصه بتصرف زهيد: (إن التنظير للأدب الإسلامي بعامة ، والشعر منه بخاصة ، لا بد أن يخضع للشروط الإسلامية ، التي يجب أن تربأ بنفسها عن التأثر بالفلسفات الأجنبية ؛ حتى لا نحيط التقعيد للأدب الإسلامي ـ من حيث لا ندري ـ بمفهومات ومصطلحات دخيلة غير مناسبة ؛ إذ إن هذه المصطلحات وتلك المفهومات يجب أن تنبثق من الإسلام نفسه ؛ فالتنظير بهذا المعنى ليس وضع قواعد جديدة لحركةٍ أدبيةٍ جديدة ، وليس فلسفة أو موقفًا ظرفيًا ، قد ينحني بمجرد ولادة صيحة أدبية أو نقدية جديدة ، بل هو استنباط وكشف للرؤية الإسلامية للقول الأدبي ، لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان ؛ لأنها رؤية شمولية ، تنبع من وحي السماء. وإذا أردنا أن نبحث عن المسوغات المادية للتنظير لأدبنا الإسلامي ، فلننظر ـ

على سبيل الاستئناس - إلى مسوغات التنظير للآداب الأخرى ، والمذاهب الأخرى ؛ فإن العوامل هنا هي نفسها هناك ، وربما كانت هناك أكثرَ جلاءً ، وأثبت وجودًا ، وأكبر عمقًا وحضورًا. فإذا كانت هذه المذاهب تبدأ عادة بفلسفة لها تصور خاص ، ومواقف معينة ، كما هو مشاهَد في "الواقعية الاشتراكية" مثلًا ، فإن "الأدب الإسلامي" له فلسفته الخاصة المتقدمة عنه ، وهي مجموعة المعتقدات والمواقف التي جاء الإسلامُ مِن أجل ترسيخها ، والدعوة إليها. وإذا كان التصور في هذه المذاهب مقصورًا على زمن معين ، أو طائفة من الناس معينة ، فإنه هنا يتسم بالشمولية ، ويستمد قوته من الوحي ، الذي لم يقصر هديه على فئة دون فئة ، أو مكان دون مكان ، أو زمان دون زمان. ونلحظ أيضًا أن تلك المذاهب قد اكتنفتها ظروف وملابسات ساعدت على انتشارها ؛ فالواقعية الاشتراكية وجدَتْ من الأجهزة الرسمية كل المساندة ، ما دامت خادمة لمصالحها ، وعاملًا قويًّا من عوامل إقناع الناس بمبادئ "الاشتراكية" ، والأدب الإسلامي بدوره ، وإن تنكَّبت عنه الأجهزة الرسمية ، وازوَرَّ عنه عامة أدبائنا ونقادنا ، إلا أن الحاجة الشديدة في أيامنا إلى التغيير والعودة بالناس إلى الينابيع الإسلامية الصافية ، تجعل من الأدب أكبر مرشح لخدمة هذا التغيير ، وتجعل منه الأداة الخفية ، التي تتسلل إلى قلوب الناس ومشاعرهم ، عبر قوالب فنية عدة ، فتُحدِث فيها ما تعجِز عنه الوسائل الأخرى ، وهذا واضح من خلال قوله عليه الصلاة والسلام: (إن مِن الشِّعر حكمةً) ، وقوله: (إن مِن البيان سِحرًا). كما أن تلك المذاهب وجدت من يؤمن بها ، وينافح عنها ، وانبرى لذلك أدباء مشهورون ، نشروا عقائدهم وأفكارهم عبر آلة الأدب ، واستطاعوا ببراعة أن ينفُذُوا إلى عقول الناس ، وأن يقتحموا عليهم عواطفهم، وأن يغالبوا أحاسيسهم وأخيلتهم ، فكانوا أعظمَ أداة لنشر ثقافتهم ، وتمرير تصوراتهم ، والتمكين لأفكارهم ، ولاشك أن للأدب الإسلامي أنصارَه الذين ينافحون عنه ، ويَذُودون عن أخلاقياته ، من لدُنْ نزول الوحي إلى يومنا هذا ، أولئك الذين التزموا به فنًّا ودعوةً ، بدأَتْ هذه النُّصرة مع "حسان بن ثابت" ، و"عبدالله بن رواحة" ، و"كعب بن مالك" ، وأمثالهم الذين استُثْنُوا في قوله تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) ، واستمرت عبر التاريخ يعلو صوتها حينًا ، ويخفُتُ حينًا ، إلى أن قيَّض الله تعالى لهذا الأدب في العقود الأخيرة جملة من الغَيُورين ، مبدعين ونقادًا ، حملوا راية الأدب الإسلامي في غمار صحوة إسلامية شاملة ، فأقيمت المؤتمرات ، وعُقدت الندوات ، وانتهى الأمر بإنشاء "رابطة الأدب الإسلامي" ، ينضوي تحتها عشرات من الروَّاد ، طبعت عشرات من الإصدارات الأدبية ، والدواوين الشعرية ، والقصص الهادفة ، وسلسلة من أدب الأطفال ، وأصدرت عددًا من المجلات الأدبية الفصلية ، وعقدت عشرات الندوات العالمية ، وعددًا من الملتقيات الدولية ، وتوالت الكتابات ، حتى أصبح لهذا الأدب مكتبته الخاصة ، والتفكير جارٍ في إقامة "اتحاد عالمي للكتَّاب الإسلاميين" ، وكل هذا يدل على تنامي الاهتمام بهذا الأدب ، ووجوب رد الاعتبار إليه ، فهذا أوانُه. هكذا نلحظ أن كل العوامل التي أدت إلى بزوغ تلك المذاهب متوافرة في بيئتنا لإنشاء نظرية ، ووضع مخطَّط ، وتحديد مذهب ، بل ويَزيد الفكرةَ تشجيعًا أن الأدب الإسلامي يحمل في نفسه بوادرَ نجاحه وعالميته ؛ لأنه خطاب للفطرة ، وملامسةٌ للعمق الإنساني ؛ فهو يسير بإزاء ما جُبِل الناسُ عليه ، ولا يَشِذُّ عنهم في شيء ؛ لِما له مِن خصوصية الشمول واتساع الآفاق. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عددًا من الكتب التي أُلِّفَت ،

تحاول أن تسهم في التنظير لهذا الأدب ، منها كتاب: "مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي" للدكتور: "عماد الدين خليل" ، الذي اعتبَرَه (محاولة في رسم خطوط عريضة فحسب لنظرية الأدب الإسلامي) ، وكتاب: "مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي" للدكتور: "عبد الباسط بدر" ، الذي جاء في مقدمته: (وهذا الكتاب دعوة إلى التنظير..وإلى حوار يسبق التنظير ، حول عدد من المفهومات الأساسية والفرعية في ميدان الأدب ؛ وذلك لإبراز الرؤية الإسلامية للأدب ، وتفصيل الحديث في مهمته ، وصياغة الأصول الأولى للمقاييس والقواعد التي يأخذ بها الأدباء والنقاد الدارسون) ، وبين أن الكِتاب (عَرْضٌ أوليٌّ لبعض القضايا والمفهومات التي تنبت على أبواب النظرية ، وخارج أسوارها). وهذا يفسِّر جُرأة هذه الكتابات الأولية ، التي حاولت أن تقتحم عالم التنظير بوضع الخطوات الأولى المؤسِّسة ، لتَتْبَعها جهود أخرى ترفدها ، وتشُدُّ مِن أَزْرها ، سعيًا وراء إبراز هذا المشروع للوجود على الوجه المطلوب. ومِن الكتب التي سارت في هذا الاتجاه: كتاب: "الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي" للدكتور: "شلتاغ عبود" ، وكتاب: "الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي" للدكتور: "طاهر محمد علي" ، وكتاب: "نحو نظرية الأدب الإسلامي" للدكتور: "محمد أحمد حمدون" ، فضلًا عن العديد مِن الكتب التي أسهمت في التنظير دون أن تضع مصطلح "النظرية" على الغلاف ، منها كتاب: "في الأدب الإسلامي المعاصر" لـ: "محمد حسن بريغش" ، وكتاب: "مدخل إلى الأدب الإسلامي" ، و"آفاق الأدب الإسلامي" ، و"الإسلامية والمذاهب المعاصرة" ، و"الإسلامية والقوى المضادة" وكلها للدكتور: "نجيب الكيلاني" ، وكتاب: "في الأدب الإسلامي" لـ: "محمد الحسناوي" ، وكتاب: "منهج الفن الإسلامي" لـ: "محمد قطب" ، وكتاب: "الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته" ، و"الأدب الإسلامي من منظور إيماني" ، وهما للدكتور: "عدنان علي رضا النحوي"...وغيرها كثير ، مما يعتبر فعلًا مِن الكتب المؤسِّسة لنظرية الأدب الإسلامي. كما أُلِّفَت كتب في النقد الإسلامي ، وفي محاولة بلورته ، والكشف عن طرقه وفنونه ، منها على سبيل المثال كتاب: "في النقد الإسلامي المعاصر" ، وكتاب: "محاولات جديدة في النقد الإسلامي" ، وهما للدكتور: "عماد الدين خليل" ، وكتاب: "جمالية الأدب الإسلامي" لـ: "محمد إقبال عروي" ، وهو مِن أوائل المغاربة المسهِمين في النقد الإسلامي على مستوى تأليف ناضج متميز ، وهناك أيضًا رسالة جيدة لـ: "إدريس الناقوري" بعنوان: "قضية الإسلام والشعر" ، ورسالة أخرى لـ: "عبدالله المعاوي" بعنوان: "التيار الإسلامي في مجال الإبداع الأدبي والفني"... وغيرها. وإن غزارة الكتابة في التنظير للأدب الإسلامي ونقده دليلٌ على أن هذا الأدبَ قد وُلِدَ فعلًا ، وأن أمامه مجموعةً من العقبات التي تحُول دون وصوله إلى الناس ، ولعل التنظير يكون إحدى الوسائل التي بها تذوب تلك العقبات ، وتزول الحواجز. إنها دعوة للاجتهاد وإفراغ الوُسْع في العناية بالتخطيط ؛ (لكي نوفر الوسيلة الأمينة النظيفة لحمل الأدب الإسلامي ؛ كتابًا ، ومقالة ، وقصة ، وشِعرًا ، ومسرحًا ، ونقدًا ، وصحافة ، وإذاعة...) ، دعوةٌ للأدباء والنقاد لكيلا يبيَسوا أمام هذا الكم الهائل من المذاهب والنظريات المختلفة ، التي تَعِجُّ بها ساحةُ الأدب والنقد ، ولكيلا ينبهروا بكثرة الكتابات ـ إبداعًا ونقدًا ـ التي تسهم في بلورة الأدب الإسلامي. فالأمر يحتاج إلى المزيد من العطاء ، ومضاعفة الجهود على المستويينِ: التنظيري والتطبيقي ، مِن أجل تأصيل هذه الحركة ، وتثبيت ملامحها المتميزة ، وبخاصة على مستوى التقنيات والأساليب. وتحت عنوان: (الشريعة الإسلامية والموقف من الشعر والشعراء – دراسة في ضوء التراث الأدبي والتاريخي) وهي من إعداد: الدكتور محمد عبد الله عطوات ،

نقتطف منها هذه الزهرات: (حينما نقوم بالبحث عن موقف النبيّ من الشعر والشعراء ، ونتصفّح كتب الأدب والتاريخ ، نرى أنه قد تعدّدت فيه أعمال الباحثين وتباينت آراؤهم ؛ فمنهم من يزعم أن النبيّ يستقبح الشعر وممارسته ، وينظر إليه بنظرة الاستكراه والازدراء ، ومنهم من يرى أنّ النبيّ يحب الشعر وإنشاده ، وينظر إليه بعين الإعجاب والتقدير ، وكل فريق يحتجّ على إثبات دعواه بالأدلة النقلية والعقلية. فأما الفريق الأوّل الذي يرى أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يستكره الشعر ، فيحتجّ بالأدلّة التالية: أولاً: جاءت آيات تستنكر الشعر والشعراء ، ومنها قوله تعالى: {وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ} ، ويفهم من ظاهر هذه الآيات أن القرآن الكريم يعارض الشعر ويذمّه ، ولذلك لما نزلت هذه الآيات ذهب حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الأنصاري وهم يبكون! وأيضاً قال الله تعالى: {وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ} ، ويفهم من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قد نزّه نبيّه عن إنشاد الشعر. ثانياً: وردت أحاديث صحيحة في ذمّ الشعر وممارسته مما يدلّ على أن النبيّ لم يحبّ الشعر ولا إنشاده ، كما روي عن سعد بن أبي وقّاص عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً - - رضي الله عنه يريه خير له من أن يمتلئ شعراً) ، وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كذلك ، وروي عن أبي سعيد الخدري عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بالعرج ، إذ عرض شاعر ينشد فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم): خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له... ، وهذه الأحاديث تدلّ على مدى استقباح النبي للشعر والشعراء. ثالثاً: يؤكّد بعض المستشرقين مثل كارل بروكلمان وغيره ، من رجال الفكر والنقد القولَ بكُره النبيّ للشعر وعدم ارتضائه به. ويقولون في سبيل إثبات رأيهم: إنّ النبيّ كان ينظر إلى الشعر بوصفه عادة من عادات الجاهلية ينبغي أن تُتجنب ، ولذلك نرى أن قويت في نفوس المسلمين الأولين كراهية الشعر. وأن الشعر لم يتأثر بالإسلام والشعراء الذين تأثروا بالإسلام قد سكتوا عن نظم الشعر وإنشاده كلبيد بن ربيعة ، وسُويد بن عَدي وغيرهما. كما أصبح الشعر ضئيلاً قليلاً في عصر النبوّة والخلفاء الراشدين. وأما عن نظرية الترحيب بالشعر في الشريعة الإسلامية ، فكان يمثلها الفريق الثاني ، الذي يستدلّ على إثبات دعواه بالأحاديث النبويّة كذلك ، فعن عُروة عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً» ، وعن ابن عائشة التيمي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «اللهم من هجاني فالْعنْه مكان كل هجاء هجانيه لعنة» ، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل». وقد وَرَدَ في الحديث أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لحسان: «اهجُهم أو قال: هاجهم وجبريل معك». ومن هنا ناقش المؤرّخون والباحثون هذا الموضوع في العصر الحاضر في مؤلفاتهم باستفاضة ، فذكر كلّ من الدكتور يحيى الجبوري في (شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه) ،(والدكتور عبد الله الحامد في (الشعر الإسلامي في صدر الإسلام) ، ومحمد عثمان علي في كتابه في أدب الإسلام) ، كلاماً طويلاً في هذا الصدد يفتح أبواب البحث والتحقيق ، وسوف نحدّد القول في هذا المقال في مسألتين رئيسيتين: الأولى: بيان موقف النبيّ (صلى الله عليه وسلم) من الشعر. والثانية: توجيه الأدلة وتحليل المواقف التي ساعدت على إشاعة الآراء الخاطئة حول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) في هذا المجال. وهنا لا بد لنا من لمحةٍ خاطفةٍ عن حالة الشعر قبل الإسلام وبعده!

وقبل أن نخوض في تفصيلات الموضوع ، يجدُر بنا أن نلقي ضوءاً على حالة الشعر والشعراء عند العرب قبل مبعث الرسول وبعده ، فإنّه كانت للشعر في نفوس العرب ، كما هو معروف ، منزلة سامية ومكانة مرموقة ؛ لأنّه ديوان مآثرهم وسجلّ مفاخرهم ، فكان يلعب دوراً خطيراً في إيقاد نار الحرب التي كانت تقوم بينهم ، وفي إطفائها في الوقت عينه. وبالشعر كانت تنفتح مغاليقُ الأنفُس وتلين قساوة القلوب وتُنالُ العطايا والهبات ، وبإنشاده تعمّر مجالس السمر ومحافل الأدب ، ومع ذلك فإنّ رسالة الشعر قبل مبعث النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، كانت قد انحرفت في كثير من الأحيان عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذّبة والخلق الكريم ، الذي تُهذّب به الحياة والمجتمع ، فالعرب كانوا يستخدمون الشعر في وصف النساء بأقبح الأوصاف ، وانتهاك الحرمات ، وإثارة الحميّة ، وتحريض الناس على القتال والتشاجر ، ودعوتهم إلى الرذائل والمجون ، فمن هذه الناحية كان عاملاً من عوامل الهدم والفساد ، وباعثاً من بواعث التدمير والتخريب. ثم جاء النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعوة الإخاء والمساواة والعفة في القول والفعل والأدب الذي يليق بالمجتمع البشري وفطرته السويّة ، فحرّم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحذّرهم من أباطيل القول وزوره ، ودعَاهم إلى أن يجتنبوا الرذائل وأن يتحلّوا بالفضائل ، وأن يكفّوا عن سيء القول والفعل ، مما يؤذي نفس الإنسان. كما قد حارب في الشعراء روح العصبية وحميّة الجاهلية ، ونهاهم عن كل ما يثير النفس ويحرّض على الخصومات ، ويوقد دفين الأحقاد وكمين الضغائن. والشعراء هم أسرى الانفعالات والمشاعر المتغيّرة ، تتحكّم فيهم أحاسيسهم ، وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت ، ويرون الأمر الواحد في لحظة أبيض وفي أخرى أسود ، يرضون فيقولون قولاً ، ويسخطون فيقولون قولاً ثانياً ، فهم لا يثبتون على حال واحد ، بل يتقلّبون بتقلّب الأحوال والأزمان ويخلقون في أذهانهم عوالم من الوهم يعيشون فيها ، فيقولون خلاف الواقع والحقيقة. وأما النبي فقد جاء بدعوة يريد تحقيقها في عالم الواقع ، فله هدفٌ ومنهجٌ وطريقٌ يختلفُ عن هذا الوضع السائد في عالم الشعراء ، وهو يريد أن يسلك طريقه وفق منهجٍ واضح محدّد وسام ، يسعى من خلاله إلى تحقيق هدفه المنشود وهو مفتوح العين بصير ، بها ويسمع ويشاهد ، يقظ العقل والقلب ، لا يرضى بالوهم ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى وإذا نظرنا بإمعان ، فإن معظم الشعراء الجاهليين تصبح الدعوة واقعاً ملموساً في عالم الناس. قد سلكوا منهجاً يختلف عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، لذا عارض النبي هؤلاء الشعراء ، لكنه لم يعارض الشعر والفنّ لذاته! كما يفهم من ظاهر النصّ، بل استنكر النهج الذي وجد عليه الشعراء من الأهواء الزائغة والانفعالات الطائشة ، فقد أبدى النبيّ الإعجاب بهم ، ونظر إليهم بعين التقدير والرضا. كذلك نجد في الجاهلية بعض الأشعار حافلة بالأغراض السامية والمعاني النبيلة ؛ حيث يكثر فيها ضرب الأمثال والحكم والقصد إلى المواعظ مما يحثّ على مكارم الأخلاق وفضائل الإنسانية ؛ فالشعراء قد تغنّوا فيها بكريم الشيم ، وكل ما يمكن اتخاذه مثلاً رفيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم من كرم وضيافة ومروءة ووفاء ونجدة وإقدام وشجاعة وصبر وتحمّل ، فالنبيّ – صلى الله عليه وسلم ـ قد أعرب عن إعجابه بهذا النوع من الشعر. وملخّص القول: إنّ حالة الشعر كانت في عهد النبوّة غير ما كانت عليه في عهد الجاهلية ، فنرى أن الشعر قد تنزّه في وجهته وسلم مما كان يدنّسه من هتك الأعراض ، وكشف الأستار وصار من وسائل الدعوة الجديدة ولساناً من ألسنة الكفاح في سبيل تدعيم قوائمها ، فرسالة الشعر إذن كانت رسالة لا تعرف الفحش ولا تحبّ السوء من القول والفعل وتأنف من الخوض فيما حرّم

الله ، فهي رسالة مستمدّة من روح الإسلام وتعاليمه الخالدة وآدابه الكريمة ودعوته الحقّة إلى معاملة خلق الله أكرم معاملة قال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}. ويتضح مما سبق أن الشعر في عصر الجاهلية وعصر النبوّة على أنواع ثلاثة: الأول: الشعر الملتزم بالإسلام دفاعاً عن الدعوة وذوداً عن الدين ، وهذا الشعر أحبّه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأقرّه الإسلام وسمح به عند الحاجة المُلِحّة. والثاني: الملتزم بالقيم الإنسانية ، وهذا شعر كرّمه النبيّ (صلى الله رضي الله عنه – عليه وسلم) وقدّره الإسلام وأمر بتعلّمه لوفور الحكمة فيه. ولذلك أرسل عمر - إلى أبي موسى الأشعري قائلاً: «مُرْ مَنْ قِبَلَكَ بتعلّم الشعر ، فإنه يدلّ على معالم الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب» وهذان النوعان هما من الشعر الطيّب المسموح به. والثالث: الذي يدعو إلى الفحش والرذائل ، ويخالف التصوّر الإسلامي ، وهو الذي كرهه النبيّ وحرّمه الإسلام كشعر المديح الكاذب والهجاء الفاضح وشعر الفخر القبلي الجاهلي والغزل الفاضح الفاحش والشعر الوثني ، والشعر الذي هاجم الدعوة الإسلامية ، فهذا من الشعر الخبيث في نظر الرسول الذي نهانا عنه. وهكذا نجد الشعراء فريقين: فريق قد ابتعد عن الحق ووقف بشعره يصدّ عن سبيل الله ويهجو الرسول وصحابته ، وفريق آمن بالحق ووقف يدافع عنه وعن مبلّغه ، فأما الفريق الأوّل فممقوت ومأزور عند الله ورسوله ، وأمّا الفريق الثاني فمقبول ومأجور. وخلاصة القول: إن الشعر إن لم يقع فيه ما نهى الإسلام عن الوقوع فيه من هتك الأعراض وإثارة الفساد ، بل يوافق الحق فهو مقبول في نظر النبيّ – صلى الله عليه وسلم - وإلاّ فهو مرفوض ومحظور. وفي ضوء هذا الموقف ، جاءت أقوال النبيّ في الشعر ؛ فقد روي عنه أنه قال: «إنّما الشعر كلام مؤلّف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه» ، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه قبيح الكلام». وقال أيضاً: «إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب». ولما جاء الإسلام بدعوته إلى العرب اشتدت الخصومة بين الرسول وقريش ، إذ كان اللسان إلى جانب السنان في ميدان الخصومة ، وبالأخص إذا حمي الوطيس وكثر شعراء قريش واندفعوا يهجون النبيّ وأتباعه هجاء موجعاً ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص وعبد الله الزبعري وأبو سفيان بن الحارث ، وأمام هذا الواقع ودرء الفحش للمشركين وشراسة هجومهم ، لم يكن للمسلمين من حيلةٍ أو وسيلةٍ يلجؤون إليها إلا الردّ المماثل ، فوَدُّوا لو يأذن لهم الرسول(صلى الله عليه وسلم) لمواجهتهم فما هو إلا أنْ قال لهم: «ما يمنع الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم» ، حتى نهض لهم نفر من الصحابة يدافعون عن الإسلام بألسنتهم وينصرونه بأشعارهم ، وكان أشدهم وقعاً وأكثرهم إيلاماً حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، روي عن كعب بن مالك أنه قال للنبيّ: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم): «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل» ، وأيضاً قيل: يا رسول الله! ماذا ترى في الشعر؟ قال: «إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه». إنّ النبيّ كان يتأثر بالأشعار التي ينشدها الشعراء من أتباعه وأنصاره ، فيشجعهم ، فقد قال فيهم: «هؤلاء النفر أشدّ على قريش من نضح النبل» ، وقال لحسّان بن ثابت: «اهجهم - يعني قريشاً - فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السهام في غلس الظلام ، واهجهم ومعك جبريل روح القدس ، وألْقَ أبا بكر يعلّمك تلك الهنات». وهكذا كان النبي يحثّ حسّاناً على النيل من المشركين ويدعو له كما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لحسّان بن ثابت

الشاعر: «إنَّ روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عزّ وجلّ وعن رسول الله ، وعن الشعبي قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم): «من يحمي أعراض المسلمين؟ قال كعب: أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة: أنا يا رسول الله ، وقال حسّان بن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: نعم ، اهجُهُم فإنه سيعينك عليهم روح القدس». وحين جاوب حسّان بن ثابت عن النبيّ أبا سفيان بقوله:

هَجَوْت محمَّـــــداً فأجبْتُ عنه وعند الله في ذاكَ الجـــــــزَاءُ

دعا له النبيّ حيث قال: جزاؤك عند الله الجنّة يا حسّان ، فلما قال:

فإنَّ أبِي ووّالـــــــده وعِرْضِي لِعِـــــــرْضِ محمَّدٍ منكم وقاءُ

قال له: «وقاك الله حرَّ النار فضى له بالجنَّة مرتين في ساع واحدة» ، وإن النبيّ كان يعطي الشعراء العطايا على أشعارهم ، كما روي أنه قد أوعد كعب بن زهير ، فأتى إلى رسول الله متنكراً ، فلما صلّى النبيّ (صلى الله عليه وسلم) صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول الله ثم قال: يا رسول الله! إن كعب بن زهر قد أتى مستأمناً تائباً ، أفتؤمّنه فآتيك به؟ قال: هو آمن ، فحسر كعب عن وجهه ، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هذا مكان العائذ ب ك، أنا كعب بن زهير ، فأمّنه رسول الله وأنشد كعب قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فقَلْبِي اليوم متْبُولُ متيّم إثرها لم يفد مكبُـــــولُ

فتجاوز النبي ووهب له بُرْدَتَهُ ، ولما أنشد النابغة الجعدي النبيَّ قصيدته التي يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهـدى ويتلو كتباً كالمجرّة نيّـــــرا

بلغنا السماء مجـــدنا وجدودنا وإنا لنرجـــو فوق ذلك مظهرا

أحسّ في الشطر الثاني روح الجاهلية وقال له متسائلاً: إلى أين يا أبا ليلى؟ فأجابه النابغة إلى الجنّة! فسُرَّ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وقال: إن شاء الله تعالى ، ثم تابع النابغة إنشاده:

لا خير في حلم إذا لم تكـــن له بوادر تحمي صفوه إن تكـــدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصـــدرا

فأتاح النبيّ – صلى الله عليه وسلم - بحسن الشعر وجودته ودعا له بقوله: «لا فضّ الله فاك» ، وقَدِم عمرو بن سليم الخزاعي إلى رسول الله مستنصراً وقال:

يا رب! إنـــي ناشـــد محمـدا حلف أبينا وأبيـــه الأتلـــدا

نحن ولدناهم فكانوا ولـــــدا ثمت أسلمنا، فلم ننـزع يـــدا

إن قريشاً أخلفوك الموعـــدا ونقضوا ميثاقـــك المؤكـــدا

ونصبوا لي في كداء رصـــدا وبيتونـا ركعـــــــاً سجـــدا

وهم أذل وأقـــل عـــــــددا فانصر ، هداك الله نصراً تجردا

في فيلق كالبحر يجري مزبـدا إن سيم خسفاً وجهه تربـــــدا

فدمعت عينا رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ونظر إلى سحابة قد بعثها الله فقال: «والذي بعثني بالحق نبيَّاً ، إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» ، وخرج بمن معه لنصرهم. إن قُتيْلة بنت النضر بن الحارث عرضت للنبيّ ، وهو يطوف فاستوقفته ، وجذبت ردائه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته أبياتاً مطلعها:

يا راكباً إن الأثيـــل مظنّـــــة من صبح خامسة وأنت موفّق

إلى أن قالت:

أمحمـــــد ها أنت نجـــل نجيبة من قومها والفحـــــل معـــرق

ما كان ضرّك منَنْـت ، وربّمـــا من الفتى وهو المغيظ المحنـق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة وأحقهم إن كان عتـــق يعتـــق

فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم): «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته». وإن الشاعرة الخنساء وفدت مع بني سليم على النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، وأسلمت على يديه وأنشدته شعرها فأعجب بشِعرها واستحسنه ، وكانت إذا قدمت إليه استزادها من إنشاد الشعر ، ولربما قال لها: «هيه يا خناس». وكان النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح العرب ذواقاً لكل قول جميل ، مُدركاً لتأثير الشعر ، وكثيراً ما أعرب عن رغبته في الشعر مع بعض الوافدين عليه ؛ وإن لم يكن شاعراً فقد أُثِر عنه كلمات تدلّ على تقديره وارتضائه له وإعجابه به ، كما قال: «إن من الشعر لحكمة» «وأصدق كلمة قالها شاعر: قول لبيد: ألا كل ما خلا الله باطل» ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يحب كثيراً أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت ، لما فيه من ذكر الله والبعث ، كما روي عن عمرو الشريد عن أبيه قال: «ردفت رسول الله – صلى الله عليه وسلم ـ يوماً فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم ، قال: هيه ، فأنشدته بيتاً فقال: هيه ، حتى أنشدته مائة بيت». وفوق ذلك أنه كان يستنشد وينشد ويتمثّل به ويستمع إليه ويصدقه ، كما روي عن أمير المؤمنين علي أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبعض من حضر: أنشدني كلمتك التي تقول فيها:

وحَيِّ جميع الناس تسب عقولهم تحيتك الأدنى ، فقد ترفع النفـــل

فإن أظهروا بشراً فأظهر جزاءه وإن ستروا عنك القبيح فلا تسل

فإن الذي يؤذيـــك منهم سماعـه وإن الذي قد قيل خلفك لم يقـــل

وعن عبد الله بن مسعود قال: «بلغ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنَّ قوماً نالوا أبا بكر بألسنتهم فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس! ليس أحد منكم آمن على ذات يده ونفسه من أبي بكر ، كلكم قال لي: كذبت ، وقال لي أبو بكر: صدقت ، فلو كنت متخذاً خليلاً

لاتخذت أبا بكر خليلاً ، فنظر إلى حسّان ، فقال: هات ما قلت فيّ وفي أبي بكر ، فقال حسّان: قلت يا رسول الله فأنشد:

إذا تذكرتَ شَجْواً من أخ ثقةٍ فاذكر أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا

حتى وصل إلى:

خير البريَّـــة أتقاها وأرأفهـــا بعد النبـــيّ ، وأوفاها بما حملا

فقال النبيّ: «صدقت يا حسان ، دعوا لي صاحبي! قالها ثلاثاً».

وعن أنس بن مالك قال: «جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مجلس ، ليس فيه إلا خزرجي ، ثم استنشدهم شعر قيس بن الخطيم:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهـــب لعمرة وحشا غير موقف راكـــب

فأنشد بعضهم إياها، فلما بلغ إلى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاســـراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: هل كان كما ذكر؟ وحينما أنشد حسّان بن ثابت النبيّ الشعر التالي ضحك:

لقد غدوت أمام القـــوم منطقـــاً بصارم مثل لـــون الملح قطـــاع

يحفز عني نجاد السيـف سابقـــة فضفاضة مثل لون النهي بالقاعـي

وعن ابن عائشة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في نواديها وتسل به الضغائن بينها ، قال: ثم أنشد:

قلّدتك الشعر يا سلامـــة ذا الـ ـفضـــال ، والشيء حيثما جعلا

والشعـر يستنـــزل الكريم ، كما ينزل رعـــد السحابـــة السيلا

وأن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنشد عند حفر الخندق حين قال أصحابه:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا

قال النبيّ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة». وعن ابن عباس قال: أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار ، فجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: أهديتم الفتاة؟ قالوا: نعم ، قال: أرسلتم معها من تغنّي؟ قالت: لا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول:

(أتيناكـــم أتيناكـــم فحيّانـــا وحيّاكـم)

(ولولا الحنطة السمرا ء لم تسمن عذاراكم)

وعن جندب ـ رضي الله عنه ـ أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان في بعض المشاهد وقد رميت إصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دَمَيْت وفي سبيل الله ما لقيت

وثبت في الصحيح أنه (صلى الله عليه وسلم) تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم ، فإنهم يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدّقنا ، ولا صلّينا

فأنزِلنْ سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع صوته بقوله: «أبينا أبينا». وورد في صحيح مسلم أنه' قال يوم حنين وهو راكب على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجامها: «أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبدالمطلب». وعن عوف بن محمد قال: «قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ليلةً وهو في سفر: أين حسّان بن ثابت؟ فقال حسّان: لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال أحد ، فجعل ينشد يصغي إليه النبيّ ويستمع ، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كأن رأس الراحلة يمس الورك حتى فرغ من نشيده ، فقال النبيّ: «لَهَذاَ أشدّ عليهم من وقْع النَّبل». وعن ابن عباس أن رسول الله صدّق أميّة في قوله:

رجل وثور تحت رجل يمينه النسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: «صدق».

وأبدى النبيّ بعض نظراته في الشعر ، فقد ثبت أنه قام في بعض الأوقات والمناسبات ببعض التغيير فيه ، كما روي أنه استمع إلى كعب بن زهير في المسجد ، وهو ينشد قصيدة: «بانت سعاد» فلما بلغ إلى قوله:

إن الرسول لنور يُستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

فغيّر النبيّ لفظاً منه حيث قال: «من سيوف الله» بدل من سيوف الهند. وأيضاً روي أنه' استمع بعد يوم أحد إلى كعب بن مالك في قوله: «مجالدنا عن جزمنا كل فخمة» ، فقال له أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ـ فهو أحسن فقال كعب: مجالدنا عن ديننا كل فخمة ، ورويت هكذا في سيرة ابن هشام. ولما كانت نظرة النبيّ' إلى الشعر والشعراء بهذا النقاء والصفاء والتسامح والرحابة ، ولمّا عرفنا كيف تاهت الآراء في هذه القضية ، وشاعت الأقوال المضادّة والآراء الخاطئة ، حول موقفه من الشعر والشعراء ، يجدر بنا فيما يلي أن نوضّح تلك الآراء ، ونردّ على أدلّة القائلين بكُره النبيّ – صلى الله عليه وسلم ـ للشعر والشعراء ، فنقول: أما احتجاجهم بقوله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ...} فليس بصائب ، وقد ناقش ابن رشيق في العُمدة هذه الآيات ، وقال: إن المقصود بالشعراء في هذا النصّ هم الشعراء الذين تناولوا رسول الله بالهجاء ومسّوه بالأذى

وهم شعراء المشركين والمنافقين ، وأما من سواهم من المؤمنين فغير داخلين في شيء من ذلك. ألا ترى كيف استثناهم الله عزّ وجلّ ونبّه عليهم فقال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا}؟ يريد شعراء النبيّ – صلى الله عليه وسلم - الذين ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه كحسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم. كما روي عن قتادة أنه لما نزلت هذه الآية: {وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ...} جاء عبد الله بن رواحة وحسّان بن ثابت وكعب بن مالك وهم يبكون ، فقالوا: يا رسول الله! لقد أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو يعلم أنّا شعراء ، هلكنا ، فأنزل الله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا...}، فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم. وأما ابتعاد القرآن عن أسلوب الشعر ، ونفي الله الشاعرية عن النبيّ وعدم روايته – صلى الله عليه وسلم - الشعر، فكل ذلك ليس بعيب في الشعر ، بل هو لموقف خاص اقتضته طبيعة الدعوة والداعية ، لأن كَوْنَ النبيّ يسلك مثل هذه المسالك مما يسيء إلى الدعوة ، فالحكمة من ذلك - كما يبدو من قوله تعالى: {وَما يَنْبَغِي لَهُ}- هي صيانة الوحي عن الاختلاط بالشعر ، ثم إن في ذلك لَحِكْمَة أخرى ، وهي ما عرف به الشعر في الجاهلية عند العرب بصلته الموهومة بالشياطين ، واستهتار كثير من الجاهلين واستخدامهم الشعرفي الفحش والبذاءة والتكسّب ، كل ذلك جعل من المناسب للدعوة والداعية الابتعاد عن هذا الأسلوب الذي لا يليق لما يحيط به سوء السمعة! ولذلك نجد قريشاً تحاول إلصاق تهمة الشعر بالقرآنِ والنبيّ للغرض نفسه ، وهو التشويش على الدعوة {وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ} ، {أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} ، وأيضاً في كَوْنَ النبيّ أمّياً لا يقرأ ولا يكتب حكمة أخرى حتّى لا يقال: إنه قرأ كُتُبَ الأوّلين ، كما قال تعالى: {وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (*) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}. فكون النبيّ – صلى الله عليه وسلم - على هذه الحال وتلك الكيفية ، مما يبعد عنه التخرّصات ، ولا يدع مجالاً للمعاندين أن يشوّهوا حقيقة الدعوة في أذهان عامة الناس ، ولذلك نفى الله تعالى الشاعرية عنه. أما قوله – صلى الله عليه وسلم -: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً» ، فإن هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي وردت في ذمّ الشعر ، إنّما ورد جميعها في نوع خاص من الشعر وهو أن يكون فيه فحش وخناء ، وأيضاً فإن للحديث مناسبة وتكملة ، فأما المناسبة فهي كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن مع رسول الله بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: خذوا الشيطان. فمن سياق المناسبة يتضح أن الشاعر عارضهم يهجو أو يقول شرّاً ، ولذلك في بعض الروايات وردت كلمة «هجيت به». ولما سمعت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث قالت: أراد النبيّ تلك الأشعار التي نظمت في هجائه. أما زعمهم أن الشعر لم يتأثر بالإسلام فهذا قول ينقضه الاستقراء العلمي والتتبع للشعر والإحاطة بمصادره ، ومن أراد الوقوف على تأثر الشعر بالإسلام ، فليرجع إلى سيرة ابن هشام التي أرّخ فيها بضعاً وعشرين سنة من حياة الإسلام الأولى ، وفيها من الشعر ما يدحض ذلك الرأي. وقد سجّل العديد من الباحثين المعاصرين في مؤلفاتهم كثيراً من الأشعار المتأثرة بالإسلام ، وخاصّة منهم الدكتور شوقي ضيف في (تاريخ الأدب العربي) ، والدكتور عبد الله الحامد في (الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين). وأمّا ترك بعض الشعراء قول الشعر وإنشاده بعد الإسلام فهو صحيح ؛ ولكن في الوقت نفسه ترى أن شاعراً فذّاً مثل لبيد بن ربيعة لم يترك الشعر بتاتاً ، ولكنّه قلّل منه بعد إسلامه. والذين

تركوا الشعر لم يتركوه لأنه شرّ وضلال أو كرهه النبيّ ، بل لأنهم وجدوا أنفسهم أمام معطيات جديدة وقيم حديثة ، لم يستطيعوا تحويلها من أفكار إلى أشعار لكبر وشيخوخة ، ولتمام نضجهم في الجاهلية، ولانشغالهم بتعلّم فروض الدين. أما قولهم: إنّ الشعر قد ضعف في صدر الإسلام بسبب كراهية النبيّ فهو قول يبعد عن الحقيقة ، لأن كثيراً من الباحثين المعاصرين قد ناقشوا هذه القضية بالتفصيل ، فأثبتوا أن الشعر لم يضعف في صدر الإسلام ولم يتخلّف بل تطوّر فيه وازدهر ، كما قال الدكتور شوقي ضيف: «إن الشعر ظلّ مزدهراً في صدر الإسلام وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعُف» ، والذين زعموا أن الشعر قلّ في صدر الإسلام فإنّهم قارنوه بالجاهلية مع أن صدر الإسلام لا يزيد عن نصف قرن، فكيف نقارن مدته هذه بالعصر الجاهلي الذي لا يقلّ عن قرنين ، فإنه لا تناسب بين العصرين ، ومن يحكم بالمنطق الحق ويحاول أن يوازن بين ما سبق صدر الإسلام وما قيل فيه ، يجده كثيراً وافراً. وأما الصحابة والمسلمون والأولون فلم يكونوا يكرهون رواية الشعر ، بل على العكس من ذلك كانوا يروون الشعر وأخباره حتى الشعر الذي هجي به الإسلام والمسلمون ، وهو ما يدلّ على تقديرهم الشعر ، وأيضاً أنشد الصحابة والتابعون منه شعر الغزل الذي يتحدّث عن المرأة دون أن يقدح ذلك في دينهم. وروي أن رجلاً سأل ابن عباس وهو في المسجد: هل ينقض الشعر الوضوء؟:

نبئـــــتُ أن فتـــــــاة كنت أخطبها عُرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم قام فأمَّ الناسَ ، وأيضاً كان ابن عباس يسخر ممّن يكره الشعر وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً ، وأن سعيد بن المسيب كان يعيب من يكره الشعر ، وذلك حينما ذكر عنده أن قوماً بالعراق يكرهون الشعر فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً. إضافة إلى ذلك ، لم يكن الخلفاء الراشدون يروْن بأساً من أن يقولوا الشعر هم بأنفسهم وأن يتمثّلوا به ، فقد نظم كل منهم الشعر ، وحرّض بعضهم بعضاً على قرضه وروايته وحفظه ؛ حيث قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : «اروا من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أحسنه ومحاسن الشعر تدلّ على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها». وأيضاً قال لابنه: «يا بنيّ انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ من حسان الشعر لم يؤدّ حقاً». وقال علي: «الشعر ميزان القول» ، ورواه بعضهم: «ميزان القوم». وكذلك لم يبق أحد من الصحابة إلا وقد قال الشعر وتمثّل به ، فلو كان نظم الشعر وإنشاده مكروها في نظر النبيّ لَمَا نظمه وقاله كل من الخلفاء وأجلةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين ، ولا سعى المسلمون كذلك في كل عصر من العصور يحاولون ـ وحتى القرن العشرين ـ ممارسة الشعر بكل لسان من ألسنة الدنيا ولغاتها. ومن كل ما تقدّم من أمثال ونظائر ، يتضح لنا موقف النبيّ من الشعر والشعراء ، فالحق أنه لم يكره الشعر ونظْمه ، بل إنّه اتخذه سلاحاً ضد خصومه وأعداء رسالته ، ولم يثبط عن الشعر إلاّ حين وقف معارضاً ، ولم يكن الشعر رجساً ولا فسوقاً في نظره بل كان منه بياناً وسحراً كما كان منه حكمة. فلو كان الشعر حراماً أو مكروهاً لدى النبيّ لما شجّع طائفةً من الشعراء من أصحابه يُثِيبهم على الشعر ويأمرهم بعلمه وتعلّمه ويسمعه منهم ، وما خلع على كعب بردته. فكان النبيّ يحب الشعراء ويجيزهم ويحنو عليهم ولم يكن كارهاً لهم، كيف! وقد وضع لحسّان منبراً في المسجد ، وكان دائماً ـ كما تؤكّد الأخبار والروايات ـ يدعو الشعراء إلى القول ويسدّد خطاهم ويشرق وجهه بإنشادهم ، أما الزعم الذي يزعمه الكثيرون أن النبيّ كان لا يحب الشعر بل يكرهه ، فهو قول

ينقضه الواقع المدوّن والتتبّع لمواقف النبي والإحاطة بأحداثه وأخباره وأحاديثه ، كما سبق ذكره. ونختم مقالنا هذا استشهاداً بقول أبي حاتم الرازي: «إن النبي (صلى الله عليه وسلم) ما كان يحب الشعر فحسب ، بل يستنشده وينصت له ويعفو ويصفح به عن المجرمين ويقبل التوبة والمعذرة منهم ، ويستمع إلى الشعر ويُثيبهم على الشعر الجيّد ويُجيزهم ويحنو عليهم باستماع شعرهم».هـ. وإذن فالشعر الإسلامي المتفرع من شجرة الأدب الإسلامي شعرٌ له مميزاته وخصائصه التي لا يمكن تخلفه عنها ولا تخلفها عنه ، وإلا لما كان له وصف (إسلامي) من قريب أو من بعيد! إنه شعر عقديٌ متوضئٌ طاهر ، يُعبرُ عن الإسلام كِتاباً وسُنة! وليس يكتبه إلا شاعرٌ مسلمٌ مؤمنٌ موحدٌ يعرف حقيقة الدين والحياة والشعر معاً! وهذا الشاعر بهذا الوصف يزنُ الأمورَ بميزان العقيدة! إنه شعرٌ حيٌ نابضٌ يأمرُ بالمعروف وأوله المعروف الأكبر عبادة الله تعالى بلا شريك! وينهى عن المنكر وأوله المنكر الأكبر الشركُ بالله تعالى بجميع صوره! أما الشعراء الذين صُنِعوا على أعين الماسون وغذوا بالحرام ، وكانوا إلى أروقة العلمانيين وكباريهات الراقصات ومواخير الخمور أقرب منهم إلى المساجد وحلقات العلم والدرس ، فهؤلاء ليسوا من الشعر الإسلامي في شيء! وليس الشعر الإسلامي منهم في شيئ!

الفصل الأول

توجه حسان بن ثابت الإسلامي في شعره

السادة النقاد بينوا لنا في غير ما موضع أن شاعرنا العظيم حسان بن ثابت الأنصاري مر بمراحل متعددة! وإن كانت كل المؤشرات تقول بأنه كان صاحب منهج ورؤية حتى وهو في جاهليته! لقد كان يُغلب جانبَ القيم والأخلاق ، وهذا يُرجِّحُ أنه كان صاحب فطرة قابلة لأن تتغيرَ إلى الأحسن والأصلح يوماً! وفي غير ما موضع من دراستنا الأسلوبية لشعر حسان ، كنا قد ألمحنا لتلك المراحل بشيئ من الإيجاز مرة ، وبشيئ من التفصيل مرات عديدة! وتحت عنوان: (الإيمان بالله وصفاته في شعر حسان بن ثابت) يقول الأستاذ محمد أويس رئيس القسم العربي في كلية ديال سنج الحكومية ، في لاهور يقول ما نصه: (حسان بن ثابت هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري من قبيلة الخزرج. هاجرت الخزرج من اليمن إلى الحجاز وأقامت في المدينة مع الأوس. ولد حسان بن ثابت في المدينة قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو ثماني سنين ، فعاش في الجاهلية ستين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة أخرى ، وشب في بيت وجاهة وشرف ، منصرفًا إلى اللهو والغزل. وهو من بني النجار أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قبيلة الخزرج. أبوه ثابت بن المنذر الخزرجي كان من سادة قومه ، ومن أشرفهم ، وأما أمه فهي الفزيعة بنت خنيس بن لوزان بن عبدون وهي أيضا خزرجية. لقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد الشعر قبل الإسلام ، وكان ممن يفدون على ملوك الغساسنة في الشام ، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم. وكانت يثرب ، المدينة التي نشأ فيها حسان ، إحدى مدن الحجاز المهمة إلى الشمال من مكة والطائف. وكانت المدينة في الجاهلية ميدانًا للنزاع بين الأوس والخزرج ، تكثُر فيها الخصومات والحروب ، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس ، وحسان بن ثابت شاعر الخزرج ، الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، فصارت له في الجزيرة العربية شهرةٌ واسعة. بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب واتخاذها مقراً ، ولبث في دعوته ، عرفت منذ ذلك الحين بمدينة الرسول ، وتطلعت إليها أنظار العرب ، وهفت إليها قلوب المسلمين. ولم يكن للمدينة أن تحتل المنزلة التي وصلت إليها بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها لولم تبادر قبيلتا الأوس والخزرج إلى اعتناق الدين الجديد ، وإلى إيواء حامل الرسالة الذي حقق المؤاخاة بين المهاجرين وأهل المدينة ، ولم يعد يفرق بين القبيلتين فيها تفريقاً قبلياً وإنما أسماهم جميعاً اسماً واحداً هو الأنصار فأصبحوا إخواناً. وفي هذا الوقت كانت نيران الحروب بين القبيلتين قد خمدت في مدينة الرسول ، ولم يعد الشعراء يجدون موضوعاً آخر ينظمون فيه ويعبرون عن ذويهم كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، غير أن قريشاً سرعان ما خلقت لهم الموضوع الجديد وذلك عندما أخذ شعراؤها في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين. ولقد نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والرد على أنصار الدين القديم ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر نضال يهجى فيه الأعداء ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء ، بل للدفاع عن سلطتين دينيتين وعن حكمين مختلفين. ومن ثم اصطبغ الشعر بصبغة السياسة فكان شعراً سياسياً حقيقياً. وفي هذه الحقبة أصبح حسان شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح شعره سجلاً لجميع الأحداث التي توالت على المسلمين وأصبحت لحسان منزلة خاصة في نفوس المسلمين لدفاعه

عن الرسول الكريم وذبه عن الإسلام وأحيط شعره بالإعجاب والتقدير. قال الأستاذ عبد أ. مهنا مبيناً أسلوب حسان في هجاء قريش: "ولم يكن أسلوب حسان في هجائه طعناً في أصل قريش ونسبهم ، بم كان الشاعر يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيها طائراً غريباً يلجأ إليها كعبد أو دعي أو متبنى ، أو يجعله غصناً مريضاً منفسداً ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعناً شنيعاً. ثم يسدد سهامه إلى أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقاً ، في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطناً للؤم والجهل والبخل والجبن والقذارة والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك". واقتصر مدح حسان لهذا العهد على النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وكبار الصحابة ، الذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاء حسناً. وهو مدح يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود وما إليه ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكفى به شرفاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله يقول: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم). روي أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب. وقال قائل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: اهج القوم الذين يهجوننا فقال: إن أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت فقال رسول الله: (إن علياً ليس عنده ما يراد من ذلك). ثم قال: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه و سلم بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم). فقال حسان: أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتهجو أبا سفيان عمي؟ وكيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: يا رسول الله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين! فقال: (ائت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك!). فكان يمضي إلى أبي بكر رضي الله عنه فكان يقول له: كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة. عنه ليقفه على أنساب القوم. فجعل يهجوهم ، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: هذا شعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: (اهجهم - يعني المشركين - وروح القدس معك). ودعا صلى الله عليه وسلم لحسان فقال: (اللهم أيده بروح القدس لمناضلته عن المسلمين). وقال صلى الله عليه وسلم: (إن قوله فيهم أشد من وقع النبل). إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو له بالتأييد من السماء فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهم أيده بروح القدس). وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبد الله بن رواحة شعراً ، ولكنه حكمة). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً لحسان: (وقاك الله يا حسان النار). ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظى بمنزلةٍ رفيعةٍ ، يجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه ، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - موقفًا خا صا من الشعر ، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم ، في حين نجد أن عمر بن الخطاب كان يحب الشعر ، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى ، وقد روِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشدَين عددٌ من الأبيات. يقول أبو عبيدة: فضل حسان على الشعراء ثلاث ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وقال الأصمعي: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء ، فقال أبو حاتم: تأتي له

أشعار لينة ، فقال الأصمعي: تنسب له أشياء لا تصح عنه. وقال الحطيئة: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب. وقال عبد الملك بن مروان: إن أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا. وقال عمرو بن العلاء: حسان أشعر أهل الحضر. وقال أبو الفرج الأصفهاني: حسان فحل من فحول الشعراء ، وشهد له بالشاعرية. ويعد حسان بن ثابت رضي الله عنه في مقدمة الشخصيات التي استحوذت على تفكير العديد من الباحثين ، وخاصة ممن يقومون بدراسة النقد الأدبي. وإذن فحسان بن ثابت له مكانته في الجاهلية ، وزادت هذه المكانة في الإسلام ، كيف لا؟ وهو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم. والذي لا شك فيه أن دخول حسان بن ثابت الإسلام زاد في مفرداته اللغوية وفى معانيه ، فإذا كانت اللغة تعطى المتكلم إمكانات لغوية ، وقدرات تعبيرية خلابة تمكنه من الرقى في التعبير إلى أقصى درجات الذوق التعبيري ، و"المتكلم هو الذي يشكل اللغة بشكل أو بآخر ، فما من شك في أن حسان اكتسب من القرآن الكريم ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم العديد من الكلمات والمعاني ، مما جعل الباحث لا يتجه في دراسته إلى الجديد في المعاني والمفردات وأثرها في شعره ، فهي واضحة جلية. وأما عن الخلفية السياسية لذلك العصر ففيه تحالف كل من المشركين واليهود ضد الإسلام ، ودعا هذا إلى الأسباب التي جعلت هذه الطوائف تناهض الإسلام والتي لم تكن دينية في مقامها الأول ، ولم يكن هؤلاء يولون اهتماماً بدينهم بقدر ما يهتمون بالجانب القبلي! ومصالحهم الشخصية هي التي حركتهم لمحاربة الإسلام ، ولذا ، لا يمكن اعتبار الشعر الذي قيل في مناهضة المسلمين شعراً دينياً ، فهو لا يخرج عن كونه شعر نقائض أو هجاء سياسياً. وللرد على هؤلاء المعارضين ، انتدب الرسول الكريم ثلاثة من خيرة شعراء المسلمين للدفاع عن الرسالة المحمدية ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فمنهم من حارب المشركين بالسيف والقلم معاً ، ومنهم من استشهد في المعركة. لكن شعر هؤلاء لم يتوقف عند الدفاع عن الرسول ورسالته ، وإنما نظموا قصائد يمدحون فيها النبي صلى الله عليه وسلم ويشيدون بفضائل الإسلام. ومن هنا نستطيع القول أن الشعر الديني عند العرب بدأ مع المدائح النبوية. وفي القرآن الكريم نجد كثير اً من الآيات في مديح الله جل جلاله والاعتراف بفضله على المخلوقات وقوته. لذلك سار الشعراء المسلمون في تقديس الله لما رأوه في سر خلقه في الطبيعة والكون. ومن هنا فإن حسان بن ثابت هو أول الشعراء المسلمين الذين نظموا في مدح الإله. الإيمان بالله وصفاته من أهم الموضوعات الشعرية عند حسان بن ثابت. فإن هذا الإيمان مما جعله عارفاً بحقائق الأشياء وقيمتها ، وأملأ قلبه بالخير والهدى. يمدح حسان ربه ويعلن بقوته الباهرة وعظمته القاهرة. امتاز حسان بن ثابت من بين الشعراء بمعرفته ربه ، لأنه أخذ هذه المعرفة من البشر الذي كان أعرف الناس بالله وأكثرهم له خشية وهو النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم. زين النبي عليه الصلاة والسلام قلوب أصحابه بحب الله ومعرفته وإجلال شانه فخروا له سجداً وفروا إليه لا عنه. تترشح من شعره عقيدته السامية وإيمانه الباهر بتوحيد الله سبحانه وصفاته).هـ. وتحت عنوان: (التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت) يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن الذنيبات والدكتور خالد فرحان البداينة يقول ابن خلدون: "إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين ... فإنا نجد شعر حسان بن ثابت. أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة. والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما." ولعل من أهم الفروق بين المدرستين ،هو

ذلك الانزياح الفكري الكبير الذي حدث لشعراء المدينة ، إذ شكل لهم الدين الجديد دستور حياة يغذي الفكرة ، ويوجه الإبداع ، واشتهر من شعراء المدينة عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، وإن كان ابن رواحة أسرعهم تأثراً بالمعاني الإسلامية: إذ كان حسان وكعب يعارضان شعراء مدرسة مكة" بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر" ، ولكن الأجل لم يمهل ابن رواحة فقد استشهد في معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة ، أما من طال عمره في الإسلام ، واستوت معانيه الإسلامية على عودها ، فهو حسان بن ثابت. وقد فضل الشعراء بثلاث :" كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر – النبي صلى الله عليه وسلم - في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام". ومن ثم اتخذه الباحثان أنموذجاً في دراستهما ، وينكشف التأثر في عدد من المحاور ؛ تتجلى من خلالها التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري ، من أهمها: إلهام الشعر: فإذا وجدنا الإغريق ينسبون إلهام الشعراء إلى آلهة الشعر ، فإن العرب نسبوا ذلك إلى الشياطين ، وأن لكل شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، وذكروا قصصاً تتحدث عن رؤية بعض الأعراب شياطين الشعراء ، والالتقاء بهم وأن لهؤلاء الشياطين أسماءعرفوا بها ، فشيطان عبيد بن الأبرص اسمه (هبيد) ، وشيطان كميت بن ثعلبة اسمه (مدرك) ، وشيطان الأعشى اسمه (مسحل) ، وشيطان امرئ القيس فهو (لافظ بن لاحظ) ، وللنابغة الذبياني صاحب اسمه (هاذر بن ماهر) ، وقال الجاحظ: إنهم يزعمون أن كلاب الجن هم الشعراء". ويذكر صاحب ثمار القلوب: "كانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقنها إياه وتعينها عليه". ولم يتوقف الأمر عند النقاد ، بل أورد بعض الشعراء أسماء شياطينهم في أشعارهم ، ولما كان مدار بحثنا في شعر حسان بن ثابت ، فإنه لم يذكر اسم شيطانه ، واكتفى بذكر اسم القبيلة التي ينتمي إليها ذلك الشيطان ، في قوله: ولي صاحِب مِن بني الشَّيصبان فَطوراً أَقولُ وطوراً وهو يصف الجاحظ هذا البيت بقوله: وهذا البيت يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون أن مع كل شاعر شيطاناً. وثمة موقع آخر يذكر فيه حسان صاحبه الجني حيث يقول: كغيره من الشعراء ، وكأن العربي لا يكون شاعراً ، إلاّ باتصاله بعالم الجن وأن الجني هو من يملي على الشاعر شعره ، فكاد الشاعر يتحول من دور المبدع إلى دور الراوية عن الجني ، في مستوى القول على أقل تقدير ، أما بعد دخوله الإسلام فإن التحول الفكري قد طال هذه القضية ، حيث تحول الإسناد الإبداعي من الجن والشياطين ، إلى التأييد من الملائكة ، ويبدو ذلك جلياً في ترديد حسان بن ثابت للحديث النبوي الشريف الذي يشتمل على دعاء الرسول- صلى الله عليه وسلم - له بتأييد الملائكة ، وذلك في قوله عليه السلام: "اللّهم أيده بروح القدس" ، وقوله عليه السلام: "اهجهم أو هاجهم وجبريل معك " ، ويدرك المتلقي من قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن طلب التأييد من الله - عزت قدرته - واهب القول والفكر ، وأن دور الملائكة يكون في الوحي والإيصال وهذا هو التحول والقناعة الجديدة في الطلب من الله والاستناد إليه – عز وجل - لا إلى الجن والشياطين ، كما كان في الجاهلية ، وهذا ما فطن له القيرواني حين ترجم لحسان بن ثابت ، يقول: "وأما حسان فقد اجتث بواكر غسان ، ثم جاء الإسلام ، وانكشف الظلام ، فحاجج عن الدين ، وناضل عن خاتم النبيين ؛ فشعر وزاد ، وأحسن وأجاد ؛ إلا أن الفضل في ذلك لرب العالمين ، وتسديد الروح الأمين" ، كما تردد ذكره للملائكة وحلولهم في المسلمين كقوله:

وجِبريلٌ أَمين اللهِ فينا وروح الْقُدسِ لَيس لَه كِفاء

وهناك مبدأ آخر ألا وهو التحول في بنية القصيدة: وإذا سار الشعراء المخضرمون ـ وحسان بن ثابت منهم ـ على النمط الجاهلي في بنية القصيدة ؛ فثمة تحول طال تلك البنية في بعض شعره الإسلامي ، ونلمح دعوة مبكرة للخروج على الوقفة الطللية وبكاء الديار ؛ ويبدو أن هذا التحول من نتاج الفكر الجديد ؛ إذ يقابل هذا الخروج دعوة للالتفات إلى الصحابة الذين لم يكن يربطهم بالشاعر أي رابط قبل الإسلام ، وليس من داع لذكرهم في شعره ، سواء في الرثاء أو المديح لولا الرابطة الاجتماعية الجديدة ، التي شيدت بها أواصر المجتمع الإسلامي:

إني رأيتُ أمين اللهِ مضطهداً عثمان رهناً لدى الأجداثِ والكفنِ

فقد تحول الشاعر من بكاء الطلل إلى بكاء الإنسان ورثائه ، وكما أن هذا يشكل خروجاً على البنية الشكلية للقصيدة ، فإنه يشكل خرقاً للبنية المعنوية في القصيدة الجاهلية ؛ إذ الرثاء يكون لقريبٍ من القبيلة تؤلم الشاعر فاجعة موته حين تحل فيهم ، أما هذا الرثاء ، فهو علامة على ظهور تآلف اجتماعي جديد ، وتحول في ميزان النظرة الاجتماعية على مستوى العلاقات الفردية. وثمة تحول آخر نجده في شعر حسان الإسلامي ، وهو تحول في تقديم البدائل لعلاقة الشاعر بالمحبوبة ، وقد عهدناهم يميلون إلى الناقة ليحملوها الهموم باختلاف أضربها ؛ من قطع المحبوبة حبل وصلها ، أو تلون ود الصاحب ونفاقه وغيرها من الهموم ويبدو أن خروجه على الناقة يمثل نوعاً من الهروب ؛ فغالباً ما كان حديث الرحلة يبدأ بصيغة موحدة قولهم: "دع ذا" ، أو "دع عنك").هـ. يقول الأستاذ خالد يوسف مبيناً دور حسان بن ثابت في التأصيل للقصيدة السياسية في صدر الدولة الإسلامية ما نصه: (يختزل كثيرون حسّان بن ثابت بلقب "شاعر الرسول" ، ويستشهدون بمنزلته عند النبي – صلى الله عليه وسلم ـ كدليل على موقف الإسلام المرحب بالشعر والشعراء ، لكنهم يهملون الظروف التي أدت لصعوده إلى هذه المكانة دوناً عن باقي الشعراء المسلمين. ولأن وُلد حسّان بن ثابت في يثرب لأسرة ذات شأن. فوالده ثابت بن المنذر من سادة قبيلة الخزرج ، وهي أشهر قبائل المدينة مع الأوس ، ونشأ نشأة مترفة بين اللهو والخمر وكتب فيهما شعراً ، وتُقدر أغلب المصادر التاريخية ميلاده قبل هجرة النبي إلى يثرب بستين عاماً ، من أجل ذلك كله كان شعره راقياً من الطبقة الأولى! ولقد شهد حسّان على معارك ومنازعات بين قبيلته وبين قبيلة الأوس التي تنافسها على السيادة على يثرب. وفي هذا الجو من الصراع القبلي تشكلت موهبته الشعرية ليكون رأس حربة في المواجهة ، يفخر بانتصارات الخزرج ويهجو الأوس ويدخل في سجالات مع شعرائهم ، واتصل بملوك الغساسنة في الشام ، ونَظَم الشعر في مدحهم وحصل على أعطيات منهم ، بل خصصوا له مرتباً سنوياً ، ثم اتصل بملوك الحيرة في العراق ، وفعل معهم الأمر نفسه. وذاع صيت حسّان ليصبح شاعر يثرب الأول ، ووصل شعره إلى الشام والعراق ، حتى إذا ظهرت دعوة الإسلام ، وهاجر المسلمون إلى يثرب كان من أوائل أهلها دخولاً في الإسلام ، خاصة أن أخيه أوس بن ثابت كان ممَّن بايعوا الرسول في العقبة ، وآخى النبي بينه وبين عثمان بن عفان بعد الهجرة. وسخّر حسّان شعره لخدمة الدين الجديد. ودخل مضمار الصراع بين المسلمين وبين قريش مستخدماً سلاحه البتار الذي شحذه صراع الأوس والخزرج ، والاتصال بملوك الحيرة والغساسنة ، بين الهجاء والفخر والمدح. ومثل حسان بن ثابت – رضي الله عنه ـ الآلة الإعلامية للنبي – صلى الله عليه وسلم ـ ، وذلك بعد هجرة الرسول وأتباعه من مكة إلى يثرب

وكان القرشيون يهجونه ، وهجاه كل من ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعري. لذلك ، ظهرت الحاجة إلى شعراء يردّون عنه. دعا الرسول المسلمين إلى هجاء قريش والدفاع عنه ، وقال في حديث ورد في صحيح مسلم: "اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل" ، وكان هناك ثلاثة شعراء من الأنصار مهيئين للقيام بتلك المهمة: كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت. ويشير مسلم إلى أن النبي – صلى الله عليه وسلم - أرسل إلى كعب وإلى ابن رواحة ولكن هجاءهم لم يرضِه ، حتى جاءه حسّان الذي أخرج لسانه من فمه وحرّكه ، ثم قال: "والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم" ، فرد النبي: "لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي" ، أي حتى لا يصيب هجاء حسّان لقريش نسب الرسول. فذهب حسان إلى أبي بكر ، وتعلم أنساب قريش وعاد فقال: "يا رسول الله ، قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين". وأورد مسلم كذلك في صحيحه أن حسّان استأذن النبي في هجاء ابن عمه أبي سفيان بن الحارث فقال: "كيف بقرابتي منه؟" فرد حسّان: "والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من الخمير (أو العجين)". أصبح حسّان من خاصة الرسول ، يهجو خصومه ويرد على شعراء وفود القبائل التي تأتي إليه ، ويروي ابن إسحق في "السيرة النبوية" دور حسّان عند استقبال وفود القبائل التي جاءت تلتقي الرسول ، وتعلن إسلامها بعد دخوله مكة ، ومنها قصة بني تميم حين أتوا إلى النبي وقال شاعرهم أبيات فخر ، وكان حسّان غائباً فأرسل إليه النبي ، ودعاه ليجيب شاعر تميم ، فدخل معه في مناظرة شعرية انتهت بأن قال أحدهم: "إن هذا الرجل (النبي) لمؤتى ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا" وأسلموا. ولكن كيف كان هجاء حسّان للقرشيين؟ لقد تعددت أغراض شعر حسّان بن ثابت بعد إسلامه بين المدح والفخر والرثاء والهجاء ، إلا أن الأخير كان أهمها لأنه جاء بطلب وتشجيع من الرسول. وكما وعد حسّان النبي بأن يسله من القرشيين ، ركّز في هجائه على صفات الأفراد إذا كانوا من أقارب الرسول ولم يذكر أنسابهم. فوصف أبي سفيان بن الحارث ابن عم الرسول بـ "القُراد" ، وهي الحشرة التي تلتصق بالحيوان ، كتعبير عن التصاقه بآل الرسول ، فقال: "فالصق مثل ما لصق القُرادُ" وقال أيضاً عن علاقة أبي سفيان بن الحارث ببني هاشم أهل النبي: "وأنت منوط (متعلق) بهم هجين (غريب)". ورد على هجاء عمرو بن العاص للنبي ، فناداه بـ "ابن النابغة" ، وهو لقب أم عمرو التي كانت من سبايا الحروب ، وذلك ليُعيّره بها ، وقال فيه:

زعم ابن نابغة اللئيم بأننا لا نجعل الأحساب دون محمد

قوم ابن نابغة اللئام أذلة لا يقبلون على صفير المرعد

والمعنى: أنهم لا يغيثون ملهوفاً وهذا عار عند العرب ، فهم (يخافون من صفير المرعوب)". كما استهدف بشعره رؤوس وكبار قريش ممّن عادوا النبي ، فقال عن عمرو بن هشام (أبا جهل):

مشوم لعين كان قدماً مبغضاً يبين فيه اللؤم من كان يهتدي

وفي قصيدة أخرى هاجمه في أصله وقبيلته قال حسان:

أبقت رياسته لمعشره غضب الإله وذلة الأصل

ونال الوليد بن المغيرة نصيبه ، فقال فيه حسّان:

متى تنصب قريش أو تُحصَّل فما لك في أرومتها (أصولها) نصاب

ونعته بأنه مجرد عبد يرعى إبل سيده فقال في شطر بيت: وأنت ابن المغيرة عبد شول (راعي إبل). واستطال فقال فيه:

إذا عُد الأطايب من قريش تلاقت دون أنسبكم كلاب

ومعلوم أن كلابا هو (جد الرسول – صلى الله عليه وسلم -). وذهب حسّان مذهباً آخر في هجاء هند بنت عتبة فجعلها "منحرفة تخون زوجها وتقتل الصبيان الذين تحمل بهم من غيره ، وبالطبع جاز له ذلك فيها قبل إسلامها:

لمن الصبي بجانـــب البطحـاء في التـرب ملقي غير ذي مهد؟

نجلت به (أنجبته) بيضـــاء من عبد شمـــس صلتة الخـــد

وقوله: نجلت به أي (أنجبته) ، وقوله: صلتة الخد أي (ملساء الخد). واستمر في هجائه الذي ننزه السيدة هند بنت عتبة عنه لمقامها الرفيع فنضرب الذكر عنه صفحاً ، فقال حسان في الختام واصفاً هنداً قبل إسلامها: يا هند إنك صلبة الحرد أي (شديدة الغيظ)". واستخدم السخرية أيضاً ، كما فعل مع قبيلة جذام فقال:

لعمر أبي أميـــة ما أبالـــي أنبّ التيس أم نطقت جـــذام

إذا ما شاتهم ولـدت تنـادوا أجدي تحـت شاتك أم غـلام؟

وقوله: أنبّ التيس أي (صاح الماعز). وأما عن مكانته عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلقد تمتع بمكانة عظيمة عنده! صارت لحسّان بن ثابت مكانة كبيرة عند الرسول ، وظل يشجعه دائماً ، وأورد مسلم والبخاري في صحيحيهما عدة أحاديث في هذا الإطار: "اهجهم وجبريل معك" ، "هجاهم حسّان ، فشفى واشتفى" ، "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله" ، "يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس".ووَصَلَت مكانة حسّان عند الرسول إلى وضع منبر له في مسجده في المدينة يقوم عليه ينافح عن النبي كما روى محمد بن عيسى الترمذي في "السنن". وأورد أكثر من مؤرخ ، منهم أبو فرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني" ، رواية مفادها أن "الملاك جبريل أعان حسّاناً بسبعين بيتاً في مدح الرسول". كما أهداه النبي بيتاً في المدينة ، ووهبه سيرين القبطية أخت مارية القبطية زوجة الرسول فتزوجها وأنجب منها ، وذلك تعويضاً له عن محاولة قتله على يد صفوان بن المعطل ، بسبب اتهام حسّان له في "حادثة الإفك" ، وهجائه له ، كما ورد في السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام. وأما عن قولهم: "جبانٌ" يهرب من القتال ، فلم يشارك حسّان في أية غزوة من غزوات المسلمين ، وتُرجّع المصادر التاريخية ذلك إلى أنه كان "يجبُن" ، أي يخاف من القتال. ويتضح ذلك بجلاء في موقف حدث خلال غزوة الخندق يورده عبد الملك بن هشام في "السيرة النبوية". فحين ترك النبي النساء والصبية في صحبة حسّان بن ثابت في حِصنه

وكانت بينهم صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، اقترب من الحصن رجل من يهود بني قريظة الذين كانوا في عداء مع المسلمين ، ليستطلع ما إذا كان المسلمون قد تركوا رجالاً لحراسته أم لا ، فطلبت صفية من حسّان أن ينزل إلى الرجل ويقتله ، فأجابها: "ما أنا بصاحب هذا" ، أي أنه لا يقاتل ، فنزلت صفية بعمود حديدي وقتلت اليهودي ، ثم عادت وطلبت من حسّان أن يخرج ليسلب الرجل ، فتمسك بعدم النزول من الحصن: "ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب". ولقد تعددت أغراض شعر حسّان بن ثابت بعد إسلامه بين المدح والفخر والرثاء والهجاء ، إلا أن الأخير كان أهمها لأنه جاء بطلب وتشجيع من الرسول كانت الحاجة شديدة إلى دور حسّان بن ثابت بعد الهجرة وقبل فتح مكة ، للرد على غير المسلمين ممن هجوا النبي ، ومخاطبة العرب بلغتهم التي يعرفونها ، "الشعر" ، إلا أنه بعد ضم مكة واعتناق قبائل العرب للإسلام تراجعت مكانته بشدة يدافع آخرون عن حسّان ويرون أنه كان يهجو كثيرين ، وأنه إنْ كانت فيه صفة الجبن فلماذا لم يعيّره بها أحد في الشعر الموجّه ضده؟ وجمع سليمان بن صالح الخراشي هذه الآراء في كتابه: "حسان بن ثابت لم يكن جباناً" مستنداً إلى اختلاف الروايات حول حادثة حصن حسّان ، وإلى أن النبي لم يرد عنه أي حديث يستنكر هذه الصفة في حسّان ، رغم أن القرآن ألصق صفة الجبن بالمنافقين وغير المؤمنين ، ويشير كذلك إلى أشعار حسّان التي تهجو أعداء الرسول بقسوة ويقول: إنه "لا يتحدث بها جبان" ، وإلى تلك الأشعار التي تصف المعارك ، ويرى الخراشي أن هذا الوصف الدقيق لا يأتي إلا ممّن شارك فيها. والنبي – صلى الله عليه وسلم - أمر بجلد حسّان يوماً ، كان حسّان بن ثابت بين مَن اتهموا السيدة عائشة بارتكاب "الفاحشة" مع صفوان بن المعطل ، فيما يُعرف بـ"حادثة الإفك". وذكر ابن هشام في "السيرة النبوية" أن النبي تلا على المسلمين آيات سورة النور التي برّأت عائشة ، وأمر بتطبيق الحد على المتحدثين عنها: حسّان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن أثاثة ، فضُربوا. وقال حسّان بعد ذلك الشعر مدافعاً عن عائشة كاعتذار عمّا بدر منه: "حَصان رَزان (محصنة وعفيفة) ما تزن (تُتهم) بريبة... حليلةُ خير الناس ديناً ومنصبا" ، وورد ذلك في صحيح مسلم وسيرة ابن هشام. إلا أن عائشة كانت تأذن لحسّان بزيارتها بعد وفاة الرسول ، وتضع له وسادة ليجلس عليها وكان قد فقد بصره ، وتقول: "فأيّ عذاب أشد من العمى؟ إنه كان ينافح عن رسول الله" ، كما ورد في صحيح مسلم. ويقول بعض النقاد لقد تراجع مكانة حسّان ، حيث كانت الحاجة شديدة إلى دور حسّان بعد الهجرة وقبل فتح مكة ، للرد على غير المسلمين ممن هجوا النبي – صلى الله عليه وسلم - ، ومخاطبة العرب بلغتهم التي يعرفونها ، "الشعر" ، إلا أنه بعد ضم مكة واعتناق قبائل العرب للإسلام تراجعت مكانته بشدة. هذا التراجع بدأ فعلياً بعد حديثه في واقعة الإفك ، إذ نُظم الشعر ضده. وأورد ابن هشام أبيات قالها أحد المسلمين في حسّان ، مطلعها:

لقد ذاق حسّان ما كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيرٌ ومسطح

وذكر انتقاده لهم بقوله: (تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم) ، وتعدى عليه صفوان بن المعطل ، بل وصل الأمر أن أصبح من المنبوذين يستنكر مَن يجده عند عائشة استضافتها له ، حتى بعد أن صار شيخاً هرماً فاقد البصر. وترد أكثر من واقعة في كتب السير والأحاديث لمَن وجدوا حسّان عند عائشة ، فسبوه واستنكروا زيارته. ولم يعد قوله للشعر في المسجد مرحّباً به ، إذ يروي مسلم في صحيحه ، أن عمر بن الخطاب مرّ بحسان وهو ينظم الشعر في المسجد ، فلحظ

إليه (نظر إليه بحدة) ، فقال حسان: قد كنت أنشد وفيه مَن هو خير منك ، يقصد الرسول. كما أنه بدخول القرشيين في الإسلام ، أصبح شعر حسّان في هجائهم من المنهي عنه ، وفقما يذكر عز الدين بن الأثير في كتابه "أسد الغابة في معرفة الصحابة" ، فقد نهى عمر بن الخطاب عن إنشاد شيء منه وقال: "في ذلك شتم الحي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام". وذكر شمس الدين الذهبي في "سير أعلام النبلاء" أن عبد الله بن عباس كان في مجلس فقدم حسّان فقيل له: "قدم حسان اللعين" ، فقال: "ما هو بلعين ، جاهد مع رسول الله بنفسه ولسانه". ويحتج الذهبي بتلك المقولة كدلالة على اشتراك حسان في غزوات النبي. وروت أغلب المصادر أن حسّاناً توفي بعد تجاوزه المئة والعشرين سنة من العمر ، عام 54 من الهجرة ، خلال خلافة معاوية بن أبي سفيان).هـ. ونعقب على هذا الرأي بأن هذه ربما كانت مرحلة من المراحل في حياة حسان – رضي الله عنه -. ولقد تجاوزها كما تجاوزها المسلمون المعاصرون له! وحظي شعره بالقبول لدي الأمة من صدر الإسلام إلى اليوم وإلى أن يرث الله تعالى الأرض بما عليها وبمن عليها! ولا يزال حسانُ يتبوأ أسمى المكانات بين شعراء المسلمين في زمانه وإلى اليوم وإلى قِيام الساعة! وكان حسان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء. عن أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال: حدّثني عليّ بن محمد النّوفلي عن أبيه قال: كان حسّان بن ثابت يخضب شاربه وعنفقته بالحنّاء ، ولا يخضب سائر لحيته. فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت ، لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأنّي أسدٌ والغ في دمٍ. قدم المدينة عبد الله بن الزّبعري السّهميّ وضرار بن الخطّاب الفهريّ ثم المحاربيّ ، فنزلا على أبي أحمد بن جحش ، وقالا له: نحبّ أن ترسل إلى حسّان بن ثابت حتّى يأتيك ، فننشده ، وينشدنا مما قلنا له وقال لنا. فأرسل إليه فجاءه ؛ فقال له: يا أبا الوليد ، هذان أخواك ابن الزّبعري وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما. فقال ابن الزّبعري وضرارٌ: نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا؟ فقال حسّان: أفتبدآن أم أبدأ؟ قالا: نبدأ نحن. قال: ابتدئا ؛ فأنشداه حتى فار فصار كالمّرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ؛ فخرج حسّان حتى دخل على عمر بن الخطّاب فقصّ عليه قصّتهما وقصّته؟ فقال له عمر: لن يذهبا عنك بشيء إن شاء الله ، وأرسل من يردّهما ، وقال له عمر: لو لم تدركهما إلاّ بمكة فارددهما عليّ. وخرجا فلمّا كانا بالرّوحاء رجع ضرار إلى صاحبه بكرهٍ ، فقال له يابن الزّبعري: أنا أعرف عمر وذبّه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسّان وقلّة صبره على ما فعلنا به ، وكأنّي به قد جاء وشكا إليه ما فعلنا ، فأرسل في آثارنا وقال لرسوله: أن لم تلحقهما إلاّ بمكة فارددهما عليّ ؛ فاربح بنا ترك العناء وأقم بنا مكاننا ؛ فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الرّوحاء أسهل منه من أبعد منها ، وإن أخطأ ظنّي فذلك الذي نحبّ ونحن من وراء المضيّ. فقال ابن الزّبعري: نعم ما رأيت. قال: فأقاما بالرّوحاء فما كان إلا كمرّ الطائر حتّى وافاهما رسول عمر فردّهما إليه؛ فدعا لهما بحسّان ، وعمر في جماعةٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لحسّان: أنشدهما مما قلت لهما ؛ فأنشدهما حتّى فرغ مما قال لهما فوقف. فقال له عمر: أفرغت؟ قال: نعم. فقال له: أنشداك في الخلاء وأنشدتهما في الملا. وقال لهما عمر: إن شئتما فأقيما ، وإن شئتما فانصرفا. وقال لمن حضره: إنّي قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبثّ القبيح فيما بينكم ، فأمّا إذ أبو فاكتبوه ، واحتفظوا به. فدوّنوا ذلك عندهم. قال خلاّد بن محمد: فأدركته والله وإنّ الأنصار لتجدّده عندها إذا خافت بلاه. شعر له في هجو أبي سفيان

بن الحارث أخبرنا أحمد بن عبد العزيز قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثنا عفّان بن مسلم قال حدّثنا عمران بن زيد قال: سمعت أبا إسحاق قال في قصة حسّان وأبي سفيان بن الحارث نحو ما ذكره مما قدّمنا ذكره ، وزاد فيه: فقال حسّان فيه:

وإنّ سنام المجـــد من آل هاشـمٍ بنو بنت مخـــزومٍ ، ووالدك العبـد
ومن ولدت أبنـــــاء زهرة منـكم كرامٌ ولم يلحق عجائـزك المجـــد
وإنّ امرأً كـانـت سميّة أمّـــــه وسمراء مغلـوبٌ إذا بلغ الجـهـــد
وأنت هجين نيط فـي آل هـاشـــمٍ كما نيط خلف الرّاكـب القدح الفـرد

فقال العبّاس: وما لي وما لحسّان! يعني ذكره نتيلة ، فقال فيها:

ولست كعبّاسٍ ولا كابـن أمّـــــــه ولكن هجينٌ ليس يورى له زنـــد

لقد أعانه جبريل – عليه السلام - في مديح النبي – صلى الله عليه وسلم -! أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثنا القعنبيّ قال حدّثنا مروان بن معاوية قال حدّثنا إياس السّلميّ عن ابن بريدة قال: أعان جبريل عليه السلام حسّان بن ثابت في مديح النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتاً. مدحه النبي وكعباً وابن رواحة أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا محمد بم منصور قال حدّثنا سعيد بن عامر قال حدّثني جويرية بن أسماء قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسّان بن ثابت فشفى واشتفى". أخبره النبيّ أن روح القدس يؤيده. أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا أحمد بن عيسى قال حدّثنا ابن وهب قال أخبرنا عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن مروان بن عثمان ويعلى بن شدّاد بن أوس عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسّان بن ثابت الشاعر: "إنّ روح القدس لا يزال يؤيّدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم". ولقد استنشده النبيّ وجعل يصغي إليه أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا هوذة بن خليفة قال حدّثنا عوف بن محمد قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلةً وهو في سفرٍ: "أين حسّان بن ثابت؟" فقال حسّان: لبّيك يا رسول الله وسعديك. قال: "أحد" ، فجعل ينشد ويصغي إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمع ، فما زال يستمع إليه وهو سائقٌ راحلته حتّى كان رأس الراحلة يمسّ الورك حتّى فرغ من نشيده. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لهذا أشدّ عليهم من وقع النّبل". وذات يوم انتهره عمر لإنشاده الشعر في مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم -. أخبرنا أحمد قال: حدّثنا عمر قال: حدّثنا أبو عاصم النبيل قال: أخبرنا ابن جريج قال: أخبرنا زياد بن أبي سهل قال: حدّثني سعيد بن المسيّب: أنّ عمر مرّ بحسّان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهره عمر ؛ فقال حسّان: قد أنشدت فيه من هو خيرٌ منك؛ فانطلق عمر. أخبرنا أحمد قال حدّثنا أبو داود الطّيالسيّ قال حدّثنا إبراهيم بن سعد عن الزّهريّ عن سعيد بن المسيّب: أنّ عمر مرّ على حسان وهو ينشد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر مثله وزاد فيه: وعلمت أنّه يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم. أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا محمد بن حاتم قال حدّثنا شجاع بن الوليد عن الإفريقيّ عن مسلم بن يسار: أنّ عمر مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ

بأذنه وقال: أرغاءً كرغاء البعير! فقال حسّان: دعنا عنك يا عمر! فوالله لتعلم أنّي كنت أنشد في هذا المسجد من هو خيرٌ منك فلا يغيّر عليّ! فصدّقه عمر. ومدحه للزبير مدح فيه أسلوبية راقية جداً! حدّثنا محمد بن جرير الطبريّ والحرميّ بن أبي العلاء وعبد العزيز بن أحمد عمّ أبي وجماعةٌ غيرهم قالوا حدّثنا الزّبير بن بكّار قال حدّثنا أبو غزيّة محمد بن موسى قال حدّثني عبد الله بن مصعب عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن جدّتها أسماء بنت أبي بكر قالت: مرّ الزّبير بن العوّام بمجلسٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسّان بن ثابت ينشدهم من شعره وهم غير نشاطٍ لما يسمعون منه ، فجلس معهم الزّبير فقال: ما لي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة! فلقد كان يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه بشيء. فقال حسّان:

أقام على عهـــد النـبيّ وهديه ... حواريّه والقول بالفعل يعـــدل

أقام على منهاجه وطريقـــه ... يوالي وليّ الحقّ والحقّ أعـــدل

هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يومٌ محجّـــل

إذا كشفت عن ساقها الحرب حشّها ... بأبيض سباقٍ إلى المـــوت يرقل

وإنّ امرأً كانت صفيـــة أمّه ... ومن أســـدٍ في بيتها لمرفّل

له من رســـول الله قربى قريبةٌ ... ومن نضرة الإسلام نصـــرٌ مؤثّل

فكم كربةٍ ذبّ الزّبيـــر بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي فيجـزل

فما مثلـــه فيهم و لا كان قبله ... وليس يكون الدّهـــر ما دام يذبل

ثناؤك خيرٌ من فعال معاشـــرٍ ... وفعلك يابن الهاشميّـــة أفضل

وتقدم هو وكعب وابن رواحة ، فاختاره النبيّ! خبرني أحمد بن عيسى العجليّ قال حدّثنا واصل بن عبد الأعلى قال حدّثنا ابن فضيل عن مجالد عن الشّعبيّ قال: لما كان عام الأحزاب وردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من يحمي أعراض المسلمين"؟ فقال كعب: أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة: أنا يا رسول الله ، وقال حسّان بن ثابت: أنا يا رسول الله ؛ فقال: "نعم اهجهم أنت فإنّه سيعينك عليهم روح القدس". ولقد سبه قوم في مجلس ابن عباس فدافع عنه. أخبرني أحمد بن عبد الرحمن قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثنا أبو داود قال حدّثنا حديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير قال: كنّا عند ابن عبّاس فجاء حسّان ، فقالوا: قد جاء اللّعين. فقال ابن عبّاس: ما هو بلعين ؛ لقد نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ويده. حدّثنيه أحمد بن الجعد قال حدّثنا محمد بن بكّار قال حدّثنا حديج بن معاوية قال حدّثنا أبو إسحاق عن سعيد بن جبير قال: جاء رجلٌ إلى ابن عبّاس فقال: قد جاء اللعين حسّان من الشأم. فقال ابن عباس: ما هو بلعين ؛ لقد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ونفسه. وقدم وفد تميم فأمره النبيّ أن يجيب شاعرهم. أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا عبد الله بن عمرو وشريح بن النّعمان قالا حدّثنا عبد الرحمن بن أبي الزّناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: لمّا قدم وفد بني تميم وضع النبيّ صلى الله عليه وسلم لحسّان منبراً وأجلسه عليه ، وقال: "إنّ الله ليؤيّد حسّان بروح القدس ما كافح

عن نبيّه" صلى الله عليه وسلم. هكذا روى أبو زيد هذا الخبر مختصراً. وأتينا به على تمامه ها هنا؛ لأنّ ذلك حسنٌ فيه: أخبرنا به الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثنا الزّبير قال حدّثنا محمد بن الضّحاك عن أبيه قال: قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم وهم سبعون أو ثمانون رجلاً ، فيهم الأقرع بن حابس ، والزّبرقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، وانطلق معهم عيينة بن حصنٍ ، فقدموا المدينة ، فدخلوا المسجد ، فوقفوا عند الحجرات ، فنادوا بصوتٍ عالٍ جافٍ: اخرج إلينا يا محمد؛ فقد جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا. فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس. فقام الأقرع بن حابس فقال: والله إنّ مدحي لزين ، وإن ذمّي لشين. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ذلك الله". فقالوا: إنّا أكرم العرب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام". فقالوا: ايذن لشاعرنا وخطيبنا. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وجلس معه الناس ، فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له الفضل علينا وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً وجعلنا أعزّ أهل المشرق ، وآتانا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف ، ليس في الناس مثلنا؛ ألسنا برؤوس النّاس وذوي فضلهم! فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، ولو نشاء لأكثرنا ، ولكنّا نستحي من الإكثار فيما خوّلنا الله وأعطانا. أقول هذا ، فأتوا بقولٍ أفضل من قولنا ، أو أمرٍ أبين من أمرنا. ثم جلس. فقام ثابت بن قيس بن شمّاس فقال: الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهنّ أمره ووسع كرسيّه علمه ، ولم يقض شيئاً إلاّ من فضله وقدرته؛ فكان من قدرته أن اصطفى من خلقه لنا رسولاً أكرمهم حسباً وأصدقهم حديثاً وأحسنهم رأياً ، فأنزل عليه كتاباً ، وأتمنه على خلقه ، وكان خيرة الله من العالمين. ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان ، فأجابه من قومه وذوي رحمه المهاجرون أكرم الناس أنسأبا ، وأصبح الناس وجوهاً ، وأفضل الناس فعالاً. ثم كان أوّل من اتّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب واستجاب له نحن معشر الأنصار ؛ فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ويقولوا: لا إله إلاّ الله. فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه في الله ، وكان جهاده يسيراً. أقول قولي هذا ، وأستغفرالله للمؤمنين والمؤمنات. فقام الزّبرقان فقال:

نحن الملــوك فلا حيٌّ يقاربنـا منّا الملوك وفينا يؤخذ الرّبــع
تلك المكارم حزناها مقـارعــةً إذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نشدنا من الأحياء كلّـهم عند النّهاب وفضل العزّ يتّبــع
وننحر الكوم عبطاً في منازلنـا للنازلين إذا ما استطعموا شبعوا
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا من العبيط إذا لم يظهر الفــزع
وننصر الناس تأتينا سراتـهــم من كلّ أوبٍ ، فتمضي ثم تتّبــع

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حسّان بن ثابت فجاء ، فأمره أن يجيبه. فقال حسان:

إنّ الـذوائــب مـن فــهــرٍ وإخــوتــهــم قد بيّنوا سنّــةً لـلـنّــاس تــتّــبــــع
يرضى بـهـا كلّ من كـانــت ســريرتــه تقوى الإلـه وبــالأمــر الــذي شــرعــوا

ولما تم إسلام وفد تميم وكان إكرام النبيّ لهم ، قال: فقال الأقرع بن حابس: والله إنّ هذا الرجل لمؤتًّى له! والله لشاعره أشعرُ من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب "من خطيبنا" ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا! أعطني يا محمد فأعطاه. فقال: زدني فزاده. فقال: اللّهمّ إنّه سيد العرب. فنزلت فيهم: "إنّ اللّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون". ثم إنّ القوم أسلموا ، وقاموا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم يتعلّمون القرآن ، ويتفقّهون في الدّين. ثم أرادوا الخروج إلى قومهم ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم ، وقال: "أما بقي منكم أحدٌ؟" ، وكان عمرو بن الأهتم في ركابهم ، فقال قيس بن عاصم ، وهو من رهطه وكان مشاحناً له ، لم يبق منّا أحدٌ إلاّ غلامٌ حديث السنّ في ركابنا ؛ فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطاهم. وهناك مناقضة بين عمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ، فبلغ عمراً ما قال قيس ؛ فقال عمرو بن الأهتم لقيس:

ظللت مفتـــرش الهلبـــاء تشتمـني عند الرســـول فلم تصدق ولم تصب

إن تبغضونا ، فإنّ الـــــرّوم أصلكم والـــــروم لا تملك البغضاء للعرب

فإنّ سؤددنـا عـــــــودٌ وسؤددكم مؤخّـــــرٌ عند أصل العجب والذّنـب

فقال له قيس:

لولا دفاعي كنتم أعبـــدّاً داركم الحيرة والسّيلحون

وهناك شعر لحسان يقرر به إيمانه بالرسل! أخبرنا أحمد بن عبد العزيز وحبيب بن نصر قالا حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثني عمر بن عليّ بن مقدّم عن يحيى بن سعيد عن أبي حيّان التّيميّ عن حبيب بن أبي ثابت ، قال أبو زيد وحدّثنا محمد بن عبد الله بن الزّبير قال حدّثنا مسعرٌ عن سعد بن إبراهيم ، قالوا: قال حسّان: ثابت للنبيّ صلى الله عليه وسلم:

شهـــــدت بإذن اللـه أنّ (مـحـمـــــداً) رســـــول الذي فوق السماوات من عل

وأنّ أخـــا الأحقـــــــاف إذ يعذلـونـه يقوم بديـــن اللـه فـيهـم فـيعـــــــدل

وأنّ أبا يحيـــى ويحيى كـلاهمـــــا له عملٌ فـي دينـــه مـتـقبّـــــــــل

وأنّ الذي عادى اليهود ابـن مـريـــمٍ رسولٌ أتى من عند ذي العرش مرسل

وأنّ الذي بالجـــــزع من بطن نـخـلةٍ ومن دونها فلٌّ من الخـير مـعـــــــزل

غنّى في هذه الأبيات معبد خفيف ثقيلٍ أوّل بالبنصر من رواية يونس وغيره ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أنا أشهد معك". وأنكرت عليه عائشة شعراً له في مدحها! أخبرنا أحمد قال حدّثنا عمر قال حدّثنا زهير بن حرب قال حدّثني جرير عن الأعمش عن أبي الضّحى عن مسروق ، وأخبرني بها أحمد بن عيسى العجليّ قال حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا جرير عن الأعمش عن أبي الضّحى عن مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسّان وهو يرثي بنتاً له ، وهو يقول:

حَصـــــــــانٌ رزانٌ ما تـزنّ بـريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافـــــل

فقالت عائشة: لكن أنت لست كذلك. فقلت لها: أيدخل عليك هذا وقد قال الله عزّ وجلّ: "والّذي تولّى كبره منهم له عذابٌ عظيمٌ"! فقالت: أما تراه في عذاب عظيم قد ذهب بصره! ولقد أخبر بوقعة صفين قبل وقوعها. أخبرنا محمد بن خلفٍ وكيع قال حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدّثنا ابن أبي أويس قال حدّثني أبي ومالك بن الربيع بن مالك حدّثاني جميعاً عن الرّبيع بن مالك بن أبي عامر عن أبيه أنه قال: بينا نحن جلوسٌ عند حسّان بن ثابت ، وحسّان مضطجعٌ مسندٌ رجليه إلى فارعٍ قد رفعهما عليه ، إذ قال: مه! أما رأيتم ما مرّ بكم الساعة؟ قال مالك: قلنا: لا والله ، وما هو؟ فقال حسّان: فاختةٌ مرّت الساعة بيني وبين فارع فصدمتني ، أو قال: فزحمتني. قال: قلنا: وما هي؟ قال:

ستأتيكم غدواً أحاديـــــــث جمّةٌ فأصغوا لها آذانكم وتسمّعـــــــوا

قال مالك بن أبي عامر: فصبحنا من الغد حديث صفّين. ولقد سمعه المغيرة ينشد شعراً فبعث إليه بمال. أخبرنا وكيع قال حدّثنا اللّيث بن محمد عن الحنظليّ عن أبي عبدة عن العلاء بن جزء العنبري قال: بينا حسّان بن ثابت بالخيف وهو مكفوفٌ ، إذ زفر زفرةً ثم قال:

وكأنّ حافرها بكلّ خميلـــــــــةٍ صـــــــاعٌ يكيل به شحيحٌ معدم

عـــــاري الأشاجع من ثقيفٍ أصله عبدٌ ويزعم أنّـه من يقـــــــــدم

قال: والمغيرة بن شعبة جالسٌ قريباً منه يسمع ما يقول ، فبعث إليه بخمسة آلاف درهم. فقال: من بعث بهذا؟ قال: المغيرة بن شعبة سمع ما قلت. قال: واسوأتاه! وقبلها. ولقد استأجر الحارث بن عوف من شعره بالنبي. أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثني الأصمعيّ قال: جاء الحارث بن عوف بن أبي حارثة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أجرني من شعر حسّان ، فلو مزج البحر بشعره لمزجه. قال: وكان السبب في ذلك – فيما أخبرني به أحمد بن عبد العزيز عن عمر بن شبّة عن الأصمعيّ ، وأخبرني به الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثنا الزّبير قال حدّثني عمّي مصعب -أنّ الحارث بن عوف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ابعث معي من يدعو إلى دينك وأنا له جار. فأرسل معه رجلاً من الأنصار. فغدرت بالحارث عشيرته فقتلوا الأنصاريّ ، فقدم الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يؤنّب أحداً في وجهه ، فقال: "ادعوا لي حسّان" ، فدعي له ، فلمّا رأى الحارث أنشده:

يا حار من يغـــــدر بذمّـــة جاره منكم فإنّ محمـــــــــداً لم يغدر

إن تغـــــدروا فالغـــدر منكم شيمةٌ والغـــدر ينبت في أصول السّخبر

فقال الحارث: اكففه عنّي يا محمد ، وأؤدّي إليك دية الحفارة ؛ فأدّى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم سبعين عشراء ، وكذلك دية الخفارة ، وقال: يا محمد ، أنا عائذٌ بك من شرّه ، فلو مزج البحر بشعره مزجه. وأنشد شعراً بلغ النبي فآلمه. أخبرنا أحمد بن عبد العزيز قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثني إبراهيم بن المنذر قال حدّثنا عبد الله بن وهب قال أخبرنا العطّاف بن خالد قال: كان حسّان بن ثابت يجلس إلى أطمه فارعٍ ، ويجلس معه أصحابٌ له ويضع لهم بساطاً يجلسون عليه ؛ فقال يوماً ، وهو يرى كثرة من يأتي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من العرب فيسلمون:

أرى الجلابيـــب قد عزّوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضـــــة البلد

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: "من لي بأصحاب البساط بفارع؟". فقال صفوان بن المعطّل: أنا لك يا رسول الله منهم؛ فخرج إليهم فاخترط سيفه ، فلمّا راوه عرفوا الشرّ بوجهه ففرّوا وتبدّدوا ، وأدرك حسّان داخلاً بيته ، فضرب وفلق أليته. قال: فبلغنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عوّضه وأعطاه حائطاً ، فباعه من معاوية بعد ذلك بمالٍ كثير ، فبناه معاوية قصراً ، وهو الذي يقال له: "قصر الدّارين". وقد قيل: إنّ صفوان بن المعطّل إنما ضرب حسّان لما قاله فيه وفي عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الإفك ؛ لأن صفوان هو الذي رمى أهل الإفك عائشة به. وأخبرنا محمد بن جرير قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة قال: اعترض صفوان بن المعطّل حسّان بن ثابت بالسّيف لما قذفه به من الإفك حين بلغه ما قاله. وقد كان حسّان قال شعراً يعرّض بابن المعطّل وبمن أسلم من العرب من مضر فقال:

أمسى الجلابيب قد عـــزّوا وقد كثروا وابن الفريعـــــــة أمسى بيضة البلـد

قد ثكلت أمّـــــــــه من كنت صاحبـه أو كان منتشباً في بـرثـــــــــن الأسد

ما للقتيل الـذي أعـــــــــدو فـآخذه من ديةٍ فيه أعطيهـا ولا قـــــــــود

ما البحر حين تهبّ الريـــــــح شـاميةً فيغطئلّ ويرمي العبـــــــــر بـالـزّبد

يومـــــــاً بأغلب منّي حين تبصرنـي بالسيف أفري كفري العـــــارض البرد

فاعترضه صفوان بن المعطّل بالسيف فضربه وقال:

تلقّ ذباب السّيف عنّي فإنّنـي غلامٌ إذا هوجيت لست بشاعر

قبض ثابت بن قيس على ابن المعطل لضربه له ، ثم انتهى الأمر إلى النبي فاسترضاه: وحدّثنا محمد بن جرير قال حدّثنا "ابن" حميد قال حدّثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التّيميّ: أنّ ثابت بن قيس بن الشّمّاس أخا بلحارث بن الخزرج وثب على صفوان بن المعطّل في ضربه حسّان فجمع يديه على عنقه ، فانطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ما هذا؟ فقال: ألا أعجّبك! ضرب حسّان بالسيف! والله ما أراه إلاّ قد قتله. فقال له عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيءٍ من هذا؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأت! أطلق الرجل ، فأطلقه. ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فدعا حسّان صفوان بن المعطّل؛ فقال ابن المعطّل: يا رسول الله ، آذاني وهجاني فضربته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسّان: "يا حسّان أتعيب على قومي أن هداهم الله عزّ وجلّ للإسلام!" ، ثم قال: "أحسن يا حسّان في الذي أصابك". قال: هي لك يا رسول الله. وهذا إيرادٌ لما تقدم بروايةٍ أخرى مُفصّلة: أخبرنا أحمد بن عبد العزيز قال حدّثنا عمر بن شبّة قال حدّثني المدائنيّ قال حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم قال حدّثنا محمد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسارٍ عن بعض رجال بني النجّار بمثل ذلك ، وزاد في الشعر الذي قاله حسان زيادةً ووافقه عليها مصعب الزّبيريّ ، فيما أخبرنا به الحسن بن عليّ ، قال قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثنا الزّبير بن بكّار قال حدّثني عمي مصعب في القصّة ، فذكر أنّ فتيةً من

المهاجرين والأنصار تنازعوا على الماء وهم يسقون خيولهم ، فغضب من ذلك حسّان فقال هذا الشعر. وذكر الزّهريّ ، فيما أخبرنا أحمد بن يحيى بن الجعد ، قال حدّثنا محمد بن إسحاق المسيّبي قال حدّثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزّهريّ أنّ هذا الخبر كان بعد غزوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بني المصطلق. قال: وكان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ يقال له: سنان ، ورجل من بني غفار يقال له: جهجاه؛ فخرج جهجاهٌ بفرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرسٍ له يومئذ يسقيهما ، فأوردهما الماء ، فوجد على الماء فتيةً من الأنصار ، فتنازعوا فاقتتلوا؛ فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: هذا ما جزونا به ، آويناهم ثم هم يقاتلوننا! وبلغ حسّان بن ثابت الذي بين جهجاه وبين الفتية الأنصار ، فقال وهو يريد المهاجرين من القبائل الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام – وهذا الشعر من رواية مصعب دون الزّهريّ:-

أمسى الجلابيب قد عزّوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلـــد

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا حسان نفست عليّ إسلام قومي" ، وأغضبه كلامه. فغدا صفوان بن المعطّل السّلميّ على حسّان فضربه بالسيف. وقال صفوان:

تلقّ ذباب السّيف عنّي فإننـي غلامٌ إذا هوجيت لست بشاعر

فوثب قومه على صفوان فحبسوه ، ثم جاؤوا سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وهو مقبلٌ على ناضحه بين القربتين ، فذكروا له ما فعل حسّان وما فعلوا؛ فقال: أشاورتم في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا لا. فقعد إلى الأرض. وقال: وانقطاع ظهراه! أتأخذون بأيديكم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيكم! ودعا بصفوان فأتي به ، فكساه وخلاّه. فجاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كساك كساه الله". وقال حسّان لأصحابه: احملوني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أترضّاه ففعلوا؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردّوه. ثم سألهم فحملوه إليه الثانية؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرفوا به. ثم قال لهم: عودوا بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا له: قد جئنا بك مرّتين كلّ ذلك يعرض فلا نبرمه بك. فقال: احملوني إليه هذه المرّة وحدها ، ففعلوا. فقال: يا رسول الله ، بأبي أنت وأمّي! احفظ قولي:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجـزاء

فإنّ أبى ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقـاء

فرضي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووهب له سيرين أخت مارية أمّ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم. هذه رواية مصعب. وأما الزّهريّ فإنّه ذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا بلغه ضرب السّلميّ حسّان قال لهم: "خذوه فإن هلك حسّان فاقتلوه". فأخذوه فأسروه وأوثقوه ؛ فبلغ ذلك سعد بن عبادة فخرج في قومه إليهم فقال: أرسلوا الرجل ، فأبوا عليه؛ فقال: أعمدتم إلى قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤذونهم وتشتمونهم وقد زعمتم أنّكم نصرتموهم! أرسلوا الرجل ؛ فأبوا عليه حتى كاد يكون قتالٌ ، ثم أرسلوه. فخرج به سعدٌ

إلى أهله فكساه حلّةً ، ثم أرسله سعدٌ إلى أهله. فبلغنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد ليصلّي فيه ، فقال: "من كساك كساه الله من ثياب الجنّة". فقال: كساني سعد بن عبادة. وذكر باقي الخبر نحوه. ولحسان مدح للسيدة عائشة – رضي الله عنها - والاعتذار عما رماها به. حدّثني محمد بن جرير الطبريّ قال حدّثني ابن حميد قال حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه عوضاً منها بيرحاء ، وهي قصر بني حديلة اليوم بالمدينة ، كانت مالاً لأبي طلحة بن سهلٍ تصدّق بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه حسّان في ضربته ، وأعطاه سيرين "أمة قبطيّة" فولدت له عبد الرحمن بن حسّان. قال: وكانت عائشة تقول: لقد سئل عن صفوان بن المعطّل ، فإذا هو حصورٌ "لا يأتي النساء" ؛ قتل بعد ذلك شهيداً. قال ابن إسحاق في روايته عن يعقوب بن عتبة: فقال حسّان يعتذر من الذي قال في عائشة:

حصـــانٌ رزانٌ ما تـزنّ بـريبـــةٍ وتصبح غرثى من لحومٍ الغوافـــل

فإن كنت قد قلت الـــذي قد زعمتم فلا رفعـــت ســـوطي إليّ أناملـي

وكيف وودّي من قديمـــٍ ونصرتي لآل رســول الله زيـــن المحـافـــل

فإنّ الّذي قد قيـــل لـيس بـلائـــطٍ ولكنّه قـــول امـــرئٍ بي مـا حـــل

قال الزبير وحدّثني محمد بن الضحّاك: أنّ رجلاً هجا حسّان بن ثابت بما فعل به ابن المعطّل فقال:

وإنّ ابن المعطّل من سليمٍ أذلّ قياد رأسك بالخطـــام

ولقد سبه أناس فدافعت عنه عائشة! أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال حدّثنا عمر بن شبّة قال أخبرنا أبو عاصمٍ قال أخبرنا ابن جريج قال أخبرني محمد بن السائب عن أمّه: أنّها طافت مع عائشة ومعها أمّ حكيم وعاتكة: "امرأتان من بني مخزوم". قالت: فابتدرنا حسّان نشتمه وهو يطوف ؛ فقالت: أبن الفريعة تسبين! قلن: قد قال فيك فبرّأك الله. قالت: فأين قوله:

هجوت محمداً فأجبـــت عنـه وعند الله في ذاك الجـــــزاء

فإنّ أبي ووالـــــده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقـــــاء

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثني إبراهيم بن المنذر عن سفيان بن عيينة عن محمد بن السائب بن بركة عن أمّه بنحو ذلك ، وزاد فيه: إني لأرجو أن يدخله الله الجنّة بقوله. أخبرني الحسن قال حدّثنا الزّبير عن عبد العزيز بن عمران عن سفيان بن عيينة وسلم بن خالد عن يوسف بن ماهك عن أمّه قالت: كنت أطوف مع عائشة بالبيت ، فذكرت حسّان فسببته ؛ فقالت: بئس ما قلت! أتسبّينه وهو الذي يقول:

فإنّ أبي ووالـــــده وعرضي لعـــرض محمدٍ منكم وقـــاء

فقلت: أليس ممن لعن الله في الدنيا وفي الآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئاً ، ولكنه الذي يقول:

حَصـــــانٌ رزانٌ ما تـزنّ بـريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافـل

فإن كان ما قد جـــاء عنّي قلـتـه فلا رفعت ســـــوطي إليّ أنـاملـي

أخبرني الحسن قال حدّثنا الزّبير قال حدّثني مصعب عمّي قال حدّثني بعض أصحابنا عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كنت قاعداً عند عائشة ، فمرّ بجنازة حسّان بن ثابتٍ فنلتُ منه ، فقالت: مهلاً! فقلت: أليس الذي يقول! قالت: فكيف يقوله:

فإنّ أبي ووالده وعرضـــــي لعرض محمدٍ منكم وقـــــــاء

وهناك أيضاً فخره بلسانه ، أخبرني الحسن قال حدّثنا أحمد قال حدّثني أحمد بن سلمان عن سليمان بن حرب قال حدّثنا حمّاد بن زيد عن أيّوب عن محمد بن سيرين: أن حسّان أخذ يوماً بطرف لسانه وقال: يا رسول الله ، ما يسرّني أنّ لي به مقولاً بين صنعاء وبصرى ، ثم قال:

لساني مغـــــــولٌ لا عيب فيه وبحري ما تكـــــــــدّره الدّلاء

ولم يغفِل التاريخ خبره يوم الخندق ، أخبرنا محمد بن جرير قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا سلمة قال حدّثني محمد بن إسحاق عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير عن أبيه قال: كانت صفيّة بنت عبد المطّلب في فارعٍ "حصن حسّان بن ثابت" ، يعني يوم الخندق. قالت: وكان حسّان معنا فيه والنساء والصّبيان. قالت: فمرّ بنا رجلٌ من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا ، ورسول الله والمسلمون في نحور عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آتٍ. قالت: فقلت: يا حسّان ، إنّ هذا اليهوديّ كما ترى يطيف بالحصن ، وإنّي والله ما آمنه أن يدلّ على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنّا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله؛ فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطّلب! لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلمّا قال ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحصن ، فقلت: يا حسّان ، انزل إليه فاسلبه ؛ فإنّه لم يمنعني من سلبه إلاّ أنّه رجلٌ. قال: ما لي بسلبه من حاجةٍ يا بنت عبد المطّلب. وهذا حديث ابن الزبير عن يوم الخندق وأخبرني الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثنا الزّبير قال حدّثنا عليّ بن صالح عن جدّي عبد الله بن مصعب عن أبيه قال: كان ابن الزّبير يحدّث أنه كان في فارعٍ "أطم حسّان بن ثابت" مع النساء يوم الخندق ومعهم عمر بن أبي سلمة. قال ابن الزّبير: ومعنا حسّان بن ثابت ضارباً وتداً في آخر الأطم ، فإذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل على الوتد فضربه بالسيف؛ وإذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد حتّى كأنه يقاتل قرناً ، يتشبّه بهم كأنّه يري أنّه مجاهدٌ حين جبن. وإنّي لأظلم ابن أبي سلمة وهو أكبر منّي بسنتين فأقول له: تحملني على عنقك حتّى أنظر ، فإنّي أحملك إذا نزلت. قال: فإذا حملني ثم سألني أن يركب قلت له: هذه المرّة أيضاً. قال: وإنّي لأنظر إلى أبي معلماً بصفرةٍ ، فأخبرتها أبى بعد؛ فقال: "أين كنت حينئذ؟ فقلت: على عنق ابن أبي سلمة يحملني. فقال: أما والّذي نفسي بيده إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجمع لي أبويه". قال ابن الزّبير: وجاء يهوديٌّ يرتقي إلى الحصن. فقالت صفيّة له: أعطني السيف ، فأعطاها. فلمّا ارتقى اليهوديّ ضربته حتّى قتلته ، ثم احتزّت رأسه فأعطته حسّان فقالت: طوّح به ؛ فإنّ الرجل أقوى وأشدّ رميةً من المرأة. تريد أن ترعب به أصحابه. وكان حسان مقطوع

الأكحل قال الزّبير: وحدّثني عمّي عن الواقديّ قال: كان أكحل حسّان قد قطع فلم يكن يضرب بيده. أنشد النبي شعراً في شجاعته فضحك قال الزّبير وحدّثني عليّ بن صالح عن جدّي أنّه سمع أن حسّان بن ثابت أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لقد غدوت أمام القـــــوم منتطـقـاً بصارمٍ مثل لون الملح قطّـــــــاع

يحفز عنّي نجاد السيف سابـغـــــةٌ فضفاضةٌ مثل لون النّهي بالقـــاع

قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فظنّ حسّان أنه ضحك من صفته نفسه مع جبنه. لقد قال النابغة من قبل: إنه شاعر والخنساء بكاءة! قال الزّبير وحدّثني محمد بن الحسن قال: قال حسّان بن ثابت: جئت نابغة بني ذبيان ، فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت من عنده ، فأنشدته ؛ فقال: إنّك لشاعرٌ ، وإنّ أخت بني سليم لبكّاءة. وله موقف مع الشاعر الحطيئة. قال الزّبير وحدّثني يحيى بن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدّيق: قال أخبرني غير واحدٍ من مشايخي: أنّ الحطيئة وقف على حسّان بن ثابت وحسّان ينشد من شعره ؛ فقال له حسّان وهو لا يعرفه: كيف تسمع هذا الشعر يا أعرأبي؟ قال الحطيئة: لا أرى به بأساً. فغضب حسّان وقال: اسمعوا إلى كلام هذا الأعرأبي! ما كنيتك؟ قال: أبو مليكة. قال: ما كنت قطّ أهون عليّ منك حين كنّيت بامرأةٍ ، فما اسمك؟ فال: الحطيئة! فقال حسّان: امض بسلام. واتهمه أعشى بكر عند خمار بالبخل فاشترى كل الخمر وأراقها! أخبرني محمد بن العباس اليزيديّ قال حدّثني محمد بن الحسن بن مسعود الزّرقيّ قال حدّثنا عبد الله بن شبيب قال حدّثني الزّبير ، وأخبرني الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثني الزّبير قال حدّثني بعض القرشيين قال: دخل حسّان بن ثابت في الجاهليّة بيت خمّارٍ بالشّأم ومعه أعشى بكر بن وائل ، فاشتريا خمراً وشربا ، فنام حسّان ثم انتبه ، فسمع الأعشى يقول للخمّار: كره الشيخ الغرم. فتركه حسّان حتّى نام ، ثم اشترى خمر الخمّار كلّها. ثم سكبها في البيت حتّى سالت تحت الأعشى ؛ فعلم أنّه سمع كلامه فاعتذر إليه ؛ فقال حسّان:

ولسنا بشربٍ فوقهم ظلّ بـــــردةٍ يعدّون للخمّار تيســـــاً ومـفـصـدا

ولكنّنا شربٌ كـــــرامٌ إذا انـتـشـوا أهانوا الصّريح والسّديف المسرهدا

كأنّهـم مـاتـوا زمـان حـلـيمـــــــةٍ فإن تأتهم تحمد ندامـتـهـم غـــــدا

وإن جئتهم ألفيـــت حول بـيوتـهـم من المسك والجـــادي فتيتاً مـبـدّدا

ترى حول أثنـــاء الزّرأبي ساقـطـاً نعالاً وقسّوباً وريطـاً مـنـضّـــــــدا

وذا نمرقٍ يسعى وملصـق خـــدّه بديباجةٍ تكفـافـهـا قـد تـقـــــــدّدا

ويذكر أهل التراجم والسير تعيير حسان للحارث بن هشام بفراره ، وهذه القصيدة يقولها حسّان بن ثابت في وقعة بدرٍ يفخر بها ويعيّر الحارث بن هشام بفراره عن أخيه أبي جهل بن هشام. وفيها يقول:

إن كنت كاذبة الـــذي حدّثـتـنـي فنجوت منجى الحارث بن هشـام

ترك الأحبّة أن يقاتـــل دونـهـم ونجا برأس طمـرّةٍ ولـجـــــام

غنّاه يحيى المكيّ خفيف ثقيلٍ أوّل بالوسطى. ولعزّة الميلاء فيه خفيف رمل بالبنصر. وفيه خفيف ثقيلٍ بالبنصر لموسى بن خارجة الكوفيّ. فأجاب الحارث بن هشام ، وهو مشرك يومئذٍ ، فقال:

الله يعلم ما تركـــــــت قتـالـهـم حتّى رموا فرســـــي بأشقر مزبد

وعلمت أنّي إن أقاتـل واحـــــــداً أقتل ولا يضرر عدوّي مشهـــــدي

ففررت منهم والأحبّـــــــة فيهم طمعاً لهم بعقاب يـوم مرصـــــــد

ولقد تمثل رتبيل بشعر حسان. أخبرنا محمد بن خلفٍ وكيعٌ قال حدّثني سليمان بن أيّوب قال حدّثنا محمد بن سلاّم عن يونس قال: لمّا صار ابن الأشعث إلى رتبيل ، تمثّل رتبيل بقول حسّان بن ثابت في الحارث بن هشام:

ترك الأحبّـــــــة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّةٍ ولجـــــــــام

فقال له ابن الأشعث: أوما سمعت ما ردّ عليه الحارث بن هشام؟ قال: وما هو؟ فقال له: قال:

الله يعلــم ما تركـــت قتـالـهـم حتى رموا فرســـي بأشقر مزبد

وعلمـــت أنّي إن أقاتـل واحــداً أقتل ولا يضرر عدوّي مشهـدي

فصددت عنهم والأحبّـــة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصـــــد

فقال رتبيل: يا معشر العرب ، حسّنتم كلّ شيء حتى حسّنتم الفرار.

وتحت عنوان: (أسَدُ الشعراء حسان بن ثابت) يقول الشاعر الدكتور عبد المعطي الدالاتي ما نصه بتصرف يسير:

لِكُلّ أُناسٍ ميسَمٌ يَعْرِفونـــــهُ --- وميسَمُنا فينا القوافي الأوابِدُ

إذا ما كَسَرْنا رُمحَ رايةِ شاعرٍ --- يَجيشُ بِنا ما عنـــدَنا فَنعاوِدُ

شاعرٌ طالما جَلى الكربَ عن قلب رسول الله ، وطالما زرع البسمة على وجهه المشرق الجميل. درستُ شعرَه فهِبتُه ، وقرأت سيرتَه فأحببتُه ، وأيّ مسلم هذا الذي لا يحب حسانَ بن ثابت؟! أما شعرُه ، فقد بلغ الشّرفة العليا من الفن المُعجِب الفريد.

وقافيـــــةٍ عجّتْ بليلٍ رزينـــــة --- تلقّيْتُ من جوّ السماءِ نزولَها

يراها الذي لا ينطِقُ الشعرَعندهُ --- ويعجـزُعن أمثالها أنْ يقولها

وأما حبُّه ، فقل في مدى حبه للمصطفى ما تشاء.

من ذا الذي عندهُ رَحلي وراحلتي --- ورِزقُ أهلي إذا لم يُؤنِسوا المَطرا؟

كانَ الضياءَ ، وكان النـورَ نتبعُهُ --- بَعدَ الإلهِ ، وكان السّمـــعَ والبصَرا

وأما التزامُه ، فحسبُه أن يكون أول شاعرعربي يجسّد معنى الالتزام الشعري ، بل وأزعم أنه كان أول شاعر ملتزم في تاريخ الإنسانية . إذ وقف شعرَه كله على نُصرة الرسالة السماوية الخاتمة. وماذا يقول القلمُ في شاعر انتدبَه الرسولُ الخاتم صلى الله عليه وسلم إلى ارتقاء صهوة البيان؟ ماذا يقول القلم في شاعر بشّره أمينُ الأرض بأنَّ معه أمينَ السماء؟! "اُهجُهمْ وجبريلُ معك. إنّ روحَ القُدُس لا يزال يُؤيّدك ما نافحتَ عن الله ورسوله". فأمام أذى شعراء الجاهلية لم يجد الرسولُ بُدًّا من أن يدعوَ فرسانَ البيان إلى الميدان: " ما يمنعُ القومَ الذين نصروا رسولَ الله بسلاحهم ، أن ينصروه بألسنتهم؟". فدعا أولاً عبدَ الله بنَ رواحة فقال وأحسَن، ثم كعبَ بن مالك فقال وأحسن، وأخيراً استنفر الأسدَ الرابضَ في العرين ، حسانَ بن ثابت. ولمّا أنْ جاء البشيرُ قال حسان: "أنا لها" ، وخفّ مُسرعاً إلى الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه ، ودخل عليه وهو يقول: "قد آنَ لكم أن ترسلوا إلى الأسد الضاربِ بذنَبه" ، ومدّ لسانه قائلاً: "والله مايسرّني به مِقوَلٌ بين بصرى وصنعاء. والذي بعثك بالحق لأفرِينّهم بلساني فَريَ الأديم". ليت شِعري! أيّ شعورٍ سرى فيك والرسولُ يناديك ليزيّن جبينك بتاج "شاعر الرسول وشاعر الإسلام" ؟! هل كنتَ ساعتها تسيرعلى الأرض ، أم كنت تطير فوق الغمام؟! "قد آن لكم أن ترسلوا إلى الأسد الضارب بذنبه"! أوَتمُنّ على الأمة بشعرك ياحسان؟! فاللهُ يمنّ عليك أن هداك إلى الإيمان. قد غفرها لك الأمينُ فابتسم ، فأنت محبٌّ ، وللمحب عُذر! وأنت شاعر ، وللشاعر عذران! معذور أنت يا أبا الوليد ، فالعبقرية لا تعرف الاعتدال. معذور أنت إذ تفاخر بقلمك ، فليس أبو دجانة بأولى منك إذ اختالَ بسيفه بين الصفين. معذور أنت ، فصفوفُ شِعرك الساجدِ في ساحات البيان ، ليست بعيدةً عن صفوف المصلين في المسجد ، وصفوفِ المجاهدين في الميدان. وإذا ما قال الأمينُ لأسود الميدان يوم بدر: "قم يا حمزة. قم يا عبيدة. قم يا علي" ، فإنه قال أيضاً لأسود البيان يوم تميم: "قم يا ثابت. قم يا حسان". ولمّا قاما هوت جاهليةُ تميم ، وأعلن زعيمُهم: "لَخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا". ليت شعري! أيَ نور أشرق في وجه الرسول إذ أصاب سهماه كبدَ الجاهلية! ولقد غادر وفد تميم المدينة ، وما يزال يَدوي في أسماعهم هذا الصدى:

قومٌ إذا حاربوا ضـــــرّوا عدوَّهمُ --- أوْ حاوَلوا النّفـعَ في أشياعِهِمْ نَفعوا

إن كان في الناس سبّاقـونَ بَعدَهمُ --- فكلُّ سَبقٍ لأدنى سبقهمْ تبَـــــــــعُ

لا يجهلـــــونَ وإن حاولتَ جهلهمُ --- في فضـــــلِ أحلامهمْ عن ذاكَ مُتّسعُ

كأنهمْ في الوغى ، والموتُ مكتنعٌ --- أسْـــــــــدٌ ببيشة في أرساغها فدَعُ

أهْدَى لهُمْ مِدَحي قلبٌ يُـــــؤازِرُهُ --- فِيما يُحِبُّ لِســـــــانٌ حائِكٌ صَنَـــعُ

ومن قبل تميم ، كانت قصائدُ حسان تغزو المشركين لتمهّد للفتح المبين ، فالرماح المسلمةُ ظماء ، والموعدُ كداء.

عَدِمْنَا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْهــا --- تُثِيرُ النَّقعَ ، مَوْعِدُها كَـداءُ

يُبَارِينَ الأعِنّةَ مُصْعِـداتٍ --- عَلَى أكتافِها الأسَـلُ الظِّماءُ

ونحكمُ بالقوافي مَنْ هجانا --- ونضربُ حينَ تختلطُ الدماءُ

لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ --- وَبَحْرِي لا تُكَـــــدِّرُهُ الدّلاءُ

كانت قصائدُه طلائعَ للسواعد المؤمنة التي عزمت على هدم الوثنية.

فَوافَيْناهُمُ مِنّا بِجَمـــــــــعٍ --- كَأُسْـدِ الغابِ مُرْدانٍ وشِيـــبِ

أمَامَ مُحَمّـــــــدٍ قد آزَروهُ --- عَلى الأعداءِ في لَفْحِ الحُروبِ

ولم يكن بِدعاً أن يشعر حسان بالأسَدية ، فهو واحدٌ من بني النجار ، وواحد من أسودِ الأنصار.

فلا زلتمْ كما كنتمْ قديمـــاً --- ولا زِلْنا كما كُنّا نَكـــــونُ

يُطيفُ بكُم من النّجّار قوْمٌ --- كأُسْدِ الغابِ مَسكنُها العَرِينُ

وكم تكرّر في شعره ذكرُ أسود العرين!

ويثـــــــربُ تعلمُ أنّا بها --- أســـــودٌ تنفّضُ ألبادَها

نَهُزُّ القَنا في صُدُورِ الكُما --- ةِ حتى نكسّـــــرَ أعوادَها

وكم تكرر في شعره ذكرُ عرين الأسود!

لنا حَرّةٌ مأطـورةٌ بجبالها --- بنى المجـــدُ فيها بيتَهُ فتأهّلا

نَصَرْنا بها خيْرَ البريَّة كلِّها --- إماماً، ووقّرْنا الكِتــابَ المُنزَّلا

نَصَرْنا وآوَيْنا وقوّمَ ضرْبُنا --- لهُ بالسيوفِ مَيْلَ مَن كان أميَلا

ولم يكن الفخرُ وحدَه سلاح حسان ، بل آزره الهجاءُ المرُّ المُبير ، الذي وقع على المشركين كالصواعق المرسلة.

فتوقّعوا سُبُلَ العذابِ عليكمُ --- مما يُمِرُّ على الـرّويِّ لساني

ولتعرفنّ قلائـــدي برقابكمْ --- كالوشمِ لا تبلى على الحدَثانِ

وها هو الحارث بن عوف المرّي يُهرع إلى النبي عليه الصلاة والسلام مذعوراً مستغيثاً ، فيقول: "يا محمد! أجِرْني من شعر حسان ، فوالله لو مُزج به البحرُ لمزجَه" ! لقد صدق إذاً حسانُ وعدَه ، ففرى الظالمينَ بلسانه فريَ الأديم ، وشفى قلبَ النبي الكريم فقال له: "أحسنتَ يا حسان".." هجاهم حسانُ فشفى واشتفى" ، وحسبُ حسانَ شهادةُ سيد البلغاء ، إذا فاتته شهادة الأدعياء. ولقد كان شعرُه المتوهجُ نسيجَ وحده ، فهو مختلفُ السّمت ، قد جمع بين الفخامة والطلاوة ، وبين الجزالة والعذوبة ، زانته صورٌ بيانية طريفة ، وجمّلت أسلوبَه نُعمَيات الحضارة ، حضارة القرآن. وأنا لا يكادُ ينقضي عجَبي من روعة صوَره الفنية المبتكرة!

وكأنّني رِئْبالُ غَـــابٍ ضَيْغَـــمٌ --- يَقرو الأماعِـزَ بالفِجـاجِ الأفيَحِ

غَرِثَتْ حَلِيلَتُهُ وَأرْمَـــلَ ليلـــةً --- فَكأنّـــهُ غَضْبـــــانُ ما لمْ يَجْرَحِ

فَتَخَالُهُ حَسّـــانَ إذْ حَرّبْتَـــــهُ! --- فَدَعِ الفضـاءَ إلى مَضيقِكَ وافسَحِ

فالأسدُ الهائج الذي باتت حليلتُه جائعة ، يشبه حسان حين تغضبُه ، فلبتعِد إذاًعن طريق حسان. وهذه الصورة تشي بخيال شعري مستوفِز خارجٍ عن المألوف في شعر العرب. وقد أدرك حسان مِيزة تفرّده الفني ، فقال:

لا أسْرِقُ الشّعَـــــراءَ ما نَطَقوا --- بَل لا يُوافِـــــقُ شِعْرَهُمْ شِعْري

إنّي أبَـــــــــى لي ذَلِكُمْ حَسَبي --- ومقالةٌ كمقاطعِ الصخـــــــــرِ

وحاشاك أن تمدَّ عينك إلى شعرغيرك يا حسان ، بل ستغدو أنت عبرالأزمان "الشاعرَالإمامَ" في الدفاع عن الإسلام.

قد ثكِلتْ أمُّهُ من كنتُ واجـــــدَهُ --- أوْ كانَ مُنتشبَاً في بُرْثُنِ الأسَـــــــدِ

ما البَحرُ حينَ تَهُبُّ الرّيحُ شاتيـةً --- فَيَغْطَئِلُّ وَيَرْمي العِبْرَ بالزَّبَـــــــــدِ

يَوْماً بِأغْلَبَ مِنّي حِينَ تُبصِـــرُني --- أفري من الغيظِ فَرْيَ العارضِ البرِدِ

صدقت يا أبا الوليد ، فاثنان هالكان: مَن وقع في مخالب الأسد. ومن وقف معانداًعلى طريق قافية حسان! رضي الله عنك يا أسدَ الشعراء).هـ. وكلمات الشاعر الدكتور الدالاتي عن حسان كلمات متألقة تضيء لنا حنادس الظلمات التي يخلعها المستشرقون الخبثاء على شعر حسان رضي الله عنه!

الفصل الثاني

الغزوات والسرايا في شعر حسان

غزا المسلمون ثلاثين غزوة قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا غزوة مؤتة فلم يشهدها ، وورد ذكر بعض الغزوات في القرآن ، وسجل التاريخ تلك الغزوات في أمانة علمية صادقة ، وكان حسان الشاعر المصور لتلك المعارك والشاعر المؤرخ في بعضها حين راح يسرد سرد المؤرخين ما كان من أحداث ، وإذا ما راعه موقف بطولة صوره ، وإذا ما شاهد فرارًا وانكسارًا أو جبنا أرسل خواطره وراءه ليقدم للزمن صورته ، وقد تغريه مواقف الأهل بالفخر فيشدو ويفتخر ، وقد تناول شعر حسان الغزوات والسرايا وكشف عما كان فيها من بطولات وربما أرسل في الغزوة الواحدة أكثر من قصيدة كبدر فقد تناولها في سبع قصائد ، ولم يعن حسان كثيرًا بتصوير رحى المعارك بل كان مؤرخًا في أكثرها أكثر منه شاعرًا ، ولعل الحقائق التاريخية شغلته عن الاسترسال في الخيال وإبداع الصور وهذه أبيات من قصيدة قالها في غزوة بدر يقول:

بنـــو الأوس الغطـــارف آزرتهـــا *** بنـو النجـــار فـــي الـدين الصليـب

فغادرنا أبا جهل صريعًا وعتبة قد تركنا بالجبوب وشيبة قد تركنا في رجال ذوي حسب إذا نسبوا نسيب يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب ألم تجدوا حديثي كان حقًّا وأمر الله يأخذ بالقلوب فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مصيب الغطارف : جمع غطريف : السيد ، الدين الصليب : المتين ، الجبوب : الأرض الغليظة ، الكباكب : جمع كبكبة الجماعة من الناس ، القليب : البئر . (الجزء رقم : 2 ، الصفحة رقم: 223) في هذه الأبيات نزع حسان إلى الفخر بموقف الأوس وبني النجار في المعركة لنصرة دين الله المتين ثم انتقل إلى بيان مصرع سادة قريش في بدر وهم: أبو جهل وعتبة وشيبة ، ثم بين نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب ينادي أولئك الذين طواهم القليب ، وانطوت معهم بعض صفحات العناد ، ودفنت كبرياء قريش ، ولو أنطقهم الله حين نودوا لقالوا لرسول الله: لقد صدقت دعوتك وكنت صاحب الرأي السديد. وخليق بنا أن نسمي هذا اللون من القول المنظوم نظمًا لا شعرًا فهو كتلك الأراجيز التي نظمت بها قواعد العلوم والتاريخ وليس شعرًا يحلق فيه حول فرار الحارث بن هشام يوم بدر حين اشتدت رحى الخيال ويطير ما سمحت له أجواؤه. القتال في بدر لم يثبت الحارث بن هشام شقيق أبي جهل ، وقد رأى أبطال قريش تعصف بهم رياح الموت فآثر الفرار والنجاء من أهوال المعركة وقد عيره الناس بفراره فقال:

اللـــه يعلـــم مـــا تـــركـــت قتـــالهم *** حـتى علـوا فرسـي بأشـقر مزبـــــد

ووجدت ريـح المـوت مـن تلقـائهم *** فـــي مـــأزق والخـيـــــل لـــم تتبـــدد

وعلمـــت أنـــي إن أقـــاتل واحـــدًا *** أقتـل ولا يضـــرر عـــــدوي مشـهدي

فصدفت عنهم والأحبة دونهم طمعًا *** لـــهـــــم بعقـــاب يـــــوم مفســـــد

وبهذا الأسلوب اعتذر الحارث عن الفرار ؛ لأنه لا يضر المسلمين شهود الحارث وإنه ليطمع في يوم يثأر فيه للأحبة الذين خلفهم صرعى في بدر. والحارث هذا هو ابن هشام بن المغيرة

وأمه أسماء بنت مخربة وأمها عقاب كانت بنت أمة لرجل من تغلب فكانت جدته لأمه بنت أمة وذلك ما عير به حسان الحارث في كل أهاجيه له ، وهذا النسب لم يغب عنه أبو بكر أستاذ علم الأنساب ذلك العلم الذي تلقاه عنه حسان فهجا الكثير من القرشيين دون أن يمس نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر حسان فرار الحارث يوم بدر يوم الفرقان وصفاً دقيقاً فقال:-

يـــا حـــــار قـــد عـــولت غـير معـــــول *** عنـــد الهيـــاج وســـاعة الأحســـــاب

إذ تمتطـــي ســـرج اليـــدين نجيبـــــــــة *** مـــرطى الجـــراء خفيفـــة الأقـــــراب

والقـــوم خـــلفك قـــد تـــركت قتـــــالهم *** ترجـــو النجـــاء فليـــس حـــين ذهـــاب

(الجزء رقم: 2 ، الصفحة رقم: 224)

هـــلا عطفت علـى ابـن أمـك إذا ثـوى *** قمصـــي الأســـنة ضـــائع الأســـلاب

جهمًـــا لعمـــرك لـــو دهيـــت بمثلهـــا *** لأتـــاك أجـــثم شـــابك الأنيـــــاب

عجـــل المليـــك لـــه فـــأهلك جمعـــــه *** بشـــنار مخزيـــة وســـوء عـــــذاب

لـــو كنت ضنـــيء كريمـــــة أبليتـــهـــا *** حـــــتى ولـــكـــن ضنـــيء بنـــت عقـاب

هذه صورة قدمها حسان لفرار الحارث وهي صورة فيها شيء من الحياة والتعبير إذ كشفت عن صورة المعركة في هياجها وصورة الحارث على فرس طويلة اليدين سريعة الجري خفيفة الخاصرة وهو يمعن في الهرب والعدو بها لا يلوي على شيء ، ولا يلتفت وراءه لشقيقه وهو يهلك ويضرب بسلاحه بعد أن جرد من كل ما اعتد به من سلاح وهو عاجز ضعيف يجثم كما تجثم الإبل وقد تشابكت أنيابه واختلفت غيظًا حين علاه ابن مسعود وراح يحتز رأسه ، وقد أعجل الله له ولجمعه الهلاك والعار والعذاب . ثم طعن ذلك الهارب في أصله فهو ليس من أب عربي وأم عربية ، ولو كان عربي الأم لطاب معدنه وآثر الموت على الفرار الذي نجا فيه بنفسه تاركًا وراءه شقيقه يتخبط في دمه وليس بغريب على ابن بنت الأمة أن يفر من الأهوال . وقد أسلم الحارث يوم الفتح وحسن إسلامه وحارب في عهد الفاروق عمر في حروب الشام وقد مات في طاعون عمواس وقيل في اليرموك بعد أن جاهد في سبيل الله حق الجهاد لعله يكفر عن مواقفه من الإسلام والمسلمين قبل أن يسعده الله بالإسلام! وقد قدم حسان صورة لجيش المسلمين في المغافر والدروع والأسلحة يتقدمون في قوة وجلد وإيمان وثبات إلى ماء بدر حيث وقفت قريش عنده بثلاثة أمثال جيش المسلمين وهي تصر على منعهم من ورود الماء ولكن الرسول ما كان ليتراجع أمام أية قوة وتقدم إلى الماء غير مكترث بتهديد حتى شرب وشرب المسلمون وبقي ماء بدر تحت أيديهم لم تزحرحهم عنه قريش لأنهم مستمسكون بحبل الله وحبل الله لا يضيعه مؤمن ولا ينقطع من يد مستوثق قال حسان من نص يصور فيه المسلمين:

مستشعـــري حلق المـاذي يقدمهـم *** جـلد النحـيزة مـاض غـير رعديد

أعنـــي الرســول فـــإن اللـــه فضلـــــه *** علـــى البريـــة بـــالتقوى وبـــالجود

وقـــد زعمتـــم بـــأن تحـــموا ذمـــاركم *** ومـــاء بـــدر زعمتـــم غـــير مـــورود

وقــد وردنـــا ولــم نسـمــع لقـولكم *** حـــتى شـــربنا رواء غــير تصريـد

(الجزء رقم: 2 ، الصفحة رقم: 225)

مسـتعصمين بحــبل غـير منجـــــزم *** مستحكم مــن حبــال اللــه ممـــــدود

استشعر الثوب: لبسه على جسده مباشرة ، دون حائل بينه وبين الجسد ، الماذي: الدرع البيضاء. الجَلد بفتح الجيم: القوي الصبور ، النحيزة ، الطبيعة. الرعديد: الجبان ، الذمار: كل ما يجب على الإنسان حِفظه من متاع وحمى وعرض. الرَّواء بفتح الراء المشددة: الماء الكثير العذب. التصريد: شرب دون الري. الاعتصام: التمسك. المنجزم: المنقطع. المستحكم: المستوثق!

رحلته الشعرية رضي الله عنه

نشأ حسان في قبيلة الخزرج والتي كانت لها باع في المعارك والنزاعات مع قبيلة الأوس وشهدت المدينة الكثير من الوقائع بينهما، ومثلما خرج قيس بن الخطيم كشاعر للأوس خرج حسان بن ثابت شاعراً للخزرج، وتبارى كل منهما في عرض شعره والذي يمدح به قبيلته ويهجو الأخرى، فنظم حسان الشعر في بادئ الأمر من أجل التفاخر والذود عن قبيلته ضد الهجمات الشعرية التي يشنها عليها قيس بن الخطيم ، ويرد بمثلها الأمر الذي جعله ذائع الشهرة بين العرب في إحدى مناوراته الشعرية مع قيس قام حسان بالتغزل في أخت قيس ليلى لكي يثير غيرته ونخوته - وكانت هذه العادة معروفة في العرب بين فتيان القبائل – قائلاً:-

لَقَد هاجَ نَفسَكَ أَشجانُـــــها وَعـاوَدَها اليَـــــومَ أَديانُها

تَـذَكَّـــرُ لَيلى وَما ذِكرُهـــــا وَقَد قُطِعَـــــت مِنكَ أَقرانُها

وَحَجَّلَ في الـــــدارِ غِربانُها وَخَـفَّ مِنَ الـــــدارِ سُكّانُها

مُعصِراتُ الرِيـــــاحِ وَغَيَّرَها وَسَحُّ الجَنـــــوبِ وَتَهتانُها

فما كان من قيس سوى الرد عليه بقصيدة أخرى قام فيها بالتغزل في عمرة زوجة حسان قائلاً:-

أَجَدَّ بِعَمـــــــــرَةَ غُنيانُها فَتَـهـجُرَ أَم شَأنُنا شانُهـــــــا

وَإِن تُمسِ شَطَّـــت بِها دارُها وَبـاحَ لَـكَ اليَـــــومَ هِجرانُها

فَما رَوضَةٌ مِن رِياضِ القَطـــا كَـأَنَّ الـمَصابيـــــــحَ حَوذانُها

بِـأَحسَنَ مِنها وَلا مُزنَـــــــةٌ دَلـــــــــوحٌ تَـكَشَّفُ أَدجانُها

وَعَمرَةُ مِن سَرَواتِ النِسـاءِ تَـنـفَـحُ بِالمِســـــــكِ أَردانُها

اتصل حسان بالغساسنة وقام بمدحهم فأجزلوا له العطايا مع غيره من الشعراء الذين انقطعوا لمدح ملوك الغساسنة الشم مثل النابغة الذبياني وعلقمة الفحل. ومما قاله في مدح الغساسنة:-

بـيضُ الوُجوهِ كَريمَـةٌ أَحسابُهُم شُـمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِـــرازِ الأَوَّلِ

فَعَلَوتُ مِن أَرضِ البَريصِ إِلَيهِمِ حَتّى اِتَّكَأتُ بِمَنزِلٍ لَم يوغَـــلِ

كما اتصل حسان بعد ذلك بملوك الحيرة فعمل على مدح النعمان بن المنذر ، فأحتل مكانة النابغة عنده بعد وقوع الخلاف بين كل من النابغة الذبياني والنعمان ، وبعد عودة النابغة إلى النعمان تركه حسان مكرهاً.

إسلامه

مرحلة جديدة من الشعر عاشها حسان بعد ذلك حيث عرف الإسلام وهو في الستين من عمره ، فدخل فيه وأصبح من اشد المدافعين عنه ، وسخر شعره من اجل خدمة الإسلام ومدحه ومدح الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، ورد هجمات القرشيين اللسانية ، التي كانوا يقومون بها من اجل مهاجاة الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام. ومما قاله في مدح الرسول:-

وَأَحسَـــــنُ مِنكَ لَم تَرَ قَطُّ عَيني وَأَجمَـــــــلُ مِنكَ لَم تَلِدِ النِساءُ

خُلِقتَ مُبَـــــــرَّءً مِن كُلِّ عَيبٍ كَـأَنَّكَ قَد خُلِقتَ كَما تَشـــــــاءُ

لم يشارك حسان بعد إسلامه مع الرسول في أي من الغزوات أو المعارك وذلك لداء أصابه بالخوف ، ولكنه طالما أنشد الأشعار التي تمدح الرسول والإسلام ، وهجا بها الكافرين من قريش ، وكان لا يهجوهم بكفرهم ولكن من خلال أخبار قبائلهم وهزائمهم وأنسابهم. وقال الرسول عليه الصلاة والسلام يوماً للأنصار: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال الرسول عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء". انطلق حسان بعد ذلك في شعره يساند به الإسلام فتنوع ما بين مدح الإسلام والرسول ورثاء شهداء المسلمين وهجاء للمشركين والمعاديين للإسلام فكان لا يدع مناسبة إلا وانطلق ينظم الشعر بها، وكان حسان من خلال شعره يسجل أخبار المسلمين من غارات وغزوات، ويمدح الصحابة والتابعين. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يثني عليه ويعطيه العطايا والغنائم ، ويقول له: "اهج المشركين فإن روح القدس معك". ومما قاله عندما حقق المسلمين النصر في غزوة بدر:-

فينا الرَســـولُ وَفينا الحَقُّ نَتبَعُهُ حَتّى المَماتِ وَنَصرٌ غَيرُ مَحـــدودِ

ماضٍ عَلى الهَولِ رِكّابٌ لِما قَطَعوا إِذا الكُماةُ تَحامَوا في الصَناديـــدِ

وافٍ وَماضٍ شِهابٌ يُستَضـــاءُ بِهِ بَدرٌ أَنارَ عَلى كُلِّ الأَماجيـــــــدِ

مُبارَكٌ كَضِياءِ البَـــــدرِ صورَتُهُ ما قالَ كانَ قَضـــــاءً غَيرُ مَردودِ

مُستَعصِميـــنَ بِحَبلٍ غَير مُنجَذِمٍ مُستَحكِمٍ مِن حِبـــــالِ اللّهِ مَمدودِ

وقال في مدح رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم وبارك -:-

شَـــــــقَّ لَهُ مِن إِسمِهِ كَي يُجِلَّهُ فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّـــــدُ

نَبِيٌّ أَتانا بَعدَ يَـــــــأسٍ وَفَترَةٍ مِنَ الرُسلِ وَالأَوثـــانِ في الأَرضِ تُعبَدُ

فَأَمسى سِراجاً مُستَنيـــراً وَهادِياً يَلـوحُ كَما لاحَ الصَقيـــــلُ المُهَنَّدُ

وَأَنذَرَنا نـاراً وَبَشَّرَ جَنَّـــــــةً وَعَلَّمَنـا الإِسلامَ فَاللَهَ نَحمَـــــــدُ

وَأَنتَ إِلَـهَ الـحَقِّ رَبّـــي وَخالِقي بِذَلِكَ ما عُمِّرتُ في الناسِ أَشهَـــدُ

تَعالَيتَ رَبَّ الناسِ عَن قَـولِ مَن دَعا سِـــــواكَ إِلَـهاً أَنتَ أَعلى وَأَمجَدُ

لَكَ الـخَلقُ وَالنَعماءُ وَالأَمـــرُ كُلُّهُ فَإِيّاكَ نَستَـهـــــدي وَإِيّاكَ نَعبُدُ

لِأَنَّ ثَوابَ اللَـهِ كُلَّ مُوَحِّـــــدٍ جِنـانٌ مِنَ الفِـــــردَوسِ فيها يُخَلَّدُ

وعند وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قام حسان بإلقاء واحدة من أفضل قصائده ، حيث يرثي فيها الرسول الكريم بالكثير من الأسى والحزن!

بَطَـيبَةَ رَسمٌ لِلرَســـــولِ وَمَعهَدُ مُـنيرٌ وَقَد تَعفو الرُســـومُ وَتَهمَدِ

وَلا تَمتَحي الآياتُ مِن دارِ حُرمَـــةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كانَ يَصعَـــدُ

وَواضِحُ آثـــــارٍ وَبـاقي مَعالِمٍ وَرَبعٌ لَـهُ فيهِ مُصَلّى وَمَسجِـــــدُ

بِـها حُجُراتٌ كانَ يَنـــزِلُ وَسطَها مِـنَ الـلَهِ نورٌ يُستَضـــاءُ وَيوقَـدُ

مَعارِفُ لَم تُطمَس عَلى العَهــدِ آيُها أَتـاهـا الـبِلى فَالآيُ مِنها تُجَـــدَّدُ

ومما قاله أيضاً في رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام:-

مـا بـالُ عَيني لا تَنـــــــامُ كَأَنَّما كُـحِلَـت مَآقيها بِكُحلِ الأَرمَـــــــدِ

جَزَعاً عَلى المَهـــــدِيِّ أَصبَحَ ثاوِياً يا خَيـــــرَ مَن وَطِئَ الحَصى لا تَبعُدِ

جَـنبي يَقيكَ التُـــــربَ لَهفي لَيتَني غُيِّبتُ قَبلَكَ في بَقيـــــــعِ الغَرقَدِ

أسلوبه الشعري

انعكست علاقة حسان مع الملوك على أسلوبه الشعري حيث تميزت قصائده في المديح عن غيرها ، هذا بالإضافة لإلمامه بالشعر الهجائي وأساليبه وأدواته ومذاهبه ، واعتمد في أداؤه الشعري على التضخيم والتعظيم وضم شعره الألفاظ الجزلة القوية. قال عنه أبو عبيدة "فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمانيين في الإسلام. تنوع شعر حسان بين كل من الهجاء والفخر والمدح والرثاء ، فقبل دخوله إلى الإسلام تركز شعره على الفخر والشعر النضالي والذي يعمل من خلاله على المفاخرة بقبيلته الخزرج والرد على الهجمات الشعرية لقيس بن الخطيم من قبيلة الأوس ، وهجاء الخصوم ، ثم انتقل إلى مرحلة أخرى فتركز شعره على المدح فمدح العديد من الملوك والأمراء الذين اجزلوا له العطايا والهدايا ، وكان يميل قبل الإسلام إلى حياة اللهو وشرب الخمر وله أوصاف في الخمر والغزل ، ثم أنتقل بشعره بعد الإسلام إلى الدفاع عن الإسلام وعن الرسول عليه الصلاة والسلام ومدحهم ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد ارتقى حسان في هذه المرحلة بشعره فلم يكن من أجل الاستجداء أو التكسب بل من أجل نصرة الإسلام ورسوله

ومدح الصحابة والتابعين! ويقول الدكتور راغب السرجاني تحت عنوان: (حسان بن ثابت شاعر الرسول) بتصرف يسير: (حسان بن ثابت شاعر الرسول ، ليس خزرجيًّا فحسب ؛ بل هو أيضًا من بني النجار أخوال رسول الله ، فله به صلة وقرابة. وكان قبل إسلامه قد اتصل بالغساسنة ، يمدحهم بشعره ، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل أعطياتِ بني غسان وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارفة الظلال ، ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها النعمان بن المنذر ، فحلَّ محلَّ النابغة ، حين كان هذا الأخير في خلاف مع النعمان ، إلى أن عاد النابغة إلى ظل أبي قابوس النعمان ، فتركه حسان مكرهًا ، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه ، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه ، ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم ، واشتمل على ألفاظٍ جزلةٍ قويةٍ ، وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد نبي الإسلام ، والمناضَلة دونه بسلاحَي مَدْحِه وهجائه. فماذا عن حسان بن ثابت في الإسلام؟ إنه لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره ، وسمع بالإسلام ، دخل فيه ، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة ، ويدافع عن محمد والإسلام، ويهجو خصومهما. قال يومًا للأنصار: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟!" فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء". ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء ؛ بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صحَّ إسلامهم ، وكان النبي يثني على شعر حسان ، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل: "اللهم أيده بروح القدس" ، وعطف عليه وقرَّبه منه ، وقسم له من الغنائم والعطايا ، إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشًا بالكفر وعبادة الأوثان ؛ وإنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها ، ويُعيرهم بالمثالب والأنساب ، ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغًا. وكان حسان بن ثابت لا يقوى قلبُه على الحرب ، فاكتفى بالشعر ، ولم ينصر رسول الله بسيفه ، ولم يشهد معركةً مع رسول الله ولا غزوةً. ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظَى بمنزلةٍ رفيعةٍ، يجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه ، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ موقفًا خاصًّا من الشعر ، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم ، في حين نجد أن عمر بن الخطاب يحب الشعر ، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى ، وقد رُوِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشِدَين عددٌ من الأبيات ، لسْنا في صدَدِ إيرادِها. لقد كان حسان بن ثابت مؤيداً بروح القدس! قال رسول الله : "اهجُ قريشًا ، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل" ، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم" ، فهجاهم فلم يُرْضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل عليه ، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنَبه ، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه ، فقال: والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم. فقال رسول الله: "لا تعجل ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبًا ، حتى يلخص لك نسبي" ، فأتاه حسان ، ثم رجع فقال: يا رسول الله ، قد لخص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق! لأسلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله" ، وقالت: سمعت رسول الله يقول: "هجاهم حسان ، فشفى واشتفى". قال حسان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه *** وعند الله في ذاك الجـــزاء

هجوت محمدًا برًّا تقيًّـــــا *** رسول الله شيمته الوفـــــاء

فإن أبي ووالــده وعرضي *** لعرض محمـــــد منكم وقاء

ثكلت بنيتي إن لـم تروهـــا *** تثير النقع من كنفي كـــــداء

يبارين الأعنـة مُصعـــدات *** على أكتافها الأســـل الظماء

تظـــل جيادنا مُتمطـــرات *** تلطمهن بالخمر النســـــــاء

فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا *** وكان الفتح وانكشف الغطـاء

وإلا فاصبروا لضـراب يوم *** يعـــــــز الله فيه من يشاء

وقال الله: قد أرسلـــت عبدًا *** يقول الحق ليس به خفـــــاء

وقال الله: قد يَسرت جُنـــدًا *** هم الأنصـــار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معـــــد *** سباب أو قتـــال أو هجـــــاء

وهناك آثار عظيمة لحسان بن ثابت ، فلقد اتفق الرواة والنقَّاد على أن حسان بن ثابت أشعَر أهل المدر في عصره ، وأشعر أهل اليمن قاطبةً ، وقد خلف ديوانًا ضخمًا رواه ابن حبيب ، غير أن كثيرًا من الشعر المصنوع دخله ؛ لأنه لما كان لحسان بن ثابت موقف خاص من الوجهة السياسية والدينية ، دُسَّ عليه كثير من الشعر المنحول ، وقام بهذا العمل أعداء الإسلام ، كما قام به بعض كُتَّاب السير من مثل ابن إسحاق. وأكثر شعر حسان في الهجاء، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام ، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّر الإيمانُ قلوبَ الشعراء ، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة. فإن كلاًّ منها يعبر عن موضوع واحد ؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم ، وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام ، هي: أولاً شعر حسان بن ثابت القبلي:- قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام كان منصرفًا إلى الذَّود عن حياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة الفخر ، أما الداعي إلى ذلك فالعَداء الذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس ، ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا. ثانياً ارتباط حسان بن ثابت بالغساسنة:- اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيرًا من أمراء غسان ، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم ، وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا وجعلوا له مرتبًا سنويًّا ، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره:

يَسقون من ورد البريص عليهم بـردى يصفـق بالرحيق السلـل

بِيض الوجوه كريمـــة أحسابهم شمُّ الأنـــوف من الطـراز الأول

ثالثاً دخول حسان بن ثابت الإسلام:- نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء بل للدفاع عن الرسول الكريم وهذا ينقسم لقسمين: أما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد ، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة ، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا ، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَّة والعقيدة النفيسة ، قال حسان:

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل * والأوثـــان فـي الأرض تعبـــــــد**

فأمسى سراجًـــــا مستنيرًا وهاديًا * يلوح كما لاح الصقيـــــل المهنـــــد**

وأنذرنا نارًا ، وبشـــــــر جنـــــة * وعلمنا الإسلام ، فالله نحـمـــــــــد**

وأنت إله الخلـــــــق ربي وخالقي * بذلك ما عمـــــــرت في الناس أشهد**

ويلحق بهذا المدح رثاء محمد فقد ذرف الشاعر دموعًا حارة ، وضمنه لوعة وتذكرًا لأفضال رسول الدين الجديد ، وحنينًا إليه في النعيم:

مع المصطفى أرجو بذاك جــواره * وفي نيل ذلك اليوم أسعى وأجهد**

وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد من نسب. أما أسلوبه في هجائه فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك).هـ. ويقول الدكتور عارف الكنعاني تحت عنوان: (حسان بن ثابت شاعر الرسول صاحب الحياتين في الجاهلية والإسلام – الصوت والصدى) ما نصه: (يقول صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني إن حسان بن ثابت عاش مائة وعشرين عاماً ، منها سِتون عاماً في الجاهلية ، وستون عاماً في الإسلام. ولذلك يعتبر شعره أحد المراجع التاريخية عن العصرين الجاهلي والإسلامي ، وكان في الجاهلية شاعر قبيلة يزود ، ويتحدث باسم الخزرج أمام خصومهم الأوس ، والذين كان يدافع عنهم شاعر آخر هو قيس بن الخطيم الأوسي. وحياته في الجاهلية كانت وحتى بلغ الستين من عمره مقسمة بين قضيتين أساسيتين: الأولى: الدفاع عن القبيلة التي كانت بمثابة الوطن ، وقد أبلى بلاء حسناً في هذا الدفاع المجيد ، حيث كان الشاعر في القبيلة بمثابة جهاز الإعلام في الزمن الحاضر. وكانت تنوب القصيدة عن الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية والمحطة الإذاعية والقناة التلفزيونية والمواقع الإلكترونية. وكان العرب في ذلك الزمن يطربون لسماع الشعر ويحفظونه للاستشهاد به في الموقف المناسب ، فما تكاد القصيدة تسمع من الشاعر حتى تنتقل إلى مختلف أصقاع الأرض عن طريق الرواة والهواة. وكان الشاعر يحمل عن قبيلته عبء الهجوم على القبيلة الأخرى ، كما يحمل في الوقت عبء هجوم شاعرٍ أو شعراء القبيلة الخصم

عليه. والقضية الثانية للشاعر حسان بن ثابت في الجاهلية كانت مدح الغساسنة الذين كانوا ملوك الشام ، والذين رحبوا به بعد أن ذاع شعره بين العرب ، وكبرت منزلته في قومه. وإذا كانت الأبيات التي افتتحنا بها هذه الحلقة توضح تلك العلاقة الطيبة بين الشاعر حسان والغساسنة ، فإن رد حسان على قيس بن الخطيم يوضح القضية الأولى ، وهي قضية الدفاع عن القبيلة ، والهجوم على القبيلة الخصم. ومما جاء في أحد ردود حسان على قيس بن الخطيم الأوسي:

لعمـرُ أبيـكَ، يا شـــعْثُ، ما نَبـا عليّ لساني في الخطوب ولا يَـدي
لسـاني وسـيفـي صارمـانِ كِلاهُمَـا ويَبْلـغ ما لا يبلـغُ السيـفُ مِـذْودي
فـلا تَعْجَلَـن يا قيسُ واربَـعْ فإنّمـا قُصـاراك أن تُلقِـي بكُـلّ مُهَنِّـدِ
حسـامٍ وأرمـاحٍ بأيـدي أعِـزّةٍ متـى تَرَهُمْ يا ابـنَ الخطيـمِ تبَلَّـدِ
ليـوثٍ لهـا الأشـبالُ تحمـي عَرينَهـا مداعيسَ بالخطيّ في كلّ مشـهدِ
فقد ذاقتِ الأوسُ القتـالَ وطـرّدتْ وأنتَ لـدى الكِنـاتِ في كلّ مَطـردِ
نفتكُـمْ عن العليـاءِ أمٌّ لئيمَـةٌ وزَنْدٌ متـى تُقـدحْ بـهِ النـارُ يَصْلُـدِ

وعلى الرغم من أهمية شعر حسان بن ثابت في قومه وفي الغساسنة إلاّ أن القضية التي كرّس لها شعره فيما بعد كانت قضية الدين الجديد الذي اعتنقه ، وحمل لواء الدفاع عنه وعن رسوله الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. يقول محمد بن سيرين: كان شعر حسان في ذلك الزمن أشد القول عليهم كقوله في هجاء عمرو بن العاص وبني سهم:

لاطت قريشُ حياضَ المجْـدِ طاميَةٌ فسَهْمٌ فأصْبَحَ مِنهُ حَوْضُها صَفِـرا
وأوردوا وحيـاضُ المَجْـدِ طاميَـةٌ فَدَلّ حـوْضَهُمُ الـوُرَّادَ فَانْهَـدرا
واللهِ ما فـي قريـشٍ كُلِّهـا نَفَـرٌ أكثرُ شـيخـاً جباناً فاحشـاً غُمُـرا
أذبَّ أصلعَ سَفسـيـراً لهُ ذأبٌ كالقِرْدِ يعجم وَسْطَ المَجْلِس الحُمُـرا

ومن الواضح أن فروسية حسان بن ثابت اقتصرت على الشعر ، ولم يكن فارساً يجمع في يده السيف والقلم كبقية الشعراء أمثال امرئ القيس ، وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد وغيرهم. ولكنه استطاع بشعره أن يفعل أكثر مما الفرسان بشجاعتهم وقوة سواعدهم وإقدامهم في المعارك والحروب. فشعره كان بمثابة الإعلام وسلاح الإعلام ، كان ولا يزال السلاح الأقوى والأكثر فاعلية وأثراً. يقول ابن دريد نقلاً عن أبي عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. أما الجوهري فإنه يبرز مكانة حسان بين الشعراء العرب فينقل عن عمرو بن شبه عن أبي ثابت. وفي كتابه ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، يقول الدكتور عمر فاروق الطباع: خاض حسان في العديد من أغراض الشعر وأبوابه ، وبرز في الفخر والهجاء قبل فترة إسلامه وبعدها ، وفي هذين الجانبين حفل شعره بالأحداث والوقائع وأسماء الإعلام حتى نعته صاحب الروائع بمؤسس الشعر التاريخي ولا سيما الإسلامي ، لأنه حفظ لنا أسماء المعارك العديدة بين

المسلمين والمشركين ، وذكر أسماء الصحابة وأسماء أعداء الإسلام ، فكان أشبه بشاعر الدولة الرسمي ، يؤرخ ويحصي، يقوم بالدعاية ويناضل ، فقرن الشعر بالتاريخ وجمع بين الدين والسياسة. قصيدة اليوم للشاعر حسان بن ثابت هي قصيدة حديث أم معبد ، والتي رواها واحد من الصحابة هو حبيش بن خالد رضي الله عنه ، وفيها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة بصحبة أبي بكر الصديق ، مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد تبرز للضيوف ولو كانوا رجالاً ، فطلبوا منها أن يشتروا التمر واللحم فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاةٍ نحيفةٍ في كسر الخيمة فسألها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل لها من لبن. قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبها. قالت: نعم.. بأبي أنت وأمي.. إن رأيت بها حلبها فاحلبها. فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح بيده ضرعها. وسمى الله تعالى ودعا لها في شأنها، فأفسحت بين رجليها ودرت ، فسقى أم معبد حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم. وكرر ذلك وحلب الشاة مرة أخرى حتى امتلأ الإناء. وبعد ارتحال الرسول الكريم ، جاء زوج أم معبد يسوق أعنزاً عجافاً هزيلة ولما رأى اللبن قال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد؟ من الشاة. ولكنها هزيلة ولا حليب فيها. مرّ بنا رجل مبارك. وحلبها فدرت. صفي لي هذا الرجل يا أم معبد. وصفت أم معبد النبي وصفاً بديعاً ، ومما قالت في وصفه: ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأجملهم من قريب. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلاً ، فأصبح صوته بمكة عالياً. صوت يقول شعراً لا يدرون من صاحبه.

جَزى اللــهُ ربُّ النــاسِ خَيْـرُ جزائِـهِ رفيقيـنِ قـالا: خَيْمَتَــي أُمِّ مَعْبَـــــدِ
هُمـا نزلاهَـا بالهُـدى فاهتـــــدَتْ بـهِ فَقدْ فـازَ مـن أمسـى رفيـقَ مُحَمّـــــدِ
سـلُوا أختكُـمْ عَنْ شـاتِها وَإنائِهـــا فإنّكُـمْ إن تَسْــألوا الشـاةَ تَشْـهَـــدِ

وحين سمع حسان بن ثابت هذه القصة هاجت قريحته فنظم هذه الأبيات:

لقد خـابَ قومٌ غـابَ عَنْهُـم نبيُّهُـمْ وقُدّسَ مَنْ يَسْـري إليهـم ويَغْتـدي
ترحّـلَ عَـن قـومٍ فَضَلَّـتْ عُقولهُـمْ وَحَـلَّ عَلـى قَــوْمٍ بنــورٍ مُجَـدّدِ
هَداهُـمْ بــهِ بَعـدَ الضلالـةِ رَبُّهُـمْ وَأرشدَهُمْ مـن يَتبـعِ الحـقَّ يَرْشُـدِ
وَهَلْ يَسْـتوي ضـلالُ قومٍ تَسفّهوا عَمــيً ، وَهُـداةٌ يَهْتَـدونَ بِمُهْتَـدِ؟
لقَـدْ نزلَـتْ منـهُ عَلَـى أهـلِ يـثرب رِكـابُ هُـدَى حَلّـتْ عَلَيْهِـمْ بِأسْـعَـدِ
نبـيٌّ يَـري ما لا يَـرى الناسُ حَوْلـهُ ويتلـو كتـابَ اللـهِ فـي كلّ مَسْجِــدِ
وَإنّ قـالَ فـي يَـوْمٍ مَقالَــة غائِـبٍ فَتصْديقُها في اليَوْمِ أو في ضُحى الغدِ
لِيَهْــنِ أبـا بكـرٍ سَــعادَةُ جــدّهِ بِصُحْبَتِـهِ، مـن يُسـعدِ اللـهَ يَسْـعَدِ

وقد قدم حسان صورة لجيش المسلمين في المغافر والدروع والأسلحة يتقدمون في قوة وجلد وإيمان وثبات إلى ماء بدر حيث وقفت قريش عنده بثلاثة أمثال جيش المسلمين وهي تصر على منعهم من ورود الماء ولكن الرسول ما كان ليتراجع أمام أية قوة وتقدم إلى الماء غير مكترث بتهديد حتى شرب وشرب المسلمون وبقي ماء بدر تحت أيديهم لم تزحرحهم عنه قريش لأنهم مستمسكون بحبل الله ، وحبل الله لا يضيعه مؤمن ولا ينقطع من يد مستوثق. ولم يشارك حسان بعد إسلامه مع الرسول في أي من الغزوات أو المعارك وذلك لداء أصابه بالخوف ، ولكنه طالما أنشد الأشعار التي تمدح الرسول والإسلام ، وهجا بها الكافرين من قريش ، وكان لا يهجوهم بكفرهم ولكن من خلال أخبار قبائلهم وهزائمهم وأنسابهم. قال الرسول عليه الصلاة والسلام يوماً للأنصار: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال الرسول عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء". لقد انطلق حسان بعد ذلك في شعره يساند به الإسلام فتنوع ما بين مدح الإسلام والرسول ورثاء شهداء المسلمين وهجاء للمشركين والمعاديين للإسلام فكان لا يدع مناسبة إلا وانطلق ينظم الشعر بها ، وكان حسان من خلال شعره يسجل أخبار المسلمين من غارات وغزوات ، ويمدح الصحابة والتابعين. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يثني عليه ويعطيه العطايا والغنائم ، ويقول له: "اهج المشركين فإن روح القدس معك". وعند وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قام حسان بإلقاء واحدة من أفضل قصائده ، حيث يرثي فيها الرسول الكريم بالكثير من الأسى والحزن.

بَطَيبَةَ رَسمٌ لِلرَسولِ وَمَعهَدُ مُنيرٌ وَقَد تَعفو الرُسومُ وَتَهمَدِ

وَلا تَمتَحي الآياتُ مِن دارِ حُرمَةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كانَ يَصعَدُ

وَواضِحُ آثارٍ وَباقي مَعالِمٍ وَرَبعٌ لَهُ فيهِ مُصَلّى وَمَسجِدُ

بِها حُجُراتٌ كانَ يَنزِلُ وَسطَها مِنَ اللَهِ نورٌ يُستَضاءُ وَيوقَدُ

مَعارِفُ لَم تُطمَس عَلى العَهدِ آيُها أَتاها البِلى فَالآيُ مِنها تُجَدَّدُ

ومما قاله أيضاً في رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام:-

ما بالُ عَيني لا تَنامُ كَأَنَّما كُحِلَت مَآقيها بِكُحلِ الأَرمَدِ

جَزَعاً عَلى المَهدِيِّ أَصبَحَ ثاوِياً يا خَيرَ مَن وَطِئَ الحَصى لا تَبعُدِ

جَنبي يَقيكَ التُربَ لَهفي لَيتَني غُيِّبتُ قَبلَكَ في بَقيعِ الغَرقَدِ

وإذا أردنا توصيف أسلوبه الشعري ، فنقول: لقد انعكست علاقة حسان مع الملوك على أسلوبه الشعري حيث تميزت قصائده في المديح عن غيرها ، هذا بالإضافة لإلمامه بالشعر الهجائي وأساليبه وأدواته ومذاهبه ، واعتمد في أداؤه الشعري على التضخيم والتعظيم وضم شعره الألفاظ الجزلة القوية. قال عنه أبو عبيدة: "فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمانيين في الإسلام". تنوع شعر حسان بين كل من الهجاء والفخر والمدح والرثاء ، فقبل دخوله إلى الإسلام تركز شعره على الفخر

والشعر النضالي والذي يعمل من خلاله على المفاخرة بقبيلته الخزرج والرد على الهجمات الشعرية لقيس بن الخطيم من قبيلة الأوس ، وهجاء الخصوم ، ثم انتقل إلى مرحلة أخرى فتركز شعره على المدح فمدح العديد من الملوك والأمراء الذين اجزلوا له العطايا والهدايا ، وكان يميل قبل الإسلام إلى حياة اللهو وشرب الخمر وله أوصاف في الخمر والغزل ، ثم أنتقل بشعره بعد الإسلام إلى الدفاع عن الإسلام وعن الرسول عليه الصلاة والسلام ومدحهم ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد ارتقى حسان في هذه المرحلة بشعره فلم يكن من أجل الاستجداء أو التكسب بل من أجل نصرة الإسلام ورسوله ، ومدح الصحابة والتابعين).هـ. وبعض الناس يقولون: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقم حَدَّ القذف على الذين أشاعوا حادثة الإفك ـ وبخاصة رئيس المنافقين فهل هذا صحيح؟ والحقيقة أن حادث الإفك قد سجَّله القرآن في أوائل سورة النور ، وروته كتب السنة بإسهاب ، واتهام الإنسان لغيره بالزنا يُسمى قذفًا ، يوجِب حد القاذف ثمانين جلدة إنْ تبيَّن كذبه في هذا الاتهام ، ومعروف أن الزنا لا يثبت إلا بالإقرار أو البيِّنة ، وهي أربعة شهود عُدول رأوا الحادثة رؤية لا شبهة فيها ، ولو ثبت زنا المقذوف سقط الحد عن القاذف. وقد حرَّم الله القذف الذي لا دليل على استحقاق المقذوف له ، ووضع له حدًّا رادعًا فقال: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). وقال سبحانه فيمن رموا السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالإفك: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ، والذي تولى كبره بالترويج ونشر خبره هو عبد الله بن أُبي بن سلول زعيم المنافقين ، كما أخرجه البخاري عن عائشة. وكذلك حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحِمْنة بنت جحش ، كما في رواية البخاري ومسلم. ولما ظهرت براءة السيدة عائشة هل طبق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حد القذف عليهم؟ جاء في تفسير القرطبي ، أن محمد بن إسحاق وغيره قالوا: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلد في الإفك رجلين وامرأة وهم مسطح وحسان وحمنة ، وذكره الترمذي أيضًا. وذكر القشيري أن الذي أقيم عليهم الحد ثلاثة: عبد الله بن أبي ، وحسان وحِمنة ، وأما مسطح فلم يثبت عنه القذف صريح ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح ، وفي رأي ذكره الماوردي أن الأربعة أُقيم عليهم الحد ، ثم قال القرطبي: المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حَدَّ حسان ومسطح وحمنة ، ولم يسمع بحدٍّ لعبد الله بن أُبي . وذلك الحديث رواه أبو داود عن عائشة ، وعلل العلماء ذلك بأن الله أعدَّ لعبد الله بن أُبي في الآخرة عذابًا عظيمًا ، فلو حُدَّ في الدنيا لكان ذلك نقصًا من عذابه في الآخرة وتخفيفًا عنه ، وإنما حُد المسلمون الثلاثة ؛ ليكفر الله عنهم الإثم حتى لا يبقى عليهم تبِعة من ذلك في الآخرة ، فقد ثبت حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا في الحدود "إنها كفارة لمن أقيمت عليه". وقيل: إن ترك حدِّ ابن أُبي كانت استئلافًا لقومه واحترامًا لابنه ـ لأن ابنه كان مؤمنًا صادقًا ـ وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك. وقد كان ظهرت مبادؤها من سعد بن عباده ومن قومه كما في صحيح مسلم. وإذن فهناك ثلاثة آراء فيمن أُقيم عليهم حدُّ القذف: رأي يقول بإقامته على ثلاثة هم مسطح وحسان وحمنة. ورأي يقول بإقامته على ثلاثة هم: عبد الله بن أبي وحسان وحمنة ، أما مسطح فلم يثبت عليه قذف صريح. ورأي يقول بإقامته على أربعة هم: عبد الله بن أبي ومسطح وحسان وحمنة. والرأي الأول أخرج عبد الله بن أُبي من الحد إما سياسة وإما اكتفاء بعذابه العظيم في الآخرة ، أمَّا غيره فكان الحد كفارة لذنبهم لا يُعاقبون عليه في الآخرة.

الفصل الثالث

شاعرية حسان بن ثابت وأسلوبيته

حسان بن ثابت الأنصاري كشاعر عربي وصحابي من الأنصار ، وينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة ، كما كان شاعراً معتبراً يفد على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه ، ثم أسلم وصار شاعر الرسول بعد الهجرة. فكان طبيعياً أن يكون له ذلك المجد في جاهليته وإسلامه! وكانت المدينة في الجاهلية ميدانا للنزاع بين الأوس والخزرج ، تكثر فيها الخصومات والحروب ، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس ، وحسان بن ثابت شاعر الخزرج الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، فطارت له في البلاد العربية شهرة واسعة . لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره ، هاجر إلى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام. وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانية ، ويدافع عن محمد والإسلام ، ويهجو خصومهما. قال صلى الله عليه وسلم يوما للأنصار: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بُصرى وصَنعاء". ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء ، بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صح إسلامهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يثني على شعر حسان ، وكان يحثه على ذلك ويدعو له بمثل: "اللهم أيده بروح القدس" عطف عليه ، وقربه منه ، وقسم له من الغنائم والعطايا. إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيرهم بالمثالب والأنساب. ولقد اتفق الرواة والنقاد على أن حسان بن ثابت أشعر أهل المدر في عصره ، وأشعر أهل اليمن قاطبة. قال أبو عبيدة: (فُضِّلَ حسّان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلّها في الإسلام). وقد روي عدي بن ثابت ، عن البراء: أن رسول الله قال لحسان: اهْجُهُم وهَاجِهِم وجبريل معك. مرَّ عمر بن الخطاب على حسّان وهو ينشد في مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فانتهره عمر ، فأقبل حسّان فقال: (كنتَ أنشد وفيه مَن هو خيرٌ منك)... فانطلق عمر حينئذٍ ، وقال حسان لأبي هريرة: أنشدك الله هل سمعتَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (يا حسّان! أجبْ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، اللهم أيّده بروح القُدُس)... قال: (اللهم نعم). كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحسان بن ثابت: (اهجهم وهاجهم وجبريلُ معك)... وقال رسول الله ـصلى الله عليه وسلم-: (لا تسُبّوا حسّاناً ، فإنه ينافحُ عن الله وعن رسوله). ولقد سجلت كتب الأدب والتاريخ الكثير من الأشعار التي ألقاها في هجاءالكفار ومعارضتهم ، وكذلك في مدح المسلمين ورثاء شهدائهم وأمواتهم. وفي تاريخ الشعر العربي عدد من الشعراء الفحول لا تنحسر عنهم دائرة الضوء ، فأسماؤهم دائماً بارزة في قوائم المُبدعين ووجودهم ساطعٌ متألقٌ لا يَخبو وَمِيضُه مع حركة الزمن ، ولا تنقصف أعواده من مهب الريح والأعاصير. ويبرز من بين هذا الوجود الشامخ ، والحضور المتوهج حسان بن ثابت الأنصاري ، لا باعتباره طاقة شعرية هائلة فحسب ، بل باعتبار انه شاعر استطاع في مرحلة من مراحل حياته ، أن يوظف هذه الطاقة لتؤدي دوراً ، هو بلا شك أجل وأعظم دور قام به شاعر في تاريخ الشعر العربي كله. وهل هناك ما هو أشرف وأعظم من

الدفاع عن الإسلام ، والوقوف إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام في مواجهة الشرك والوثنية ، وتأييد الدعوة التي جاء بها رسول الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والإشادة بما تنطوي عليه من قيم إنسانية عليا ، والتغني بانتصارات المسلمين على طريق نشر الدعوة الإسلامية ورثاء شهدائهم الأبرار ، وهل يمكن أن يعمل إنسان شاعرا كان أو غير شاعر لغاية أشرف من هذه الغاية؟ حسان بن ثابت من أهل المدينة ينحدر من بيت شريف من بيوت الخزرج ، وينتمي إلى بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أبوه فهو ثابت بن المنذر الخزرجي من سادة قومه ، ومن أشرفهم ، وأما أمه فهي الفزيعة بنت خنيس بن لوزان بن عبدون وهي أيضا خزرجية. وحسان بن ثابت بوصفه أحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، حيث عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، عاش على الشعر ، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ، وبالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان فأغدقوا عليه العطايا ، وملأوا يديه بالنعم ، ولم ينكروه بعد إسلامه ، فجاءته رسلهم بالهدايا من القسطنطينية ، ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والذود عنه ، وأصبح الشاعر المنافح عن دين الإسلام ، فاشتهر بذلك ذكره ، وارتفع قدره ، وعاش ما عاش موفور الكرامة مكفي الحاجة من بيت المال حتى توفي سنة 54 للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة ، وقد كف بصره في آخر أيامه. ولقد اشتهرت مدائحه في الغسانيين قبل الإسلام. يقول الأديب الدكتور محمد مصطفى سلام: لقد كان حسان يتغنى بالشعر ، وربة الشعر تطاوعه في جاهليته وإسلامه حتى ملأ به القلوب والأسماع ، وأجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر ، وشعره كشعر غيره من المخضرمين يجمع بين صورتين فنيتين صادقتين للشعر ، إحداهما جاهلية ، والأخرى إسلامية تعد مظهراً قوياً لتأثر الأدب الإسلامي بالقرآن والحديث وأحداث الإسلام وعقائده. ولقد دعا حسان إلى التغني بالشعر ، وأجود الشعر عنده ما جادت به القريحة مطابقاً للواقع وسلامة المنطق ، وشاعريته محلقة تستلهم السماء فتوحي إليه بالعذب المعجز ، وهو أمير نفسه في شعره ، فلم يلتزم مذاهب غيره من شعراء عصره كزهير والنابغة والأعشى والحطيئة وغيرهم ، ولم يعمد إلى التكلف في شعره ، ولم يحفل بتنقيحه ، بل كان يرسله كما أوصت به القريحة وحدثت به النفس ودعت إليه الحال ، وكثيراً ما اضطرتْه بعض المواقف الإسلامية إلى الارتجال ، فلا غرابة أن تتنوع أساليبه ومعانيه وتتباين ألفاظه ومبانيه ، وأن تجتمع في قصائده الفخامة واللين والغريب والمألوف. وحول موهبة حسان وشاعريته يقول الشاعر الإسلامي صلاح الدين السباعي: لقد عاش حسان في الجاهلية شاعراً قبلياً يصوغ شعره في روية وأناة ويراجعه ويجوده قبل أن يخرج به على الناس ، مما وفر لقصائده مستوى فنيا عاليا ، وعندما دخل حسان الإسلام اكتشف أن دوره في تأييده ومؤازرة النبي صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه في مواجهة المشركين ، يفرض عليه جانبا تسجيليا وتاريخيا للمواقف والأحداث التي شهدتها الدعوة الإسلامية ، ولم يكن حسان يمتلك أداة للتسجيل والتأريخ افضل من الأداة التي تمرس على استخدامها طويلا قبل الإسلام ، وهي هذه الأوزان العروضية التي كان في الجاهلية يعبر من خلالها عن أفكاره ومشاعره. وهكذا اتخذ حسان من هذه الأوزان وسيلة لتسجيل تلك المواقف والأحداث شأن أي مؤرخ حريص على تدوين حقائق التاريخ ، ومن هنا جاء إنتاجه بالنسبة لهذا الجانب التسجيلي خالياً تماماً من نبض الشعر ودقته وحرارته ، بمعنى أنه عندما كانت الأحداث تتوالى فإن كل اهتمامه كان ينصرف إلى الحرص على تسجيلها فقط ، وبالتالي فإنه

يتحول من حين إلى آخر إلى ناظم وفقاً لحركة الأحداث. وعندئذ تغطي عنده الحقيقة التاريخية على الحقيقة الشعرية وبحيث تتوارى ، وذلك على نحو ما نرى في رده على أبي سفيان بن حرب وفخره على حسان بمقتل عدد من المسلمين من بينهم حمزة عم الرسول في واقعة أحد:

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قلته بمصيـــــــــب

أتعجب أن أقصـدت (حمزة) منهمُ نجيباً ، وقد سميتـــه بنجيـــب

ألم يقتلوا عَمْراً ، وعُتبــة ، وابنه وشيبة والحجـــاج وابن حبيـــب

غداة دعا العـــاص علياً ، فراعه بضربه عضـــب بله بخضيـــب

فهذه الأبيات كما نرى ليس فيها إلا تذكير لأبي سفيان بانتصار المسلمين في واقعة بدر وتسجيل لأسماء سراة المشركين الذين قتلوا فيها. وفي شعر حسان الكثير والكثير جداً مما يسجل هذه الأحداث والمواقف ، ومما يؤرخ لحياة الرسول مما أشاع الاستشهاد بشعره في الكتب التي تناولت السيرة النبوية. ويؤكد النقاد أن شعر حسان بعد إسلامه لم يكن في قوته وجزالته في الجاهلية حيث افتقر شعره الإسلامي من وجهة نظر بعض النقاد وأساتذة الأدب العربي إلى الجزالة وقوة الصياغة التي كانت له في الجاهلية. لكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الحيوية والرقة والسلاسة ، ويتوهج من حين إلى آخر بتدفق عاطفي يكشف عما في قلبه من دفء وحرارة ويثبت للذين ارجعوا ضعف شعره إلى شيخوخته أن قلب الشاعر لا يشيخ. ويتفق النقاد على أن أساليب حسان بن ثابت بعد إسلامه قد سلمت من الحوشية والأخيلة البدوية ، لكن خالطها لين الحضارة ، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة اللفظ وفخامة المعنى والعبارة كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته ومعارضته المشركين وهجومهم. يقول الدكتور محمد مصطفى سلام: لقد غلبت على أساليب حسان الشعرية الصبغة الإسلامية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته ولطيف كناياته ، وضرب أمثاله ، واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين ، كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال ، وأكثر ما نرى ذلك في شعر الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه ، وتهجين عبادة الأوثان ، ووصف الشعائر الإسلامية وذكر مآثرها وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين وبعض ما مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أو رثاهم به. ولا يتسع المجال هنا لتقديم نماذج عديدة من شعر حسان ، ولذلك فإننا نكتفي باختيار بضعة أمثلة قد لا تحدد بشكل حاسم القيمة الفنية لشعره الإسلامي ، ولكنها على الأقل تومئ إلى مستوى الآفاق التي حلق فيها. يقول عن الرسول مشيراً إلى مكانة قومه واعتزازه بتأييده عليه الصلاة والسلام والوقوف إلى جانبه في مواجهة المشركين:

نصرناه لما حل وسط رحالنا بأسيافنا من كل بــاغ وظالم

جعلنا بنينا دونـــه ، وبناتنا وطبنا له نفسا بفيء المغانم

فإذا انتقلنا من المدح إلى الرثاء ، وجدنا حسان يرثي الرسول بمجموعة من القصائد التي تنم عن شعور صادق بالحزن ، والتي تنصهر فيها المعاني في بوتقةٍ داكنةٍ قاتمة ، وتكاد الكلمات تتحول فيها إلى دموع ، ومن ذلك قوله:

فابكي رسول الله يا عين عبــرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

وجودي عليه بالدموع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد

فما فقد الماضون مثل محمـــد ولا مثله حتى القيامـــة يفقد

ونظرًا لمكانته كشاعر الرسول ، فقد لقي حسان بن ثابت من نحل الأبيات والقصائد على لسانه ما لم يلقه كثير من الشعراء ، كما أدت المنافسة بين قريش والأنصار في عهد بني أمية ، ثم الصراع بين القبائل اليمانية (الذين منهم الخزرج قوم حسان) والقيسية إلى المزيد من القصائد المختلقة على لسانه. وقد أشار إلى ذلك النقاد الأولون ، يقول ابن سلام الجمحي: "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضدت قريش واستبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى." وقد حذف ابن هشام من سيرة ابن اسحاق خمس عشرة قصيدة منسوبة إلى حسان ، عشر منها قد وردت في ديوانه ، ويقدّر أحد الباحثين المعاصرين نسبة الأشعار المنحولة في ديوان حسان بن ثابت بما بين 60 و 70%. وإن كنتُ لا أميل إلى التسليم المطلق بصحة هذا الكلام! ولقد اتفق الرواة والنقَّاد على أن حسان بن ثابت أشعر أهل المدر في عصره ، وأشعر أهل اليمن قاطبةً ، وقد خلف ديوانًا ضخمًا رواه ابن حبيب ، غير أن كثيرًا من الشعر المصنوع دخله؛ لأنه لما كان لحسان بن ثابت موقف خاص من الوجهة السياسية والدينية ، دُسَّ عليه كثير من الشعر المنحول ، وقام بهذا العمل أعداء الإسلام ، كما قام به بعض كُتاب السير من مثل ابن إسحاق. وعموماً كان أكثر شعر حسان في الهجاء ، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام ، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّر الإيمان قلوبَ الشعراء ، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة .. فإن كلاًّ منها يعبر عن موضوع واحد؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم ، وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام ، هي: القسم الأول: شعر حسان بن ثابت القبلي: قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام كان منصرفًا إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة الفخر ، أما الداعي إلى ذلك فالعَداء الذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس ، ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا. والقسم الثاني: ارتباط حسان بن ثابت بالغساسنة: فلقد اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيرًا من أمراء غسان ، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم ، وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوا له مرتبًا سنويًّا ، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيـــق السلـل

بيض الوجوه كريمـــة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطـــراز الأول

والقسم الثالث: بعد دخول حسان بن ثابت الإسلام: لقد نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء

للتكسب أو الاستجداء؛ بل للدفاع عن الرسول الكريم وهذا ينقسم لقسمين: 1- المدح: فنجده في شعر حسان لهذا العهد ، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة ، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا ، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَّة والعقيدة النفيسة ، ويلحق بهذا المدح رثاء محمد فقد ذرف الشاعر دموعًا حارة ، وضمنه لوعة وتذكرًا لأفضال رسول الدين الجديد ، وحنينًا إليه في النعيم:

مع المصطفى أرجو بذاك جــواره وفي نيل ذلك اليوم أسعى وأجهد

وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد من نسب. 2- الهجاء: فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. وتحت عنوان: (حسان بن ثابت: شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) يقول الأستاذ ظافر قطيع ما نصه بتصرف زهيد: (كان للشعر والشعراء في حياة العرب مكانة كبيرة. وما كانت قبيلة من القبائل تخلو من شاعر مجيد ينشر فضائلها ومكارمها ويهجو أعداءها. وقد عَرفت مكّة في الجاهلية سوق عكاظ الذي كان بمثابة المهرجان الشّعري الكبير ، فكانت القصائد التي تحوز إعجاب العرب تُكتب بماء الذهب ، وتعلّق على جدران الكعبة؛ وهو ما عرف في الأدب العربي بالمعلّقات. وكانت قريش شأنها شأن باقي القبائل العربية ، تزخَر بالشّعراء الذين كانوا أشبه برجالات الإعلام في زماننا الحاضر. وكان للشعر دور في حرب قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان يقوم بعض شعرائها بهجاء النبي وأصحابه في محاولة منهم للتشويش على الدعوة الوليدة. ومن هؤلاء المشركين عبد الله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب. فقال قائل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: "اهجُ عنّا القوم الذي يهجوننا ، فقال: إنْ أذن لي رسول الله فعلت. فقالوا: يا رسول الله ائذن له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ علياً ليس عنده ما يراد في ذلك منه. ثم قال: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم [في إشارة إلى الأنصار]؟ فقال حسان: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه". انتُدب لهجوِ المشركين ، زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثلاثة من الأنصار: حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة. وقد روى أصحاب الصّحاح والسّنن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول لحسان بن ثابت: اهجهم - يعني المشركين - وروح القدس معك. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لحسان: "اللهم أيّده بروح القدس ، لمناضلته عن المسلمين". عاش حسان بن ثابت ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، وقد جعل من شعره الوسيلة الأقوى والسلاح الأمضى الذي يدافع به عن الإسلام. ولئن كان بعض الكتب يروي أن حساناً كان رجلاً جباناً يخشى الحروب ، وأنه لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيّاً من مواقفه لجبنه ، فإنّ بعض أهل العلم قد أنكر ذلك وقالوا لو كان حقاً لهجي به. إذ إنه لم يكن من المقبول أن تكون في الرجل نقيصة ولا يتناوله بها أعداؤه ، والجبن نقيصة وأيّما نقيصة.

والحق أنه لم يكن قادراً على القتال منذ ضربهُ صفوان بن المعطّل بالسيف. ويصف حسان بن ثابت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول:

متى يَبْدُ في الداجي البهيـــم جبينه يَلُحْ مثل مصباح الدّجى المتوقّـــدِ

فمن كان أو مَنْ قد يكون كأحمـــد نظامٌ لحــق أو نكـــالٌ لملحـــــدِ

كان حسان بن ثابت موضع تقدير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لذبّه بلسانه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هجائه للمشركين؛ وقد أعطاه رسول الله سيرين وهي أمة قبطية وأخت مارية القبطيّة التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فولدت له عبد الرحمن بن حسان. ولما جاء وفد بني تميم في العام التاسع للهجرة ودخلوا المسجد - وفيهم نزلت سورة الحجرات - قالوا: يا محمد جئناك لنفاخرك فأْذن لشاعرنا وخطيبنا فأَذِن رسول الله لشاعرهم وخطيبهم وكان شاعرهم الزبرقان بن بدر فافتخر بقصيدة مطلعها:

نحن الكِـرام فلا حـــيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا تنصبُ البِيَعُ

فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حسان بن ثابت وقال له: قم يا حسان فأجب الرجل. فارتجل حسان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصيدة يعارض فيها الزبرقان ومنها:

إنّ الذوائـــــب من فهرٍ وإخوتهم قد بيّنوا سنّة للنـــــــاس تُتّبع

يرضى بها كل من كانت سريرتـه تقوى الإله وكلّ الخيــر يُصطنع

إنْ كان في الناس سبّاقون بعدهم فكلّ سبقٍ لأدنى سبْقهم تبـــــع

أكـــرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرّقـــت الأهـــواء والشّيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا. وفي رثاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، صاغ حسان بن ثابت قصائد عدّة ، وبعضهم يراها من خير ما رثي به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها:

والله ما حملت أنثـــى ولا وضعـــت مثل النبي رســـول الأمة الهـــادي

ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد أوفى بذمـــــة جـــار أو بميعـــاد

من الذي كان نـــوراً يستضـــاء به مبارك الأمـــــر ذا حزم وإرشـــاد

مصدقـــــاً للنبيين الألى سلفـــوا وأبـــذل النـــاس للمعروف للجادي

خير البريـــــــة إني كنت من نَهَرٍ جار فأصبحت مثل المفرد الصـــادي

قال ابن دريد: (فضل حسان الشعراء بثلاث؛ كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام). لقد كان شاعرًا عظيمًا ، ودافع عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأنشد الكثير من الشعر ، لنصرة الإسلام ، ولكنه

لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم أيًا من المشاهد ، ووهب له المعصوم صلى الله عليه وسلم سيرين - رضي الله عنها - ، أخت مارية القبطية - رضي الله عنها -؛ فأنجب منها ابنه عبد الرحمن ، فأصبح ابنه وإبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم أبناء خال. ومن مفارقات القدر العجيبة: جاء في الأخبار الموثقة المحققة أنه توفي قبل الأربعين في خلافة علي رضي الله عنه ، وقيل توفي سنة (50هـ) ، وقيل (54هـ) ، وكان عمره (120) عامًا ، قضى نصفها في الجاهلية ، ونصفها في الإسلام. وكذلك عاش أبوه ثابت ، وجده المنذر ، وأبو جده حرام ، فعاش كل واحد منهم (120) سنة ، ولا يعرف في العرب ، أربعة تناسلوا من صلب واحد ، وعاش كل منهم (120) سنة غيرهم).هـ. عن ابن المسيب ، قال: كان حسان في حلقة فيهم أبو هريرة ، فقال: أنشدك الله يا أبا هريرة ، هل سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: أجب عني ، أيدك الله بروح القدس؟ فقال: اللهم نعم. وروى عدي بن ثابت ، عن البراء: أن رسول الله قال لحسان: اهجهم وهاجهم وجبريل معك. وقال سعيد بن المسيب: مر عمر بحسان ، وهو ينشد الشعر في المسجد ، فلحظه. فقال حسان: قد كنت أنشد فيه ، وفيه خير منك. قال: صدقت. ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت: كان حسان يضع له النبي - صلى الله عليه وسلم - منبراً في المسجد ، يقوم عليه قائماً ينافح عن رسول الله "- صلى الله عليه وسلم - ورسول الله يقول: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم. أخرجه أبو داود والترمذي. ومجالد ، عن عامر ، عن جابر ، قال: لما كان يوم الأحزاب ، قال النبي ، صلى الله عليه وسلم: من يحمي أعراض المسلمين؟ قال كعب بن مالك: أنا. وقال ابن رواحة: أنا. وقال حسان: أنا. قال: نعم ، اهجهم أنت ، وسيعينك عليهم روح القدس. وعن عروة ، قال: سببت ابن فريعة عند عائشة ، فقالت: يابن أخي ، أقسمت عليك لما كففت عنه ; فإنه كان ينافح عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم. وعمر بن حوشب ، عن عطاء بن أبي رباح ، سمعه يقول: دخل حسان على عائشة ، بعدما عمي ، فوضعت له وسادة ، فدخل أخوها عبد الرحمن ، فقال: أجلستيه على وسادة ، وقد قال ما قال - يريد مقالته نوبة الإفك - فقالت: إنه - تعني أنه كان يجيب عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويشفي صدره من أعدائه - وقد عمي ، وإني لأرجو ألا يعذب في الآخرة. وروي عن عائشة قالت: قدم رسول الله المدينة ، فهجته قريش ، وهجوا معه الأنصار. فقال لحسان: اهجهم ، وإني أخاف أن تصيبني معهم بهجو بني عمي. فقال: لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين ، ولي مقول يفري ما لا تفريه الحربة. ثم أخرج لسانه ، فضرب به أنفه ، كأنه لسان شجاع بطرفه شامة سوداء ، ثم ضرب به ذقنه. ويحيى بن أيوب: حدثنا عمارة بن غزية ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبي سلمة: أن حسان قال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني هذا. ثم أطلع لسانه ، كأنه لسان حية. فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: إن لي فيهم نسباً ، فائت أبا بكر ، فإنه أعلم قريش بأنسابها ، فيخلص لك نسبي. قال: والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم ونسبك سل الشعرة من العجين. فهجاهم. فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: لقد شفيت واشتفيت. ومحمد بن السائب بن بركة ، عن أمه: أنها طافت مع عائشة ، ومعها نسوة ، فوقعن في حسان ، فقالت: لا تسبوه ، قد أصابه ما قال الله: أولئك لهم عذاب أليم وقد عمي ، والله إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بكلمات قالهن لأبي سفيان بن الحارث. وعن عمارة بن غزية ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة ، عن عائشة: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: اهجُ قريشاً ، فإنه أشد عليهم من رشق النبل. وسمعته يقول: هجاهم حسان ، فشفى. فقالت: لكن أنت لست كذاك. فقلت

لها: تأذنين له ، وقد قال الله : والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم فقالت: وأي عذاب أشد من العمى؟ وقالت: إنه كان ينافح ، أو يهاجي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم. وعن عائشة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في حسان: لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق. هذا حديث منكر ، من " مسند " الروياني ، من رواية أبي ثمامة - مجهول - عن عمر بن إسماعيل - مجهول - عن هشام بن عروة. وله شويهد ، رواه الواقدي ، عن سعيد بن أبي زيد الأنصاري ، عن رجل ، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة ، سمع حمزة بن عبد الله بن عمر ، سمع عائشة تقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: حسان حجاز بين المؤمنين والمنافقين ، لا يحبه منافق ، ولا يبغضه مؤمن. فهذا اللفظ أشبه. ويبقى قسم ثالث ، وهو حبه ، سكت عنه. وعن حديج بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، قال: قيل لابن عباس قدم حسان اللعين. فقال ابن عباس: ما هو بلعين ، قد جاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ولسانه. وهذا دال على أنه غزا. وعن عبدة بن سليمان ، عن أبي حيان التيمي ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال: أنشد حسان النبي ، صلى الله عليه وسلم:

شـــهدت بـــإذن اللـــه أن محـــمداً رسول الذي فوق السماوات من عل

وأن أبـــا يحـــيى ويحـــيى كلاهمـــا لـــه عمـــل مـــن ربـــه متقبـــل

وأن أخـــا الأحقـــاف إذ قـــام فيهـــم يقـــول بـــذات اللـــه فيهـــم ويعـــدل

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم: وأنا. وهذا مرسل. وروى أبو غسان النهدي: حدثنا عمر بن زياد ، عن عبد الملك بن عمير: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنشده حسان. وقال ابن الكلبي: كان حسان لسناً شجاعاً ; فأصابته علة أحدثت فيه الجبن. وقال سليمان بن يسار رأيت حسان له ناصية قد سدلها بين عينيه. وعن إسحاق الفروي ، وآخر ، عن أم عروة بنت جعفر بن الزبير بن العوام ، عن أبيها ، عن جدها ، قال: لما خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءه يوم أحد خلفهن في فارع وفيهن صفية بنت عبد المطلب ، وخلف فيهن حسان ; فأقبل رجل من المشركين ليدخل عليهن. فقالت صفية لحسان: عليك الرجل. فجبن ، وأبى عليها. فتناولت السيف ، فضربت به المشرك حتى قتلته. فأخبر بذلك ; فضرب لها بسهم. وزاد الفروي فيه: أنه قال: لو كان ذاك في ، لكنت مع رسول الله. قالت: فقطعتُ رأسه ، وقلتُ لحسان: قم ، فاطرحه على اليهود ، وهم تحت الحصن. قال: والله ما ذاك فيّ. فأخذت رأسه ، فرميتُ به عليهم. فقالوا: قد علمنا والله إن هذا لم يكن ليترك أهله خلوفاً ، ليس معهم أحد. فتفرقوا. فقوله: "يوم أحد" وهم. وروى نحوه ابن إسحاق: حدثنا يحيى بن عباد ، عن أبيه ، وفيه: فقالت لحسان: قم فاسلبه (فخذ سلبه) ، فإني امرأة وهو رجل. فقال: ما لي بسلبه يا بنت عبد المطلب من حاجة. وروى يونس بن بكير ، عن هشام ، عن أبيه ، عن صفية ، مثله. قوله وفادة على جبلة بن الأيهم ، وعلى معاوية. قال ابن سعد : توفي زمن معاوية. ونعود إلى موقف السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع حسان لأن هذا الموقف استغل كثيراً في النيل من حسان ووصفه بالجن والخوف والخور! وإن رجلاً تحدى بشعره المشركين في مهد الرسالة المحمدية الشريفة لرجل شجاع لا تنقصه الشجاعة ولا تغيب عنه القوة! إذ لو كان يخشى بأس الكفار والمشركين لجلس في بيته وكف عنهم! وهذا لا ينقص من قدر السيدة العظيمة المجاهدة صفية بنت عبد المطلب – رضي الله عنها -. ولقد كتبت الأستاذة لينة الحمصي عن السيدة صفية بنت عبد المطلب تقول وبالنص: (إنها صحابيةٍ عُرفت

بجرأتها وشجاعتها وقوة شخصيتها ، صحابية يربطها بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبٌ قوي فهي عمته (هذا من ناحية الأب) وهي ابنة خالته (هذا من ناحية الأم) ، وقد آمنت به منذ بدايات جهره بالدعوة الإسلامية ، والدها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، ووالدتها هالة بنت وهب أخت السيدة آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم ، أخوها أسد الإسلام حمزة ، وابنها الزُبير ابن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سل سيفًا في الإسلام. وقد عُرفت بجرأتها وشجاعتها وقوة شخصيتها ، وهي فوق ذلك كله صحابية يربطها بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبٌ قوي فهي مؤمنة مسلمة موحدة من السابقات الأوليات في الإسلام كما أسلفنا ، وقد آمنت به منذ بدايات جهره بالدعوة الإسلامية ، والدها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، ووالدتها هالة بنت وهب أخت السيدة آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم ، أخوها أسد الإسلام حمزة وابنها الزُبير ابن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سل سيفًا في الإسلام. ولا تنسى صفية كما لا ينسى التاريخ لها ذلك اليوم الذي جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم أقرباءه بعد أن نزل قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} ، وكانوا نحو أربعين شخصًا فدعاهم إلى الإسلام ، ثم قال لهم: «يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله لا أُغني عنكم من الله شيئًا ، يا بني عبد المطلب لا أُغني عنكم من الله شيئًا ، يا عباس ابن عبد الله المطلب لا أُغني عنك من الله شيئًا ، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا ، يا فاطمة بنت رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا». (صحيح البخاري) ، نعم يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا. لا يمكن لصفية أن تصف الفرح الذي غمرها يوم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اسمها ، ولكنها رُغم فرحها وافتخارها بذلك ظلت عمرها كله تأخذها رجفة كلما تذكرت قوله: «لا أغني عنك من الله شيئًا» ، كلمات قليلة كان لها أثر جذري في تغيير حياة صفية ، بدأ ذلك التغيير حين قررت صفية أن تترك دين آبائها وأجدادها ، وتتبع دين ابن أخيها محمد بن عبد الله ، ظلت تلك الكلمات محفورة في ذاكرتها عمرها كله ، فكونها عمة للنبي صلى الله عليه وسلم لن يفيدها بشيء إذا لم تتبع سنته وطريقته وتلتزم بتعاليم دينه ، وقرابتها للنبي صلى الله عليه وسلم لن تغني عنها يوم القيامة شيئًا. بعد هذا الموقف تغيب عنا صورة السيدة صفية طيلة العهد المكي ، شأنها في ذلك شأن الكثير من الصحابيات المتميزات. وهذا أمر طبيعي فالتاريخ يكتبه الأقوياء ، وفي مجتمعاتنا الذكور هم الأقوياء ، لذلك لا تتعرض كتب التاريخ للنساء إلا لما رحم ربي ، قلت لها: أنا لا أوافق على هذا الرأي ، فالتاريخ الإسلامي مكتوب بأيدي أمينة ونزيهة تتحرى الحق والحقيقة ، ثم من قال لك إن الذكور هم الأقوياء ، إن الأحضان التي رضع منها هؤلاء الأقوياء حليب الشجاعة والحكمة والبطولة هي العرين الذي يخرج دفعة تلو الأخرى من البطلة والأبطال. إذن تغيب عنا تفاصيل حياة السيدة صفية طيلة العهد المكي ، ولكننا نعلم أنها في تلك المرحلة بالتأكيد كانت تربي الزبير تربيةً تؤهله ليكون حواري النبي صلى الله عليه وسلم ، وتربي أخاه الشائب ليكون مجاهدًا بطلًا ، وقد كان كما أرادت ، فشارك في قتل المسليمة الكذاب واستشهد في معركة اليمامة ، كما تربي ابنها عبد الرحمن الذي شهد معركة اليرموك واستشهد في سبيل الله. نعم هي أم هؤلاء الكرام وأم أختهم زينب ، ويكفي الأم عظمةً أنها تصنع الأبطال ، ويُذكّرنا هذا بقصة رمزية تحكي عن ملك ؛ أراد أن يشجع هذا الملك الإبداع في مملكته ، فرصد تاج مرصعًا بالجواهر لمن يقوم بأفضل عمل في مملكته ، وفاز في المسابقة رسام وشاعر ونحات ، احتار الملك على رأس أي منهم يضع

التاج؟ وإذ بامرأة عجوز تشق الصفوف وهي تبتسم ، سألها الملك: من أنتِ أيتها العجوز؟ أجابته بثقة ووفخر: أنا والدة الرسام والشاعر والنحات ، اقترب الملك منها ووضع التاج على رأسها وهو يقول: أنتِ التي تستحقين التاج أنت صانعة الأبطال). هـ. وإن كانت قصة الملك التي أوردتها الأستاذة لينة الحمصي قد وردت وأثرت عن أحد ملوك الصين الكفرة ، ولكنها الحكمة المنبثقة منها والدرس والعبرة والعظة ، والعاقل من وعظ بغيره! وعودٌ إلى السيدة المباركة صفية بنت عبد المطلب ، إننا في العهد المدني نجد لصفية رضي الله عنها بصمات وأي بصمات ، في غزوة أحد تلك المعركة التي انتهت بخسارة المسلمين ، استشهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب أخو صفية وعم النبي صلى الله عليه وسلم ومثّل وحشي بجثته فبقر بطنه وجدع أنفه وأذنيه ، فجاءت صفية إلى ميدان المعركة ، وحملت رمحًا وجعلت تقول للناس موبّخة مؤنبة: "انهزمتم عن رسول الله" ، ثم تقدمت باتجاه الشهداء تريد رؤية أخيها حمزة وقد سمعت ما صنعه المشركين به من التمثيل ، فيُروى أنها وهي جاءت وهي تحمل في يدها ثوبين لتكفنه ، وعندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمقدم صفية إلى أُحد ، ساءه أن ترى أخاها حمزة بهذا المنظر المريع ، لعله خشي عليها من الأثار النفسية التي قد يتركه هذا المظهر في نفسها ، فطلب من ابنها الزبير أن يحول دون رؤية أمه لأخيها حمزة ، عندها اعترض الزبير طريق أمه قائلًا: "يا أماه إن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي" ، أجابته وهي تبتلع حسرتها وألمها مع دموعها: "ولم يا بني؟ قد بلغني أنه قد مُثل بأخي في سبيل الله وما أرضاني بذلك ولأحتسبن وأصبرن إن شاء الله" ، الله الله! يالها من كلماتٍ قوية ويا له من إيمانٍ ثابت "وما أرضاني بذلك". نعم فما دامت تلك مشيئة الله وإرادته كيف لصفية المؤمنة أن لا ترضى ، الإيمان والاستسلام لقضاء الله راحةً لنفس المؤمن وعقله وروحه وما ذلك إلا لمؤمن حق الإيمان ، فترى المؤمن حق الإيمان راضٍ في البلاء والرخاء ، قد يقول قائل: من البديهي أن نرى المرء يرضى في الرخاء فكيف يرضى في حالة البلاء؟ والجواب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له وليس ذلك إلا لمؤمن» (صحيح مسلم) ، حين يتفكر العبد في المصيبة يرضى بقضاء الله ويحمده لأنها لم تكن أكبر من ذلك هذا من ناحية ، ولأن النعم التي أعطاه الله تعالى إياها لا تعد ولا تحصى ، وعموماً كثير من الناس لا يطبقون هذا المفهوم بالرضا بالقضاء والقدر ، فإذا ما أصيبوا بمصيبة جزعوا ويأسوا وربما قالوا ما لا يرضي الله تعالى. ورثت صفية أخاها بأبيات من الشعر. ونجيب عن تساؤل قد يخطر في بال البعض ، هل يتعارض إيمان المسلم بقضاء الله مع حزنه على من يفقده في ذلك من الأحباب؟ كثيرون هم من تخفى عليهم حقيقة الرضا بقضاء الله ، فيظنون أن الحزن والبكاء والرثاء يتناقض مع مفهوم الصبر وحقيقة الرضا ، فيحاولون كبت مشاعرهم وقمع أحزانهم على أحبابهم ، رغم أن هذا مما أباحه الله تعالى بل هو مما جعله رحمة للإنسان ، لذلك رأينا كيف بكى النبي صلى الله عليه وسلم عندما فقد ولده إبراهيم ، فاستغرب الصحابي عبد الرحمن بن عوف وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله أتبكي؟" فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة ، وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون» ، فالرضا بقضاء الله إذن هو عدم الاعتراض على إرادة الله ، والثقة بأن الله يكتب الخير للإنسان في دينه ودنياه وأُخراه أو فيهما معًا وألا يتمنى أن ما كان من قضاء الله لم يكن. وإذن فلا مشاحة في حزن صفية على حمزة رضي الله عنهما ـ. وبعد غزوة أحُد

كانت غزوة الخندق ، في غزوة الخندق احتمت السيدة صفية مع نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبعض نساء الصحابة وأولادهم في حصن يملكه شاعر الإسلام حسان بن ثابت ، يقال لهذا الحصن حصن فارع ، وقد ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليحفروا الخندق في تلك الأثناء يحفروه حول المدينة ، في هذه الفترة حدثت في حصن فارع قصةٌ عجيبة ، كان أحد يهود بني قريظة يدور حول الحصن والنظرات الخبيثة تملأ عينيه ، هرعت صفية إلى حسان بن ثابت تخبره بذلك وهي تقول: قم ياحسان ، قم إلى ذلك اليهودي فوالله إني لا آمنه أنه يدل على عوراتنا ، مالذي كانت صفية تخشى أن يعرفه ذلك اليهودي؟ صفية كانت تخشى أن يعرف اليهودي أن الحصن ليس فيه إلا النساء والأطفال فيذهب بتلك الأخبار إلى يهود بني قريظة ، ويهود بني قريظة في غزوة الخندق نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وناصروا أعداءه عليه ، فخافت أن يهجموا على الحصن فيقتلوا النساء والأطفال أو يسبوهم إذا ماعلموا أن ليس هناك من يحمي النساء والأطفال في الحصن ، ولم يكن مع النساء المختبآت في الحصن سوى حسان بن ثابت ولكن! لماذا لم يبق النبي صلى الله عليه وسلم مع النساء من يحميهم من كيد المعتدين؟ هل كان حسان قادرًا على حمايتهم وحده؟ في الواقع كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى جهود جميع الرجال لرد كيد الأحزاب عن المدينة ، فاصطحبهم معه جميعًا ، وترك النساء والذراري في أمان الله ورعايته ، أما حسان بن ثابت صاحب الحصن الذي التجأ إليه بعض النساء والأطفال فله قصة أخرى ، ندركها حين ندرك قصة صفية مع ذلك اليهودي الذي أراد التجسس على الحصن ، أتعرفون ماذا أجاب حسان صفية عندما طلبت منه أن ينزل إلى اليهودي فيقتله؟ قال لها: "يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفتي ما أنا بالذي يقدر على هذا" ، نظرت صفية في عينيه فأدركت صدق ما يقول ، ولنا هنا أن نتساءل ماذا فعلت صفية إذن؟ والجواب: حملت عمودًا ثم نزلت متسللةً وأتت عدوها من خلفه وضربته على رأسه بالعمود عدة ضربات حتى قتلته ، وعندما رجعت إلى الحصن كان حسان بن ثابت ينتظر عودتها سالمةً بفارغ الصبر ، ولربما كان يرفع يديه داعيًا: "اللهم احمِ صفية وأعدها إلينا سالمة غانمة" ، فبادرته صفية بقولها: "انزل يا حسان فخذ سلبه ، والسلب هو ما مع الشخص من سيف وأمتعة ، فإنه والله لا يمنعني من ذلك إلا أنه رجل وأنا امرأة". أجابها حسان: "يرحمك الله يا عمة رسول الله ، والله ما لي من سلبه من حاجة" ، طبعًا ليس من المألوف أن يخاف الرجال ولكنه موقفٌ مشرفٌ وعظيم أن تكون المرأة أشجع من الرجال ، ولعلنا بهذا قد أدركنا الآن لماذا لم يصطحب النبي صلى الله عليه وسلم معه حسان إلى غزوة الأحزاب وأبقاه مع النساء راعيًا وحارسًا ، صلى الله عليك يا معلم الناس الخير. وعندما نتأمل في هذه الحادثة ندرك كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يستثمر مواهب أصحابه وقدراتهم كلٌ في مجاله ، فكان يختار الرجل المناسب للمكان المناسب ، كان يعرف الشجعان فيسند إليهم الأعمال التي تتطلب الشجاعة والإقدام كإعطائه السيف أبي دجانة يوم أحد ، وكان يعرف من يصلح للقيادة فيعطهم القيادة كالعبيدة ابن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وجعفر وعلي بن أبي طالب ، كان يعرف من يصلح للإمارة كأبي عبيدة ومعاذ بن جبل ، وكان أيضًا يعرف من لا يصلح للإمارة رغم تقواه ورغم ورعه ، ولهذا لما طلب منه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أن يوليه إمارةً. قال له: «يا أبا ذر إنها أمانة وإنك لرجلٌ ضعيف» (غاية المرام [174]) ، وضعف أبي ذر هنا لم يكن من ناحية الدين والتقوى ، بل من ناحية ما تحتاجه الإمارة كمواصفات سياسية وقيادية خاصة ، لذلك فإن رجلًا كأبي ذر يصلح كداعية إلى سبيل الله ولكنه لا يصلح

للإمارة ، هذا يدلنا على أهمية العمل كفريق لا كأفراد ، أفراد الفريق يكمل بعضهم بعضًا واحدٌ بشجاعته والآخر بعلمه والثالث بأمواله والرابع برأيه والخامس بعقله وذكائه. عندما ننظرإلى النحل نراهم يعملون بطاقات الفريق لا بطاقات الأفراد ، طائفةٌ تبني البيوت ، طائفةٌ تنظفها ، طائفةٌ تحرسها وتحميها ، طائفةً تدل على مواضع الأزهار ، وطائفةٌ تمتص الرحيق وتؤتي به وتخرج العسل اللذيذ وللخلية ملكة واحدة ، شعارهم المرفوع لا قيمة لحياة عندما تتعرض سلامة الجماعة للخطر ، مشلكتنا اليوم أننا لا نعرف من أين تؤكل الكتف ، لا يُحسن أغلب قادتنا ومربينا وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وعلى الشكل المناسب ، لا يعرفون كيف يستثمرون اختلاف العقول و القدرات والمواهب في صناعة الفريق الواحد الذي يكمل بعضه بعضًا ، نعاني من مصطلح فلان لا يصلح لشيء ، فلان عنده خللٌ في كذا ، والحقيقة أن كل شخص لديه نقاط ضعف ونقاط قوة وعلينا أن نكتشف نقاط القوة ونستثمرها لصالحنا أي لصالح المسلمين وفائدتهم ، كيف استثمر النبي صلى الله عليه وسلم نقاط القوة عند حسان ابن ثابت. أقول بصراحة أجمع رواة السيرة والمؤرخون على أن حسان لم يكن رجل حرب وقتال ، وهذه نقطة ضعف عنده ، ولكنه في الوقت ذاته كان يملك نقاط قوة يمكن تنميتها واستثمارها ، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم فهو لم يشعر حسانًا أنه جبان أوضعيف ، بل استفاد من نقاط قوته ، فقد كان حسان شاعرًا بليغًا فصيح اللسان وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينصب له منبرًا في المسجد ليهجو الذين كانوا يهجونه ويهاجمون الإسلام ، كثيرًا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله» (معجم الشيوخ [528/1]) ، أما الأمر الآخر الذي أحب أن أعقب عليه في حادثة صفية واليهودي ، فهي الشجاعة التي كانت تمتلكها تلك المرأة والتي فاقت بها كثيرًا من الرجال ، ويحاول الكثير من الرجال تنقيص المرأة والإقلال من شأن المرأة ، يدعون أنها أقل عقلًا من الرجال ، وربما استند بعضهم إلى وصف النبي صلى الله عليه وسلم للنساء بأنهن ناقصات عقل ودين ليدعم به قوله. يؤكد العلم اليوم أن المرأة ليست أقل عقلًا من الرجل ، ولكنها مختلفةٌ عنه في أسلوب إدراكها للأمور في طريقة تحليلها لها ، وأثبتت الدراسات الحديثة أن الاختلافات بين الجنسين ليست مقتصرة على الصفات الجسدية بل تمتد لتشمل كثيرًا من الخصائص الفكرية والسلوكية ، يتضح ذلك في الاستعداد الفطري والبيولوجي لدى الذكور للعب بنوع خاص من الألعاب التركيبية وألعاب الطيارات والسيارات والمسدسات ، في حين تهتم الأنثى بالدمى والعرائس وما يتعلق بها من ملابس مزركشة وأدوات تجميل ، ألعاب مثلًا على شكل بيوت صغيرة تحوي غرفًا متنوعة جلوس ضيوف طعام نوم هذا ما تهتم به الأنثى وهذا ما يهتم به الذكر. وعند بلوغ السنة الثالثة من العمر تبرع الفتاة أكثر من الفتيان في فهم مشاعر الآخرين ، أما في سن السابعة فتتكون لديهن البراعة في قراءة القصص وفهم القصص ، وهناك اختلاف طفيف في تركيبة المخ بين الذكر والأنثى ، بناءً على هذا يترتب عليه اختلاف في الوظيفة لدى كل منهما ، الفص الأيمن من مخ الذكر أصغر من الفص الأيسر ، بينما يتماثل الفصان عند المرأة ، يعزو العلماء قدرة المرأة على الاستماع والكلام بآنٍ واحد على قدرة استخدام الفصين في وقت واحد ، بينما يستخدم الرجل الفص الأيسر من المخ إذا كان يمينيًا والفص الأيمن من المخ إذا كان يسراويًا ، الأمر الذي لا يمكنه من الاستماع والكلام بآنٍ واحد. آخر ما وصلت إليه الأبحاث العلمية اليوم أنه لا يوجد فروقٌ في المستوى الكلي للذكاء عند قياسه بمعامل الذكاء بين الذكر والأنثى ، ولكن توجد اختلافات في أنماط الذكاء أو ما يسمى

بالقدرات الذهنية على معالجة المواضيع المختلفة ، خلاصة القول إن الذكور يتفوقون في المهارات التي تتطلب ذهنًا تحليلًا ، بينما تتفوق البنات في المهارات اللفظية واللغوية مما يمكن معه القول: إن هناك في كل منهما نقاط ضعفٍ ونقاط قوة ، أما حديث ناقصات عقل ودين فهو حديثٌ صحيح ولكن يُساء تفسيره للأسف من قبل الكثيرين الذين يفهمونه فهمًا حرفيًا ويغفلون النظر إلى السياق الذي قيل فيه ، كما يهملون أدلة أخرى من القرآن والسنة على المساواة الرجال النساء، دعونا نقول مساواة النساء للرجال. يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المُصلى في يوم عيد فطر أو أضحى ، فمر بالنساء فقال لهن: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» (صحيح ابن حبان) ، إذن الحديث قيل على سبيل الامتداح والملاطفة لا على سبيل الانتقاص والاستهزاء ، وذلك تعجبًا من أن تكون المرأة قادرة على تطويع أعتى الرجال وأقساهم ، تطوعهم بلينها الدافئ وعاطفتها الجياشة ، عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نقصان عقل المرأة أجاب: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» (صحيح البخاري) ، ومردّ ذلك طبعًا إلى قلة الضبط والتثبت لدى المرأة لا إلى قلة ذكائها ، لأن العقل في اللغة له معانٍ كثيرة منها التثبت ومنه عقل الناقة أي ثبتها في مكانها ، هذا ما توضحه آية الشهادة في قوله تعالى: {وَاسْتَشْهِدُواشَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ} ، "تضل" في الآية بمعنى تنسى ، أي تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى. إذن الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل هو قلة ضبط المرأة للأمور المالية ليس بسبب قلة ذكائها ، بل بسبب انصراف اهتمامها عن هذا النوع من قضايا غالبًا ، لذا نرى الشرع الحنيف يقبل بشهادة المرأة وحدها فيما لم يطلع عليه إلا النساء غالبًا كالولادة والبكارة والرضاعة ، وهذا دليل على أن المرأة لا تقل ذكاءً وقدرةً عن التفكير عن الرجل ، وإنما تختلف اهتماماتها عن اهتماماته وينبغي لهذا الاختلاف أن يؤخذ بعين الاعتبار في سن الأحكام والقوانين. والحقيقة أن القرآن الكريم يُسقط فوارق الأفضلية بين الذكر والأنثى ويحصر الأفضلية بالتقوى ، فيقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ، ولذلك يخطئ اليوم من يقول إن الدين يفضل الذكر على الأنثى ، ويعلي راية الذكر ويسقط راية الأنثى وأن الأنثى محكومة لإرادة الذكر ليسيطر عليها ويستبد بها ، لأنه أعلى شأنًا منها وأكثر ذكاءً ، لهؤلاء يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «النساء شقائق الرجال» (سنن الترمذي) ، ولهذا نراه أيضًا في مسيرتنا مع عالم الصحابيات يعتز بالأنثى ، يكرم الأنثى يفسح لها مجالًا في كل ميادين الحياة الاجتماعية والعليمة والاقتصادية والعسكرية والسياسية. نعود إلى صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، فنرى النبي صلى الله عليه وسلم يسهم لها في غزوة الأحزاب من الغنائم كما يسهم للمقاتلين ، فقد اعتبر دفاعها عن النساء في حصن فارع وقتلها لذلك اليهودي مشاركة عملية في الجهاد، يُروى أنه لما علم النبي صلى الله عليه وسلم لما كان من أمر صفية وحسان واليهودي ضحك حتى بانت نواجذه ، نعم كيف لا يضحك وأنثى من صحابته تفوقت على الرجال شجاعةً وإقدامًا. شهدت صفية بعد ذلك غزوة بني قريظة مع عدد من الصحابيات منهن أم عمارة وأم سعد بن معاذ وسُميراء بنت قيس ، كما شهدت غزوة خيبر مع عشرين صحابية رافقن الجيش إلى خيبر منهن أم سلمى زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وأم عمارة نسيبة بنت كعب وأم سليم بنت ملحان وأم عطية الأنصارية وسهلة بنت عاصم ، سهلة هذه كانت حاملًا خرجت مع الجيش فوضعت وليدها في خيبر. طبعًا

شهود النساء للغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم كان من أجل رعاية أمور الجيش من سقاية وطعام وتمريض ، ولكن هذا لا يعني أنهن لم يشاركن فعليًا في الجهاد ، بل والحق يقال أنهن في كثير من الأحيان كن يقاتلن الأعداء إذا حمي الوطيس واشتد الجد واحتاج الأمر إلى سندهن ومعونتهن ودعمهن ، هذا واضح من فعل الصحابية نسيبة بنت كعب في غزوة أحد والصحابية أم سليم بنت ملحان في غزوة حنين. جرى خلاف بين العلماء هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسهم للنساء اللواتي يخرجن معه في الجهاد من أجل خدمة الجيش ولو لم يشاركن في قتال؟ أم أنه كان يكتفي بإكرامهن بما تيسر له من الغنائم؟ يرجح البعض أنه كان يُسهم للنساء تمامًا كما يُسهم للمقاتلين من الرجال، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المرأة تساوي الرجال وأنها لا تقل عنهم شأنًا. وأخيراً في خلافة عمر رضي الله عنه توفيت السيدة صفية عن عمر يناهز 73 عامًا ، لك منا السلام! لك منا السلام أيتها الشجاعة الجريئة ، لك منا التحية أيتها الشاعرة البليغة ، ورضي الله عنك يا عمة الرسول المصطفى. وموقف السيدة المجاهدة صفية بنت عبد المطلب مع الشاعر المجاهد حسان بن ثابت الأنصاري موقف بطولي مشرف! وفي هذه الدراسة الأسلوبية أحب أن أقول بأن شجاعتها في قتل اليهودي لم تكن تختلف كثيراً عن شجاعة حسان وهو يذود عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالقدر الذي ُبكي الشعراء المشركين ويطلبون من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكف عنهم لسان حسان وشعره! وبلسان الحال أنهم كانوا يرون أن باطن الأرض خيرٌ لهم من ظاهرها وهم لا يستطيعون الذود عن أنفسهم وكرامتهم وقبائلهم أمام حسان رغم فصاحتهم وإبانتهم وبلاغتهم! وطبعاً هذا نورده هنا على فرض صحة قصته مع صفية بنت عبد المطلب يوم الأحزاب! حيث إنني وقفت على من لا يوثقون هذا الخبر! ومع الأسف بعض المصادر تذكر أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان جباناً ، فلقد قرأت في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ما ينسف ذلك ، حيث يقول أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: وقد رأيت جماعةً من أهل الأدب ينسبون حسان بن ثابت رحمه الله إلى الجبن والخوف ، ويخرجونه من أهل الضرب والطعن ، يحتجون في ذلك بقعوده عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في مغازيه وسراياه. وبلغ من حججهم على ذلك حديثه في شأن اليهودي يوم الأحزاب المطيف بالأطم الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أحرز فيه النساء والأبناء ، وإن حساناً حض صفية بنت عبد المطلب على قتله وأخذ سلاحه ، ويقولون لم تكن به قوة على سلبه ، فضلاً عن حربه ، وذهب عليهم أن حساناً ، رحمه الله ، كان قد أصيب في بعض حروبهم في الجاهلية ، فقطع أكحله ، وفي ذلك يقول: (وخان قراع يدي الأكحل ...) ، ومن أدل شيءٍ على ذلك أنه هاجى في الجاهلية والإسلام أكثر من ثمانين شاعراً ، لم يصفه أحد بالجبن ولا عيره به ، ولم يكن شيء يتعايرون به أشد. ولحسان أيام مشهورة ، ومواطن في الحروب مذكورة ، وكان ممن له كنيتان في السلم والحرب ، كما كان الأبطال تفعل على عهده ، كان يكنى في السلم بأبي الوليد ، وفي الحرب بأبي نعامة).هـ. وأضيف لذلك أن سند قصة يوم الأحزاب فيها علي بن صالح المدني شيخ الزبير بن بكار ، وهو نكرة مجهول لم يذكروا عنه راويًا سوى الزبير ، ولم يوثقه أحد من أهل الجرح والتعديل. فمثل هذا لا يطعن أبدًا في شاعر رسول الله ورضي الله عنه.

الفصل الرابع

الملكة النقدية وعلاقته بالمرويات النقدية

وعلاقتها بأسلوبية الشعر عند حسان بن ثابت

وتحت (الملكة النقدية وعلاقته بالمرويات النقدية) يقول الدكتور عالي المراكشي تحت عنوان عنوان: عندما نرجع للنقد في معناه اللغوي ندرك أن جميع معاجم اللغة وضعته في إطار تمييز الجيد من الرديء وهي مهمة النقد الأساسية قديماً وحديثاً أما النقد الأدبي فهو فن من فنون النثر يتناول الآثار الأدبية بالتحليل ، فيحدد عناصر المبنى والمعنى ويكشف عن العوامل المؤثرة فيها ، ويدرس أصحابها بأمزجتهم وشخصياتهم وإظهار قيمة أعمالهم الأدبية. وهو أيضاً فن تمييز جيد الكلام من رديئه وصحيحه من فاسده. كما أنه: عِلْمٌ يَبْحَثُ فِي طَبِيعَةِ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا وَقِيمَتِهَا الْفَنِّيَّةِ! وهو أيضاً دراسة ونقاش وتقييم وتفسير. إن توسعنا في معنى النقد اللغوي ييسر لنا تحديد الإطار الذي كان يمارس فيه نقاد العصر الجاهلي نقدهم والذي كان يقوم على الفطرة متكئين على ما اشتهر به العرب في تلك الحقبة أنهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان وهو يدور في مجال الانطباعية والأحكام الجزئية التي تعتمد على المفاضلة بين بيت وبيت أو تمييز بين البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر إلى أن وصل لصورته الحديثة والتي أخذت تخصصاتٍ عدةٍ وأصبحتْ علوماً متنامية ، لا تتوقف عند سقف محدود. كان الشعر أظهر فنون القول عند العرب وأشهرها وأيسرها ذكراً كان العربي يكدح في سبيل العيش كدحاً وكان في كل أمر من أمور حياته في رحيله وجلبه الماء وتأبيره للنخل يغني ليروّح عن نفسه وكانت الألفاظ وسائل حاسمة وهامة للتأثير في سامعيها كماكان صانع الأغاني شاعراً أي صاحب دراية وعلم وهذه الأغاني قيلت في أغراض متعددة في المدح والوصف والرثاء والهجاء وظل العربي يقول الشعر في الأغراض السابقة بلهجة قومه في ضرب من السجع أولاً ثم الرجز وعندما اهتدى إلى الرجز وجد له شعر صحيح وقد مر هذا الشعر بضروب كثيرة من التهذيب حتى بلغ الاتقان الذي نجده عليه الآن فوصل إلينا ناضجًاً كاملاً منسجم التفاعيل وبالنقد الفطري صلح حال الشعر حتى انتهى إلى الصحة وإلى الجودة والإحكام. وكل ما طرأ عليه من تطور إنما كان بعد تجارب وبعد إصلاح وهذا التهذيب هو ما نسميه الآن بالنقد الأدبي. في أواخر العصر الجاهلي كثرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدة وكثرت المجالس الأدبية التي يتناولون فيها الشعر فجعل بعضهم ينقد بعض وهذه الأحاديث والأحكام كانت تمثل نواة النقد العربي الأول وقد روت لنا الكتب مرويات نقدية تمثلت في عدد من الشعراء المتمكنين والذين كانوا يفندون القصائد ويحيلون إلى الأخطاء ويصوبونها ومن تلك المرويات. يقول حماد الراوية إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولاً وما ردوه كان مردوداً فقدم عليه علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها: (هل ما علمت وما استودعت مكتوم؟) ، فقالوا: هذه سمط الدهر. ثم عاد إليهم من العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعيد الشباب عصر حان مشيبُ

فقالوا: هاتان سمطا الدهر. وكان من الشعراء المتكلف والمطبوع فالمتكلف هو الذي عكف على شعره وأخذ يفتش فيه ويعيد النظر إليه مرة بعد مرة وكان من أولئك زُهير بن أبي سُلمى والحُطيئة وسُويد بن كراعٍ ، يذكر تنقيحه شعره:

أَبِيتُ بِأَبْـــــــوابِ القَوَافـــــي كَأَنَّمَا أُصَادي بها سِرْباً مِنَ الوَحْش نُزَّعَا

تنازع علقمة التميمي المعروف بعلقمة الفحل هو وامرؤ القيس في الشعر، فقال كل منهما لصاحبه: أنا أشعر منك. فقال علقمة: قد حكمت بيني وبينك إمرأتك أم جندب ، فقال: قد رضيت. فتحاكما إليها ، فقالت: ليقل كل واحد منكما شعراً يصف فيه الخيل ، على قافيةٍ واحدةٍ. فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مرابي على أمِ جنـــــدبِ لنقضيَ حاجاتِ الفؤادِ المعـــــذبِ

فقال علقمة:

ذهبت من الهجرانِ في غير مذهبِ ولم يكَ حقاً طـــولَ هذا التجنـــــبِ

وأنشد كل واحد قصيدته. فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعرُ منك. قال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:-

فللسوطِ ألهوبٌ ، وللســـــاقِ درةٌ وللزجرِ فيه وقـــــعُ أحرجَ مذهبِ

فجهدت في شكه بسوطك وزجرك ، ومريته فأتعبته. وقال علقمة:

فردَّ على آثارهنَّ بحاصـــــــــبٍ وغيبة شؤبوبٍ ، من الشدَّ مُلهبِ

فأدركهنَّ ثانياً من عنانـــــــــــهِ يمرُّ كمرّ الرائـــــــــحِ المتحلبِ

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوط ، ولم يزجره بساقه ، ولم يتعبه! ما تناقلته كتب التاريخ أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها ، وكان من تلك أنه حكم بجودة الشعر لأبي بصير على حسان بن ثابت والخنساء التي أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر التي منها:-

وإن صخـــــــــــراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأســـــــــــــه نارُ

فأعجب بقصيدتها وقال لولا أن أبا بصير أنشدني لقلت أنك أشعر الجن والإنس فالأعشر من الشعراء الذين أنشدو النابغة والخنساء تليه منزلة وجودة شعر. عاب العرب على النابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم الإقواء الذي في شعرهما أي اختلاف حركة الروي في القصيدة ولم يستطع أحد أن يصارح الشاعر النابغة بهذا العيب والخلل ، حتى دخل يثرب فأسمعوه قوله:

أمـن آل مَية رائـــــح أو مُغتدي عجلان ذا زاد وغير مـــــــزوّد

زعموا البوارح أنْ رحلتنا غــداً وبذاك حدثنا الغداف الأســـــود

ففطن فلم يعد إلى ذلك. وسمع طرفة بن العبد المتلمس ينشد بيته:

وقد أتناسى الهم عند احتضـــاره يناج عليه الصيَّعريـــــة مكدم

فقال طرفة: استنوق الجمل لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير. اجتمع رهط من شعراء تميم في مجلس شراب وهم الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطيب وعمرو بن الاهتم اجتمعوا قبل أن يسلموا وبعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتذاكروا أشعارهم وقال بعضهم لو أنا قوماً طاروا إلى جودة الشعر لطرنا فتحاكموا إلى أول من يطلع إليهم فطلع عليهم ربيعة بن حذار الأسدي أو غيره في رواية وقالوا له: أخبرنا أينا أشعر فقال : أما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزوراً قد نحرت فأخذ أطايبها وخلطه بغير ذلك أو قال له : شعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئاً فينتفع به. وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده وأما أنت يا عبد فشعرك كمزاد أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء. روي عن أبي عمرو الشيباني الكوفي أن عمرو بن الحارث الأعرج الغساني فضل حساناً على النابغة وعلى علقمة بن عبدة وكانا حاضرين معه ، وأثنى على لامية حسان التي فيها:

لله در عصابـــــــــة نادمتهم يوماً بجلق في الزمـــان الأول

ودعاها البتارة التي بترت المدائح. وكثيراً ما كانت العرب تلقب الشعراء وتلقب المدائح تنويهاً بها وإعظاماً لها وإيماناً بأنها جيدة فريدة لقبوا النمر بن تولب بالكيّس لحسن شعره وسموا طفيل الغنوي طفيل الخيل لشدة وصفه إياها ودعوا قصيدة سويد بن كاهل:-

بسطت رابعة الحبـــــل لنا فوصلنا الحبـل منها ما اتسع

كل هذه الشواهد تدل على وجود صورة من صور النقد الأدبي في العصر الجاهلي يقول الأستاذ طه إبراهيم أن النقد في العصر الجاهلي كاد أن يكون فناً يدرس ويتلقى فمن الشعراء الجاهليين من كان له أساتذة ومرشدون يأخذ عنهم رسوم الشعر ويتعلم أصوله وفي هذا التلقي شيء من الهداية والتوجيه إلى المثل الأعلى فزهير بن أبي سلمى كان متصلاً ببشامة الغدير وكذلك الأعشر والمسيب بن عكس وظهور خصائص بشامة وأوس بن حجر في شعر زهير. كان النقد يتجه إلى الصياغة والمعاني ويعرض لهما من ناحية الصحة ومن ناحية الصقل والانسجام كما توحي به السليقة العربية وكان يدور في ميدانين الأول الحكم على الشعر والثاني التنويه بمكانة الشعراء. وغاية نقدهم أن يأخذوا الكلام منقطعاً عن كل مؤثر ويتذوقونه ثم يفصحون عن رأيهم فيه والغرض من اصدار الأحكام هو أن يوضع كل شاعر في مكانته التي تليق به. والنقد في هذه الحقبة قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس إحساساً فطرياً لا تعقيد فيه وملكة النقد لديهم كانت هي الذوق الفني المحض. مما لا شك فيه أن النقد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأدب ، فمتى ما وجدت هناك قصائد وجد نقداً يقومها ويصححها. ويميز جيدها من رديئها وبالنظر إلى تاريخ النقد الأدبي ذهب بعض النقاد والمؤرخين إلى أن العصور العربية الأولى تخلو من النقد والمنصفون منهم إنّما يقصدون به النقد المنهجي بقوانينه التحليلية الموضوعية وقواعده التفكيكية العلمية. والحقيقة أنّ وجود النقدِ مسألة لا ينبغي الاختلاف فيها فضلا عن نفيها أو الشكّ فيها لأمرين اثنين. أوّلهما: إنّ وجود الأدب في مثل تلك المرتبة العلية من الإبداع والرقيّ

وبذلك الزخم والحجم الكبير دليل كافٍ على وجود نقدٍ ساير هذا الأدب ووقف إلى جانبه يقوّمه ويوجّهه حتى وصل به إلى ما وصل إليه. ثانيهما: إنّ الإنسان ناقد بطبعه متذوق بفطرته يطالب دائما بالأحسن والأجمل والأجود والأمثل في شؤون حياته كلّها ولن يشذّ الشعر والأدب عن هذا المبدأ. ونستشف من ذلك أن العرب القدامى قد عرفوا النقد الأدبي وزاولوه ، عرفوه فطرة وطبيعة ، وزاولوه ذوقاً وإحساساً ، وطبقوه على نتاجهم الشعري ، ولذا كان أول شيء مارسوه من شؤون النقد الأدبي ، هو نظر الشعراء منهم إلى نتاجهم ، فكان أغلبهم يتناول شعره بالنظر والتأمل ، ويحرصون على استقامة القصيدة وخلوها من العيوب سواء اللفظية أو المعنوية. فماذا عن الملكة النقدية عند الشاعر الجاهلي العربي الجاهلي أعلن عن مستوى من التمكن والقدرة على الوصول إلى فرق ما بين القول الهابط غير الهادف أو الصائب ، مما يؤكد القول بأن الشاعر الجاهلي كانت لدية ملكة نقدية ساهمت في تحسينه لشعرة وتهذيبه له ولعل مما يوضح ذلك بصدق ووضوح قول معقر البارقي متحدثاً عن المستوى الشعري بقوله:-

الشعرُ لبٌّ المـــــــرء يعرضـه والقول مثُل مواقع النبـــــــل

منـها المقصّـــــــر عن رميَّته ونوافذٌ يذهبن بالخصـــــــــل

فالشعر لديه مختلف الدرجة باختلاف القدرات والأمزجة بين البشر، ومختلف المستوى باختلاف الشعراء. ومن ذلك أيضاً قول المسيب بن علس ، وهو جاهلي ، لم يدرك الإسلام:-

فلأهدين من الريـــــــــاح قصيدة مني مغلغلةً إلى القعقـــــــــــاعِ

تَرِدُ الميـــــــــاة فلا تزال غريبةً في القوم بين تمثل ، وسمـــــــاع

ومن المهم ها هنا أن نلتفت إلى أن المفردات النقدية التي ملأت الساحة الجاهلية قديماً، والتي ذكرنا بعضها آنفاً لم تكن من عبث القول ، ولكنها مفرز نقدي ، يشير الكثير منه إلى إطالة النظر ، وإدامة التأمل ، وفحص الشاعر لقصيدته قبل أن يخرج بها على الناس ، أو يذيعها في المحافل والأسواق التي كانت في ذلك العهد بمثابة المنتديات الأدبية ، التي يعلو فيها نجم الشاعر أو يهبط ، فتتبعه قبيلته في الصعود وفي الهبوط. ونحظى بما يؤكد على ذلك مبثوثاً في كتب التراث ، والتي يأتي على رأسها كتب التراجم والأمالي والمجالس ، ولدى ابن سلام ، وابن قتيبة وأبي الفرح ، والجاحظ ، وغيرهم. ويقول الدكتور مصطفى عبد الرحمن: "إنّ طبيعة الأحكام النقدية في العصر الجاهلي اتّسمت بالذوق الفطري فلم تكن للنقد أصول معروفة ولا مقاييس مقررة ، بل كانت مجرد لمحات ذوقية ونظرات شخصية وتقوم على ما تلهمهم به طبائعهم الأدبية وسليقتهم العربية وأذواقهم الشاعرة وحسهم اللغوي الدقيق بلغتهم وإحاطتهم بأسرارها ووقوفهم على ما للألفاظ من دلالات وإيحاءات في شتّى صورها. وماذا عن المرويات النقدية في العصر الجاهلي بين الحقيقة والوهم؟! وردت عن العصر الجاهلي عدة مرويات نقدية بعضها خالطها الشك مثل مروية النابغة ومروية امرئ القيس وعلقمة الفحل ، ومنها أيضا مروية حسان بن ثابت مع النابغة عندما أنشدة حسان:-

لنا الجفنات الغـــر يلمعن بالضـحى وأسيافنا يقطرن من نجـــــدة دما

ولدنا بني العنقـــاء وابني محـرق فأكرم بنا خالاً وأكـــــرم بنا ابنما

فقال له النابغة : إنك لشاعر ، لولا أنك أقللت أسيافك وجفانك، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك ، ولو قلت الجفان لكان أكثر.. وقلت : لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت : وأسيافنا يقطرن من نجدة دما ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر لانصباب الدم. والبعض تشكك في هذه المروية فلم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير ، وجموع الكثرة وجموع القلة ، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الأشياء ، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ ، وألمَّ بشئ من المنطق ومن المرويات النقدية التي تدل على حسن السليقة العربية في ذلك الحين مروية طرفة بن العبد عندما كان غلاماً حين أنشده المتلمس (والمتلمس شاعر من فطاحل شعراء الجاهلية المعروفين) قوله:-

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعريـــــة مكدم

فقال طرفة: استنوق الجمل لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير. وكانت هناك مظاهر للنقد الجاهلي ، وتتلخص في الآتي:- 1 - ظاهرة المفاضلة بين الشعراء وتقديم بعضهم على بعض. وأسباب هذه الظاهرة كثيرة جدّا لعلّ أهمّها العصبية والتنافس القبلي وكثرة الشعراء ووفرتهم في البيئة العربية الجاهلية إضافة إلى أنفة الإنسان الجاهلي وحبّه للتفاخر والتقدّم على غيره. يقول الأستاذ شوقي ضيف واصفا هذه الظاهرة : (ويظهر أنّ الشعراء حينئذ كانوا يتفاخرون بشعرهم ويتنافرون فيه كما يتنافر الأشراف في سؤددهم فكانوا يعرضونه على المحكّمين ليقضوا بينهم. ويعتبر الأستاذ قصيّ الحسين هذه الظاهرة إحدى أبرز أوجه النقد في العصر الجاهلي حيث يقول: (...ولعل الحكم على الشعر من جهة والتنويه بمرتبة الشاعر ومكانته بين الشعراء من جهة أخرى ، كانا الميدانين اللذين جال فيهما النقد جولات خفيفة في العصر الجاهلي). 2 - ظاهرة التهذيب:- والمقصود بها ما يقوم به الشاعر من تهذيب لشعره وتثقيفه له بحثاً عن الجودة والكمال لإرضاء نفسه ، أوّلا فيرتاح لعمله ولإرضاء العامة والتماشي مع أذواقهم واختياراتهم. وعناية الشاعر بشعره واهتمامه به بالتصحيح والتعديل والتثقيف هو منحىً واتجاه نقدي ومدرسة شعرية بدأت في العصر الجاهلي ثمّ تتابعت خلال العصور الأدبية المتلاحقة. ولعل أشهر من يمثّل هذا الاتجاه هو الشاعر الجاهلي الكبير زهير بن أبي سلمة الذي كان يستغرق تهذيبه للقصيدة حولا كاملا فسميت لأجل ذلك بالحوليات ينظمها في أربعة أشهر وينقحها في أربعة أخرى ثم يعرضها على الخاصة في أربع ليكتمل بذلك الحول قبل أن يعرضها على عموم النّاس. وقد سار على هذا النهج ابنه كعب وراويته الحطيئة في تهذيب الشعر وتنقيحه. يقول الحطيئة في بيان صعوبة الشعر في حقّ من لا يحسن قرضه بالتثقيف والتهذيب:-

الشعرُ صعبٌ وطويـــــل سلّمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمـــــه

زلّت به إلى الحضيـــــض قدمه يريد أن يعربـــــــــه فيعجمه

3 - ظاهرة المدارس الشعرية: المقصود بالمدرسة الشعرية في العصر الجاهلي مجموعة من الشعراء يشتركون معا في بعض الميزات والخصائص الفنية أو اللغوية أو المنهجية التي تميّز شعرهم وأدبهم. ولعل من أبرز هذه المدارس ، مدرسة عبيد الشعر وهم الذين يهتمون بتنقيح وتهذيب أشعارهم ـ كما تقدم ـ زعيم هذه المدرسة ورأسها كما ذكر صاحب الأغاني هو أوس بن

حجر وعنه أخذ زهير بن أبي سلمة وعنه ابنه كعب وراويته الحطيئة وغيرهم. وتقابل هذه المدرسة بمرتجلي الشعر ومن أشهرهم النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وامرئ القيس. 4 - ظاهرة تسمية القصائد:- المقصود بالتسمية ها هنا المبنية على أساس نقدي كالمعلقات السبع والسموط أو المسمَّطات والمقلَّدات والبتّارات. يقول الأستاذ قصي الحسين : «...فالعرب كانت لهم فكرة واسعة جدّاً عن تصنيف القصائد في مجالسهم وفي مواسمهم وليس من الغرابة أن يقولوا بالبتّارة وبالمعلّقة وبالسمط وهذه التسميات النقدية التي وصلتنا من مرحلة النقد المروي في العصر الجاهلي هي في الواقع أشبه بالمعالم البارزة التي تشير إلى مرحلة من النقد الأدبي كانت من الازدهار بحيث استطاعت أن تسيطر على جميع المجالس والمنابر والمواسم ... » ويقول أيضا «إنّ الألقاب التي تطلق على القصائد مثل : سمط الدهر ، سمطا الدهر ، البتّارة ، المعلقة ، السبعية ، إنّما هي نوع من الأحكام في معظم الأحيان. 5 - ظاهرة تصنيف الشعراء:- ذكر الأصمعي أنّ العرب كانت تصنّف الشعراء بحسب قوة قريحتهم وتمكّنهم من ناصية الشعر! فأوّلهم الفحل قال والفحولة هم الرواة ، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلّق ، ودون ذلك الشاعر فقط. والرابع الشعرور فهذه المسميات تعتبر أحكاما نقدية على الشعراء. وأخيراً يمكننا القول أن الأحكام النقدية في العصر الجاهلي كان معضمها يتجه نحو الصياغة والمعاني ، ويعرض لهما من ناحية الصحة ومن ناحية الصقل والانسجام كما توحي به السليقة العربية. فهذان هما الميدانان اللذان جال فيهما النقد جولات خفيفة في العصر الجاهلي : الحكم على الشعر والتنويه بمكانة الشعراء، فأما غير ذلك من البحث في طريقة الشاعر ، أو مذهبه الأدبي ، أو صلة شعره بالحياة الاجتماعية ، فذلك مالم يعرفه العصر الجاهلي. كذلك نلحظ في هذا النقد أنه قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس ، ومقدار وقع الكلام عند الناقد ، فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفاً ، والعربي يحس أثر الشعر إحساساً فطرياً لا تعقيد فيه ، ويتذوقه جبلة وطبعاً ، فليست له أصول مقررة للكلام الجيد كما عند المحدثين مثلاً ، وليست لدية مقاييس يأتنس بها في المفاضلة بين الشعراء ، ليس لديه غير طبعه وذوقه).هـ. وإن كان كثيرٌ من النقاد المعاصرين يتعتبرون هذه الشذرات النقدية في الجاهلية تمثل نقطة الانطلاق في نقد الشعر! والدليل أنه وجدت بعد ذلك دراسات نقدية فيها مباحث جيدة ورائعة ومفيدة!

الفصل الخامس

قيمة ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الفنية

إن ديوان (حسان بن ثابت) له قيمة علمية وفنية وأدبية وتاريخية عظيمة! إن واضع هذا الديوان هو الصحابي الجليل والشاعر الفضيل "حسان بن ثابت" من بني النجار ثم من الخزرج ، ينتهي نسبه إلى قحطان ، فهو إذاً يمني ، أمه من الخزرج كذلك ؛ كان يكنى أبا الوليد وأبا الحسام. وُلد حسان في يثرب ونشأ فيها ، فهو إذاً من أهل المدن والقرى ، وعلى نشأته الحضرية كان متأثراً بالحياة البدوية ، يظهر ذلك في شعره خصوصاً ما قاله في جاهليته. اتصل بالغساسنة ملوك الشام ، فكان يفد عليهم في عواصمهم ، كجلق والجولان وبصرى وغيرها ، فيمدح أمراءهم. ولما ظهر الإسلام ، وهاجر النبي إلى يثرب ؛ أسلمت الأوس والخزرج وأسلم حسّان ، فكان من الأنصار ، على أنه كان مشهوراً بجبنه ، فلم يناصر الدين الجديد بسيفه ، ولم يكن يذهب إلى القتال ، بيد أنه إذا كان لم يناصر الدين الجديد بسيفه ، فقد نصره بلسانه ، سلاحه الوحيد الذي شهره على أعداء النبي ، فصار بذلك شاعر الرسول يمدحه ويردّ على من يهجوه من شعراء قريش. وشعر حسان في الجاهلية أجود من شعره في الإسلام ؛ على أنه مهما قيل في شعره الإسلامي ، فهو في نضاله عن النبي يصور عصره أصدق تصوير بما فيه من مناضلة بين الإسلام والشرك. ويعطينا صورة واضحة عن تهاجي الأنصار والقرشيين ، وعما في هذا الهجاء من فحش وإقذاع ، وهو نوع جديد دخل ، بشعر حسّان ، الآداب العربي ، نجد فيه الشعر السياسي الصحيح المستند إلى عقيدة ، فكأنه في تحمسه للدين الجديد يمهد الطريق للشعر الديني في الإسلام. وبشكل عام امتاز شعر حسان بقوة العاطفة ، وهذا ما جعله أن يكون شديد التسرع والانتقال من موضوع إلى آخر وهذا التسرع حال دون التنقيح ثم إلى الترتيب والتساوق فأنتج اللين والضعف في شعره أين منه شعر الحطيئة وزهير والنابغة وغيرهم من الذين نقحوا وتأنوا حتى يكون شعرهم كأنه في المواقف والمواقع الإسلامية التي تستدعي تأجيج النفوس وإثارة الهمم كي ينهض المسلمون وينصروا على أعدائهم المتربصين بهم. وإلى جانب القيمة الفنية لشعر حسان ، هناك قيمة تاريخية كبرى لهذا الشعر ، فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الأيام ، يسجل بدقه أحداث من التاريخ وما فيه من غزوات وحروب وفتوحات ، كما يطلعنا على أسماء الكثيرين من الصحابة ومن أعداء الإسلام ، فهو لذلك شاعر الدولة المؤرخ لها فجمع لذلك بين الدين والدولة ، ففاخر به الجاهليون واحترمه الإسلاميون فتناقلوا شعره جيلاً عن جيل حتى كتب له الخلود. وهذا الكتاب من سلسلة "دواوين العرب" يجمع بين طياته ديوان حسان بن ثابت" كاملاً وموزعاً على حروف المعجم ، كما ويضم شرحاً مفصلاً لما يغمض من معاني ومفردات الديوان! وإذن فديوان حسان هو ديوان الإسلام! وحسان شاعر الإسلام: نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي ، والرد على أنصار الجاهلية ، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية ، فكان الشعر شعر نضال يهجى فيه الأعداء ، ويمدح فيه رجال الفريق ، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء ، بل للدفاع عن الرسول الكريم ودينه. وهذا ينقسم لقسمين: أما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد فهو مقصور على النبي وخلفاءه وكبار الصحابة ، والذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسناً ووصف وقائعهم وغزواتهم ، فوصف غزوة بدر وأحد ومؤتة وبني قريظة وغيرها من المشاهد ، وصورها وأحسن تصويرها. ومدحه يختلف عن المدح التكسبي

بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد ، وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقة والعقيدة النفسية ، قال حسان:-

نبي أتانا بعد يأس وفتـــــــــــرة من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبدُ
فأمسى سراجاً مستنيـــــــراً وهادياً يلوح كما لاح الصقيـــــلُ المهنـد
وأنذرنا نـــــــاراً ، وبشر جـنـــــة وعلمنا الإسلام ، فالله نحـمـــــــد
وأنت إله الخلق ربـــــــــي وخالقي بذلك ما عمـــــرت في الناس أشهد

ويلحق بهذا المدح رثاء محمد فقد ضمنه الشاعر لوعة وذرف دموعاً حارة صادقة ، وتذكُراً لأفضال رسول الدين الجديد ، فله رثاء كثير منها قصيدته المعروفة:-

بِطَيبةَ رسمٌ للرَّســـــول ومعهدُ مُنيرٌ وقد تعفو الرُّســـوم وتَهْمِدُ
بها حُجُراتٌ كان يَنـــزل وسطَها من الله نور يستضـــــــاء ويُوقَّد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدَتْ عيونٌ وَمِثْلاَها من الجفـــن تُسعد
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل القبـــــر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركتْ بلاد ثـــــوى فيها الرشيد المسدد

وأما الهجاء النضالي: فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمداً. وكان موقف الشاعر تجاههم حرباً لما بينهم وبين محمد من نسب. أما أسلوبه في هجائه فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيهم طائراً غريباً يلجأ إليها كعبد ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعناً شنيعاً ، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقاً في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطنا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. هجا حسان بني سهم بن عمرو:

واللهِ ما في قُريشٍ كُلِّها نَفـــــــرٌ أكثر شيخاً جباناً فاحشاً غُمُـــــرا
هُذرٌ مشائيـــــــم محروم ثويهم إذا تروّح منهم زوَّدَ القَـمَـــــــرا
ما بال أمِّك زَاغَـتْ عِندَ ذي شَرفٍ إلى جُذَيمة لما عفّت الأثـــــــرا
ظلّت ثلاثاً وملحان معانقهـــــــا عند الحَجـــون ، فما ملاّ وما فتـــرا
لولا النبي ، وقول الحق مغضبـــة لما تركت لكم أنثـــــى ولا ذكـــــرا

ويهجو الحارث بن كعب المجاشعي فيقول:-

بني كعـــــــب ألا الأحلام تزجركم عنا وأنتم من الجوف الجماخير حَارِ
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغـــال وأحلام العصافيـــر

ويقول في مقطوعة يُعير قريشاً فيها بهزيمتها يوم بدر:-

فينا الرسول وفينا الحـــق نتبعه حتى الممات ، ونصر غير محدود
مستعصمين بحبل غير منجـــذم مستحكم من حبال الله ممـــــدود

ثم ها هو يصفُ غزوة بني قريظة قائلاً:-

لقد لقيت قريظـــــة ما سآها وما وجدت لذلك من نصيـــر
أصابهمُ بـــــــلاءٌ كان فيهم سوى ما قد أصاب بني النضير
غـــــداة أتاهم يهوي إليهم رســـــــول الله كالقمر المنير

والحاصل أن حسان بن ثابت أعرض عن كل ما عرفته الحياة الجاهلية من الأغراض الشخصية من مدح للتكسب، وهجو للتفاخر، وغزل للتسلي، وخمر للتناشي، ليخرج بشعره من بين جدران الذاتية التي يكون فيها الشعر للشعر، ليخضع شعره لخدمة الدين، لا شيء له فيه إلا ابتغاء الأجر عند الله وتقرباً من رسول الله – صلى الله عليه وسلم -! وقيمة شعر حسان بن ثابت عظيمة. فشعر حسان بن ثابت طبع مندفع ، وقريحة هائجة. ومن جوانب قيمة شعره القيمة الفنية نلمس في كلام حسان أثراً للدين الجديد بما يستعمله من تناص واقتباس من القرآن والحديث ، وذلك ظاهر في المعاني الجديدة من ارتياح إلى المصير ، وتفصيل بعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب ، وذلك ظاهر أيضاً في الألفاظ التي أعطاها الإسلام إيحاءً جديداً ، ونثرها حسان في شعره. ولقد حق بعد ذلك أن يقال أن حسان بن ثابت هو مؤسس الشعر الديني الحماسي في الإسلام. وحسان شاعر شديد التأثر ، قوي العاطفة ، يفوته التأني ، ولهذا ترى شعره يتدفع تدفعاً ، متتبعا في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمل. ومن ثم تلقى شعره خالياً من كل ما يتطلب النظر الهادئ المتفحص ، فمَطَالِعُه مقتضبة اقتضابا شديداً ، يسرع في الانتقال منها إلى موضوعه الذي تحتدم به نفسه ، وانتقاله غير بارع عادة. ثم إن كلامه يخلو من الترتيب والتساوق لما في عاطفته في فوران. وهذا الفوران نفسه يحول مما نتج عن اللين الذي شهد به الأصمعي وتابعه عليه نقاد الشعر دون التنقيح لشعر حسان ، فضلاً عن القيمة الفنية ، قيمة تاريخية كبرى ، فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الأيام ، وليس غريباً تسجيل شعر لأيام الجاهلية ومآتي الغساسنة ، إلى جانب أحداث الفجر الإسلامي بعد إسلامه ، على عادة الشعراء في جعل شعرهم سجلاً تاريخياً ، فشعر حسان يطلعنا على أخبار النبي محمد في غاراته وسراياه وغزواته وفتح مكة ، كما يطلعنا على أسماء الصحابة وأعداء الإسلام ، حتى أصبح وثيقة معتمدة عند مدوني السيرة ورواة الحديث ، وهكذا كان حسان بن ثابت شاعراً ومؤرخاً ، كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي ازدهر في عهد بني أمية. وأما عن بناء القصيدة الحسانية فلقد شهد النقاد بحباكتها ودقتها! فحسان شاعر تلقى أصالة الشعر في جاهليته ، وعليه فمن البديهي أن يأتي بناؤه للقصيدة على شاكلة كل قصائد الجاهليين ، ويلاحظ أيضاً أن قصائد حسان خلت في كثير من الأحيان من التصدير بالأغراض الموطئة "نتيجة مواقف تعرض فيها لاستثارات شعورية ، وجد نفسه فيها مضطراً للرّد الفوري لينفس عن مشاعره المتوترة ، أو عن انفعالات نفسه الثائرة ، التي لم

تتح له فرصة التمهيد لتجربته بمقدمةٍ طلليةٍ ، أو غزليةٍ ، أو سوى ذلك لكنها لم تخل منها في أحيان أخرى ، وإن ثار حسان في قصيدته الإسلامية على أغراض الطلل وذكرى الحبيب ، لكن تقاليد الشعر ظلت تستعبده. فاسمع لتتبين مدى التزام حسان بالبكاء على الأطلال:-

هل رسم دارسة المقـــام يبابِ متكلّمٌ لمحاور بجـــــــــواب
فدع الديار وذِكْر كلّ خريـــــدةٍ بيضاء آنســـــــة الحديث كعاب
واشكُ الهموم إلى الإله وما ترى من معشر متألبيـــــــن غضاب

ويقول في قصيدةٍ أخرى:-

عرفت ديـــــار زينب بالكثيب كخط الوحي في الورق القشيـــب
فدع عنك التذكـــــــر كل يوم ورد حـــــــزازة الصدر الكئيب
وخبّر بالذي لا عيـــــب فيه بصدق غير إخبـــــــار الكذوب

وها هي قصيدته المشهورة التي فيها

هجـــوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجـــــزاء
أتهجـــوه ، ولست له بكفءٍ فشرّكما لخيركما الفـــــداء
فإن أبي ووالده وعرضـــي لعرض محمد منكم فـــــداء

يصدرها بقوله:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عـــذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفّيها الروامـــس والسماء
فـــدع هذا ولكن من لطيف يؤرّقني إذا ذهب العشـــاء

ورثى عثمان بن عفان قائلاً:-

يا للرجال لدمع هـــــاج بالسنن إني عجبت لمن يبكي على الدمـــن
إني رأيت أميـــــن الله مضطهداً عثمان رهنا لدى الأجـــداث والكفن

غدت المادة الشعرية الحسانية في الإسلام ، رمزاً للأدب الإسلامي ، ومعلمة من معالمه ، بل إنها ظلت الحجر الأساس له ، وتجاوزا لإشكالية ضعف شعر حسان ، فإنه ظل يصور مرحلة من مراحل الشعر ، ويحدد معالمه وملامحه تحديداً بيناً ، تغلب على سماته سلطوية الإسلام الذي انشغلت به الأذهان والأفكار وقته. وفيما رأيت مقاربة لبعض زوايا شعر حسان الإسلامي ، الذي طرح للحوار والنقاش في مادة الأدب في المشرق الإسلامي. والله أعلم :خاتمة -

الفصل السادس

حسان بن ثابت والخنساء (قراءة أسلوبية)

فرقٌ كبيرٌ جداً بين أسلوبية حسان وكل شاعر أو شاعرةٍ في عصره! هذا إذا استثنينا الثوابت الأساسية والسمات المشتركة في كل شعراء العصر الجاهلي! بداية سأعطيكم نبذه عن هذا الشاعر وتلك الشاعرة! حسان بن ثابت الأنصاري شاعر عربي وصحابي من الأنصار ، ينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة ، كما كان شاعرًا معتبرًا يفد على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه ، ثم أسلم وصار شاعر الرسول بعد الهجرة. توفي أثناء خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). وأما الخنساء فهي تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد السُلمية المعروفة باسم الخنساء بنت عمرو (575 - 664) ، كانت شاعرة رثاء في عصر الجاهلية ، وكانت تسكن في إقليم نجد. لقبت بهذا الاسم بسبب ارتفاع أرنبتي أنفها. تزوجت من ابن عمها رواحة بن عبد العزيز السلمي ، ثم من مرداس بن أبي عامر السلمي. عاشت أيضاً في عصر الإسلام ، وأسلمت بعد ذلك. وعلى هذا فهي من الشواعر المخضرمات ، كما أن حسان بن ثابت من الشعراء المخضرمين!

مفاضلة بين حسان والخنساء فى سوق عكاظ فى الجاهلية

نبغ من الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – الكثير من الشعراء ومنهم شاعر النبى صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت رضى الله عنه ، والخنساء بنت عمرو رضى الله عنها ، وهذه القصة تحكى مفاضلة بين حسان والخنساء فى سوق عكاظ فى الجاهلية ، حيث كانت تُعقد مجالس للموازنة بين الشعراء ، ويجلس للتحكيم فيها أكابر الشعار أمثال النابغة الذبيانى وغيره ، حيث كان هؤلاء الحكام يفاضلون بين الشعراء وينقدون أشعارهم ، ويصححون ما قد يرد فيها من أخطاء ، وإليكم الرواية كما جاءت فى كتاب الأغانى للأصفهاني ، ولسنا نعوّلُ كثيراً على الأصفهاني الوضاع الكذاب. فما كان بين النابغة وحسان بسوق عكاظ حين مدح النابغة الخنساء؟ يقول: أخبرني عمي الحسن بن محمد قال حدثني محمد بن سعد الكراني عن أبي عبد الرحمن الثقفي ، وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة ، وأخبرنا إبراهيم بن أيوب الصائغ عن ابن قتيبة:- أن نابغة بني ذبيان كان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء ؛ فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره ، وأنشدته الخنساء قصيدتها التى مطلعها:

"قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُـــــوّارُ أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ"

حتى انتهت إلى قولها:

وَإِنَّ صَخراً لَتَأتَمَّ الهُداةُ بِـــــــــهِ كَأَنَّهُ عَلَـمٌ فـي رَأسـِهِ نـــــــــارُ

وَإِنَّ صَخراً لَمولِانا وَسَيِّدُنـــــــــا وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّـــــــــارُ

ومعنى البيتين أن صخرا إمام للناس يأتمون به ويهتدون بهديه ، كأنه جبل على قمته نار مشتعلة فلا تخفى على أحد (وهذا البيت صار مثلا بعد ذلك كما يقولون: فلان اشهر من نار على

علم ..) وتقول فى البيت الثانى أن صخراً مولاهم ويدهم ، وأنه كريم فمتى يأتى علي الناس الشتاء ببرودته وصقيعه ، يكثر من نحر وذبح الذبائح لضيوفه. فقال: لولا أن أبا بصيرٍ – يقصد الأعشى وهو شاعر مشهور من أصحاب المعلقات ـ أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس! فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها. قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحـى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابني مُحَـرِّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِذا اِبنَمـا

ومعنى البيتين أن حسان رضى الله عنه يفخر بقومه وكرمهم وأن لهم جفان ضخمة أى أوعية ضخمة للطعام ، تنصب فى الضحى ليأكل منها الناس ، وفى نفس الوقت فهم شجعان واسيافهم تقطر دما من كثرة نجدة الناس ، ثم يفخر بأنهم أخوال لهذين الحيين (بنى العنقاء) و (ابنى محرق) فأكرم بهم أخوالا وأكرم بهم أبناء. وكلمة (ابنما) تعنى ابن ، ويجوز زيادة (ما) فيها. فقال: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت: "الجفنات" فقللت العدد ، ولو قلت: "الجفان" لكان أكثر. وقلت: "يلمعن في الضحى" ، ولو قلت: "يبرقن بالدجى". لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: "يقطرن من نجدةٍ دماً" ، فدللت على قلة القتل ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً.) طبعاً نقد النابغة واضح وهو ينبه إلى أن حسان لم يوفق فى إختيار الألفاظ المناسبة التى تدل على معانى الكثرة والمبالغة ، كما أنه نقده فى معنى من المعاني وهو أنه فخر بأبنائه ولم يفخر بآبائه ، والعادة عند العرب أن يفخر المرء بآبائه ، ويترك لأولاده الفخر به. ولقد دافع قدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر) عن بيت حسان السالف ذكره فقال:- (فمن ذلك أن حسان لم يرد بقوله: الغر ، أن يجعل الجفان بيضاً ، فإذا قصر عن تصيير جميعها أبيض نقص ما أراده ، وإنما أراد بقوله: الغر ، المشهورات ، كما يقال يوم أغر ويد غراء ، وليس يراد البياض في شيء من ذلك ، بل تراد الشهرة والنباهة. وأما قول النابغة في: يلمعن بالضحى ، أنه لو قال: بالدجى ، لكان أحسن من قوله: بالضحى ، إذ كل شيء يلمع بالضحى ، فهو خلاف الحق وعكس الواجب ، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء ، فأما الليل فأكثر الأشياء ، مما له أدنى نور وأيسر بصيص ، يلمع فيه ، فمن ذلك الكواكب ، وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا ، دائماً تلمع بالليل ويقل ، لمعانها بالنهار حتى تخفى ، وكذلك السرج والمصابيح ينقص نورها كلما أضحى النهار ، والليل تلمع فيه عيون السباع لشدة بصيصها ، وكذلك اليراع حتى تخال ناراً. وأما قول النابغة ، أو من قال: إن قوله في السيوف: يجرين ، خير من قوله: يقطرن ، لأن الجري أكثر من القطر ، فلم يرد حسان الكثرة ، وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويتعاودونه من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن يقولوا: سيفه يقطر دماً ، ولم يسمع: سيفه يجري دماً ، ولعله لو قال: يجرين دماً ، لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب به. ..] ثم إن حكم النابغة للخنساء رضى الله عنها بالتفوق لا يحط من شأن حسان بن ثابت البتة ، فهو أكبر الشعراء المخضرمين وسيدهم ، وهو سيدنا لأنه صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وشاعره ، ولكنما هو خلاف فنى فحسب. وإذن فالنقد الأدبي فنٌّ مِن فنون الأدب ، وضرورةٌ من ضروراته ، فيه تصحيحٌ للخطأ ، وتقويم للمعوَّج ، وتبيان مواطن القوَّة والضعف من الأثر الأدبي ، ومن أصولِّه

ومقوِّماته ،اتساع الثقافة والاطِّلاع ، وجَودة الذوق ، ورهافة الحِسّ ، والنزاهة في الحكم. وليس النقد جديدًا ، بل هو قديم مُوغِل في القِدَم ، وكانت للعرب في الجاهلية أسواقٌ أدبيَّة يَفِد إليها الشعراءُ والأدباء والرواة ، وتُنشَد فيها الأشعار ، في جوٍّ أدبيٍّ نادر. حُكي أنَّ النابغة الذبياني كانت تُضرَب له قُبَّة من أدم بسوق عكاظ، يجتمع إليه فيها الشعراءُ ، فدخل إليه حسَّان بنُ ثابت وعنده الأعشى ، وقد أنشدَه شِعره ، وأنشدته الخنساء قولها:

قَذًى بِعَينَيكَ أَم بِالعَينِ عُـــــــــوَّارُ أَم ذَرَّفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِهَا الـــــدَّارُ

حتى انتهت إلى قولها:

وَإِنَّ صَخـــــــــــرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَـــــــــــــارُ

وَإِنَّ صَخـــــــــــرًا لَمَولاَنَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخرًا إِذَا نَشتُو لَنَحَّـــــــــــارُ

فقال: لولا أنَّ أبا بصير أنشدَني قَبلَك لقلتُ: إنَّكِ أشعر الناس ، أنتِ والله أشعرُ مِن كلِّ أُنثى ، قالت: والله مِن كلِّ رجل ، فقال حسَّان: أنا والله أشعر منكَ ومنها ، قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُّحـــــــَى وَأَسيَافُنَا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَمَـــــــــا

وَلَدنَا بَنِي العَنقَاءِ وَابنَي مَحَـــــــرَّقٍ فَأَكرِم بِنَا خَالاً وَأَكرِمِ بِنَا ابنَمَـــــــــا

فقال: إنك شاعر: لولا أنَّك قلتَ: الجفنات، فقلَّلت العدد ، ولو قلت: الجِفان لكان أكثرَ ، وقلت: يلمعن في الضحى، ولو قلت: يبرقن بالدُّجى لكان أبلغ في المديح ؛ لأنَّ الضيف باللَّيل أكثرُ طروقًا. وقلتَ: يقطرن من نجدة دمًا، فدلَّلت على قلَّة القتل ، ولو قلت: يجرين لكان أكثرَ لانصبابِ الدم ، وفخرتَ بما ولدت ، ولم تفخر بمن وَلَدَك ، فقام حسَّان منكسرًا منقطعًا.

الفصل السابع

حسان بن ثابت بين الجاهلية والاسلا م

لقد كانت انتقالة عقدية عظيمة لحسان ، أن يتحول من الجاهلية إلى الإسلام! نعم ، كانت انتقالة كبيرة ، إذ كان لها أعظم الأثر على شخصيته وأسلوبيته الشعرية! فكثرت تعبيراته عن الجنة والنار ، والربوبية والألوهية ، والثواب والعقاب ، والموت والبقيامة ، إلى غير ذلك من التحولات! غير أن مدحه كان هو الآخر قد تحول تحولاً كبيراً ، فبعد أن كان يمدح ملوك الغساسنة والمناذرة النصارى الذين يعتقدون أن لله ولداً وصاحبة ، بات يمدح سيد الخلق وحبيب الحق النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم -! كان يمدح الملوك النصارى في جاهليته نظير ما يغدقون عليه من عطاء الدنيا! فلما أسلم صار يمدح النبي – صلى الله عليه وسلم - نظير لقاء الآخرة! والنقاد الجاهليون الجهلاء راحوا ينتقدون شعر حسان بعد إسلامه ويتهمونه بالضعف الفني والأسلوبي والموضوعي! الأمر الذي وقفتُ عنده طويلاً ، واستنتجتُ أنهم استقوه من مصادر ثلاثة: أولها المستشرقون الكفار ، والثاني الأصفهاني في أغانيه ، والثالث الأصمعي في أصمعياته! والمصادر الثلاثة لا يوثق بتقريرهم ضعف شعر حسان بعد إسلامه! فالمستشرقون قومٌ أرادوا كعادتهم طعن الناقل ليُطعن المنقول كالخبثاء الروافض! والأصفهاني في أغانيه حاطب ليل لا يدقق الأخبار ، ولا تصح رواياته مادامت تجمع بين الغث والثمين وتسوي بين الحق والباطل ، والأصمعي ينطلق في الحكم على الشعر من منطلق التحرر المطلق للشاعر ، بحيث يقول ما يريد وقتما يريد وبأي كلماتٍ يريد ، فلا تحكمه ضوابط ولا قيود! وكيف لشاعر يُجيد مدح الملوك النصارى ورائده في ذلك هواه وطمعه في عطائهم ، ليصبح شعره فيهم أقوى من شعره الذي اتبع فيه هداه وطمع فيما عند الله وارتجى الله ورسوله والدار الآخرة ، وكان رائده فس شعره جبريل عليه السلام؟! إن الفرق بين الشعرين يزيد عن الفرق بين السماوات والأرض امتداداً! وفي هذا التحول يقول الأديب الأستاذ فالح الحجية الكيلاني! ما نصه: (مدح حسان في الجاهلية الغساسنة وملوكهم قبل الإسلام ، وكذلك مدح المناذرة وغيرهم إلا أنه بعد محيء الاسلام واعلان اسلامه اختص في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومدح المسلمين وفخر بهم. وامتازشعره بقوته بحيث كان سوطاً لاذعاً في ظهور أهل الشرك والكافرين بعد إسلامه ، ولذا اتخذه الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم - شاعره المفضل ، وحثه على قول الشعر ، ومناجزة شعراء الشرك والجاهلية ، ومدح المسلمين ، وهجاء قريش والرد على كل شاعر يهجو المسلمين من شعراء الشرك. يقول النقاد والمختصون في الشعر أن شعره في الجاهلية أقوى وأحسن من الشعر الذي قاله في الإسلام ، ويرجعون ذلك لانبهاره بأساليب القرآن الكريم ومعانيه ، وتقييده الشعر بقيود أخلاقية منها الكذب المبالغ حد الإسراف كما أنه أسلم بعد أن بلغ الستين من عمره ، وتكون قد انطفأت ثورة عاطفته! نعم قال الشعر في الجاهلية والإسلام وفي هذا المقال الموجز سأبين رأيي الخاص في شعره في كلا العصرين! يقول أغلب النقاد إن شعر حسان الجاهلي أقوى من شعره الإسلامي في كل قصائده ، وهذا حكم في رأيي الخاص قاس وصارم! فقد طرق حسان أكثر الأغر اض الشعرية . شبب ومدح وهجا ورثا ووصف وافتخر وفخر وحكم ، مثله مثل كل الشعراء الجاهليين. يقول حسان في قصيدةٍ له نظمها في الجاهلية:

أسألت رسم الدار؟ أم لم تسألـــــــــي؟ بين الجوابي والبضيع ، فحومـــــــــل

لله در عصابة عصابـــــــــــــــة يوما بجلق في الزمـــــــــــان الأول

يمشون في الحلل المضاعـــف نسجها مشي الجمال إلى الجمـال البـــــــزل

بيض الوجوه كريمة أحسابهـــــــم شم الأنـــــــوف من الطـــراز الأول

لقد شربت الخمر في حانوتهـــــــا صهبـــــــاء صافيـــــة كطعم الفلفـــل

نسبي أصيل في الكِرام ومـــــــذودي تكـــــــوى مواسمه جنوب المصطلي

بدأ قصيدته في الغزل ، وتساءل عن ديار الأحبة بين البضيع والجوابي وحومل ، وانتقل إلى مدح الغساسنة حكام الشام فـــي جلق ، ثم عرّج على الخمرة واحتسائها ، ثم افتخر بنسبه الأصيل. وإذا أمعنا النظر في هذه القصيدة أو في غيرها من شعره الجاهلي ، نلاحظ متانة الشعر وبلاغته وقوة ألفاظه وصعوبتها في غالب من الأحيان ، وكذلك الشعراء كانوا يفعلون إذ يخرجون في القصيدة الواحدة إلى أغراض شتى! إذ تبدأ بالغزل والبكاء على الأطلال أو وصف الخمرة ، وتنحدر من فن لآخر. وهذا بلا شكٍ يفتح أمام الشاعر أجواءَ شعرية واسعة ، فتأتي قصيدته قوية متينة لذا كان الشعر الجاهلي بليغاً وقوياً ، أما شعر حسان في الإسلام فيتميز بطبقةٍ شعريةٍ عاليةٍ رفيعة ، جمعت بين بيان الجاهلية ومعارفها ، وحداثة الإسلام وروحانيته الواسعة ، وافر البيان جزل اللفظ واسع البلاغة! ويعود ذلك الى صلته الشديدة والقريبة من موقع مهبط الوحي وقربه من معين الأدب الإسلامي حيث كان يستمع إلى القرآن الكريم ويحفظه فشعره قد تحلى بالفصاحة الخالصة من شوائب اللفظ وغريب العبارة والتعقيد فشعره حسن مفهوم خال من حوشي الكلام زاخر بالمعاني الاسلامية الجديدة والاغراض السامية النبيلة ينهل من بحر المدرسة المحمدية التي التزم بها و أصبح لايفارقها ومن جهة أخرى أنه كان شاعراً في الجاهلية شاعرا في الإسلام فازداد قوة شعرية ورفعة ومتانة فعمره الطويل وعراكه مع الزمن وتجربته الشعرية وحاجة الإسلام إليه في الذود عنه وعن شخصية الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم قادته إلى السمو والعلو قال ابن سلا م في طبقاته للشعراء متحدثا عن شعراء الإسلام وأشهرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده من هذا نستنتج أن شعر حسان في الإسلام يضاهي شعره في الجاهلية أو يزيد عليه لنقرأ له هذه الأبيات الإسلامية التي تُثبتُ صِحة ما ذهبنا إليه:-

الله كرمنا بنصـــر نبيـــــــــه وبنا أقام دعائم الإســـــــــلام

وبنا اعز نبيه وكتابـــــــــــه وأعزنا بالضـرب و الإقـــــد ام

في كل معتـرك تطل سيوفنـــا فيه الجماجـــم عن فـراخ الهام

ينتابنا جبريـــل في أبياتـــــنا بفرائـــض الإسلام والإحكـــام

يتلو علينا النـــور فيها محكمـا قسماً لعمـــرك ليس كالأقســـام

نلاحظ جودة شعره وتأثير الإسلام فيه ، واقتباسه في شعره من آيات القرآن الكريم ، فما اقتبسه من القران الكريم وأحاديث الحبيب المصطفى زادتْه ، وروتْ شعره من معينها قوة وبلاغة وسهولة وفصاحة ، حتى بلغ الذروة. رحم الله حسان فهـــو سيد الشعراء المخضرمين وأسعدهم! ومن جميل شعره هذه الأبيات:-

توحْ منَ الحسناء أمْ أنـتَ مغتـــدي وكيفّ انطلاقُ عاشـــقٍ لمْ يـــزودِ
تَرَاءتْ لَنا يَوْمَ الرَّحيـــــلِ بمُقْلَتيْ غَرِيـــــــرٍ بمُلْتَفٍّ مِن السِّدْرِ مُفْرَدِ
وجيدٍ كجيدِ الرئـــــمِ صافٍ، يزينهُ توقدُ ياقوتٍ ، وفصلُ زبرجـــــــدِ
كأنَّ الثُّرَيّـــــا فَوْقَ ثُغْرَةِ نَحْرِها توقدُ ، في الظلمـــــــاءِ، أيَّ توقدِ
لعَمْري لَقدْ حالَفْتُ ذُبْيـــــانَ كُلَّها وعبساً على ما في الأديـمِ الممـــددِ
وأقبلتُ منْ أرضِ الحجـــازِ بحلبة تَغُمُّ الفَضـــاءَ كالقَطـــا المُتَبَـــــدِّدِ
تحملتُ ما كانتْ مزينـــــةُ تشتكي منَ الظلمِ في الأحـــلافِ حملَ التغمدِ
أرَى كثْرَةَ المَعْـــرُوفِ يورِثُ أهْلَهُ وسَوَّدَ عَصْرُ السَّـــوْءِ غَيْرَ المُسَـــوَّدِ
إذا المرءُ لمْ يفضلْ ، ولم يلقَ نجدة معَ القَومِ فَلْيَقْعُدْ بِصُغْـرٍ ويَبعَـــــدِ
وإنّي لأغْنى النّـــــاسِ عَنْ مُتكلِّفٍ يَرَى النّـــاسَ ضُلاَّلاً وليس بمُهْتـدي
كَثِيرِ المُنى بالـــــزَّاد ، لا خَيْرَ عِندَهُ إذا جـــاعَ يوماً يَشْتَكِيهِ ضُحى الغـــدِ

وأكاد أقطعُ بأن حسان بن ثابت كانت عنده الخميرة الإيمانية والاستعداد الفطري لأن يسلم لله رب العالمين! وأنه كان شاعراً قِيَمياً يحب القيم والفضائل ويدعو إليها! وأن ذلك ثابت في أشعاره الجاهلية والإسلامية ، غير أن الملاحظ أن هذه النزعة زادت بعد الإسلام! وهذه أقوال لحسان بن ثابت مستلة من بعض قصائده تُثبت صحة ما نقول! يقول حسان:-

"وكم حافرٍ حفرةً لامـــــــرئٍ سيصرَعُه البغي فيما احتفـــرْ"

ويقول:-

"ربَّ علمٍ أضاعَ جوهرَه الفقرُ وجهلٍ غَطىَّ عليه الثـــــــراءُ"

ويقول:-

"الفقرُ يزري بأقوامٍ ذوي حَسبٍ ويقتدي بلئام الأصـــــل أنذالِ"

ويقول:- "إن الهدايا على مقدار مُهديها"

ويقول:-

"أصون عرضي بمالي لا أدنســـه لا بارك الله بعد العرض بالمـــــال
أحتال للمـــال إن أودى فأجمعـــه ولست للعرض إن أودى بمحتال"

ويقول:-

"قوم إذا حاربوا ضـــــــروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيـــــة تلك منهم غير محدثـــــة إن الخلائق فاعلم شرها البـــــدع"

ويقول:-

"وإن امرأ يمسي ويُصبح سالمـــاً من النـــــاس إلا ما جنى لسعيد"

ويقول:-

"وليس يعاب المرء من جبن يومــه وقد عرفت منه الشجاعة بالأمس"

ويقول:-

"وكم حافرٍ حفـــــــــــرةً لامرئٍ سيصرَعُه البغي فيما احتفـــــرْ"

ويقول ابنه أي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:-

"ترى المرء مخلوقاً وللعين حظها وليس بأحناء الأمـــــور بخابـــر

وذاك كماء البحر لست مسيغـــه ويعجب منه ساجياً كل ناظـــــــر"

(الفصل الثامن)

(صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بن ثابت)

كل شاعر يتأثر بما في بيئته من صراعات وقلاقل! وكان طبيعياً أن يعاني حسان بن ثابت بعد إسلامه أكثر مما كان يعاني في جاهليته! فكان بداخله صراع لا يخمد أواره بين الجاهلية التي عليها المجتمع ، وبين الإسلام! وكان شعر حسان نتيجة طبيعية لذلك الصراع العاتي بين الجاهلية والإسلام! وتحت عنوان: (صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بن ثابت) جاء في مجلة (دعوة الحق – العدد 118) ما نصه: (إن حسان بن ثابت شاعر ، مؤرخ ، مناضل ، اتصل في الجاهلية بالغساسنة فكان شاعر بلاط ، وانقطع في الإسلام إلى النبي ، فكان شاعر دين وسياسة وكفاح). وهكذا يرى المؤرخون حسان بن ثابت الأنصاري ، شاعر النبي – صلى الله عليه وسلم - ، ورفيقه في جهاده و خطواته جميعها. ويجمع الرواة والمؤرخون أيضاً أن حسان عاش مائة وعشرين سنة ، ستين في الجاهلية ، وستين في الإسلام. وقد أتاحت له حياته الطويلة العامرة أن يتصل بمختلف أصناف الناس في كلتا المرحلتين ، وأن يعايش بالتالي نماذج متباينة من السلوك والأخلاق والقيم. وحسان فحل من فحول الشعراء كما يرى أبو الفرج الأصبهاني ، بل إن الحطيئة يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول: (أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول: (يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل). وحسان بهذا المعنى شاعر يحسب له ألف حساب في تاريخ الشعر العربي ، فقد أنشد في مختلف أغراض الشعر المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وفخر، وتناول في قصائده قضايا متنوعة تتعلق بالحياة والدين والسياسة والحروب. وإلى جانب هذا وذاك فقد كانت قصائده خير مرآة تنعكس عليها خطوات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأعماله في سائر المجالات ، وبالتالي صفاته ومزاياه ، بالإضافة إلى تصويره تصوير المؤرخ الأمين لحوادث زمانه ، وخصائص الدعوة المحمدية ، والمراحل و الأشواط التي قطعتها ، وقدرته على استيعاب مكونات البيئة الاجتماعية التي تحيط به. وقد عاش حسان حياته الجاهلية وسط بلاط الأمراء والملوك ونادمهم ومدحهم بقصائد عديدة من شعره ، فنال من نعمهم وخيراتهم ، وأصبح مقرباً إلى مجالسهم محبباً إلى قلوبهم ، يشاركهم حياتهم العامرة بشتى أصناف المرح والمجون ومختلف أشكال الترف والرخاء. وكل كائن كما يرى الأستاذ أمين الخولي (يتأثر بما حوله من واقع الحياة مادياً ومعنوياً ذلك التأثر الذي لم يفت القدماء أنفسهم التنبه إلى أصله ، حين يتحدثون عن تأثير البقاع على الطباع) ، لذلك فقد لازمت حسان في حياته الطويلة الحافلة عدة صفات وطباع ، اكتسبها من احتكاكه الدائم بالمناذرة والغساسنة ، ومن اتصاله المستمر بملوكهم وأمرائهم. وإذا كان الأدب ديواناً لعواطف الأمم وكنزاً لأحداثها وتجاربها وتاريخاً لعاداتها وتقاليدها ، وسجلاً لما في الإنسان من مشاعر وغرائز وأداة أصيلة في توجيه الحياة الإنسانية ومسايرتها على الدوام في (جميع العصور). فلا نتردد إذن في أن قصائد حسان قد زخرت بأشكال متباينة من القيم وبسلوكه الإنساني. وهذا يثير في نفوسنا بصورة غير مباشرة شيئاً غير قليل من الحيرة والاستغراب ، ويدفعنا بالتالي إلى التساؤل عن تأثير كلتا المرحلتين في شعره وعن صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بصفة عامة. وأيسر النظر في شعره يؤكد حقيقة واضحة لا سبيل إلى الشك فيها ، وليس المهم أن تكون هذه الحقيقة قديمة أو جديدة ، و لكن المهم أن نقف عندها لتحليل جوانبها وسبر أغوارها وبالتالي لمحاولة

تأكيدها والتركيز عليها. هذه الحقيقة تبدو في كثير من الأحيان معوجة ملتوية ، ولكنها في أشد الحاجة إلى تحليل سليم واضح ، لتقويم اعوجاجها ، وإصلاح ما بها من عطب. فقد بدل الإسلام من قيم حسان وطبائعه واستطاع أن يغير مجرى حياته كلها ، وأن يجعلها تسير في اتجاه جديد بل إن الأصمعي يؤكد أن تأثير الإسلام كان واضحاً حتى في أدبه (فقد كان شعره في الجاهلية أقوى منه في الإسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة). وطبعاً نحن قمنا بالرد على الأصمعي في هذه النقطة بما فيه الكفاية ، ولا نريد التكرار! ومع ذلك فإننا لا نعدم من يضيف إلى ذلك تمسك حسان ببعض القيم الجاهلية ، على الرغم من الانقلاب الضخم الذي أحدثه الإسلام في حياته. غير أن هناك من ينفي هذه القضية ويؤكد أن الإسلام (بدل من عقلية الشاعر وآرائه وتصرفاته) وأحدث تغييراً شاملاً في مختلف مرافق حياته. وأكبر الظن أن الرأي الأخير أقرب إلى الحقيقة وأدنى إلى الصواب. (وأنا أرى أن هذا لم يكن في حسان وحده! بل هي طبيعة الإسلام ومزية الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب ويتمكن من الروح ، فيصبح الإنسان الشاعر خلقاً آخر! فلقد صِيغ صياغة جديدة وولد ولادة جديدة! فإذا حياته وأفكاره وأشعارة وقد اصطبغت بصبغة الإسلام والإيمان! وكذلك الحال في شعراء وأدباء الجاهلية المعاصرة ، وإن نظرة فاحصة لشعر أحدهم في جاهليته ونظرة أخرى لشعره بعد هدايته للحق ليتبين منهما تأثير الإسلام والإيمان المباشر على الحياة والفكر والشعر!). وسيرة حسان في الجاهلية تثير شيئاً غير قليل من الشك والحيرة ، فهو يجالس الأمراء ويقارع الخمرة ، ويمدح ملوك غسان ويسترجع ذكرياته وأيامهم ، ويصفهم بالكرم والسخاء ، وأنهم يعيشون حياة خير ورزق ورفاهية وازدهار فيقول:

لله درّ عصابـــــــــة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمــان الأولِ
أولاد جفنة حول قبـــــر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهـــر كلابهم لا يسألون عن الســواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطــراز الأول

وهذه الأبيات توضح حقيقتين مستقلتين: الحقيقة الأولى: أن شاعرية حسان كانت في الجاهلية متدفقة مبدعة ، كما يرى ذلك الأصمعي نفسه. والحقيقة الثانية: أن حسان كان يشرب الخمر وينادم الملوك والأمراء قبل الدعوة المحمدية ، وإن قيم الجاهلية وأخلاقها كان لها الأثر الواضح في شعره. وحسان شاعر قوي الشعور ، دقيق التصوير ، بارع الإجادة تقلب في مجالس الأمراء والملوك ، وصور هذه الحياة تصويراً رائعاً في قصائد متعددة ، وهو إلى جانب ذلك شهد الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج وعايش عن قرب تلك المطاحنات التي كانت بين القبيلتين ، فأشار في شعره إلى هذه الأيام وصورها خير تصوير كما نجد ذلك في يوم بعاث ويوم الربيع وغيرهما. على هذا النحو يسير حسان في مختلف أطوار حياته يتناول قضية من القضايا فينشد في تصويرها قصائد متعددة ، حتى إذا فرغ منها عاد إلى أخرى يستلهمها شعراً نابضاً يتدفق قوة وجزالة).هـ. وجلّق الواردة في بيت الشعر الحساني الأول السابق من أسماء دمشق القديمة وهو اسم سرياني ، ومعناه مكان تحشيد الجيوش «الوثيقة السريانية» ولدمشق أسماء كثيرة منها: الفيحاء ، مدينة الياسمين ، شامة الدنيا ، داماس ، جيرون رامون ، ديمنزياس ، أما العصابة التي مدحها بقوله: «لله درهم ، فهم ملوك غسان نواب قيصر الروم

على الشام ، ولله درهم صيغة مدح وثناء ، والدر ثدي المرأة ، والضد منها لا در درك ، وعندما يقال لأناس: لله درهم فالمعنى مدح فعالهم ، والغساسنة سلالة عربية أسست مملكة في الشام ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية ، قبل الإسلام ، وهم نصارى أرثوذكس ، وفي الأصل من أزد اليمن ، استمر ملكهم منذ عام 220م إلى عام 638م ، أما جدهم الأكبر فهو: جفنة بن عمرو «مزيقياء» بن عامر «ماء السماء» بن حارثة «الغطريف» بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكانت عاصمتهم الجابية وكان أول من حكم منهم الحارث بن عمرو بن عامر ، وهو جفنة ، وآخرهم جبلة بن الأيهم السادس والثلاثين من ملوكهم «632-638 ميلادي» وقد أسلم ثم ارتد عن الإسلام وعاد إلى نصرانيته. ومارية التي أشار إليها حسان وذكر أن ملوك غسان أبناؤها هي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي أم الحارث بن أبي شمر أشهر ملوك الغساسنة ، ويضرب المثل بقرطي مارية ، والقرط ما يعلق بشحمة الأذن من الحُلي ، فكان لمارية قرطان لم ير الرائون مثلهما قيّما بذاك الزمان بأربعين ألف دينار أهدتهما الى الكعبة فضرب بهما المثل ، حتى قيل: خذه ولو بقرطي مارية ، أي بأي ثمن ، للشيء الثمين «مجمع الأمثال أبوالفضل الميداني». وبعد هذا الإسهاب أذكر شيئاً من ترجمة شاعر النبي صلى الله عليه وسلم ، حسان بن ثابت رضي الله عنهما فهو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي الأنصاري ابن الفريعة وهي أمه ، ولد قبل الهجرة بنحو ستين عاماً ، وهو من فحول الشعراء ، ويعد أشعر أهل المدر «القرى» عاش مئة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية والنصف الآخر في الإسلام ، قال أبوعبيدة: فضل حسان على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم ، في النبوة وشاعر اليمن كلها في الاسلام ، ولما هجا كفار مكة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال له: أجب عني ، ثم قال: اللهم أيده بروح القدس «رواية أبوهريرة». وروي أن حساناً قال: احفظوا عني هذا البيت.

وإن امرؤ امسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيدُ

فسارت بهذا البيت الركبان في كل مكان ، وكان حسان بن ثابت يهجو الكفار فيوجعهم بقصائده ويؤذيهم إيذاء شديداً لأنه يذكر مثالبهم ، وقد قال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، «اهج قريشاً فإنه أشد عليهم من وقع النبل» ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» ، ويقول له أيضاً: هجاهم حسان فشفى واشتفى! ومن هنا اشتمل شعر حسان بعد إسلامه على هذه الروح الجديدة روح الإسلام مستصحباً أحلى ما في بيئته الإسلامية الجديدة من قيم وأخلاقيات ومثل ، ومجافياً ما كان في الجاهلية من عقائد فاسدة وسلوكيات جافية! وهل حياة الشاعر في كل مكان إلا هذا: تصوير متصل للبيئة ، ووصف نابض بالحركة للناس والمجتمع والحياة. وحسان في تأدية ذلك متأثر غاية التأثر بقيم الجاهلية السامية التي توافق كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم -. وأخلاقها يكلف بسلوك أهلها ، وبسيرة شعرائها. ولنقف عند هذه الأبيات من قصيدة لحسان:

ألم ترنا أولاد عمر بن عامـــــــر لنا شـــرف يعلو على كل مرتقى

رسا في قرار الأرض ، ثم سمت له فروع تسامي كل نجـــــم محلق

وملوك وأبناء الملـــــــوك كأننا سواري نجـــوم طالعات بمشرق

إذا غاب منها كوكب لاح بعـــــده شهاب متى ما يبد للأرض تشـرق

إنه يفتخر بسمو نسبه وعلو مكانة أهله ، ويتحدث عن شرف مرتبته ورفقة أصله. ومن المحقق أن الفخر بالنسب وعلو المكانة ، كان من الأغراض الأولى للشعر الجاهلي بصفة عامة وسنرى فيما بعد أن الفخر ظل ملازماً له حتى بعد ظهور الإسلام وانتظامه في صفوف المسلمين يعزز صفوفهم ، ويرد عنهم هجمات الكافرين. ليس من شك إذن في أن حسان تأثر بالقيم الجاهلية ، وتبدو آثار ذلك واضحة في شعره: فهو يصف الخمر ومجالس اللهو ويفتخر بنسبه وعلو شأنه ، ويمدح الملوك والأمراء لينال عطاياهم وهباتهم إلى غير ذلك. وليس من المعقول أن يعيش شاعر ما في بيئة معينة أو مجتمع ما دون أن يكون لقيم تلك البيئة أو ذلك المجتمع صدى في شعره وأثر في نتاجه. ويظهر الإسلام ، وذلك الحدث الهام (بل الثورة البيضاء الهادئة) ، تلك الثورة على (الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، والأنظمة السياسية البالية والخرافات الدينية المزرية). ويقدر لحسان أن يعيش في ظل الإسلام مدة طويلة من الزمن ، وأن يتصل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبالتالي أن ينشد في مدح الدين الجديد ، والدفاع عنه قصائد مختلفة من شعره. ويعتقد عبد الله أنيس الطباع أن حسان (انسلخ عن تاريخه ، وعن حياته ، ليلازم منذ اليوم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، ويصبح شاعر النبي يرافقه في حياته الجديدة التي كتبها الله له ، ويرافقه في جهاده وفي أمور كثيرة ، فيؤرخ حياة النبي الكريم ، ويؤرخ مواقع المسلمين وغزواتهم وأيامهم). وهو صادق فيما يقول فقد أحدث الإسلام ثورة كبرى في حياته وانقلاباً عظيماً في سلوكه وقيمه أخلاقه. فأصبح ينشد الشعر ابتغاء لرضا الله ورسوله ويؤلف الكلم تقرباً إلى الله جل جلاله ، يدافع عن عباده ، ويهجو أعداء الإسلام ، ويرفع من قدر النبي (صلى الله عليه وسلم) ويصفه بأعظم الأوصاف وأكبرها:

أغر عليه للنبـــــــــوة خاتم من الله مشهود بلوح ومشهـــد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمـه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشـــــــق له من اسمه ليجله فذو العرش محمودٌ ، وهذا محمد

وواضح جداً أن هذه الأبيات تنبض صدقاً وواقعية ، فهي تصور مكنون صدره ، وعظيم حبه لشخص الرسول ، وبالتالي للدين الجديد الذي أنقذ العرب من براثن الجهل والغواية. وهو يشير في شعره إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية ، ويعلن بالتالي (إيمانه بالله تعالى وأنه إله الخلق ، خلق العالم أبدعه وأوجده ، وأنه يقدسه تعالى ويجله.

وأنت إله الخلق ربـــــــي وخالقي بذلك ما عمرت في النـــاس أشهد

تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلهاً أنت أعلى وأمجـــــــد

لك الخلق والنعمـــــاء والأمر كله فإياك نستهدي ، وإياك نعبـــــــد

وهو يتأثر بقيم الإسلام وتعاليمه ، ويصور (أوضاع الجزيرة العربية ، وكيف جاء النبي الأكرم يدعو الناس إلى عبادة الله ، بعد هذه الحقبة الطويلة التي عم فيها اليأس النفوس ، وتاه العباد

حتى أخذوا يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يخرون لها ساجدين ، فإذا النبي يستحيل (صلى الله عليه وسلم) مصباحاً منيراً ينير ما اكتنف العالم من ظلمة ويبدد ما علق في قلوب الناس وأرواحهم من جهالات).

نبي أتانا بعد يـــــــــأس وفترة من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبد

فأمسى سراجـــاً مستنيراً وهادياً يلوح كما لاح الصقيـــــــل المهند

وأنذرنا ناراً ، وبشّر جنـــــــة وعلمنا الإسلام ، فالله نحمـــــــــد

ويمدح حسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، ويدافع عنه أمام خصومه ، ويصف ما لقي من قريش ، وما اعترض طريقه من مُعضلات وعَراقيل:

وأصبح لا يخشى عـــــداوة ظالم قريب ولا يخشى من الناس باغيا

بذلنا له الأمـــــوال من جُل مالنا وأنفسنا عند الوغـــى والتآسيا

نحارب من عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

ونحن نعلم أن الله لا رب غيـــره وأن كتاب الله أصبـــــــح هاديا

وهو يذكر شهداء المسلمين في قصائد كثيرة ، و كيف عاهدوا النبي على نصرته ، ويصف معارك المسلمين واستبسالهم:

وفوا يوم بدر للرســـول ، وفوقهم ظلال المنايا والسيوف اللوامـــع

ويرى الأصمعي أن شعر حسان في الجاهلية أقوى منه في الإسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة ، ويروي أن حسان سئل عن ذلك فقال: إن الإسلام حرم الكذب ، والشعر لا يجمّله إلى الكذب والخيال والتذكار لا يقومان إلى على هذا النوع من القول. والله أعلم وحده بمدى صحة نسبة هذا إلى حسان – رضي الله عنه -. وهكذا نرى أن حسان تأثر بقيم الإسلام وتعاليمه ، وهدر تقاليد الحياة الماضية وعاداتها ، فقد آمن بالنبي إيماناً صادقاً وجاهد في سبيل دعوته وأوقف نفسه وأدبه على نشر هذه الرسالة الجديدة التي عم خيرها الجزيرة العربية ، وتعداها إلى سائر أرجاء الأرض. ونأخذ الأمر بشيء من التحفظ ، فنذكر أن بعض تقاليد الجاهلية – وإن كانت قليلة جداً – ظلت ملازمة له في حياته الإسلامية: فهو يفخر ويعتز بنفسه – على سبيل المثال – في مناسبات عديدة:

وكنا ملوك النـــــــاس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضـل

فهو إذن في شعره الإسلامي ، كما هو في شعره الجاهلي متأثر غاية التأثر بما يحيط به من عادات وسلوك وقيم ، مضطر إلى الأخذ منها والارتواء من معينها. وقد كان لقيم الإسلام وتعاليمه أكبر الأثر وأوضحه في شعره ، بل إنها تبدو في شعره أشد وضوحاً وأكثر نصاعة من قيم الجاهلية وعاداتها تلك التي أمست باهتة خافتة لا يكاد يسمع لها صوت في شعر حسان. وهذا شعر حسان بين أيدينا صورة صادقة لذلك ، ومرآة واضحة ينعكس عليها ما يخالجه من شعور، وما يملأ قلبه محبة لهذا الدين الجديد الذي أنقذ الجزيرة العربية وأخرجها من الظلمات

إلى النور ، وأشاع بين أهلها روح المحبة والوداد والصفاء. وعلى هذا فإن شعر حسان عموماً أصدق مثال على ذلك ، فقد كان ديواناً دقيقاً لعواطف أمته وكنزاً لخيراتها ومواقعها وسجلاً لمشاعر الإنسان ونزواته المتعددة. وتحت عنوان: ("حسان بن ثابت" من اللهو والخمر إلى وظيفة شاعر الرسول) يقول الكاتب الأستاذ محمد علاء الدين عبد المولى ما نصه: (كان حسان هو الشاعر الأميز الذي اعتمد عليه الرسول في حروبه الإعلامية ضد خصومه من قبيلته ، والقبائل الأخرى. وكانت العلاقة بينهما نموذجاً مثالياً لكيفية توظيف الشعر في الرسالة الأيديولوجية الدينية السياسية ، وتفصح هذه العلاقة عن وعي ذكيّ لوظيفة الشعر وتأثيره ، فقد سأل الرسول جماعةَ الأنصار الذين ناصروه بالسلاح ، ما الذي يمنعهم أن ينصروه بألسنتهم؟ وهذه رسالة واضحة التقطها حسان ، وهو أنصاريّ ، وتصدى للقيام بها. وأمسك أمام الرسول طرف لسانه قائلاً: أنا لها. حسان كان يجري على عادات الذهنية العشائرية القبلية في تفخيم ومدح زعيم القبيلة والدفاع عنه ، أو مديح ملوك وأمراء ، فقد زار ملوك الغساسنة هو وشعراء آخرون ، كانوا يتسابقون في نيل العطايا الملكية ، ومن الشعراء الذين كان يتنافس معه بطريقةٍ ما النابغة الذبياني. وإذن فقيامه بدور الدفاع عن الرسول ورسالته السياسية الدينية جاء في سياق العادة ، وكالعادة أيضاً أغدق عليه الرسول من عطاياه ، وأشهر هذه العطايا أنه أهداه "سيرين" وهي جارية قِبطيّة ، مهداة من "مقَوقَس" مصر للرسول ، وهي شقيقة "ماريا" زوجة الرسول. كما أغدق عليه ببستانٍ هديةً ، ومكرُماتٍ أخرى. وفي موقف لافتٍ ، طلب الرسول مرة من عدة شعراء أن يهجوا قريشاً ، ففعل الأول وفعل الثاني ، فلم يلقيا قبولاً عند الرسول! فطلب حسان بن ثابت ، ليكون مسك الختام. فقال له حسان: "والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم". وفي كتاب" فتح المنعم شرح صحيح مسلم" ورد شرح هذه العبارة كما يلي: "أي لأمزّقنّ أعراضهم تمزيقَ الجلد". ولنلاحظ بماذا رد عليه الرسول القرشيّ! لقد طلب منه عدم الاستعجال حتى يعرف أنساب قريش ، فإنّ له فيهم نسباً ، وأوكل مهمة تعريفه بأنساب قريش إلى أبي بكر: (لا تعجل ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبًا ، حتى يلخص لك نسبي ، فأتاه حسان ، ثم رجع فقال: يا رسول الله ، قد لخّصَ لي نسبك ، والذي بعثك بالحق! لأسلنَّك منهم كما تُسلُّ الشَّعرةُ من العجين). هنا يتجلى الوعي العشائري على خير وجه ، الرسول الذي هو بمثابة الزعيم هنا ، يوظف الشعر في الهجاء ، والهجاء فيه شتم وقدح وذمّ ومنقصة ، يرضاها الزعيم لقبيلته ، ولكن على الشاعر أن يكون حذراً ، فلا يتناسى أن نسب هذا الزعيم من قريش. وما كان من الشاعر إلا طمأنة الرسول الزعيم بأن أحاييل الشعر ستكون كفيلةً بعدم المساس بمقامه المتداخل مع مقامات قريش. وما هذه الواقعة إلا تدخلاً من الرسول في عمل الشاعر ، لأسباب قبلية ، وما هذه الواقعة إلا رضوخاً مسبقاً من الشاعر لمشيئة الزعيم في حرف الشعر عن طبيعته. تواطؤ واضح وبالغ الدلالة ولا يحتاج كثيراً من الاستطراد. وحسان هذا كان الذي كان في نصف حياته الأول يحضر مع الأعشى شاعر الخمرة والعبث ، مجالس اللهو والطرب ، هبط بشعره فنياً وجمالياً حين غادر تلك الموضوعات الحياتية الفنية المحرضة على الفنّ ، المنبّهة للمخيلة الإبداعية ، وقدم شعره قرباناً للإسلام. ففقد كثيراً من أهميته ، حين رضي بتوجيه شعره في مهمة أخلاقية لصالح دين أو زعيم أو عشيرة ، وحصره في ذلك الموضوع. في الوقت الذي يسمح فيه بالانقضاض على الآخرين دفاعاً عن وليّ نعمته ، مستنداً إلى (أيديولوجيا إلهية مقدسة). لم يكن الرسول مناقضاً لهذه الحقيقة حين قال له: إن الله يؤّيدك بروح القدس! إن هذه المقولة

تعني فيما تعنيه تلك النظرة المقدسة للشعر من جهة ، وتعني من جهة ثانية تقديم المبرر والسند الأخلاقيين المطلقين للشاعر ، فيما يفعله من مديح وهجاء معاً. روح القدس هو في المعنى الشرعي هو الوحي المنزل من الله على شخص الرسول أو من هو مرفوع إلى درجة مقدسة في الذهن البشري مثل السيدة مريم العذراء. لنقل هي كلمة الله المنزلة الحالّة في البشر أو التي ترشدهم للحق ، في الحالتين لا يختلف المعنى العميق للكلمة. ولكن السؤال هنا: هل قول الرسول ذلك يعني إقراراً منه بأن الشاعر يتلقى الوحيَ؟ وهل كان في ذهنه مقارنة بين هبوط روح القدس عليه ليبلغه القرآن ، وبين الوحي الهابط على الشاعر؟!).هـ. ونجيب على السائل إجابته بأن المعنى ليس كذلك مطلقاً! كيف نرى بأن الوحي يأتي لرسول الله بالقرآن ويأتي لحسان بالشعر؟! إن هذا لشيءٌ عُجاب إن لم يكن العجاب بنفسه أو هو عجب العجاب! وإنما عنى الرسول – صلى الله عليه وسلم بها ، أن روح القدس جبريل عليه السلام معك بتصويبه وبيانه ودعمه المعنوي لك!

(الفصل التاسع)

(الدفاع عن حسان بن ثابت الشعر والأسلوب)

لقد نال من شاعرنا النبيل والصحابي الجليل حسان بن ثابت الأنصاري حفنة من الحاقدين الغابرين قديماً وحفنة من المستشرقين المعاصرين وأذنابهم الرطبة! وأعجب العجب أن يقال عن شعر رجل معه روح القدس أن في شعره طراوة ولیناً! سبحانك هذا بهتان عظيم! وإنني لأعجب ممن يذهب إلى أن الشعر شرٌ كله ، وإذا خالطه الجانب الخير في امرئ ما فإنه يضعف ويرق ويلين! وكأن الشعر سيف قاصل فقط مصمم للدماء والأشلاء ، ولا يمكن له أن يكون كفاً حانياً يهب الدفء والحنان! تحت عنوان: (الفضل الثابت لوليّ الله حسّان بن ثابت / ردّ البهتان!) يقول الأستاذ أبو معاذ محمد مرابط ما نصه: (إن من عظيم الحسرة ، التي تنتاب كل عبد عاقل سنيّ ويحترق لها قلبه غيظاً ، هي تلكم الحرب الجهلاء التي رُقم على لوائها: العَداء لأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ أقلام بمداد بغض الصحابة سائلة وعقول بمناقب القوم جاهلة وقلوب عن الصفاء تجاههم مائلة كلمات نجسات ، قد سطّرت على صحائف العداء للصفوة المختارة ، التي بني على أساسها صرح الإسلام وقلعة توحيد العلي العلام ، ذلكم الأساس الذي قصده أعداء المِلة الحنيفية فقاموا عليه بمعاول الهدم حتى ينهار ذلك الصرح الشامخ ، ومن تلكم الحروب القذرة التي اشتعلت وشبّ ضرامها على وليّ من أولياء الرحمن ، وصحابي من أصحاب النبي العدنان ، تلكم التي قام قائمها على عرض المؤيد من السماء الصحابي الجليل حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فعمد زمرة الجهل من الكتُاب الجهلة إلى طمس فضائله ، فظلموا أنفسهم بالقدح في هذا التقيّ الذي نال الدرجات العلى والمقامات الرفيعة ـ جاء في مقدمة ديوان حسّان بن ثابت: (على أنه كان مشهوراً بجبنه ، فلم يناصر الدين الجديد بسيفه ولم يكن يذهب مع المسلمين على القتال ، وإنما كان يتخلّف مع النساء في المنازل). فأي شهرة يتحدث عنها هذا الجاهل الأحمق؟ أفي صحيح البخاري وجد هذا؟ أم في صحيح مسلم؟ أم في كتاب الله أوّلاً؟ نعم هكذا يأفكون وبالظلم يعتدون ، والعجب من ذلك أنك تجد مثل هذه الكلمات في كتب بعض أهل السنة فأصبحوا عمدة هؤلاء فيما تجرؤوا ، وذلك ـ والله ـ من عظيم المطاعن التي ألصقت زوراً وبهتاناً بهذا الصحابي الجليل كيف لا وهي من شرّ الخصال التي يأباها كل مسلم بل جميع البشر خلق الجبن عياذاً بالله! وحتى لا يقول قائل أن هذه الصفة لا تنقص من قيمة الرجل ولا تعتبر قدحاً في صاحبها ، نذكر له ما يثبت خلاف ذلك ، قال البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب الجهاد: (باب ما يتعوّذ من الجبن) ثم ساق حديث عمرو بن ميمون الأوديّ قال: (كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول : إن رسول الله كان يتعوذ بهن دبر الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ من عذاب القبر). فلا أشرّ من خلق كان يتعوّذ منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ والعجب لا ينقضي عندما تجد هذا الوصف في كتب من ترجم لهذا الصحابي في المصادر التي تعتبر مرجعا في تراجم الصحابة. حتى قال الحافظ ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ: (وقال أكثر أهل الأخبار والسير: إن حساناً كان من أجبن الناس ، وذكروا من جُبنه أشياء مستبشعة (الاستيعاب). وأما أصل هذه الفرية اللاصقة بحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فهي قصة وخبر رواه أهل السير ، مخرجه واحد وسأسوقه كما ذكر: قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: كانت صفية بنت عبد

المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه ، مع النسوة والصبيان. قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود فجعل يُطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت. قالت: فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنة أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأنزل إليه فاقتله قال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت: فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته. قالت: فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل فاستلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال: ما لي بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب!) سيرة ابن هشام. فكل من تكلم في السيرة النبوية غالبا تجده يروي هذا الخبر! وبعون الله تُرد هذه الفرية من وجوه عدّة: الوجه الأول: أن هذه القصة لا تصحّ بحال ، لأن سندها منقطع الأوصال! يقول الإمام السهيلي ـ رحمه الله ـ: (ومحمل هذا الحديث عند الناس على أن حسّانا كان جباناً شديد الجبن ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أنّه حديث منقطع الإسناد) الروض الأنف. وقال الحافظ ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (كرهت ذكرها لنكارتها) الاستيعاب. الوجه الثاني: أنه لو صحّ ذلك عن هذا التقيّ لما قوي شعره وجهاده ضد كفار العرب وذلكم أن الشعراء لا تجد واحداً منهم يُغفل مثل هذه الخصال المذمومة حتى يهجو من كان خصماً له و خصوصاً من شعراء الإسلام. يقول الحافظ ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ ناقلاً عن بعض من أنكر ذلك: (وقالوا: لو كان حقا لهُجي به ، فإنه قد هجا قوما فلم يهجه أحد منهم بالجبن ، ولو كان ذلك لهجي به) الاستيعاب. ويقول الإمام السهيلي ـ رحمه الله ـ ناقلاً عن بعض الأئمة: (وقال: لو صحّ هذا لهجي به حسّان ، فإنّه كان يهاجي الشعراء كضرار وابن الزبعريّ وغيرهما ، وكان يناقضونه ويردون عليه ، فما عَيّره أحد منهم بجبن ، ولا وَسمه به ، فدلّ هذا على ضعف حديث ابن إسحاق) الروض الأنف. وأدق من ذلك أن تلكم الفرية لو صح خبرها لهجي حتى ابنه عبد الرحمن فقد كان معروفاً بالشعر أيضاً! يقول الإمام ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (ولو صحّ ذلك لهُجي بذلك ابنه عبد الرحمن ، فإنه كان كثيراً ما يُهاجي الناس من شعراء العرب مثل النجاشي وغيره) انظر الدرر في المغازي والسير لابن عبد البر. الوجه الثالث: أنه ولو سلمنا جدلاً وقلنا بصحة هذا الخبر تنزلاً للخصم على ما يريد: لما جاز لأحد أن يصف هذا الصحابي الشجاع والتقيّ المقدام بهذه الصفة المشينة التي تردها الطباع الحسنة. ولقد قرر أئمة السنة و انعقد على ذلك إجماعهم أن منزلة الصحابة رفيعة لا تمسّ بحال: قال الإمام ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: (والكف عن ذكر أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ إلا بخيرما يُذكرون به ، فإنهم أحق الناس أن تُنشر محاسنهم و يُلتمس لهم أفضل المخارج ويُظن بهم أحسن المذاهب) الجامع. فدونك يا عبد الله حبل السلامة فاعقد نفسك به لعلك تنجوا من أمواج فتن أهل الجهل ، الذين لا يرفعون رأساً بكلام الأئمة الجهابذة فاللهم رحماك. وإذا مثّلنا بقضية حسان ـ رضي الله عنه ـ على هذه القاعدة النيّرة التي قرّرها ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ نخلص إلى أن هذه الفرية لو ثبتت لما جاز لنا نشرها لأن ذلك حتماً يعد من نشر مساوئ الصحابة وقد نهينا عن ذلك. الوجه الرابع : وبناء على تلكم القاعدة الزكية السالفة الذكر ، يقال أن حساناً من أحق الناس أن يلتمس له أحسن المخارج (المحامل) لو صح ذلك ، ومن المخارج

التي التمست: ما ذكره الإمام السهيلي - رحمه الله – حيث قال: (وإن صحّ فلعلّ حسّان أن يكون معتلاّ في ذلك اليوم بعلّة من شهود القتال ، وهذا أولى ما تأوّل) الروض الأنف. وقال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله -: (وقيل: إنما أصابه ذلك الجبن منذ ضربه صفوان بن المعطل بالسيف) الاستيعاب. ولقد كفانا الله عناء التكلف في البحث لمخارج لهذا الصحابي الجليل وذلك لعدم صحة الخبر والحمد لله أولاً وآخراً. الوجه الخامس: أن حسانا - رضي الله عنه - قد كان من المجاهدين مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم بيده وليس بلسانه فقط وبرهانه: أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (قد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ولسانه) السير وتاريخ دمشق. فعقب الإمام الذهبي - رحمه الله - بعد هذا الأثر قائلاً: (قلت : هذا دال على أنه غزا) السير2. وقالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها -: (لا تسبوا حسان ، فإنه قد أعان نبي الله - صلى الله عليه و سلم بلسانه ويده) تاريخ دمشق. ومما يدل دلالة واضحة على أن حسانا - رضي الله عنه- كان مشاركا لأصحابه في غزواتهم ، هي تلكم الأشعار الصارخة بشجاعته وجرأته في ميادين الجهاد ومنها: قوله - رضي الله عنه -:

نصرنا رسول الله والدين عنوة على رغم عات من معد وحاضر
بضرب كإيزاع المخاض مشاشة وطعن كأفواه اللقاح الصوادر
وسل أحدا يوم استقلت شعابه بضرب لنا مثل الليوث الخوادر
ألسنا نخوض الحوض في حومة الوغى إذ طاب ورد الموت بين العساكر
ونضرب هام الدراعين وننتمي إلى حسب من حزم غسّان قاهر
ولولا حياء الله قلنا تكرّماً على الناس بالخيفين هل من منافر؟
فأحياؤنا من خير من وطئ الحصى وأمواتنا من خير أهل المقابر

وقال أيضاً:-

نصرناه لما حل وسط رحالنا بأسيافنا من كل باغ و ظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفسا بفيئ المغنم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالمرهفات الصوارم
ما زال وقع سيوفنا ورماحنا في كل يوم تجالد وتراتم
حتى تركنا الأرض سهلاً حزنها منظومة من خيلنا بنظام

وقال يوم الخندق لعمرو بن عبد ود:-

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

فهل يخرج هذا الكلام من رجل جبان؟ الوجه السادس: أن من عظيم أنواع الجهاد التي تدل دلالة واضحة على شجاعته - رضي الله عنه - هو منافحته عن النبي - صلى الله عليه وسلم – بشعره. قال الإمام الشوكاني - رحمه الله -: (فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من

أعظم المجاهدة وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه القائمين بما أمر الله بالقيام به) فتح القدير. ودليل واضح على أن منافحته بالشعر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت من عظيم الجهاد قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: (والله إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بكلمات قالهنّ لأبي سفيان بن الحارث:-

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه *** وعند الله في ذاك الجـــزاءُ

فإن أبي ووالده وعِرضـي *** لعِرض محمـــــد منكم وقاءُ

أتهجـوه ولستَ له بكفءٍ؟*** فشركما لخير كما الفـــــداءُ

الوجه السابع: هو أن نردّ ذاك البهتان بدليل واضح من كتاب الله قد أجمع على القول به أهل الإسلام قاطبة وهو قوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) فنصّت هذه الآية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قاطبة من أفضل شجعان الأمة وعلى رأسهم ومقدمتهم ، فلا يخرج واحد منهم – رضي الله عنهم – عن هذا الثناء العظيم ومن جملتهم الصحابي الكبير حسان بن ثابت ، فهل يجتمع جبن وشدّة على الكفار؟ الوجه الثامن: أن حساناً - رضي الله عنه - كان يكره الجبن و لذلك كان يهجو من سمع منه ذلكم الخلق السافل ومن ذلك قصته مع الصحابي عبد الله بن الزبعري رضي الله عنه. قال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله - في ترجمة ابن الزبعري: (كان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك ثم أسلم عبد الله الزبعري عام الفتح بعد أن هرب يوم الفتح إلى نجران) فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد فما زاده عليه:-

لا تعد من رجلاً أحلك بغضه ... نجــران في عيش أجد لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعري قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه واعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقبل عذره ثم شهد ما بعد الفتح من المشاهد) الإستيعاب. وقال أيضا يهجو الحارث بن هشام يوم بدر عندما فرّ من القتال:-

والقوم خلفك قد تركت قتالهم .... ترجو النجاء فليس حين ذهاب

هلا عطفت على ابن أمك إذ ثوى ... قعص الأسنة ضائع الأسلاب

وقال أيضا لبعضهم لما فرّ من القتال:-

ألقى السلاح ، وفر عنها مهملاً .... كالهبرزي يزلّ فوق المنسج

لما رأى بـــــدراً تسيل جلالها .... بكتائب ملأوس أو ملخـزرج

وقال مدافعاً عن إياس بن عبيد لما تخلف عن خيبر ورمته أمّه بالجبن:-

على حين أن قالت لأيمن أمـــــه .... جبنت ، ولم تشهد فوارس خيبـــــر

وأيمن لم يجبن ولكن مُهـــــره ..... أضر به شرب المديد المخمّـــــــر

فلولا الذي قد كان من شأن مهره .... لقاتل فيها فارساً غير أعســـــــــر

ولكنه قد صدّه فعـــــــــل مهره ..... وما كان منه عنده غير أيســـــــر

وقال أيضاً:-

زبانيـــــــــــــــة حول أبياتهم .... وخور لدى الحـــــرب في المعمعه

وقال أيضا يهجو المشركين:-

ففروا إلى حصن القصور وغلّقوا .... وكائن ترى من مشفق غير وائل

فهذه بعض الكلمات في رد هذا الباطل ، ويكفي وجه واحد منها لنسفه من أساسه ، فكيف لو اجتمعت؟ والله الموفق لمرضاته. وها كم يا عباد الله فتوى لأئمة أهل السنة في هذا العصر: السؤال: يقول البعض: بأن حسان بن ثابت رضي الله عنه (جبان) ، ويستشهدون بقول ابن حجر ذلك في الإصابة. ما رأيكم في ذلك؟ الجواب: الذي ينبغي للمسلم نحو الصحابة رضي الله عنهم أن يذكر محاسنهم ، ويثني عليهم بما هم أهل له ، ويكف عن مساوئهم ، وما ذكر عن حسان بن ثابت في كتب التاريخ والتراجم من أنه كان جباناً فعلى تقدير صحته يكون ذكره بذلك غيبة ، ولا خير يستفاد من ذكره بذلك ، وإن كان كذباً كان وصفه بذلك غيبة وزوراً ، وكان الكف عن ذلك أوجب ، وصيانة اللسان عنه ألزم. اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء! إن أقلام بعض من جهل قدر الصحابة قد نالت من هذا الوليّ التقي وتوسعت في التنقيص من قدره الجليل. قال عمر فروخ صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي) (ولم يكن لحسان في أيام أبي بكر وعمر نشاط سياسيّ ، فلما جاء عثمان عاد له شيء من العصبية الجاهلية وأصبح عثمانياً يمالئ بني أمية). ولست أدري - والله - أهذا طعن في حسان أم في عثمان - رضي الله عنهما - - قال محقق كتاب (جمهرة أشعار العرب) لأبي زيد بن أبي الخطاب الأستاذ خليل بن شرف الدين معقبا على قول من فضل حسانا على جميع الشعراء: قال محشياً ومعقباً: (هذا صحيح إلى حدّ كبير ، أما أنه لا يشاكله أحد من الشعراء فقول عاطفي ديني أكثر منه تقييماً صحيحاً ، فهناك من بذّ حساناً في أبواب شعرية كثيرة ، خاصة وأن حساناً كان قد شاخ ، أيام الرسول وشاخت معه شاعريته). نعم بهذه الكلمات الوقحات يُهدهم جهاد حسان ابن ثابت - رضي الله عنه - وسأذكر الآن شيئاً من فضائل هذا الصحابي الجليل حتى نقارن بين المثالب التي سطرتها أيادي الإخباريين وبين المناقب التي أجمع عليها أهل الإسلام ونطق بها كتاب الله وقررها رسول الله صلى الله عليه و سلم وسلف هذه الأمة. وهي منزلة عظيمة الشأن لوحدها ، فلو قلنا أن حسانا لم تثبت في حقه فضيلة إلا هذه لكان حقيق بكل أحد من البشر أن يعرف له قدره ومكانته العظيمة. قال القاضي عياض – رحمه الله -: (إن فضيلة الصحبة واللقاء ولو لحظة لا يوازيها عمل ولا ينال درجتها شيء ، والفضائل لا تؤخذ بقياس: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء). قال الإمام النووي - رحمه الله – في (باب فضائل حسّان بن ثابت): َأن أَبِا هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -: (أَنَّ عُمَرَ مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشِّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ فَلَحَظَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَجِبْ عَنِّي اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ) صحيح مسلم. عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان: (اهجهم أو هاجهم وجبريل معك) صحيح مسلم. وقال العلامة صديق حسن خان - رحمه الله -: (فيه فضيلة لحسان من حيث معية حبريل - عليه السلام - معه ويالها من شرف و إكرام) السراج الوهاج.

قالت أم المؤمنين عائشة وهي تدافع عن حسان بن ثابت - رضي الله عنهما-: (يا ابن أختي دعه ، فإنه كان ينافح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) صحيح مسلم. قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اهجُ قريشا فإنه أشد عليها من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فهجاهم فلم يُرضِ! فأرسلَ إلى كعب بن مالك ثم أرسلَ إلى حسَّان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسَّان: قد آنَ لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلعَ لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم "ثم قالت عائشة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هجاهم حسَّان فشفى واشتفى) رواه مسلم. فأكرم بها من مثوبة ومنقبة عظيمة! كيف لا وقد شفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام. قال الإمام النووي - رحمه الله -: (أي شفى المؤمنين واشتفى هو بما ناله من أعراض الكفار ومزقها ونافح عن الإسلام والمسلمين) شرح مسلم. وهو على كل حال هو واحد من الأنصار فتلحقه كل فضائلهم: قال النبي - صلى الله عليه و سلم -: (أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) رواه البخاري. وفي حديث رواه البخاري في صحيحه جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: (والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليّ مرتين). عن البراء - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله) رواه البخاري. عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية الإيمان حب الأنصار و آية النفاق بغض الأنصار) البخاري. قال الحافظ - رحمه الله -: (وخصوا بهذه المنقبة العظمى لما فازوا به دون غيرهم من القبائل من إيواء النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم وايثارهم إياهم في كثير من الأمور على أنفسهم فكان صنيعهم لذلك موجباً لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عرب وعجم والعداوة تجر البغض ثم كان ما اختصوا به مما ذكر موجبا للحسد والحسد يجر البغض فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم حتى جعل ذلك آية الإيمان والنفاق تنويها بعظيم فضلهم وتنبيها على كريم فعلهم). هو من بني النجار و فضلهم ثابت: قال البخاري - رحمه الله - (باب فضل دور الأنصار) ، ثم ساق حديث أبي أسيد - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال: (خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة و في كل دور الأنصار خير) - قال الحافظ - رحمه الله -: (وبنو النجار هم أخوال جد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن والدة عبد المطلب منهم وعليهم نزل لما قدم المدينة فلهم مزية على غيرهم) الفتح. وهناك آية نزلت فيه - رضي الله عنه -: قال تعالى: {والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}. وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أنها نزلت في حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكذلك جاء عن قتادة الدرّ المنثور. وجاء كذلك عن عطاء بن يسار جامع البيان للطبري. وهذه خلاصة الفضائل التي تشهد لهذا الولي التقي بالخير وعظيم الأجر! وذات يوم هجم حسان على فتية يشربون الخمر فعيرهم بذلك فقالوا: يا أبا الوليد ما أخذنا هذا إلا منك ، وإنا لنهم بتركها ثم يثبطنا عن ذلك قولك:-

ونشربها فتتركنا ملوكـــــــا .... وأُســـــــــداً لا ينهنهنا اللقاء

قال: هذا شيء قلته في الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت). نزهة الأبصار في فضائل الأنصار. وبناء على هذا قال أحدهم في مقدمته على ديوان حسان بن ثابت أن حساناً - رضي الله عنه - كان يشرب الخمر فقط! إن ألسنا قذرة قد ولغت بالطعن في الصفوة البررة! ألا كسر الله أقلاماً سخرت للنيل من أتقياء الصحابة! لقد اتضح لكل ذي لبّ وظهر لمن عرف قدر والصحب الكرام ، أن ما قيل في هذا الولي الكبير لا يعدو أن يكون من جملة الأخبار المكذوبة التي استعملت في الطعن في الصحابة الكرام. ومن عجيب صنيع هؤلاء المنتقصين للصفوة المختارة كما ذكر الشيخ المحدّث مفلح الرشيدي - عجل الله له الشفاء - أنهم يعمدون إلى الأخبار الواهية المكذوبة فينشرونها ، ويتغافلون عن صحيح الأخبار وجيّدها تلك المبثوثه في كتب الأئمة مثل البخاري ومسلم. ولو أننا تعاملنا بمثل طريقتهم لاحتججنا عليهم بخبر عن حسان بن ثابت - رضي الله عنه - مفاده: عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق) ولكن فضائل هذا الصحابي أعظم من أن تثبت بمثل هذا الحديث الضعيف. فهذا آخر ما أردت بيانه - مكرهاً - قياماً بواجب النصرة لمن انتصر لله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - سائلاً المولى تبارك وتعالى أن يجعل هذه الكلمات من عظيم سعادتي يوم الحساب وسبباً للحاق بركب المهاجرين والأنصار في جنات العزيز القهار!

الفصل العاشر (أسلوبية الهجاء عند حسان بن ثابت)

هناك شبهة قائمة بين النقاد ، ألا وهي شبهة هجاء حسان بن ثابت ، ولعلنا نذكر [تحريض عمر لحسان على هجو هند بنت عُتبة] قال ابن إسحاق: حدثني صالح بن كيسان أنه حدث: أن عمر بن الخطاب قال لحسان بن ثابت: يا ابن الفريعة - قال ابن هشام: الفريعة بنت خالد بن خنيس ، ويقال: خنيس: ابن حارثة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج - لو سمعت ما تقول هند ، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة؟ قال له حسان: والله إني لأنظر إلى الحربة تهوي وأنا على رأس فارع - يعني أطمة - فقلت: والله إن هذه لسلاح ما هي بسلاح العرب ، وكأنها إنما تهوي إلى حمزة ولا أدري ، لكن أسمعني بعض قولها أكفكموها ، قال: فأنشده عمر بن الخطاب بعض ما قالت ؛ فقال حسان بن ثابت:

أشرت لكاع وكان عادتها لؤما إذا أشرت مع الكفر

قال ابن هشام: وهذا البيت في أبيات له تركناها ، وأبيات أيضا له على الدال. وأبيات أخر على الذال ، لأنه أقذع فيها. ونأتي إلى الرد على شبهة اهجُهم والروح القدس يؤيدك! يقول الادعاء بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع لحسان رضي الله عنه منبراً في المسجد يقوم عليه ، يهجو الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والراوي: عائشة ، والمحدث: ابن حجر العسقلاني - وخلاصة حكم المحدث: حسن صحيح. اهج المشركين ، فإن روح القدس معك قاله لحسان. والراوي: البراء بن عازب ، والمحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع. وخلاصة حكم المحدث: صحيح. وطبعاً الأحاديث لا تنتهى لكن اكتفى بما ذكرت. وهناك ملحوظة: وهي أن المسلمين يعتقدون أن جبريل هو روح القدس.....وأول نقطة فى الحديث الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع لحسان رضي الله عنه منبراً في المسجد يقوم عليه ، يهجو الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم. والنبي كان يخصص لحسان منبراً خصيصاً لرد الهجاء! وإذن فالنبى يرد الهجاء بهجاء! وبمعنى آخر أنه – صلى الله عليه وسلم - يرد الشتيمة بشتيمة! فيضع مقامه من مقام الكفار ويرد على إساءتهم بإساءة! وأين؟! فى المسجد! يهجوهم فى المسجد! في حرم الله (المسجد) نتبادل الهجاء! ما الفرق بينه و بين الأشخاص الغير متحضرين! هل هذه أخلاق نبى: من شتمني أشتمه! ومن هجانى أهجوه وأين؟ فى المسجد فى حرم الله! وللعلم شعر حسان به فلا تعليق (بأمر من النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - منبر خصيص فى المسجد)! وهناك شبهة ثانية وهي جبريل – عليه السلام - الذي هو ملك من ملائكة الله تعالى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون! ملاك الله يساعد فى الهجاء! إنه يساعد فى رد الشتيمة والسباب عن محمد! وفى المسجد! وطبعاً جبريل لا يتصرف كما يحلو له ، بل بأمر من المولى! وإذن فهذا الهجاء وتلك الشتيمة بأمر الله! وإذن الله مفهومه أن: اذهب يا جبريل فساعد حسان فى الهجاء! هل هذا مقبول من إله! وهل هذا مقبول من ملاك! الملاك الذى ينزل بالوحى يساعد فى الهجاء. وبأمر من الله وفى المسجد! فى منبر مخصوص للهجاء! هكذا قال أصحاب هذه الشبهة! إنه في لسان العرب لابن منظور عن معنى كلمة هجاء قال: (هجاه – يهجوه – هجواً أى شتمه بالشعر). وفى المعجم الوسيط: (الهجاء) السب ، وتعديد المعايب ، ويكون بالشعر غالباً.

والحقيقة أن هؤلاء قد هرفوا بما لم يعرفوا ، وقالوا بغير علم ، (مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) ، وهكذا ينثر الأعداء الدين شبهات تنم على عدم شفافية طرحهم لجنوح أفكار شبهاتهم للخيال لذلك العالم الذي يرتاح له من لم يحقق غاياته على الواقع ، ليحزب معه من لم يتفكر ويتدبر في طريقة نصرتهم على الإسلام ، وما انتصروا فيما ارتأوا! والبرهان على الواقع خير دليل. ولقد طرح الادعاء علامات استفهام كثيراً على رد الرسول صلى الله عليه وسلم على الحرب الإعلامية التي شنتها قريش على الإسلام ، ولقد درج المستشرقون النصارى واليهود على تشويه التاريخ الإسلامي برموزه وثوابته وأحداثه! بكمل علامات الاستفهام أسألكم يا دعاة الانسانية: لماذا كان يسوعكم يقتل مخالفيه؟ لماذا كان يسوعكم يرفض الآخر؟ لماذا يسوعكم يدعو لسفك دماء؟ لماذا يسوعكم تفنن في التعذيب؟ لماذا يسوعكم أمر النبي يوشع بقتل الأطفال؟ وأما قولكم: ما شأن الله والملائكة بالهجاء هل هذا يليق؟! وهل كلام ربك المزعوم هذا – أيها المستشرق المتخرص الجاهل الحاقد - يليق؟ إنه في إنجيل متى (10-34): "لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفاً". وفي إنجيل لوقا(22-36): "فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك.ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا". وأيضاً في إنجيل لوقا(12-51): "أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم.بل انقساما". وأيضاً في إنجيل لوقا(14-26): "إن كان احد يأتي اليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً". وأيضاً في إنجيل لوقا(19-27):"أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي". ونرد عليكم بنفس أسئلتكم: هل هذا مقبول من إله! هل هذا مقبول من ملاك! وهل هذا مقبول من إله ورب يا مدعي الإنسانية ومصطنع البراءة. لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَماً ، بَلْ سَيْفاً. 35 فَإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا ، وَالْكَنَّةَ مَعَ حَمَاتِهَا. 36 وَهَكَذَا يَصِيرُ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ! (إنجيل متى:10). وجاء في سفر إشعياء (66-16): "لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب". وفي سفر أرميا (48-10): "ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم". وفي سفر حزقيال (9-6): "الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدئوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت". وفي سفر يشوع (6-21):" وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". وفي سفر صموئيل الأول (15-3): "فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة. طفلاً ورضيعاً. بقراً وغنماً. جملاً وحماراً". وفي سفر هوشع (13-16): "تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم والحوامل تشقّ". وفي سفر مزمور(137-9): "طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة". وفي سفر أرميا(14-12): "حين يصومون لا أسمع صراخهم وحين يصعدون محرقة وتقدمة لا أقبلهم بل بالسيف والجوع والويا أنا أفنيهم". وفي سفر أرميا (11-22):" لذلك هكذا قال رب الجنود. ها أنذا أعاقبهم. بموت الشبان بالسيف ويموت بنوهم وبناتهم بالجوع 23 ولا تكون لهم بقية لأني أجلب شراً". وفي سفر أإرميا (12-17): "وإن لم يسمعوا فإني أقتلع تلك الأمة اقتلاعاً وأبيدها يقول الرب". وأما عندنا كمسلمين فالنبى يرد الهجاء بهجاء مثله ، ويرد الشتيمة بشتيمة مثلها! ويضع مقامه من مقام الكفار ويرد على

إسائتهم بإساءة! فسبحان الله يا هذا المستشرق الخبيث يرد النبي هجاء بهجاء ، فتستغرب لها ولا تستغرب قتل يسوعك لمن يخالفه. وفي إنجيل لوقا الإصحاح 19 العدد 27 (أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي). وفي سفر سفر صموئيل الثاني 31/12 (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجرّ وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم. وفي سفر حزقيال الإصحاح 9 العدد 4 الى 7 وقال له الرب. اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسم سمة على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها. وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا. الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من انسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم: نجسوا البيت واملأوا الدور قتلى. اخرجوا. فخرجوا وقتلوا في المدينة! وطبعاً الأحاديث لا تنتهى لكن اكتفى بما ذكرت! نعم الأحاديث في كتابك المقدس – أيها المستشرق الوضيع المغالط - لا تنتهي تلك التى تفضح يسوعك القاتل المتعطش للدماء ، لتأتي أنت وتستنكر الرد على الهجاء بالهجاء لربما أخطأت في شبهتك واستغربت! لماذا الرسول الكريم لم يقتلهم كما كان يؤمر اليسوع! وبالطبع نحن ننزه الله تعالى عن هذا الهراء وتلك المغالطة وذلك الافتراء! وكذلك نبرئ المسيح عليه الصلاة والسلام! وإن كنا نذكر من كتبهم فليس من قبيل الاعتراف بها وبما حوته من التحريف والكذب ، وإنما نفعل ذلك للتنزل للخصم على مراده ونأتي له بما يعتقد أنها كتب مقدسة وما هي عندنا بمقدسة! قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا). والآن وقد وضحت للمستشرق النصراني أنه يتكلم من منبر آخر بعيد عن وحشية النصرانية التى تدعو لقتل المخالفين لها لا هجاءهم ، أرد على ادعاءه المزعوم! لقد أتي المدعي بما يثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرد على نفسه أي يدافع لا يهاجم! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والراوي: عائشة المحدث: ابن حجر العسقلاني - المصدر: نتائج الأفكار - الصفحة أو الرقم ينافع أي يدافع أو يذود أو يذب الشبهات عنه. ويمكن تجسيد ما حدث من هجاء ورد عليه من طرف شاعر الرسول الكريم هو الحرب الإعلامية ضد الاسلام! بمثلما يشنها الغرب الكافر علينا اليوم من رسومات ساخرة و شبهاته لاذعة ، فهل يطلب منا المدعي السكوت على ذلك؟ وقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ بِاللَّعَّانِ وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ) رواه الترمذي ، وصححه الألباني. وإذاً فالدين الاسلامي لا يدعو للهجاء وشتم وسباب مخالفيه ، مثلما يأمر الكتاب المقدس بذبحهم والتنكيل بهم بدليل قول اليسوع أعلاه ، والحالة التى أثار فيها النصراني الشبهة هي رد على الحرب الإعلامية التى شنها كفار قريش على المسلمين لتضليل والكذب والافتراء على الإسلام ونبي السلاموقد دلَّ النص القرآني على عدم جواز ابتدائهم بالسب ، والهجاء ؛ خشيةً من تعرضهم لله تعالى ، أولدينه ، أو لرسوله صلى الله عليه وسلم ، بالسب والشتم ، فقال الله تعالى: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وتسأل يا هذا في خبثِ طوية: جبريل ملاك الله يساعد فى الهجاء! هل حرية التعبير هي للنصارى واليهود فقط وحرمة الدافع عن نفس للمسلمين! أي عدل ذلك! ألا إن ديننا لا يأمرنا بالهجاء أو

السخرية من أحد بدليل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وفي ذِكر جبريل عليه السلام في الحديث دون غيره من الملائكة حكمة بالغة. قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "وإنما خصَّ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، وهو روح القدس ، بنصرة من نصره ، ونافح عنه ؛ لأن جبريل صاحب وحي الله إلى رسله ، وَهُوَ يتولى نصر رسله ، وإهلاك أعدائهم المكذبين لهم ، كما تولى إهلاك قوم لوط ، وفرعون ، في البحر. فمَن نصر رسول الله ، وذب عنه أعداءه ، ونافح عنه: كان جبريل معه ، ومؤيِّداً له ، كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ). "فتح الباري" لابن رجب. وبالتأمل في سبب ورود الحديث: يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر حسان بن ثابت بهجاء المشركين ردّاً على طعنهم ، لا أن ذلك كان ابتداءً. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وفي الحديث: جواز سب المشرك ، جواباً عن سبه للمسلمين ، ولا يعارض ذلك مطلق النهي عن سب المشركين لئلا يسبوا المسلمين: لأنه محمول على البداءة به ، لا على من أجاب منتصراً" انتهى. إذا كان واجباً على الرسول صلى الله عليه وسلم رد الظلم والهجاء عنه بنفس الطريقة ، خصوصاً أن هجاء قريش كان حرب إعلامية عن الإسلام لتشويه صورته. وقد يتساءل المستشرق النصراني الملعون: أي حرب وأي إعلام في زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ والحرب الإعلامية لها تعريفاتها مثل: فن الانتصار بدون حرب. وهي في الأغلب تسعى للسيطرة على عقل وقلب الخصم بحيث تصنع ضبابية في الفهم والتصور. إنها تقوم علي صُنع هالة أمام أعين الخصم ، يعجز معها عن تقدير قوة خصمه بما يُمكِّن للطرف المستهدِف السيطرة العقلية والروحية على المستهدَف. وللحرب الإعلامية وسائل من يمتلكها ينجح بقدر ما يوليه لهذه الحرب من أهمية ، وللحق فقد استطاع الكفار السيطرة على إفهام الكثير من الناس بفضل الجهد الجبار الذي يمارسوه في حربهم الإعلامية ، وما ذاك إلا لخروج المسلمون من حصنهم الذي يقيهم سهام الرامين والدرع الذي يحميهم من طعنات الطاعنين ، ليلجوا في مستنقع الجاهلية والإعلام الكافر بمحض إرادتهم ، فيصدقوا الكاذب ويؤمنوا الخائن. وإذاً فالحرب الإعلامية جزء من الحرب فقد شنت قريش عليه أول حرب إعلامية في هذه الحادثة إذ كان أبو لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتربص له كل ما جلس عند وفد أو جماعة حدثهم بأنه نبي مرسل ، فإذا قام من عندهم أتاهم أبو لهب وقال لهم: لا تصدقوه فإنه كذاب ، وكذلك الوليد بن المغيرة قام هو ومشركو مكة بتشويه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال الوليد: يا معشر قريش إنه قد حظر موسم الحج وأن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم يعني محمد صلى الله عليه وسلم هذا فاجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضاً بعضاً فقالوا: يا أبا عبد شمس قل و أقم لنا رأياً نقول: قال: بل أنتم قولوا أسمع! فقالوا: كاهن! فقال: ما هو بكاهن ولقد رأيت الكهان فما هو بزمزرة كاهن وسمعه. فقالوا: مجنون. فقال: ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو تخمه ولا تخالجه ولا وسوسته! فقالوا: شاعر ، فقال: ما هو شاعر قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر! قالوا: فنقول ساحراً. فقولوا: ساحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه والمرء. ومن هنا نلاحظ أن قريش استخدمت الحرب الإعلامية ضد الرسول بأقذر صورها ، وكان لزاماً على الرسول وهو

سيد الخلق وأعلمهم بإدارة الحروب النفسية والتعبوية ضد أعدائه إلى اللجوء إلى الحرب الإعلامية وفق مفهومها الإسلامي ووفق ما تتطلبه ساحة المعركة بينه وبين خصومه! كما حكي لنا رواة السير أن قريشًا عقدت اجتماعًا على أعلى مستوى، وذلك لتدشين حملة إعلامية جديدة تستهدف تشويه صورة محمد وأتباعه لدى قبائل العرب ، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالمصطلح الحديث تشويه الصورة الذهنية لمحمد وصحبه لدى الآخرين ، واختارت لهذه الحملة التشهيرية توقيتًا يعدُّ هو وقت الذروة الإعلامية في ذلك العصر وهو موسم الحج ؛ حيث تأتي كل قبائل العرب إلى مكة المكرمة ، إمَّا للحج أو للتجارة أو لكليهما معاً. "انعقد الاجتماع برئاسة الوليد بن المغيرة وكان ذا سن فيهم ورأي ، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش ، إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضًا ويرد قولكم بعضه بعضًا". وبعد نقاش وسجال استقر بهم الرأي على رسالة إعلامية واحدة بشأن محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لنشرها بين العرب ، تمثَّلت في زعمهم أنه "ساحر يفرِّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته". ولقد انفض الاجتماع وانطلقت الآلة الإعلامية لقريش بأبواقها تجوب بطون مكة ، تخترق المجالس والأندية ، تستقبل الوفود الزائرة ، لا تحمل سوى رسالة إعلامية موحدة ، مفادها أن محمدًا ساحر ، وأصحابه ما هم إلاَّ مجموعة من المسحورين المفتونين! ولذلك استخدم الرسول الشعراء في شن مثل هذه الحروب وخصوصاً في ظل عدم توفر الصيغ الإعلامية أخرى أنجع من الشعر الذي كان لغة العرب ومصدراً من مصادر قوتها في ذلك العصر ، فالعين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم. وتطرأ شبهة أخرى وهي نهي الله سبحانه وتعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – عن سب المشركين! فقال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وهذه الآية نزلت على محمد الذين كان يسب ويهجو آلهة قريش دون أن يردوا عليه احتراماً لأبي طالب عمه. إلى أن ضاقوا ذرعاً بهذه الصفاقة هددوه بأنهم سيردون عليه الكيل والشتم إذا ما عاد شاتماً آلهتهم! ولنقرأ التفسير: جاء في تفسير ابن كثير: يَقُول اللَّه تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبّ آلِهَة الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَة إِلَّا أَنَّهُ يَتَرَتَّب عَلَيْهِ مَفْسَدَة أَعْظَم مِنْهَا ، وَهِيَ مُقَابَلَة الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَه الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ "اللَّه لَا إِلَه إِلَّا هُوَ" كَمَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الْآيَة قَالُوا يَا مُحَمَّد لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبّك آلِهَتنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبّك فَنَهَاهُمْ اللَّه أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانهمْ" فَيَسُبُّوا اللَّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم" وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: وكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَام الْكُفَّار فَيَسُبّ الْكُفَّار اللَّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم فَأَنْزَلَ اللَّه: "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُون اللَّه". وجاء في تفسير القرطبي: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: نَهْي. فَيَسُبُّوا اللَّه: جَوَاب النَّهْي. فَنَهَى سُبْحَانه الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانهمْ ; لِأَنَّهُ عَلِمَ إِذَا سَبُّوهَا نَفَرَ الْكُفَّار وَازْدَادُوا كُفْرًا. قَالَ اِبْن عَبَّاس: قَالَتْ كُفَّار قُرَيْش لِأَبِي طَالِب إِمَّا أَنْ تَنْهَى مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه عَنْ سَبّ آلِهَتنَا وَالْغَضّ مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ نَسُبّ إِلَهه وَنَهْجُوهُ ; فَنَزَلَتْ الْآيَة. قَالَ الْعُلَمَاء: حُكْمهَا بَاقٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّة عَلَى كُلّ حَال ، فَمَتَى كَانَ الْكَافِر فِي مَنَعَة وَخِيفَ أَنْ يَسُبّ الْإِسْلَام أَوْ النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَام أَوْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَا يَحِلّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسُبّ صُلْبَانهمْ وَلَا دِينهمْ وَلَا كَنَائِسهمْ ، وَلَا يَتَعَرَّض إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْث عَلَى الْمَعْصِيَة. وَعَبَّرَ عَنْ الْأَصْنَام وَهِيَ لَا تَعْقِل بـ "الَّذِينَ" عَلَى مُعْتَقَد الْكَفَرَة فِيهَا. وإذن هذه الآية نزلت على النبي

محمد – صلى الله عليه وسلم - لأنه كان يسب ويشتم مقدسات قريش. فأنزل رب محمد هذه الآيى ناهياً أتباعه أن سب وشتم الأصنام. لا أدباً أو أخلاقاً ، بل لسبب رد مفسدة وهي أن المشركين سيردون شاتمين الله – تعالى الله عن شتمهم علواً كبيراً -! وحدث عوف عن الحسن عن أبي بن كعب قال : رأيت رجلاً تعزى عند أبي بعزاء الجاهلية افتخر بأبيه فأعضه بأبيه ولم يكنه ثم قال لهم: أما إني قد أرى الذي في أنفسكم إني لا أستطيع إلا ذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا! وحدّث عوف عن الحسن عن عتي عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله حدثنا إسماعيل عن يونس عن الحسن عن عتي أن رجلا تعزى بعزاء الجاهلية فذكر الحديث قال أبي: كنا نؤمر إذا الرجل تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا ، وحدّث يونس عن الحسن قال: قال أبي: كنا نؤمرإذا اعتزى رجل فذكر مثله. مسند أحمد. وحديث أبي عثمان النهدي عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه عن أبي عثمان عن أبي رضي الله عنه أن رجلاً اعتزى فأعضه بهن أبيه فقالوا: ما كنت فحاشاً قال: إنا أمرنا بذلك! ولفهم معنى الكلام لنقرأ في معجم لغوي شهير: ألا وهو لسان العرب - لابن منظور الأفريقي: "وفي الحديث: مَن تَعَزَّى بعَزاء الجاهلية فأَعِضُّوه بِهَنِ أَبيه ولا تَكْنُوا ؛ قوله تَعَزَّى أَي انْتَسَبَ وانْتَمى. يقال: عَزَيْتُ الشيءَ وعَزَوْتُه أَعْزيه وأَعْزُوه إذا أَسْنَدْتَه إلى أَحدٍ، ومعنى قوله ولا تَكْنُوا أَي قولوا له اعضَضْ بأَيْرِ أَبيك، ولا تَكْنُوا عن الأَيْرِ بالْهَنِ." وفي منهاج السنة النبوية: "وفي المسند عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه هن أمه ولا تكنوا". وكذلك: (إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه) أي قولوا له اعضض بظر أمّك (ولا تكنوا) عن ذلك بما لا يستقبح ، فإنه جدير بأن يستهان به ويخاطب بما فيه قبح وهجر ، زجراً له عن فعله الشنيع وردعاً له عن قوله الفظيع." قَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِحَسَّان "اُهْجُهُمْ - أَوْ قَالَ - هَاجِهِمْ وَجِبْرِيل مَعَك" وَقَالَ الْإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق حَدَّثَنَا مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن كَعْب بْن مَالِك عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعَرَاء مَا أَنْزَلَ فَقَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْمُؤْمِن يُجَاهِد بِسَيْفِهِ وَلِسَانه وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْح النَّبْل" تفسير سورة الشعراء :227من كتاب ابن كثير. "قال حدثني صالح بن كيسان أنه حدث أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قال لحسان: يا ابن الفريعة ، لو سمعت ما تقترل هند ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة قال له حسان: والله إني لأنظر إلى الحربة تهوي وإني على رأس فارع- يعني أطمه - فقلت: والله ، إن هذه لسلاح ما هي بسلاح العرب ، وكأنها إنما تهوي إلى حمزة ولا أدري ، أسمعني بعض قولها أكفكموها. قال: فأنشده عمر بعض ما قالت ، فقال حسان يهجو هنداً:

أشرت لكاع وكان عادتهـا لؤماً إذا أشرت من الكفـر

لعـن الإله وزوجها معهـا هند الهنود طويلة البظــر

الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني. ولا عجب فقد أجاد شاعر الرسول.

ومن الأمثلة على ذلك إلى جانب شعره في هجاء هند ، هجاء حسان لكلدة بن حنبل ، حين قال كلدة في غزوة حنين: "الا بطل السحر اليوم". قال ابن إسحاق: فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام لمعه في كنانته. وصرخ جبلة بن الحنبل قال ابن هشام: كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. فماذا عن [شعر حسان في هجاء كلدة]؟ قال ابن هشام: وقال حسان يهجو كلدة:

رأيت ســـواداً من بعيد فراعني أبو حنبـــــل ينزو على أم حنبل

كأن الذي ينـــزو به فوق بطنها ذراع قلوص من نتاج ابن عزهل

اجتمعت أقوال نقدة الشعر على تقديم حسان على أترابه الثلاثة من الأنصار وقد ذكرت لك ذلك وبينته. فكان حسان يفضلهم في ثلاث: فهو شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر الرسول في الإسلام وشاعر اليمن بعد الفتح ...وعده الأصمعي من الفحول..بيد أنه أشار إلى قضية دعتنا إلى إفراد ساعة ثانية معه إنها قضية النحل ولين شعره في الإسلام كما يذكرون.. وقد علل الأصمعي هذه الظاهرة في شعر حسان بقوله: "الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر فإذا دخل في الخير ضعف ولان. ولك أيها القارئ الكريم أن تأخذ بهذا القدر من الاستدلال ... وترضى بهذا التعليل وتسلم لهؤلاء العمالقة بمطلق الرأي.. وتعفي ذهنك من مكابدة البحث. ولك أيضاً ، أن تنتظر فنسمعك في القرن الواحد والعشرين ما يخالف حدود ظنك ويتجاوز معالم معرفتك فما نراه في حسان بعد إسلامه غير ما يراه الأصمعي.. فهل لك أن تسير معنا إلى حيث نريد أن نصل بك ، فتسمع منا كما سمعت للأصمعي. ولا أريد أن أعرض لما عرض له الأقدمون من شأن النحل ـ على شاعر الإسلام ـ فذلك أمر أرى فيه ما يرتأون وأقبل ما يقبلون ، أما أن حسان شاعر فحل فذلك أمر لا يتمارى فيه ناقد.... ولا يختلف فيه اثنان ، يقول عمرو بن العلاء: "حسان أشعر أهل المضر.. وقال الأصفهاني: "حسان فحل من فحول الشعراء.. وقد سمع النابغة الذبياني شعر حسان فقال له: إنك لشاعر.. وكذلك شهد الأعشى. وأنت لو أتيت حسان من أي ناحيةٍ أردت لوجدته شاعراً... أجاد المدح والرثاء والوصف والهجاء. ولئن قارنت بين حسان ـ وهو من المخضرمين ـ والحطيئة المخضرم ، أيضاً ، قد تجد في الحطيئة جزالة اللفظ ، وفخامة العبارة ، بيد أنك لن تجد سماحة الطبع ورقة التصوير وأخلاقية الفن فأين الحطيئة الذي ينضح باللؤم وقذاعة اللسان من شاعر الحق وصوت المصطفى الإعلامي. وما يعنيني- هنا ـ مناقشته يطال قضيتين لهما علاقة بشعر حسان الإسلامي ، وما يتبع ذلك من قضيتي "اللين والضعف" والتي أسميهما أنا خصائص أسلوبية توافق ما يدعو إليه منهج الإسلام.. ولعلك تنتظر مني توضيحاً يليق بمقام البحث ويُهيئ الذهن لعملية إبداعية في الفهم والاستقبال. أقول ، لعل ما تقوله عن الحطيئة بأنه كان تلميذاً لزهير صاحب مدرسة الصنعة وهي مدرسة الفن الخالص في عرفنا. (وهم أولئك الذين يعتقون الشعر ويثقفونه حتى يخرج إلينا في أبهى حلة بعد عام كامل. وهؤلاء وأمثالهم أقدر على حسن السبك والديباجة من شعراء النقائض والحروب المطبوعين على سجية المباشرة كما في قضية حسان). أقول أن الفن بوصفه فن يقتضي نوعاً من الإبداع المطبوع ولا يعقل أن تكون عملية الخلق الصناعي سمة

تفرض نفسها على النص ، فالنص المطبوع في عرفنا القادر على التشكل الفطري وفق الحاجات السريعة في أريحية عبقة هو الأقدر على إبراز حالات الصدق ودلالات الانفعال ومهارات الإبداع. ألا ترى أنك تشعر بشيء من الغرابة وأنت تتتبع نصا قضى فيه صاحبه ساعات من التحسين الشكلي ليخرج لك بشيء عرفه القدماء بالتعقيد اللفظي .... وتتهيج مشاعرك وتأنس نفسك لندفق العواطف في شكلها العفوي السادر في ثوب الرصانة المطبوعة التي تريح النفس وتدفع بالنص إلى عالم الأريحية في نص ساقه صاحبه في يسر ورقة دون ركاكة وحوشية. إن ما أخذه النقاد على شعر حسان شيء من هذا الذي ذكرته لك من سماحة الطبع ، ورقة التصوير وكان القوم ما زالوا على صلة بجلافة الصحراء وصلافتها فظنوا الخير كله في الغريب الصعب.. ولو أنك رجعت معي إلى السر الجوهري في تفضيل عمر لزهير على غيره لعلمت أن الإسلام غير في طباع بعضهم ونشر بين أعلامهم معالم المنهج الجديد فكان وضوح العبارة. والبعد عن الحوشي والغريب هو ديدن التنافس وموطن التفوق ... يقول عمر - رضي الله عنه - معللا إعجابه بزهير: لأنه كان لا يعاظل ولا يفحش في القول ولا يذكر الرجل إلا بما هو فيه. هذا هو المعيار النقدي الجديد الذي فرضه دين السماء على طباع القوم فهاجت به مشاعرهم ورضيت بذلك نفوسهم وسمحت دلالات النص عندهم. إذن حسان جزل في جاهليته وإسلامه ولا يعقل أن يكون الإسلام بعظمته... الإسلام الذي جاء العرب بكتاب مبين.. فحارت به العقول ووجمت أمامه الطاقات.. لا يعقل أن يكون هذا النمط الكتابي الجديد الذي دعا دهاقنة القوم لوسمه بالسحر والكهانة ، وما ذلك إلا لبليغ قوله وقوة تأثيره.. ولو نظرنا إلى سمات النص القرآني لرأيناها تخالف القوم في معاييرهم وسمتهم فقد مال النص القرآني إلى اليسر والوضوح وتمشى مع طبيعة النفس وسجية اللغة فابتعد عن الغريب ، فكان قريب المأخذ حلو الديباجة متدفق العاطفة قوي التأثير ، تنساب موسيقاه عذبة ، و تتعانق فيه الفواصل عناقاً ينم عن أريحية تحلو وتعلو.. ولم يصدر عن القوم المجبولين على الغرابة إلا إذعان وإعلان لمنهج السهولة واليسر. فاليسر في عبقية التصوير ، فن واللين في جمالية التصوير فن ولا حاجة للزعم إن كل سهل مشين وكل صعب رصين. كان حسان في رأينا من الصنف الثاني الذي رضيه القرآن ولعل حسان قد تأثر بهذا النص الإلهي المنزل العظيم فاقتدى حيث أراد ، واقتفى المنهج الوسطي في التعبير. فانظر إليه في سماحة طبعه وحسن تخلصه حين ينتقل بك من التشبيب إلى ذكر الحبيب:

فدع الديار وذكر كل خريـــــــــدةٍ *** بيضاء آنسة الحديـــــث كعاب

واشكو الهموم إلى الإله وما تــرى *** من معشر متآلبيـــــن غِضـــاب

كيف يزعم زاعمٌ أن وراء هذه الرقة وحسن التخلص لين وركاكة ، وانظر إليه وقد خضعت له عناق الكلم ، فقادها رضية حيث اشتهى إلى موطن الضرب والصراع:

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل النبي ومغنم الأســـــــلاب

وغدوا علينا قادريـــــن بأيدهم ردوا بغيظهم على الأعقـــــاب

بهبوب معصفة تفـــرق جمعهم وجنود ربك سيد الأربـــــــــاب

ولعله من السهل أن يصل بك التقدير إلى تحديد المشهد الذي صوره حسان من قصة الأحزاب وما حل بهم من عواصف وقلب القدور ، ولعلي أراك هنا تحث الخطى لتقول بأن ما أوردته لك من السهل القريب المطبوع ولكنني أتحسس مواطن ذوقك فأجدك قد أكبرت هذا الطبع ورضيت من حسان بما أتى ولا أحسب أنك ستقول كما قال الأصمعي أن حسان في هذه القصيدة قد خرج عن سماحة الشعر وجزالة اللفظ وأحسب أنك ستقول ما كان للأصمعي أن يزعم زعمه فها أنا ذا أرى في هذا الشعر ما يُشنف الأذن ويُنعش القلب ويقر العين. أرأيت كيف أنني قدمت لك من حسن التعليل ما يثبت لك أن الأمور لا تؤخذ كما أراد لها القوم. وأختم بهذه الكلمات العبقة من شعر حسان في رثاء عمر الفاروق - رضي الله عنهم - أجمعين:

رؤوف على الأدنى غليظ على العِدا *** أخا ثقةٍ في النائبـــــات نجيب

متى ما يقل لا يكذب القـــول فعله *** سريع إلى الخيرات غير قطـوب

ولعلك تلمز هنا بطرف خفي تريد أن تذكرني بتلك الآية العظيمة في حق محمد وأصحابه (محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم.....). ولعلك قائل أيضاً بأن حسان تأثر بتلك الآية بيد أنني أقول لك أيضاً ألا تلمح معي أن حسان قد تمثل منهج الفاروق في خاصيتيه العظيمتين: الصدق الفني والصدق الأخلاقي فلم يمدح الفاروق إلا بما هو فيه ولم يثقل نصه بأي حوشي أو غريب. وأسلوب الهجاء في شعر حسان بن ثابت بعد إسلامه كان متشحاً بروح الإسلام! فلم يكن هجاءً هدفه التشفي من الخصوم فقط! بل أخذ منحىً تعبدياً آخر! لقد كان هجاؤه لوناً من ألوان العبادة! لقد كان الباعث على التهاجي في الجاهلية تلك الأحقاد التي أثارتها العصبيات والمنافرات والمفاخرات ، فاندفع الشعراء وراء أحقادهم وأحقاد قبائلهم يطعنون أعداءهم ، بل قد يسرفون في طعن الأعراض لتشتفي النفوس حين تدمي الطعنات نفوس الأعداء. وقد وجد هذا اللون مجاله في الصدر الأول للإسلام بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعبئة قريش الشعراء لهجاء الرسول لإضعاف شأنه وشأن دعوته بين العرب. ولهذا أغرت قريش أولئك الشعراء من أمثال ابن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول. وحين طرقت أهاجيهم أسماع الرسول جند طائفة من الشعراء على رأسهم حسان للدفاع عنه والنيل من أعدائه فخاض حسان ميدان الهجاء ولم يقصر هجاءه على الأفراد بل هجا البطون والعشائر والقبائل ، فهجا أبا سفيان بن الحارث وابن الزبعرى وعمرو بن العاص ، وصفوان بن أمية ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة والحارث بن هشام وأبا جهل والعاص بن المغيرة وحكيم بن حزام ، وأبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة وهجا من القبائل والبطون والعشائر: هذيلاً ، ومزينة ، وبني عبد الدار ، وبني العوام ، وبني المغيرة وهوازن وثقيفًا ، وبني أسد ، وبني الحماس ، وبني سهم. وقد احتل الهجاء في ديوان حسان مكانًا كبيرًا. قال في أبي سفيان بن الحارث قبل أن يسلم في عام الفتح قصائد متعددة قال في بعضها:

ألا أبلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــي فـــأنت مجـــوف نخـــب هـــواء

بـــأن ســـيوفنا تـــركتك عبـــدًا وعبـــد الـــدار ســـادتها الإمـــاء

هجـــوت محـــمدًا فـــأجبت عنـــه وعنـــد اللـــه فـــي ذاك الجـــزاء

أتهجـــوه ولســـت لـــه بكـــفء فشـــركما لخيركمـــا الفـــداء

والبيت الرابع من هذه الأبيات تأثر فيه حسان بالأسلوب القرآني في قوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ). وفي قصيدة أخرى يقول لأبي سفيان:

وأنـــت زنيـــم نيـــط فـــي آل هاشـــم كمـا نيـط خـلف الـراكب القـدح الفـرد

وإن امـــرأ كـــانت ســـمية أمـــه وســـمراء مغلـــوب إذا بلـــغ الجـــهد

والنسب الذي خلص لحسان ليطعن منه أبا سفيان دون أن يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ابن سمية وهي أم ولد لعبد المطلب ، وسمراء أم أبيه الحارث وهي أيضًا أم ولد ، ولم يكد يبلغ هذا الشعر أبا سفيان حتى قال: إن هذا الشعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة حيث كان أبو بكر أعلم قريش بالأنساب ، وعنه تلقى حسان علم النسب فعرف كيف يطعن ويسدد الطعن لمن يهجو دون أن يمس أقرباء المهجو من المهاجرين وهجا حسان ابن الزبعرى بعد أن راح يفخر بأصوله فقال له:

فلا تفخـــر فقـــد غلبـــت قديمًـــا عليـــك مشـــابه مـــن آل حـــام

وقد رأى حسان أن ابن الزبعرى يغلب على أصوله السواد وهذا يدل على أنه غير عربي لأن العرب ساميون والساميون ليسوا سوداً ، وإن الشاعر ليعلم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ولكنه الهجاء الذي جعل الشاعر يتلمس مغمزًا ليطعن منه ابن الزبعرى فنفى عنه العروبة حيث رأى فيه مشابهًا من آل حام. وطعن صفوان بن أمية بأن أمه كانت أمة لمعمر بن حبيب في قوله :

مـــن مبلـــغ صفـــوان أن عجـــوزه أمَـــة لجـــاره معمـــر بـــن حـــبيب

وهجا الوليد بن المغيرة بأنه عبد للإبل الشائلة التي جف لبنها بعد الحمل فقال فيه:

وأنـــت ابـــن المغـــيرة عبـــد شـــول قـــد انـــدب حـــبل عـــاتقك الوطـــاب

والندوب: أثر الجراح ، والعاتق: ما بين العنق والمنكب ، والوطاب ، سقاء اللبن ، وبهذا رماه بأنه لم يكن غير عبد تولى رعاية الإبل وأثر هذه الرعاية تلك الندوب التي في عاتقه مما كان يحمل من سقاء اللبن بعد أن يحلب تلك النوق. وطعن الوليد بأنه ينتمي إلى صعقب الحداد الذي نزل في قريش وادعى الانتماء إليها وهو ليس منها واسمه الحقيقي ديسم بن صعقب وذلك في قوله:

وصعقـــب والـــد لأبيـــك قيـــن لئـــيم حـــل فـــي شـــعب الأروم

تســـمون المغـــيرة وهـــو ظلـــم وينســـى ديســـم الاســـم القـــديم

وتناول حسان العاص بن المغيرة والحارث بن هشام بن المغيرة. وهجا أبا جهل في كثير من ديوانه ومما قال فيه:

ســـماه معشـــره أبـــا حـــكم واللـــه ســـماه أبـــا جـــهـل

أبقـــــت رياســـــته لمَعشـــــره غضـــب الإلـــه وذلـــة الأصـــل

وهجا حسان أبا سفيان بن حرب وزوجته كما هجا عمرو بن العاص وأمية بن خلف. وقد هجا هذيلا بسبب موقفها يوم الرجيع (وهو ماء لهذيل بين مكة وعسفان) حين غدروا بوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (عضل) ليفقهوهم في الدين حتى إذا بلغوا ماء الرجيع غدر بهم أولئك الذين طلبوا من رسول الله إيفادهم واستصرخوا عليهم الهذليين فحملوا عليهم لأسرهم وتقديمهم إلى أهل مكة ليصيبوا بهم خيرًا لأنفسهم ، وكان وفد الرسول هم مرثد الغنوي وخالد الليثي ، وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وقاوم منهم من قاوم فقتل ولان من لان فأسر وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم فقاوم في الطريق عبد الله بن طارق وقتل بمر الظهران وأما خبيب وزيد فقد بيعا لقريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. وقد هزت هذه النكبة قلوب المسلمين وشمل الأسى كل بيت في المدينة وترجم حسان عن مشاعر المسلمين في أكثر من قصيدة هجا بها الهذليين ومما قال:

لـــو خـــلق اللـــؤم إنســـانًا يكـــلمهـم لكـــان خـــير هـــذيـل حـــين تأتيهـــا

تـــرى مـــن اللـــؤم رقمًـــا بيـــن أعينهـــم كمـــا كـــوى أذرع العانـــات كاويهـــا

تبكـــي القبـــور إذا مـــا مـــات ميتهـــم حـــتى يصيـــح بمـــن فـــي الأرض داعيهـــا

مثـــل القنـــافـــذ تخـــزي أن تفاجئهـــا شـــد النهـــار ويلفـــي الليـــل ســـاريهـــا

إن الشاعر ليتصور أن اللؤم إذا تجسم فصار إنسانًا يتكلم لكان ذلك خير من يعبر عن هذيل حين يطرقها طارق أو يلم بها نزيل ، وإن اللؤم ليبدو نقشه في عيونهم واضحًا كأثر الكي الذي يبدو على أذرع الأتان ، هذه صورة أحيائهم أما موتاهم فهم موضع سخط القبور والضجر بهم حتى ليستصرخ داعي القبور بمن في الأرض يطلب الخلاص منهم فكأن بطن الأرض تكره موتاهم واللؤم يمثل أحياءهم ثم أبرز صورة لهم : هي صورة القنافذ التي تستخزي من المفاجأة نهارًا فلا ترى إلا ليلاً وإن هذيلاً لكذلك يتوارى أبناؤها عن أعين الناس نهارًا فإذا جن الليل ظهروا يدبون في الأرض. وهجا حسان في جاهليته وإسلامه مزينة ، وبني عبد الدار وهجا ثقيفًا فقال:

ثقيـــف شـــر مـــن ركـــب المطايـــا وأشـــباه الهجـــارس فـــي القتـــال

ولـــو نطقـــت رجـــال الميس قـــالت ثقيـــف شـــر مـــن فـــوق الرحـــال

وقال في هوازن:

أبلـــغ هـــوازن أعلاهـــا وأســـفلها أن لســـت هاجيهـــا إلا بمـــا فيهـــا

تبلـــى عظـــامهم إمـــاهم دفنـــوا تحـــت الـــتراب ولا تفنـــى مخازيهـــا

كـــأن أســـنانهم مـــن خـــبث طعمتهـــم أظفـــار خائنـــة كـــلت نواســـيهـــا

وهجا بني الحماس بأكثر من قصيدة ، ولا يتسع المقام لعرض ما قيل وحسبنا ما قدمنا من الأهاجي التي طعن بها حسان الخارجين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هجوه أو غدروا بأصحابه أو نالوا من دعوته.

الفصل الحادي عشر

(الخصائص الفنية في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه)

لقد تميز شعر حسان بن ثابت – رضي الله تعالى عنه بمجموعة من الخصائص جعلته في الذؤابة من بين كثير من الأشعار التي راجت وطابت وذاعت وانتشرت في زمانه! والحقيقة أن حسان بذل في دِيباجتها جُهوداً مُضنية جعلتها على هذا القدر من الإبداع! وتحت عنوان: (الخصائص الفنية في شعر سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه) يقول الأستاذ الأديب الطيب عبد الرازق النقر عبد الكريم ، المدرس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ما نصه بتصرفٍ زهيد: (لا يعدم المرء منا حجة للاعتقاد بأن العصر الإسلامى الذى كُرم فيه الإنسان وانتظم فيه العمران ، يُعد من أخصب العصور التى غيرت مجرى الحياة ، فلقد زالت فيه وطائد الكفر ، وانجذمت أواصر الضلال ، وهلك فيه أصحاب المهج الخبيثة والمطامع ، فلقد جعلوا كرامة الإنسان رخيصة ، وساموا البشرية بخسف ، ومرغوا الإنسانية فى حمأة الهوان ، عصر سار فيه الأوفياء الأبرار ، والأولياء الأخيار فى شتى أصقاع الأرض وفى كل نواحي الكون المترامي الأطراف ، يدعون لكتاب فصيح المفردات بليغ التراكيب ، أنزله الله عزوجل عن علم ، وفصلّه عن إدراك ، ولدين بالغ الأثر ، قوى الإيحاء ، يصون النفس عن الرزائل وخوارم المروءة ، وينهاها عن الهوى الطاغى والإثم الجموح ، حتى صار الإسلام كلمة تجترها الألسنة بقدسية وتتداولها القرائح بإجلال ، وأصبح للعرب كرامة لا تمتهن وحمىً لا يستباح ، بعد أن كانوا أقصر يداً ، وأضيق باعاً ، وأجبن قلباً ، من أن تجسر قبائلهم المبعثرة من غير رابط على محاربة كسرى ، وإن وهنت قواه ، أو هرقل وقد وهت عراه ، ولعل هذا الدين الذي استرقى الدهماء وطغام الناس فى البدء يختلف عن بقية الأديان ، فلم يصلب عوده وتنتشر بنوده بالسيف وحده ، بل على القول الفصيح الذي يتنزه عن شوائب اللبس ويخلو من أكدار الشبهات فنبيه مطبوع على جزالة الألفاظ وفخامة الأساليب ، وكتابه هو عُنوان البيان ، وآية البراعة ، وحُماته هم مصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، وفرسان الطراد الذين ذبوا عن حمى الدين وذادوا عنه بالمهج العظام ، والتضحيات الجسام ، وباللفظ المنتقي المطبوع على غرار الفصاحة. ومن ضمن فرسان الكلمة الذين لا يشق لهم غبار ، شاعر فشا ذكره على الألسنة ، وقرع صيته الأسماع ، شاعر أطنب في تحقير المشركين ، وأمعنّ في الزراية عليهم ، بقصائده الشامخات التي جعلت من أصروا على غيهم ، طواغيت قريش الذين عميت عليهم وجوه الرشد ، واستبهمت عليهم معالم الهداية ، يميدون من الغضب ، ويتفجرون من الغيظ. وحسان بن ثابت رضي الله عنه يعد من أجلّ الشعراء أثراً ، وأعظمهم مكانة في الإسلام ، وترجع أهميته لأنه نافح عن دين الله تعالى ، وحثا التراب على رأس كل من كفر وتطاول على نبيه صلى الله عليه وسلم ، "ومما اتّفقت عليه مصادر الأدب القديم أنّ الرسول صلي الله عليه وسلم أحبّ حسّان ، وقرّبه منه ، واستمع لشعره بالمسجد النبّويّ ، وبشّره عليه بجنة الخلد ، وأخبره بأن شعره ملائكيٌّ معه في إبداعه وإنشاده الرّوح الأمين جبريل عليه السلام". وشاعرنا حسان الذي يجلو أبكار المعاني ويبتدعها ، يعود إلي بيت رفيع الدعائم ، ومنزل معلوم المفاخر عند الخزرج والعرب قاطبة ، فوالده ثابت بن المنذر بن عدي من بني مالك ابن النجار ، من سادة قومه وأشرافهم ، وبنو النجار تلك القبيلة الكبيرة التي كانت تقيم في المدينة مع الأوس ، هم أخوال النبي الخاتم صلوات ربي وسلامه عليه ، لأن أم جده عبد المطلب كانت منهم ، وأم حسان التي

كان بعض المناكفين له يدعونه بها ، هي (الفريعة) بنت خالد بن حبيش خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ، ودخلت فيه وحسن إسلامها. ولد أبا الوليد وهذه كنيته ، كما كان يُكنى بأبي عبد الرحمن ، وأبا الحُسام نحو ستين عاماً قبل الإسلام ، ونشأ وترعرع في (يثرب) تلك المدينة التي اصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم على سائر المدن وخصاها برحلته التي غيرت مجرى الكون ، "وكانت المدينة في العصر الجاهلي مجتمعاً صغيراً تسوده الحروب الدامية التي تقوم بين الأوس والخزرج ، وبينهم وبين اليهود الذين كانوا قد استوطنوا المدينة. وكان جده المنذر محباً للسلم ، ولما اختلفت الأوس والخزرج بعد يوم سُمَيْحة في أمر القتلى والديات أهدر المنذر ديات قومه الخزرج واحتمل ديات القتلى من الأوس من ماله الخاص حرصاً على السلم". واستمر ذلك البيت على تلك المآثر في الإسلام أيضاً ، "فأبوه ثابت بن المنذر كان حكماً بين الأوس والخزرج في يوم سمير ، وشهد أخوه أوس العقبة مع السبعين من الأنصار ، كما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عثمان رضي الله عنه ، وكان أحد شهداء يوم أحد". كما كانت أسرته راسخة القدم في البيان ، عريقة في قرض الشعر ونظمه ، قال فيها المبرد: "وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ، فإنهم كانوا يعتدون ستة في نسق ، كلهم شاعر ، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام". وتحكي لنا الكتب التي استوعبت أصول الأدب ، وحوت أطرافه ، أنّ عبد الرحمن ابن الجارية سيرين ، تلك المرأة القبطية التي وهبها النبي صلى الله عليه وسلم لشاعره حسان ، وهي كما نعلم شقيقة أم المؤمنين (ماريا القبطية) لسعه زنبور"فجاء أبوه يبكي ، فقال له حسان: ما لك؟ فقال: لسعني طائر كأنه ملتف في بردي حبرة ، فقال له حسان: لقد قلت والله الشعر". كما كان خاله مسلمة بن مخلد من صاغة الشعر ، وراضة القوافي ، وأخته خولة لها شعر رقيق الحواشي ، مليح الديباجة ، وكانت ابنته ليلى كذلك ، فقد قيل أن حسان قد جفا الرقاد ، واكتحل السهاد ذات ليلة ، فعّن له الشعر فقال:

وقافيـة قـد عجـت بـليـل رزيـنـــــة تـلـقـيتُ مـِن جـو الـسماء نـزولـها

ثم أجبل حسان وسكت ، وكانت ابنته معه فقالت له: كأنك أجبلت. قال حسان: أجل. قالت: أفأجيز عنك؟ قال حسان: وعندك ذلك؟ قالت:نعم. قال: فافعلي. فقالت:

يراها الـذي لا يـنطقُ الـشعر عنـده ويـعجــز عـن أمثـالها أن يقـولـهـا

فحمي حسان عندها وقال:

مـتاريـك أذنـاب الحقـوق إذا التـوت أخذنـا الفــروع واجـتـنـينا أصـولـها

فقالت:

مـقاويل بالـمعروف حرس عـن الخنا كـرام مـعـاطٍ للعشيـــرة سـولـها

قثال حسان: لا قلت شعراً وأنت حية! فقالت: أو أؤمنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم لا قلت شعراً وأنت حي". فأسرة حسان موصولة النسب بالشعر يتوارثونه كابراً عن كابر. لقد سخر حسان قريحته الشعرية التي تدفقت عليه منذ أنّ كان في معية الصبا، وطراءة السن ، للذّب عن قومه الخزرج في عراكهم الذي لا تنقطع وتيرته مع الأوس ، يحصي مناقبهم ، ويعدد مفاخرهم ، ويسجّل مآثرهم ، ولقد دخل في عراك شعري محموم مع الشاعرين الأوسيين: قيس بن الخطيم

وأبي قيس بن الأسلت. ومن بعض أشعاره التي تجسد تلك الفترة ، أبيات يهجو فيها أبي قيس بن الأسلت هجاءاً مقذعاً ، ويطحنه فيها طحن الرحى ، يقول فيها:

ألا أبلـغْ أبـا قيـــــسٍ رسـولاً إذا ألـقَى لـها سـعـــاً تـبِيـــنُ
نـسيتَ الجسرَ يومَ أبي عـقيلٍ وَعـنـدَكَ مـنْ وَقـائِعِنا يَقِـيـــنُ
فلسْتُ لحاصـنٍ إنْ لم تـزُرْكمْ خـلالَ الـدورِ مـشعلةٌ طـحـونُ
يـديـنُ لـهـا العزيـــزُ إذا رآهـا ويـهربُ مـن مخـافتها القـطـيـنُ
تَـشِيبُ النـّاهـــدُ العذراءُ فيهـا ويـسقـطُ منْ مخـافـتـهـا الجنـيـنُ
عـيْنَيـكَ القـوَاضِـبُ حينَ تُعْلى بهـا الأبـطـالُ والهـامُ السكـونُ
تجـودُ بأنْـفُسِ الأبْطـالِ سُجْحـاً وأنـتَ بنـفسكَ الخـــبُّ الضـنـنُ
ولا وقْـرٌ بسـمعِكَ حِينَ تُدْعـى ضُحـىً إذ لا تُـجِيبُ ولا تـَعِيـنُ

ولقد أُوتي حسان من سعة الرزق ، ونضرة الشباب ، وشرف النسب ، ومكانة الأسرة ، والموهبة الشاعرة ، والبيان الساحر ، ما أتاح له أن يلهو ويبذخ ، ويصبو ويطرب ، فيعابث القيان ، ويعاقر الخمر طوال نصف قرن ، هو الزمن الذي انقضى من عمره المديد في الجاهلية وهو على دين قومه. وبهذا الرغد في العيش ، والانغماس في اللذات ، وإيثار الترف على الشظف رقّ شعره ، وصفا أسلوبه ، وعذب لفظه ، وغدا من أعلام الشعر في يثرب. غير أن الأعلام تضيق بهم حواضرهم ، ويحملهم الطموح إلي حواضر أرحب ، ومراتع أخصب. أخذ حسان يضرب في مغاور الأرض ، ويقطع صحاريها الموحشة ، وقفارها المُجدِبة ، التي تقطنها الضواري ، قاصداً رجلاً امتلك ناصية الشعر ، رجل متدفق القريحة ، شديد العارضة ، خلعت عليه قبائل العرب أوسمة التبجيل ، وأوصلوه إلي ذروة الكمال ، عساه يقلب رأيه الحصيف في أشعاره التي ينظمها ، ويبصره بمواطن الخطل والصواب فيها ، فوجد النابغة صاحب السمت الرزين والمنطق المتئد في سوق عكاظ وقد ضربت له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وقد تحلقت حوله جموع الشعراء تعرض عليه أشعارها. واستمر الغساسنة في وصل حسان بالجوائز السنية حتى بعد أن دخل الإسلام ، وصار شاعره الذي يذود عنه بلسان صلد يفلق الحجر ، ومن يدقق النظر في الصلة التي جمعت شاعرنا المفلق الخنذيذ بالغساسنة يصل إلي يقين راسخ لا يخامره شك ، أو تتخله ريبة ، بأن حسان كان صادقاً في تلك القصائد الجياد التي تسحر العقول ، وتخلب الألباب ، فلقد كال لهم المدح ، وقرظهم بأزين وصف ، وأتقن رصف ، وأفصح لسان ، ولعل صلة القرابة التي تربطه بهم هي التي جعلته يستفرغ الوسع في الإحاطة بشمائلهم ومناقبهم ، لأنهم عترته وعصبته الذين لا يبلغهم مكاثر ، ولا يطاولهم مفاخر. ولقد تركت العيون النابعة ، والثمار اليانعة ، والمروج الخضراء ، أثرها في نفس حسان ، وشعره الذي أمسى يتدفق عذوبةً وسلاسة ، ففي غوطة دمشق ، وعلى ضفاف بردى والبريص ، رفل حسان في دوح وارف ، وكنف موطّأ ، ورشف الرحيق السلسل ، فصقلت طبيعة الفيحاء موهبته الأصلية ، وخلعت عليه من جمالها واعتدالها ، وصفائها وبهائها ، ما صفّى شعره ، وارتقى بخياله ، ولوّن صوره ، ووقّع موسيقاه ، ورقّق طبعه ، فأبدع في الغزل والخمر إبداعه في المدح والفخر ، ووهب من الغساسنة من الفن الخالد فوق ما وهبوه من المال البائد. أما

مدح حسان للمناذرة ، فرغم ما قيل من وفود حسان على الحيرة ، وعن المال الوفير الذي رفده منهم ، وعن المكانة العظيمة التي نالها عند ملوكهم الذين كانت لهم جلالة تغشى العيون ، وقداسة تملأ الصدور ، إلاّ أن ديوان الشاعر نفسه على طوله وكثرة مدائحه التي كأنها وشي مرقوم ، وروض مرهوم ، لم تثبت وفوداً أو رفوداً ، فليس في ديوانه الذي حققه – البربوقي - أي أشعار أزجى فيها قلائد الشكر لأبي قابوس النعمان بن المنذر ، الذي قلب ظهر المجن للنابغة الذبياني ، أو أهدى محاسن الذكر لغيره من ملوك الحيرة ، الأمر الذي يقود إلي ظنون بضياع بعض أشعار حسان رضي الله عنه. أو أن تكون تلك الأخبار المتناثرة في المصنفات القديمة محض افتراء من الرواة. أو أن يكون حسان قد وفد على الحيرة ، ونشر مآثر أبي قابوس النعمان في المحافل ، وسيّر ذكر محامده في الأفاق ، إلا أن مدائحه تلك جار عليها الزمان ، وطواها تعاقب الحدثان. وهناك مناقب عظيمة لحسان وإن صفاته لتدل على فضل الله عليه: حيث إننا نجد أنّ المؤرخون لم ينقلوا لنا الصفات الخِلقية لأبي عبد الرحمن ، بل أكتفوا ببعض القسمات التي نقلها لنا صاحب الأغاني في كتابه المنثور المسائل والمتشعب الأغراض ، موضحاً أن حسان رضي الله عنه كان "يخصب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخصب سائر لحيته ، فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون أسد والغ في دم". كما ذكر أنّ لحسان ناصية قد سدلها بين عينيه. أما شمائله فقد ذكر المؤرخون أن حسان "كان قوي الشخصية ، واثقاً بنفسه وموهبته ، معتداً بقومه ، متعصباً لليمن عامة ، وللأنصار خاصة ، توَّاقاً للزعامة ، صاحب عجرفة وعنجهية ، سريع الغضب والرضى ، شديد التذمر ، مغالياً في حبّ ما يحب ، وبغض ما يبغض ، مقيماً على العهد ، وفياً للغساسنة حتى بعد أن ارتدوا ، حسن النية ، نقي الطوية ، فيه من الإباء والأنفة ما زهّده في جاهليته ، وما كفّه في إسلامه ، فلم يمدح في الجاهلية ليتكسب ، ولم يطالب بعدما أسلم بعطاء. وأما عن فِرية جُبنه: فتلك بدعة ضاربة في أطناب التاريخ ، ابتدعها رجال مكتظة أنفسهم بالجرائر ، مثقلة أفئدتهم بالكبائر ، أوغاد يتربصون بالإسلام الدوائر ، ويرمون ذهاب ريحه ، وضياع مجده ، بدعة مضغتها أفواه من سبقونا واجترتها أقلام المحدثين في سماجة ، دون تدبر أو تمحيص ، تلك الأقلام التي لا تتورع عن تصديق الترهات وتأييدها ، ولا تتحرج عن التشبث بأفنانين الكذب والافتراء ، بدعة تصف شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سخر قريحته الجياشة للذّب عن بيضة الدين ، وعن نبيه الخاتم ، بالجبن والخوف ، وأمعنّت في رميه بصفات يندى لها الجبين ، ولعل المسوغ لذلك البهتان الذي لا يمت للواقع بصلة أو يصل إليه بسبب "أن حساناً لم يشهد المعارك ، بل كان يتسقط أخبار المسلمين في الحروب ويتسمع تفصيلاتها ، ثم ينظم في ذلك شعراً". ونسيت أو تناست أن أبا عبد الرحمن رضي الله عنه وأرضاه كان قد حبا نحو الستين حينما وطئت راحلة المصطفى عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم رمال المدينة ، وحينما كحلّ حسان رضي الله عنه عينيه برؤية النبي صلى الله عليه وسلم كان قد انهار جرف شبابه وذوى عوده ، ووهن عظمه ، كما أن هناك حقيقة تنقض افتراءات من تجرأ على سيدنا حسان ، وتجعلهم يقبعون بين ثنايا أنفسهم التواقة لتلفيق التهم ذائبين من الخجل والحياء ، فتقاعس حسان عن الطعن والضراب لم يكن سببه جبنٌ مؤثل في فؤاد حسان ، أو مرده تشبثه بالحياة ، وكراهية الموت ، لا أيها السادة لم يكن الرجل الذي خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم حاثاً إياه أنْ "يشد الغطاريف على بني عبد مناف وأقسم عليه الصلاة والسلام بأن شعره أشدّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام". لم يكن بالخوار الرعديد ، لم يكن ابن الفريعة يهاب ساحات

الوغى وموارد الطعان ، بل كان أكحله قد قُطع كما ذكر أبي فرج الأصفهاني ، فقد جاء في كتابه المصقول الحواشي: "قال الزبير: وحدثني عمي عن الواقدي قال: كان أكحل حسان قد قُطع ، فلم يكن يضرب بيده". إن العلة التي لازمت حسان رضي الله عنه هي السبب في مجافاته للضرب والطعان ، والتحام الأقران بالأقران ، وكيف يتسنى لمن تصدى لأعداء الله ورسوله حمل السيف والتلويح به وإغماده في نحور العدي وهو من يتصون عن مؤاكلة الملوك خشية أن تحرجه يدُه الشلاء ، وهو صاحب العزة التي يكره أن تضام. يقول حسان دالاً على تبرمه وضيقه بتلك العلة التي منعته من مُواتاة الهيجا والوقائع:

أضرّ بجسمي مـــرُّ الدهـــور وخـــان قـراع يـدي الأكـحـــــل

وقد كنت أشـهد عين الحـروب ويحـمـــرُّ فـي كـفـيّ المـنْـصـل

كما ينبغي علينا أن ندرك أن من شيم الرعديد الذي يفرق من أبيه أنه حتى يظل آمناً من كل سوء، ونأَبيا عن كل فتنة ، لا يروض شعره في السخرية من أصحاب الساعد المجدول ، والعضد المفتول ، حتى لا تلحقه بوائقهم ، وتناله شرورهم ، وهذا ما لم يفعله أبي الوليد طوال حياته ، فقد ظّل لفترات طوال من حياته مغموراً بعداوات الرجال ، لشره لسانه في الهجاء ، ولجرأته الأدبية ، الأمر الذي يشير إلي أنه من ذوي الشدة والبأس ، والجرأة والإقدام ، ومما لا يند عن ذهن أو يغيب عن خاطر ، أنا حساناً لو كان يحيد عن ظله جزعاً ، لاستهزئ منه أعدائه ولساموه الخسف والهوان في أشعارهم. وحسان بن ثابت في معية الرسول صلى الله عليه وسلم: فبعد أن صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بما أمره به الله ، وأنذر عشيرته الأقربين ، فضلاً عن الخلق كافة ، بعبادة الله عز وجل ونبذ عبادة الأصنام التي في عبادتها كل كدر وعيب ولكن صناديد قريش وعتاتهم لم يروق لهم ذلك ، وناصبوا رسول العزة العداء ، وأنزلوا به وبأصحابه صنوف الأذى حتى ضاقت عليهم بطحاء مكة رغم اتساعها ، الأمر الذي جعلهم يشدون الرحال إلي الحبشة فراراً بدينهم ، ثم إلي المدينة التي هشت لمقدم النبي الخاتم ، وضربت الدفوف لاستقباله ، وتحامى القوم في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنافسوا في الحفاوة به ، وبعد أن شرع النبي صلى الله عليه وسلم في بسط القوانين ووضع الشرائع التي تكفل العيش الهانئ ، والاستقرار الخليق بالبقاء والنماء وعمارة الأرض ، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وكان من ضمن طوائف الأنصار ، بنو النجار أخوال النبي صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ، وكان من أشهر رجالهم ، حسان بن ثابت ، وأخوه أوس الذي آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينه وبين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ورغم أنّ أمهات الكتب لم تخبرنا عن السنة التي دخل فيها حسان الإسلام ، إلاّ أنها وضّحت بمنطق لا يخالطه غموض أنّ حسانّ بن ثابت منذ أن أعلن إسلامه وضع "موهبته الفذة تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقبله النبي صلى الله عليه وسلم بقبول حسن ، وأعلى من شأنه ، وأطرى شعره ، فاطمأن قلب حسان ، وطاب بما أصاب ، وخلع أوزار الجاهلية ، وادّرع درع البرّ والتقوى ، وأخلص للدعوة الجديدة ، وشحذ لسانه للدفاع عنها ، فكان المقدّم في كل محفل ، والمنافح في كل معترك". وحسان شاعرنا الفحل الغطريف لم يكن يدخر وسعاً في الذود عن حمى الإسلام ، ولم يكن حسان وحده في الساحة ، بل انبرى معه شعراء يقولون الشعر من غير كدّ ذهن أو تسهير جفن ، أو تشحيذ خاطر ، فكون حسان "مع صاحبيه كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة رابطة المدينة الشعرية التي كانت تنافح عن الإسلام وعن الرسول

صلى الله عليه وسلم ، وترد الهجوم الشعري المشرك الذي كان يقوده شعراء الكفر في مكة. وقد استحق حسّان وصاحباه لقب (شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم)". وقد أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم الدور الكبير الذي يلعبه هؤلاء الشعراء في مجابهة قوى الكفر والضلال فعوَّل عليهم ، وثمّن جهودهم ، كما "عرف عليه الصلاة والسلام مكانة حسان وشعره ودوره في الرد على المشركين حين خاطب الأنصار بقوله: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال: والله ما يسرني به مِقوَل بين بصرى وصنعاء ، ولو شئت لفريت به المزاد ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيفتهجوهم وأنا منهم؟ فقال: إني أسلُّك منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين. فقال النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: فأذهب إلي أبي بكر ، فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم وأهجهم وجبريل معك. ويكفي حسان فخراً ومكانة أن جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره معضداً بالوحي وبجبريل ، وبروح القدس بياناً لمكانته ودفاعه عن الدعوة الإسلامية". ولقد اتخذ حسان في هجائه لعترة النبي صلى الله عليه وسلم وقرابته أسلوباً حكيماً فقد كان" يجعل فيه المهجو من خشارة قريش لا يرتفع له رأس إلي الؤابات من هاشم ، كهجائه لأبي سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب ، فإنه في هجوه إياه يهجو بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما استقام له أن يمعن في ذم والده الحرث ، فاقتصر على أنه يجعله عبداً بين إخوته والد النبي صلى الله عليه وسلم وأعمامه ، ثم عطف على أبي سفيان من جهة أمه وأم أبيه فهشمهما ، وجعل أبا سفيان من بني هاشم كقدح الراكب من الرحل ، فأخرجه من الدوحة الهاشمية التي ينتمي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: (هو الصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد) ، ومثل هذا الهجاء مؤلم مُمض يوغر الصدور ، ويثير الضغائن ، ويهتك الحرمات والأنساب. قيل لما بلغ أبا سفيان أصاب منه مقتلاً ، فقال: هذا شعر لم يغب عنه أبي قُحافة ، فهو يعلم أنّ تلك الأمور لا يعرفها إلا علامة بالأنساب كأبي بكر رضي الله عنه". والشيء الذي لا يُخامرنا فيه شك أن الهجاء لم يكن غاية في حد ذاتها ، بل وسيلة لصد تلك السهام التي كانت تترى للنيل من رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولكسر شوكة جبابرة قريش الذين يكن لهم هاجس يؤرق مضجعهم سوي القضاء على الدين الذي ظهر علاؤه ، وشهر سناؤه. وبهر ضياؤه جوانب الأرض ، وخوافق السماء. ونجد أن شاعرية حسان الهادرة وقدرته التي لا تضاهى في إخماد كل الأصوات التي تنعق بمعاداة الإسلام واضحة جليه في أشعاره ، فلقد أغنى رصفائه مؤونة الرد على كل متردية ونطيحة تناصب الإسلام العداء. فنجده يرد على شعر بن الزبعري في بدر قائلاً:

ذهبتْ بابنِ الزبعـــرى وقعةٌ كانَ منا الفضلُ لوْ كانَ عـــدلْ
ولقدْ نلتمْ ، ونلنـــــا منكمُ وكذاكَ الحـــــربُ أحياناً دُولْ
إذ شددْنا شـــــدَّةً صادِقَـــةً فأجأناكمْ إلى سفحِ الجبـــلْ
إذْ تولُّـــــونَ على أعقابكمْ هرباً في الشعبِ أشباهَ الرسـلْ

ونجده يرثي بأشعار تستدر وكف العيون قتلى بئر المعونة ، فقد طلب ملاعب الأسنة عامر بن مالك من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث قوماً من الأنصار ، فبعث إليه جماعة وأمرّ

عليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فاغتالهم عامر بن الطفيل الذي عاضده نفر من بني سليم فأفنوهم ، فقال حسان:

على قتلي معونـــــة فاستهلي بدمع العين سحاً غير نـــزر
على خيل الرسول غداة لاقــوا منـاياهــم ولاقتهم بقـــــــدر
أصابهم الفناء بعقد قـــــوم تخـــون عقـد حبلهم بغـــدر
فيا لهفي لمنذر إذ تولـــــى وأعنق في منيتـــه بصبـــــر

وحادثة أخرى يميد فيها حسان من الغضب ، ويتفجر من الغيظ ، حينما أقدمت عشيرة الحارث بن عوف المرى على قتل رجل من الأنصار كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسله للدعوة للإسلام بعد أن أدخله الحارث في جواره:

يـا حـار مـن يغدر بذمة جـــاره منـكم فإن محمداً لا يغـــــدرُ
إن تـغدروا فالغدر من عاداتكـم والـلـؤم ينبت في أصول السخبرِ
وأمـانة النـهـــدي حيث لـقيتها مـثـل الـزجـاجة كسرها لا يجبـرُ

وقد بكى حسان بدمع مدرار ، وقصائد تجعل الجلمود يهش بالبكاء ، أسد الإسلام ، وسيد الشهداء ، سيدنا حمزة بن عبد المطلب في عدة قصائد ، يقول في إحداها:

أبيـض في الـذروة مِنْ هَاشِمٍ لَـمْ يَـمُـرّ دُونَ الْحَقّ بِالْبَـاطِـلِ
مـال شـهيداً بيـــن أسيافكم شلت يدا وحشي من قاتـــل
أي امرىء غـادر فـي آلـــةٍ مـطرورة مـارنـــــة العـامـل
أظـلمت الأرض لـفقدانـــــه واسود نـور القـمـر النـاصـــل
صـلـى عليـه اللـه في جنـــةٍ عـاليـةٍ مُـكرمـة الـداخـــــــل
كنـا نـرى حمـزةٍ حـــرزاً لنا فـي كـل أمـر نـابنـا نـــــازل
وكـان في الإسـلام ذا تـــدرأ يـكـفيك فقد القاعد الخـــاذل

لقد جاهد حسان بلسانه طوال العشرة أعوام الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان له في كل موقف من مواقف المسلمين قصائد جياد ، ولذلك يعد شعره مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي لتلك السنوات ، فقد جاهد بلسانه في يوم بدر ، ويوم أحد ، ورثى حمزة رضي الله عنه كما رأينا ، ورثى خبيب بن عدي وأصحابه حينما غرت بهم هذيل ، وهجاها هجاءً مُراً كما رثى شهداء مؤتة: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم؟ يقول حسان:

رأيـت خيـــار المـؤمنين تـواردوا شَـعُـوبَ وَخَـلْـفًـا بَعْدَهُمْ يَتَـأَخّـــــرُ
فـلا يُـبْعِدَن اللّهُ قَـتْلَى تَتَـابَعُـــــوا بِمُـؤْتَـةِ مِنْهُـمْ ذُو الْجَـنَـاحَيْنِ جَعْفَـرُ

وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللّهِ حِينَ تَتَابَعُـــــوا جَمِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيّـةِ تَـخْطِـــــرُ

غَدَاةَ مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُـــمْ إِلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النّقِيبَـةِ أَزْهَـرُ

أَغَرّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِـــمٍ أَبِـيّ إِذَا سِيمَ الظّلَامَةِ مِـجْسَـــــرُ

كما نجد أن شعره صا مؤيداً لما يتفوه به الرسول صلى الله عليه وسلم من قول ، ولعل أصدق ما يستدل به لصحة هذا القول ، الغضب الذي اجتاح النبي صلى الله عليه وسلم عندما تعرض أقوام لوديده وأعزّ أصدقائه الذي لم يتلجلج عندما عرض عليه أمر دعوته ، وصدّق خبر رقيه للسماء حينما كذّبه جماعة مما لزموا غرسه ، ورافقه في رحلته وكان ثاني اثنين هذ هما في الغار ، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم منبره ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، قال فيما معناه: أيها الناس ليس أحد منكم أمنّ عليّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر ، كلكم قال لي كذبت ، وقال لي أبو بكر صدقت ؛ فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً". ثم التفت عليه الصلاة والسلام إلي صاحب اللسان الذي يقلبه في كفيه كي شاء ، حسان رضي الله عنه الذي قال عن لسانه أنه إذا وضعه على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ، فقال: هاتِ ما قلت فيّ وفي أبي بكر ، فقال حسان: قلت يا رسول الله:

إذا تَـذَكّرتَ شَجْـواً مِنْ أَخٍ ثِقَـــــةٍ فَـاذْكُرْ أَخَـاكَ أبـا بَـكــــرٍ بما فَعَلا

التَّـالِيَ الثّـانِيَ المَحْـمُـــــود شِيْمَتُهُ وأَوَّلُ النّـاسِ طُـرَّاً صَـــدَّقَ الرُّسُلا

والثّاني اثنَينِ في الغارِ المُنيـــــفِ وَقَدْ طـافَ العدوُّ بـه إذْ صَعَّدَ الجَبَلا

وكـانَ حِبَّ رَسـولِ اللَّهِ ، قد عَلِمــوا مِنَ البَـرِيَّةِ ، لم يَعْـــــدِلْ به رَجُلا

خَـيرُ البَـــــــرِيَّةِ أتقاهـا وَأَرْأَفُها بَعْدَ النّبـــــيّ ، وأوْفـاها بمـا حَمَلا

إن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقدر عطاء شعر حسان الدافق ، ويدرك مآثره في الدفاع في الإسلام بقوافيه التي تلجم كل من تسول له نفسه التعرض لحماه ، "لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسّم له في الغنائم بعد عودته من الغزوات كأي محارب شارك فيها بسيفه ، وكان صلى الله عليه وسلم دائم الثناء عليه حتى أنه تغاضى عن موقفه من عائشة في حديث الإفك المشهور ، كما تغاضى عن تعريضه بالمهاجرين ذات مرة ، وحين ضربه صفوان بن المعطل بسيفه لهجائه إياه ، عوضه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك بإعطائه بستاناً ، ووهبه سيرين القبطية ، أخت مارية أم ولد الرسول إبراهيم." فولدت له ابنه الشاعر المفوه عبد الرحمن. واستمر حسان يقمع المتربصين بالإسلام ، ويخمد جذوة نيرانهم المتأججة تجاه الدين الخاتم ، حتى وافى الأجل المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة ، فرثاه بأبيات تتقطر أسى ولوعة ، يقول حسان المكلوم كما جاء في نهاية الأرب".

آليت حلفة برٍ غير ذي دخـــــــل مني أليـة حقٍ غير إفـنـــــــــادِ

تـالله ما حملت أنثى ولا وضعـــت مثل النبي نبي الرحمة الهـــادي

ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد أوفـي بذمـة جارٍ أو بميعـــــاد

مـن الذي كـان نوراً يستضاء بـــه مبارك الأمـــــر ذا حزم وإرشـاد

وتكاد تخمد جذوة شاعرية حسان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا نجد له شيئاً ذا بال غير أبيات قالهن في مدح الزبير بن العوام ، وقطع أخرى يبكي بها الخليفة عثمان بن عفان حين اعتدى عليه المعتدون ، وانتهكوا بقتله حرمة الإسلام، فهو ينعي على أهل المدينة وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قعودهم عن نصرته وخذلانهم إياه". لقد عاش حسان عمراً طويلاً حافلاً بالعطاء لدوحة الإسلام الريانة الأفرع ، قضاه عزيز النفس ، جليل القدر ، لا يعجم عوده امتهان ، ولا يلم بعقوته هوان ، ولقد ذكرت لنا أمهات الكتب العربية أنه قد عاش عشرون ومائة سنة ، قضى ستين منها في الجاهلية وستين في الإسلام ، "ولقد تضاربت الأقوال في سنة وفاته فقيل سنة أربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل سنة أربع وخمسين من الهجرة. أبان ولاية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وقد كفّ بصره في أعقاب حياته. وخلفّ حسان رضي الله عنه ، ديواناً شعرياً ، خاض فيه غمار كل موضوعات الشعر من مدح وهجاء وغزل ووصف ورثاء ، ولكن الشيء الذي اتفق عليه النقاد أن حسان رضي الله عنه كان قوي العارضة في المدح والهجاء ، وبعض قصائد حسان كُتبت بماء الذهب ، مثل قصيدته التي مطلعها:

"لعمرُ أبيك الخير يا شعــثُ ما نبا علـى لسـاني في الخطـوب ولا يـدي"

وقد طبع ديوان حسان مرات عديدة ، أشهرها طبعتان ، الأولى بشرح البرقوقي ، والثانية بتحقيق سيد حنفي حسنين. لقد كانت قريحة حسان الشعرية جياشة: إنّ الشاعر حينما تتدفق شاعريته وتنثال عليه المعاني سهواً ورهواً ويبدأ في نظم القريض إنما يريد أنّ يعبر عن شيء قد استبدّ في ذهنه وربض في دواخله ، ولأن الشاعر يتخير تعبيره وينتقي ألفاظه ، ويتنزه بها عن التعابير الممجوجة التي يتفوه بها ملايين البشر ، يأتي تعبيره مغايراً لتلك التعبيرات التي يجود بها الشخص العادي ، تعبير أكبر من أن يتسامى في ابتداعه شخص ناضب القريحة ، صلد الذهن ، تعبير يبهر العيون ، ويسحر الأفئدة ، كلام فني انسجمت قطعه وحسُن توزيعه ، وألفاظ أتأدت حركاتها ، واتزنت كلماتها ، جُمل مُرصّفة تضفى على النفس ما يضفيه شدو القيان ، وهزج المزامير ، جُمل مترعة بالصور الشعرية الخلابة ، فالألم الذي يصلي الضلوع ، ويضرم الأنفاس ، شائع منذ قديم الأزل ، ومنغصات العيش ، وغصص العمر ، ومكدرات الحياة طعنت بسيفها المصقول حتى من لم يصدع بكلمة بعد ، أو يتفوه بحرف ، ولكن البوح عن الداء والشقاء أمر لا يتسنى إلا للشعراء الذين يجلوا أبكار المعاني ، ويروضوا القوافي الصعبة. وحسان بن ثابت رضي الله عنه من طليعة الشعراء الذين برعوا في ذلك ، فنجده قد بزّ أقرانه ، وبان شأوه على رصفائه ، فشعره وخاصة الذي حاكه في عنفوان الشباب يمتاز برقة اللفظ ، وسحر النظم ، وصدق العبارة ، الأمر الذي يجعله يلامس شغاف الأفئدة ، ويستقر في مهاد الذهن ، ومن أهم الخصائص الفنية التي تميز بها شعر حسان الإسلامي الهادر ، التدفق أو التدافع الذي ينبع من تأثره بالحدث الذي يحرك كوامن شاعريته ، "فعاطفته الجياشة كانت تستجيب طوعاً ، لإيمانه الصادق بالموقف ، وقد كانت طبيعة الموقف ، وسرعة الأحداث لا تمهلانه وقتاً لينقح شعره أو يهذبه أو يتفحصه". ولقد رأينا عن كثب أن معظم أشعار حسان كان يرتجلها ارتجالاً ، لا يكد فيها ذهنه ، ولا يشحذ خاطره ، وهذا مؤشر على تفرده وتدفق قريحته الفياضة التي تقول الشعر ولا تسهر عليه جفناً ، ولا تكد فيه طبعاً ، كما يفعل عبيد الشعر الذين يتعهدون أشعارهم وينقحونها قبل إشاعتها على الناس ، كما كان يفعل زهير بن

أبي سلمى وابنه كعب والحطيئة. وأما عن مثالب شعر حسان: فمن يتأمل أشعار حسان رضي الله عنه يجد شيء من الاضطراب يقطن فيها هذا الاضطراب سببه الانفعال الطاغي الناجم من الحدث الذي دفعه لقول الشعر قبل التأني والتريث حتى تخرج أبياته مصقولة الحواشي ، ريا الأماليد ، فأبياته التي جاء مخاضها قسراً ، نرقب فيها حسان رضي الله عنه وقد استشاط غضباً وخرج من إهابه ، لتعرض بعض السفلة لخير البرية عليه الصلاة والسلام ، فقد كان جوف حسان يغتلي بسيل عرم من المشاعر لا يردها أو يحبسها ، وهذا هو طابع شعره الإسلامي الذي خلى من الاسترسال في الوصف ، وكثرة التشبيهات التي تضفي على الشعر هالة من الجمال ، فحسان في شعره الإسلامي قلق مضطرب في سرد موضوعاته الأمر الذي يجعل أشعاره مفتقده للترتيب الموضوعي ، ولا تترك أي نوطة في القلب ، أو روعة في النفس سوي الإكبار لتصديه للذّب عن بيضة الدين. فماذا عن رأي النقاد في ركاكة شعر حسان الإسلامي: ونجد أنّ الأصمعي قد علل ظاهرة تضعضع شعر حسان الإسلامي بأن الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فيه الخير ضعف ، ويتدل بشاعرنا المتصرف في فنون الشعر حسان ، فيقول: هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره. وقال مرة أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام لحال النبي صلى الله عليه وسلم". ونجد أن الأصمعي يعقد مقارنة بين شعر حسان في الجاهلية وبين شعره في الإسلام ، مبرراً أن الشعر تواق للشر والإغراق في الدعوى والمبالغة في الوصف ، فإذا سكبت عليه شيء من قيم خمد وذهب توهجه ، والحقيقة أن شعر سيدنا حسان في نزقه وطيشه لم يكن على نمط واحد من الإبداع والجودة ، بل كانت له قصائد حازت على الألفاظ الضخمة ، والأساليب الفخمة ، وسلاسة الأنغام التي تأخذ بمجامع القلوب ، كما كانت له قصائد تتسم بالضعف والحشو والإسفاف ، هذا شيء ، الشيء الآخر أن "شعر حسان كثر الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره ضعف ولان كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله الكثير من الوضع والانتحال". فكثير من النقاد ذهب إلي أن الكثير من الشعر الموضوع ارتبط اسمه باسم شاعر الرسول ، فلقد تكالب العديد من رواة المغازي والسير حول مروج حسان الخضراء ، وحدائقة المصقولة الحواشي ليزرعوا حولها الحصرم والزقوم ، ولقد أقر الأصمعي فيما بعد بأن حسان تنسب له أشياء لا تصح عنه ، ومن هذا الباب "أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفهم وإلي جانبهم ، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحاربون الرسالة الإسلامية". وهذا ما أكده ابن سلام ونصّ عليه بقوله: "وقد حُمِل عليه- يعني شعر حسان - ما لم يحمل على أحد. لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً هكثيرة لا تنفى". كما علل النقاد اللين الغالب في شعره بأن حسان رضي الله عنه من شعراء الحضر ، والسمة الطاغية على شعراء الحضر هي رقة الشعور ، وصفاء الطبع ، وطلاوة الأسلوب ، ولقد ازداد شعر حسان ليناً بتأثر حسان بأسلوب القرآن التصويري الذي جاء بدعاً في الأساليب والصّور ، وحسان الذي خلى شعره من بلاغة الوصف ، ومن الصور الخيالية الخلابة ، والذي عكف على الارتجال ولاذ ببابه ، عوضاً عن التنميق والتنخل ظهر تأثره بالقرآن واضحاً جلياً من خلال نبذه "للألفاظ الغريبة إلي الرقيقة السهلة ، ولكن أنيّ لحسان أن يجاري القرآن في نصاعة بيانه

وبلاغة تعبيره ، فازداد شعره ليناً على لين ، على أن له بعض قصائد في الهجو والفخر وذكر الوقائع تعد من أطيب الشعر وأجوده". فماذا عن سمات شعر حسان في الجاهلية والإسلام: نقول بأن أهم السمات والدلائل التي اتصف بها أسلوب حسان في الإسلام هي تأثره بمعاني وقيم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما يلاحظ كثرة ورود الألفاظ الاسلامية في شعره. وأن حسان لم يكن يتعهد شعره بالتجويد والتنقيح. أما معانيه في الجاهليه فقد كانت تماثل شعر غيره من راضة القوافي في ذلك العصر ، ونجده في جاهليته قد مدح الملوك بأشعار سارت في كل صقع وواد ونال من عطاياهم وروافدهم ، كما نجده قد تشبب بالخرائد وسكب في عشقهن القصائد المترعة بالجمال ، ولقد تغزل بشعثاء وعُميرة وغيرهن ، أما في الفخر فلقد أطنب حسان في الافتخار بقومه وذكر مآثرهم ومناقبهم في أشعاره ، وفي الهجاء فنجد قصائد المناقضات التي كانت بينه وبين شعراء الأوس الذين نكّل بهم وسامهم الخسف والهوان ، وطحنهم طحن الرحى ، ولم يأمنوا من حدة لسانه إلا بعد أن دخلوا جميعاً في دين الله الخاتم أفواجاً ، وذهبت ضغائن الجاهلية إلي الأبد. ليصقل لسانه ويلهب به ظهور أعداء الدين. إن أهمية شعر حسان تكمن في قيمتها التاريخية في الجاهلية والإسلام ، فلقد أرَّخ حسان للحروب الطاحنة ، والحوادث الجسام التي وقعت في عهدين عاشهما ، وسجّل بقريحته الجياشة أهم وقائعها ، فقصائده الغر الجياد تضبط لنا مواطن اللبس فيها ، وتصحح شوائب الخطأ ، فحسان رضي الله عنه كان رائد الشعر السياسي في ذلك العهد الذي يصطلي بالصراعات ، ويموج بالأحداث ، وقد وظف شعره وإمكانياته البلاغية للزود عن دين عصفت به الأنواء ، ونبي يتسابق القربى إلي حربه ، ويتنافس الغرباء إلي سلبه ووأد دعوته ، ونجده قد أسقط حجج الباغين ، وأورى زناد الساخطين ، وأشفى صدور قوم مؤمنين ، بالإبداع في وصف القتال ، ومرارة الهجاء ، وإجادة الرثاء ، فاستحق ثناء المسلمين والنقاد الذين وصفوه بأنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. تغمده الله برحمته وأنزل على قبره شآبيب مغفرته ، وجمعنا به وبنبيه المصطفى في أعالي الجنان).هـ.

الفصل الثاني عشر

(الإيمان بالله وصفاته في شعر حسان بن ثابت)

إنه بعد دخول حسان الإسلام ، كان طبيعياً أن يكون للإسلام كبير الأثر على أشعاره! فكثر التضمين من القرآن الكريم والأحاديث النبوية! كما أثر عليه ذلك الدين العظيم بأحكامه الشرعية العادلة ، وكان لأجلاء الصحابة أثرٌ كبيرٌ كذلك على أشعار حسان ، لما كان يسمع منهم ، وهم جيلٌ ميمونٌ مبارك! يُضاف إلى ذلك روح التعصب للانتصار للحق متمثلاً في الذود عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والإسلام ، وذلك عبر عشرات القصائد الحماسية الاستبسالية الجميلة! وفي مجلة القسم العربي ، بجامعة بنجاب ، لاهور- باكستان. وتحديداً في العدد الثاني والعشرون ، 2015 م. وتحت عنوان: (الإيمان بالله وصفاته في شعر حسان بن ثابت) كتب الأستاذ الأديب محمد أويس ، رئيس القسم العربي بكلية ديال سنج الحكومية ، لاهور ما نصه بتصرف: (قال الأستاذ عبد أ. مهنا مبيناً أسلوب حسان في هجاء قريش: "ولم يكن أسلوب حسان في هجائه طعناً في أصل قريش ونسبهم ، بل كان الشاعر يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية ، ويجعله فيها طائراً غريباً يلجأ إليها كعبدٍ أو دَعِي أو متبنىً! أو يجعله غصناً مريضاً منفسداً ، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعناً شنيعاً. ثم يسدد سهامه إلى أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيق اً، في إقذاع شديد ، ويخرج ذلك الرجل موطناً للؤم والجهل والبخل والجبن والقذارة والف رار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك". واقتصر مدح حسان لهذا العهد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، وكبار الصحابة ، الذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاء حسناً. وهو مدح يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود وما إليه ، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم. كفى به شرفاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورسول الله يقول: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ، ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم). روي أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب. وقال قائل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: اهج القوم الذين يهجوننا فقال: إنْ أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت فقال رسول الله: (إن علياً ليس عنده ما يراد من ذلك). ثم قال: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم)! فقال حسان: أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتهجو أبا سفيان وهو ابن عمي؟! أتهجوهم وأنا منهم؟ فقال حسان: يا رسول الله لأسلنك منهم ، كما تسل الشعرة من العجين! فقال: (ائت أبا بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك!) فكان يمضي إلى أبي بكر رضي الله ، فكان يقول له : كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة. فكان الصديقُ أبو بكر رضي الله عنه يقف حسان رضي الله عنه على أنساب القوم! فجعل يهجوهم ، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: هذا شعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: (اهجهم يعني المشركين وروح القدس معك) وإنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان: (اللهم أيده بروح القدس لمناضلته عن المسلمين). وقال صلى الله عليه وسلم: (إن قوله فيهم أشد من وقع النبل). إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو له بالتأييد من السماء فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهم أيده بروح القدس). وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبد الله بن رواحة شعراً ، ولكنه حكمة). ويروى أنه أنشد حسان النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته التي أولها:

عفتْ ذاتُ الأصابع بالجـواء إلى عذراء منزلها خـــــلاء

حتى انتهت قصيدته العصماء الكافية الشافية إلى قوله:

هجوتَ محمداً ، فأجبت عنـه وعند الله في ذاك الجـــزاء

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جزاؤك على الله الجنة يا حسان). فلما انتهى إلى قوله:

فإن أبي ووالده وعِرضـــــي لعرضِ محمدٍ منكم وِقـــــاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وقاك الله يا حسان النار). فلما قال:

أتهجـــوه ، ولســـت له بكفء فشرّكما لخيركما الفـــــــداء

فقال من حضر: هذا أنصف بيت قالته العرب". ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظى بمنزلةٍ رفيعةٍ ، يجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه ، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر - موقفًا خاصا من الشعر ، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم رضي الله عنه تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم ، في حين نجد أن عمر بن الخطاب يحب الشعر ، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى ، وقد روِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشدَين عددٌ من الأبيات. يقول أبو عبيدة: فضل حسان على الشعراء ثلاث ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وامتلأ شعر حسان بالتضمين من القرآن والسنة! وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من الآيات في مديح الله جل جلاله والاعتراف بفضله على المخلوقات وقوته. لذلك سار الشعراء المسلمون في تقديس الله لما رأوه في سر خلقه في الطبيعة والكون. حسان بن ثابت أول الشعراء المسلمين الذين نظموا في مدح الإله. وإذن فالإيمان بالله وصفاته من أهم الموضوعات الشعرية عند حسان بن ثابت. فإن هذا الإيمان مما جعله عارفاً بحقائق الأشياء وقيمتها ، وأملأ قلبه بالخير والهدى. يمدح حسان ربه ويعلن بقوته الباهرة وعظمته القاهرة. امتاز حسان بن ثابت من بين الشعراء بمعرفته ربه ، لأنه أخذ هذه المعرفة من البشر الذي كان أعرف الناس بالله وأكثرهم له خشية وهو النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم. زين النبي عليه الصلاة والسلام قلوب أصحابه بحب الله ومعرفته وإجلال شانه فخروا له سجداً ، وفروا إليه لا عنه. تترشح من شعره عقيدته السامية وإيمانه الباهر بتوحيد الله سبحانه وصفاته. يقول حامداً لله عز وجل:

وأنتَ إلهُ الحـــــــقّ ربي وخالقي تَعَالَيتَ رَبَّ النّاسِ عن قَولِ من دعا

لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمـــــرُ كلهُ لأنّ ثَـــــوابَ الله كلَّ مُوَحِّـــــــدٍ

بذلكَ ما عمرتُ في النـــــاسِ أشهدُ سِوَاكَ إلهَاً ، أنتَ أعلى وأمجَـــــدُ

فإيّاكَ نَستَهدي ، وإيّاكَ نَعبُـــــــدُ جنانٌ من الفـردوسِ ، فيها يخلـــدُ

نراه يجمع مدح آل رسول وحمد الإله في بيتٍ واحدٍ ، حيثُ يقول:

شهـــدتُ ، بإذنِ اللهِ ، أنّ محمـــداً رَسُولُ الذي فَوْقَ السماوات مِن عَلُ

يناجي حسان ربه بأبياته الجميلة ويسأل منه جنة الفردوس ، حيث يقول:

يَا رَبّ! فاجمَعنا ، فمَاً ونَبِيَّنَـــا في جَنّةِ الفِرْدَوْسِ واكتُبْها لَنَا

في جَنّــةٍ تَثْني عُيُـــونَ الحُسّدِ يا ذا الجلالِ وذا العلا والسؤددِ

ويعلن حسان بن ثابت بعظمة ربه وكبرياء شأنه في رثاء عثمان رضي الله عنه ، حيث يهدد قتلة عثمان بقرب مجيء جيش معاوية لينتقم منهم ويقول:

لتسمعنّ وشيكـــاً في ديارهمِ اللَّهُ أكْبَرُ ، يا ثَارَاتِ عُثْمانَـــا

يقر بتوحيد الله وربوبيته ، وكذلك يجعل كتاب الله هادياً يهتدى به ويقول:

ونعلمُ أنّ اللهَ لا ربّ غيـــــرهُ وإنّ كِتَابَ اللَّهِ أصْبَحَ هادِيـــــا

ويدعو إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام ، ويقول للكفار أن أسلموا لله مخلصين له الدين ، وانزعوا عن عبادة الأصنام:

فَلا تَجْعَلوا لله نِدّاً وأسْلِمُـــوا وَلا تلبَسوا زِيّاً كزِيّ الأعَاجِـمِ

ويعتقد حسان بن ثابت بأن الله هو الفاعل الحقيقي وهو ينصر المؤمنين ويثيب خير ثواب:

وكفى الإلهُ المؤمنيـــنَ قتالهمْ مِنْ بَعدِ ما قَنَطوا فَفَرّجَ عَنهُمُ

وقال في مقام آخر على بحر آخر وقافية أخرى:-

وَأقرَّ عَيْنَ مُحَمّدٍ وَصِحابِـــهِ وَأثَابهَمْ في الأجْرِ خَيْرَ ثـــوَابِ

تنزيلُ نصّ مليكنا الوهـــابِ وأذلَّ كلَّ مكذبٍ مرتـــــــابِ

وكذلك يقول في أسلوب رقراق:

إنْ تَتْرُكوهُ ، فإنّ رَبّي قـــادِرٌ واللهِ ربي لا نفارقُ أمـــــرهُ

لا نبتغي رباً سواهُ ناصـــراً أمسى يعودُ بفضلهِ العـــــوادِ

عاد ما كانَ عَيْشٌ يرُتَجَـى لم حتى نوافي ضَحْوَةَ الميعَـــادِ

ويخوف أعداء الدين بقدرة الله وعقابه بأبياته التالية:

إذا اللَّهُ حَيّـــا مَعْشَـــــراً بِفَعالِهِمْ فأخـــزاكَ ربي ، يا عتيـبَ بن مالكٍ

وَنَصْرِهِمِ الرّحمـنَ رَبَّ المشـــارِقِ ولقاكَ قبلَ الموتِ إحـــدى الصواعقِ

يؤمن حسان بن ثابت بأن الله هو المعز والمذل ، يعز من يشاء ويذل من يشاء:

وإلا ، فاصبروا لجلادِ يـــــومٍ يعزُّ اللهُ فيهِ منْ يشـــــــــــاء

ويؤمن حسان بأن الله يعذب أعداء الإسلام سوء العذاب ويخزيهم في الدنيا والآخرة:

عجلَ المليكُ لهُ ، فأهلكَ جمعه بشنارِ مُخزيةٍ ، وسوءِ عـذابِ

ويعتقد حسان بن ثابت بأن الله شرفهم بدينه ونبيه ، فإنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ثم نصر نبيه وأصحابه نصراً عزيزاً ، فإنه ناصر حقيقي وممد للمؤمنين:

وأكْرَمَنا اللَّهُ الذي ليسَ غيرُه بِنَصْرِ الإلهِ للنَّبيّ ودينِـــــــهِ

ويعلم حسان بن ثابت بأن الله هو المرسل لمحمد صلى الله عليه وسلم فهو أول من نحمده ، حيث يقول حسان:

وأنذرنا ناراً ، وبشرَ جنـــــــــةً وعلمنا الإسلامَ ، فاللهَ نحمـــــــدُ

ويؤمن حسان بن ثابت بأن الله عنده أجر الأعمال الحسنة والسيئة ، فإنه يحسن بالمؤمنين ويخزي الفاسقين:

هجوتَ محمداً ، فأجبـــــتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجـــــــــزاء

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع منه ذلك قال: "جزاؤك على الله الجنة يا حسان!" ويقول:

وإنّ ثوابَ اللهِ كلَّ موحـــــــــــدٍ جنانٌ منَ الفردوسِ فيها يخلدُ

ويعلم حسان بن ثابت بأن الله هو العفو الغفور ، رحيم بالعباد ، يغفر خطاياهم ويمن عليهم:

عَفُوٌّ عن الزّلاّتِ ، يَقبـــلُ عُذْرَهمْ وإنْ يحسنوا ، فاللهُ بالخيرِ أجـــودُ

والله تعالى هو المنجز وعده في عقيدة حسان بن ثابت الأنصاري ، حيث يقول:

يناديهمْ رســـــولُ اللهِ ، لمـا ألمْ تَجِدُو حديثي كـــانَ حَقَّاً

فَما نَطَقُوا، ولَو نَطَقوا لَقالوا قذفناهمْ كباكبَ في القليـــبِ

وأمرُ اللهِ يأخذُ بالقلـــــوبِ صَدَقْتَ وكُنْتَ ذا رَأيٍ مُصِيبِ

ويؤمن حسان بن ثابت بأن الله هو المقسط ، ولا يستوي عنده الصدق والكذب:

يا أيّها النّاسُ أبْـــدُوا ذَاتَ أنفسِكُمْ لا يَسْتَوِي الصّدقُ عندَ اللَّهِ والكذِبُ

وقال رضي الله عنه:

وَإنْ قَالَ في يوَمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ ليهنِ أبا بكرٍ سعـــــادةُ جدهِ

ويؤمن حسان بقدرة الله عز وجل حيث يقول:

ذَلّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجّـــارِ كلّهِمُ وكان أمراً منَ أمرِ اللهِ قد قدرا

قدرة الله غالبة على الكون كغلبة القمر على النجوم، يستفيد الشاعر من الكون لتقديم مثال على قدرة الله حيث يقول:

قد أبْرَزَ اللَّهُ قَوْلاً ، فوْقَ قولهِمِ كما النجومُ تعالى فوقها القمــرُ

وتحت عنوان: (صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بن ثابت) جاء في مجلة دعوة الحق العدد 118 ما نصه بتصرف زهيد: (حسان بن ثابت شاعر يُحسَب له ألف حساب في تاريخ الشعر العربي ، فقد أنشد في مختلف أغراض الشعر المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وفخر ، وتناول في قصائده قضايا متنوعة تتعلق بالحياة والدين والسياسة والحروب. وإلى جانب هذا وذاك فقد كانت قصائده خير مرآة تنعكس عليها خطوات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأعماله في سائر المجالات وبالتالي صفاته ومزاياه ، بالإضافة إلى تصويره تصوير المؤرخ الأمين لحوادث زمانه ، وخصائص الدعوة المحمدية ، والمراحل والأشواط التي قطعتها ، وقدرته على استيعاب مكونات البيئة الاجتماعية التي تحيط به. وقد عاش حسان حياته الجاهلية وسط بلاط الأمراء والملوك ونادمهم ومدحهم بقصائد عديدة من شعره ، فنال من نعمهم وخيراتهم ، وأصبح مقرباً إلى مجالسهم محبباً إلى قلوبهم ، يُشاركهم حياتهم العامرة بشتى أصناف المرح والمجون ومختلف أشكال الترف والرخاء. وكل كائن كما يرى الأستاذ أمين الخولي (يتأثر بما حوله من واقع الحياة مادياً ومعنوياً ذلك التأثر الذي لم يفت القدماء أنفسهم التنبه إلى أصله ، حين يتحدثون عن تأثير البقاع على الطباع) ، لذلك فقد لازمت حسان في حياته الطويلة الحافلة عدة صفات وسجايا وطباع ، اكتسبها من احتكاكه الدائم بالمناذرة والغساسنة ، ومن اتصاله المستمر بملوكهم و أمرائهم. وإذا كان الأدب ديواناً لعواطف الأمم وكنزاً لأحداثها وتجاربها وتاريخا لعاداتها وتقاليدها ، وسجلاً لما في الإنسان من مشاعر وغرائز وأداة أصيلة في توجيه الحياة الإنسانية ومسايرتها على الدوام في (جميع العصور). فلا نتردد إذن في أن قصائد حسان قد زخرت بأشكال متباينة من القيم وبسلوكه الإنساني. وهذا يثير في نفوسنا بصورة غير مباشرة شيئاً غير قليل من الحيرة والاستغراب ، ويدفعنا بالتالي إلى التساؤل عن تأثير كلتا المرحلتين في شعره وعن صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بصفة عامة. وأيسر النظر في شعره يؤكد حقيقة واضحة لا سبيل إلى الشك فيها ، وليس المهم أن تكون هذه الحقيقة قديمة أو جديدة ، ولكن المهم أن نقف عندها لتحليل جوانبها وسبر أغوارها وبالتالي لمحاولة تأكيدها والتركيز عليها. هذه الحقيقة تبدو في كثير من الأحيان معوجة ملتوية ، ولكنها في أشد الحاجة إلى تحليل سليم واضح ، لتقويم اعوجاجها ، وإصلاح ما بها من عطب. فقد بدل الإسلام من قيم حسان وطبائعه واستطاع أن يُغير مجرى حياته كلها ، وأن يجعلها تسير في اتجاهٍ جديد ، بل أن الأصمعي يؤكد أن تأثير الإسلام كان واضحاً حتى في أدبه (فقد كان شعره في الجاهلية أقوى منه في الإسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة). ومع ذلك فإننا لانعدم من يُضِيف إلى ذلك تمسك حسان ببعض القيم الجاهلية ، على الرغم من الانقلاب الضخم الذي أحدثه الإسلام في حياته. غير أن هناك من ينفي هذه القضية ويؤكد أن الإسلام (بدل من عقلية الشاعر وآرائه وتصرفاته) وأحدث تغييراً شاملاً في مختلف مرافق

حياته. وأكبر الظن أن الرأي الأخير أقرب إلى الحقيقة وأدنى إلى الصواب. وسيرة حسان في الجاهلية تثير شيئاً غير قليل من الشك والحيرة ، فهو يجالس الأمراء ويُقارع الخمرة ، ويمدح ملوك غسان ويسترجع ذكرياته وأيامهم ، ويصفهم بالكرم والسخاء ، وأنهم يعيشون حياة خير ورزق ورفاهية وازدهار:

لله در عصابـــــــة نادمتهـــم يوما بجلق في الزمان الأول
يسقون درياق الرحيق ولم تكن تدعى ولائدهم لتقف الحنظل
بيض الوجوه كريمــة أحسابهم شم الأنوف من الطـــراز الأول

وهذه الأبيات توضح حقيقتين مستقلتين:

الأولى:- أن شاعرية حسان كانت في الجاهلية متدفقة مبدعة ، كما يرى ذلك الأصمعي نفسه.والثانية:- أن حسان كان يشرب الخمر وينادم الملوك والأمراء قبل الدعوة المحمدية ، وإن قيم الجاهلية وأخلاقها كان لها الأثر الواضح في شعره. وحسان شاعر قوي الشعور ، دقيق التصوير ، بارع الإجادة تقلب في مجالس الأمراء والملوك ، وصور هذه الحياة تصويراً رائعاً في قصائد متعددة ، وهو إلى جانب ذلك شهد الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج وعايش عن قرب تلك المطاحنات التي كانت بين القبيلتين ، فأشار في شعره إلى هذه الأيام وصورها خير تصوير كما نجد ذلك في يوم بعاث ويوم الربيع وغيرهما. على هذا النحو يسير حسان في مختلف أطوار حياته يتناول قضية من القضايا فينشد في تصويرها قصائد متعددة ، حتى إذا فرغ منها عاد إلى أخرى يستلهمها شعراً نابضاً يتدفق قوة وجزالة. وهل حياة الشاعر في كل مكان إلا هذا: تصوير متصل للبيئة، ووصف نابض بالحركة للناس والمجتمع والحياة. وحسان في تأدية ذلك متأثر غاية التأثر بقيم الجاهلية وأخلاقها يكلف بسلوك أهلها ، وبسيرة شعرائها. ولنقف عند هذه الأبيات من قصيدة لحسان :

ألم ترنا أولاد عمر بن عامـــــــر لنا شرف يعلو على كل مرتقـــــى
رسا في قرار الأرض ثم سمت لــه فروع تسامي كل نجـــــم محلــق
وملــوك و أبناء الملـــــوك كأننـا سواري نجوم طالعات بمشـــــرق
إذا غاب منها كوكـــــب لاح بعده شهاب متى ما يبد للأرض تشـــرق

إنه يفتخر بسمو نسبه وعلو مكانة أهله ، ويتحدث عن شرف مرتبته ورفقة أصله. ومن المحقق أن الفخر بالنسب وعلو المكانة ، كان من الأغراض الأولى للشعر الجاهلي بصفةٍ عامة و سنرى فيما بعد إن ظل الفخر ظل ملازماً له حتى بعد ظهور الإسلام وانتظامه في صفوف المسلمين يُعزز صفوفهم ، ويرد عنهم هجمات الكافرين. ليس من شك إذن في أن حسان تأثر بالقيم الجاهلية ، وتبدو آثار ذلك واضحة في شعره: فهو يصف الخمر ومجالس اللهو ويفتخر بنسبه وعلو شأنه ، ويمدح الملوك والأمراء لينال عطاياهم وهباتهم إلى غير ذلك. وليس من المعقول أن يعيش شاعرٌ ما في بيئةٍ معينةٍ أو مجتمع ما دون أن يكون لقيم تلك البيئة أو ذلك المجتمع صدى في شعره وأثر في نتاجه. ويظهر الإسلام ، وذلك الحدث الهام (بل الثورة البيضاء الهادئة) ، تلك الثورة على (الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، والأنظمة السياسية البالية

والخرافات الدينية المُزرية). ويقدر لحسان أن يعيش في ظل الإسلام مدة طويلة من الزمن ، وأن يتصل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبالتالي أن ينشد في مدح الدين الجديد ، والدفاع عنه قصائد مختلفة من شعره. ويعتقد عبد الله أنيس الطباع أن حسان (انسلخ عن تاريخه ، وعن حياته ، ليلازم منذ اليوم رسول الله ، ويصبح شارع النبي يرافقه في حياته الجديدة التي كتبها الله له ، ويرافقه في جهاده وفي أمور كثيرة ، فيؤرخ حياة النبي الكريم ، ويؤرخ مواقع المسلمين). وهو صادق فيما يقول فقد أحدث الإسلام ثورة كبرى في حياته وانقلاباً عظيماً في سلوكه وقيمه أخلاقه. فأصبح ينشد الشعر ابتغاء لرضا الله ورسوله ويؤلف الكلم تقرباً إلى الله جل جلاله ، يدافع عن عباده ، ويهجو أعداء الإسلام ، ويرفع من قدر النبي (صلى الله عليه وسلم) ويصفه بأعظم الأوصاف وأكبرها:

أغر عليهِ للنبـــــوة خاتـــــم من الله مشهود بلوح ويشهـــــد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمــه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشـــــــــق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود و هذا محمـد

وواضح جدا أن هذه الأبيات تنبض صدقاً وواقعية ، فهي تصور مكنون صدره ، وعظيم حبه لشخص الرسول ، وبالتالي للدين الجديد الذي أنقذ العرب من براثين الجهل والغواية. وهو يشير في شعره إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية ، ويعلن بالتالي (إيمانه بالله تعالى وأنه إله الخلق ، خلق العالم وأبدعه وأوجده ، وأنه يُقدسه تعالى ويُجله.

وأنت إله الخلـــــــق ربي وخالقي بذلك ما عمرت في النـــــاس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلهاً أنت أعلـــــى وأمجـــــد
لك الخلق و النعمـــــاء والأمر كله فإياك نستهدي وإياك نعبـــــــــــد

وهو يتأثر بقيم الإسلام وتعاليمه ، ويصور (أوضاع الجزيرة العربية ، وكيف جاء النبي الأكرم يدعو الناس إلى عبادة الله ، بعد هذه الحقبة الطويلة التي عم فيها اليأس النفوس ، وتاه العباد حتى أخذوا يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يخرون لها ساجدين ، فإذا النبي يستحيل (صلى الله عليه وسلم) مصباحاً منيراً ينير ما اكتنف العالم من ظلمة ويبدد ما علق في قلوب الناس وأرواحهم من جهالات).

نبي أتانا بعد يـــــأس وفتـــــــرة من الرسل والأوثان في الأرض تعبـد
فأمسى سراجـــــــاً مستنيراً وهاديا يلوح كما لاح الصقيـــــل المهنـــــد
وأنذرنا نـــــــاراً ، وبشَّر جنـــــة وعلمنا الإسلام ، فالله نحمـــــــــــد

ويمدح حسان رسول الله ، ويدافع عنه أمام خصومه ، ويصف ما لقي من قريش ، وما اعترض طريقه من معضلات وعراقيل:

وأصبح لا يخشى عـــــداوة ظالم قريب و لا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جـــــل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيـــــا

نحارب من عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيـــا

ونحن نعلم أن الله لا رب غيـــــره وأن كتاب الله أصبـــــح هاديـــــا

وهو يذكر شهداء المسلمين في قصائد كثيرة ، وكيف عاهدوا النبي على نصرته ، ويصف معارك المسلمين واستبسالهم:

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ظلال النايا والسيوف اللوامـع

ويرى الأصمعي أن شعر حسان في الجاهلية أقوى منه في الإسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة ، ويروي أن حسان سئل عن ذلك فقال: إن الإسلام حرم الكذب ، والشعر لا يجمله إلى الكذب والخيال والتذكار لا يقومان إلى على هذا النوع من القول. وهكذا نرى أن حسان تأثر بقيم الإسلام وتعاليمه ، وهدر تقاليد الحياة الماضية وعاداتها ، فقد آمن بالنبي إيماناً صادقاً وجاهد في سبيل دعوته وأوقف نفسه وأدبه على نشر هذه الرسالة الجديدة التي عم خيرها الجزيرة العربية ، وتعداها إلى سائر أرجاء الأرض. ونأخذ الأمر بشيء من التحفظ ، فنذكر أن بعض تقاليد الجاهلية – وإن كانت قليلة جداً – ظلت ملازمة له في حياته الإسلامية: فهو يفخر ويعتز بنفسه – على سبيل المثال – في مناسبات عديدة:

وكنا ملوك النـــــاس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

هو إذن في شعره الإسلامي كما هو في شعره الجاهلي متأثر غاية التأثر بما يحيط به من عادات وسلوك وقيم ، مضطر إلى الأخذ منها والارتواء من معينها. وقد كان لقيم الإسلام وتعاليمه أكبر الأثر وأوضحه في شعره بل إنها تبدو في شعره أشد وضوحاً وأكثر نصاعة من قيم الجاهلية وعاداتها تلك التي أمست باهتة خافتة لا يكاد يسمع لها صوت في شعر حسان. وهذا شعر حسان بين أيدينا صورة صادقة لذلك ، ومرآة واضحة ينعكس عليها ما يخالجه من شعور، وما يملأ قلبه محبة لهذا الدين الجديد الذي أنقذ الجزيرة العربية وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وأشاع بين أهلها روح المحبة والوداد والصفاء. وبعد فإن شعر حسان عموماً أصدق مثال على ذلك ، فقد كان ديواناً دقيقاً لعواطف أمته وكنزاً لخيراتها ومواقعها وسجلاً لمشاعر الإنسان ونزواته المتعددة).هـ.

الفصل الثالث عشر

(الخصائص الفنية في شعر حسان بن ثابت)

ميزت شعر حسان بعض السمات التي رصدها النقاد الغابرون والحاضرون ، والحمد لله تعالى أن قيَّضَ لحسان من يدافعُ عنه بالأمس ، كما وجد من يدافع عنه اليوم! ويكون دفاع هؤلاء وأولئك مبنياً على الإنصاف والحيدة والموضوعية! وديوان حسان لا يزال بين أيدينا! ولقد نوقشت فيه مئات الرسائل والأبحاث في شمال الأرض وفي جنوبها وفي شرقها وغربها! نعم كانت هناك مئات الدراسات والأطروحات التي تناولت حسان وشعره في جاهليته وفي إسلامه ، وبينت الفوارق البارزة بين الشعرين ، وأرخت للمرحلتين في حياة حسان بن ثابت – رضي الله تعالى عنه -! وتحت عنوان: (الخصائص الفنية في شعر سيدنا حسان بن ثابت) يقول الأستاذ الطيب عبد الرازق النقر ، المدرس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، ما نصه بتصرف: (لا يعدم المرء منا حجة للاعتقاد بأن العصر الإسلامى الذى كُرم فيه الإنسان ، وانتظم فيه العمران ، يعد من أخصب العصور التى غيرت مجرى الحياة. فلقد زالت فيه وطائد الكفر ، وانجذمت أواصر الضلال ، وهلك فيه أصحاب المُهَج الخبيثة والمطامع الإنسان رخيصة ، أولئك الأقوام الذين ساموا البشرية بخسف ، ومرغوا الإنسانية فى حمأة الهوان ، عصر سار فيه الأوفياء الأبرار ، والأولياء الأخيار في شتى أصقاع الأرض وفي كل نواحي الكون المترامي الأطراف يدعون لكتاب فصيح المفردة بليغ التركيب. أنزله الله عز وجل عن علم ، وفصلّه عن إدراك ، ولدين بالغ الأثر ، قوى الإيحاء ، يصون النفس عن الرذائل وخوارم المروءة ، وينهاها عن الهوى الطاغى والإثم الجَموح ، حتى صار الإسلام كلمة تجترها الألسنة بقدسية ، وتتداولها القرائح بإجلال ، وأصبح للعرب كرامة لا تُمتهَن وحمىً لا يُستباح ، بعد أن كانوا أقصر يداً ، وأضيق باعاً ، وأجبن قلباً ، من أن تجسر قبائلهم المبعثرة من غير رابط على محاربة كسرى وإن وهنت قواه أو هرقل وقد وهت عُراه ، ولعل هذا الدين الذي استرقى الدهماء وطغام الناس فى البدء يختلف عن بقية الأديان ، فلم يصلب عوده وتنتشر بنوده بالسيف وحده ، بل على القول الفصيح الذي يتنزه عن شوائب اللبس ، مطبوع على جزالة الألفاظ وفخامة الأساليب ، ويخلو من أكدار الشبهات ، فنبيه – صلى الله عليه وسلم - وكتابه القرآن هو عُنوان البيان ، وآية البراعة ، وحُماته هم مصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، وفرسان الطراد الذين ذبُّوا عن حمى الدين وذادوا عنه بالمُهج العِظام ، والتضحيات الجسام ، وباللفظ المنتقي المطبوع على غرار الفصاحة. ومن ضمن فرسان الكلمة الذين لا يُشق لهم غبار ، شاعرٌ فشا ذكرُه على الألسنة ، وقرع صيته الأسماع ، شاعرٌ أطنبَ في تحقير المشركين وأمعنّ في الزراية عليهم ، بقصائده الشامخات التي جعلت من أصروا على غيهم ، طواغيت قريش الذين عميتْ عليهم وجوه الرشد ، واستبهمت عليهم معالم الهداية ، يميدون من الغضب ويتفجرون من الغيظ. لقد سخر حسان قريحته الشعرية التي تدفقت عليه منذ أنّ كان في معية الصبا ، وطراءة السن ، للذّب عن قومه الخزرج في عِراكهم الذي لا تنقطع وتيرتُه مع الأوس ، يُحصي مناقبهم ، ويُعدد مفاخرهم ، ويسجّل مآثرهم ، ولقد دخل في عِراك شِعري مَحموم مع الشاعرين الأوسيين: قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت. ومن بعض أشعاره التي تُجسد تلك الفترة ، أبيات يهجو فيها أبي قيس بن الأسلت هجاءً مقذعاً ، ويطحنه فيها طحن الرحى ، يقول فيها:

ألا أبلغْ أبا قيـــــــسٍ رسولاً إذا ألقَى لها سعاً تبِيـــــــــنُ
نسيتَ الجسرَ يومَ أبي عقيـــلٍ وَعندَكَ منْ وَقائِعِنا يَقِيـــــــنُ
فلسْتُ لحاصـــــنٍ إنْ لم تزُرْكمْ خلالَ الـــــدورِ مشعلةٌ طحونُ
يدينُ لها العزيـــــــزُ إذا رآها ويهـــــربُ من مخافتها القطينُ
تَشِيبُ الناهدُ العـــــذراءُ فيها ويسقطُ منْ مخافتها الجنيـــــنُ
عيْنَيكَ القوَاضِـــــبُ حينَ تُعْلى بها الأبطـــــالُ والهامُ السكونُ
تجودُ بأنْفُسِ الأبْطـــالِ سُجْحاً وأنتَ بنفسكَ الخـبُّ الضنيـــنُ

ولقد أُوتي حسان من سعة الرزق ، ونضرة الشباب ، وشرف النسب ، ومكانة الأسرة ، والموهبة الشاعرة ، والبيان الساحر ، ما أتاح له أن يلهو ويبذخ ، ويصبو ويطرب ، فيعابث القيان ، ويعاقر الخمر طوال نصف قرن ، هو الزمن الذي انقضى من عمره المديد في الجاهلية وهو على دين قومه. وبهذا الرغد في العيش ، والانغماس في اللذات ، وإيثار الترف على الشظف رقّ شعره ، وصفا أسلوبه ، وعذب لفظه ، وغدا من أعلام الشعر في يثرب. غير أن الأعلام تضيق بهم حواضرهم ، ويحملهم الطموح إلي حواضر أرحب ، ومراتع أخصب. أخذ حسان يضرب في مغاور الأرض ، ويقطع صحاريها الموحشة ، وقفارها المُجدِبة ، تلك التي تقطنها الضواري ، قاصداً رجلاً امتلك ناصية الشعر ، رجل متدفق القريحة ، شديد العارضة ، خلعت عليه قبائل العرب أوسمة التبجيل ، وأوصلوه إلي ذروة الكمال ، عساه يقلب رأيه الحصيف في أشعاره التي ينظمها ، ويبصره بمواطن الخطل والصواب فيها ، فوجد النابغة صاحب السمت الرزين والمنطق المتئد في سوق عكاظ وقد ضربت له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وقد تحلقت حوله جموع الشعراء تعرض عليه أشعارها ، فأول من أنشده الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى ، فأثنى النابغة على شعر حسان خيراً ، ومن هنا سار شعر حسان في الآفاق ، وأمست أشعاره تسمع في كل صُقع وواد ، ومضى كالطائر المرح الذي يغرد في كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، يمدح سُراة القوم وأعيان الفضل في كل قبيلةٍ ترودها ناقته التي تقطع فدافد الأرض في خفة ويسر ، لتطوي خلفها التلال التالعة ، والجبال الفارعة ، في بطحاء مكة ، وأغوار تهامة ، وصحراء نجد ، ثم أشرأبتْ نفسُه إلي مدح الملوك ، فطفق يتنقل بين حيرة المناذرة ، وجلق الغساسنة ، طلباً للشهرة وذيوع الصيت ، ولتوثيق العُرى بينه وبين ملوك نصبت على مفارفقهم التيجان ، وقهروا الأبطال والشجعان ، ودانت لهم الدنيا ، يستكين إليهم الضعيف ، وينأى عن مجابهتم القوي ، ولقد نقل أبو الفرج الأصفهاني بأكثر من رواية اتصال حسان الذي كان في غُلواءُ الشباب ونضارته ، بالملك الغساني الذي كان تشرئب لرؤيته العيون ، وتشخص لطلعته الأبصار ، واتصال حسان بن ثابت رضي الله عنه بالغساسنة في بادي الأمر تمّ عن طريق عمرو بن حارث الغساني ، أو جبلة بن الأيهم الغساني ، وتخبرنا أمهات الكتب الجامعة لشتيت الفوائد أنّ حسان حينما دلف إلي مجلس الملك المطرز بأقبية الديباج المخوص بالذهب ، وجد بمعيته النابغة الذبياني ، وعلقمة الفحل ، يقول حسان: "فجلست بين يديه وعن يمينه رجل له ضفيرتان وعن يساره رجل لا أعرفه فقال أتعرف هذين؟ فقلت: أما هذا فأعرفه ، وهو النابغة

وأما هذا فلا أعرفه! قال: فهو علقمة بن عبدة ، فإن شئت أن تسكت سكت ، قلت فذاك ، قال فأنشده النابغة:

كِلينِي لهمٍّ يا أميمـــــة ناصـــــبِ وليـــلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكِـــــبِ

قال: فذهب نصفي. ثم قال لعلقمة: أنشد ، فأنشد:-

طَحا بك قلبٌ في الحِسان طروبُ بُعيدَ الشبابِ عَصْـرَ حانَ مَشيبُ

قال حسان: فذهب نصفي الآخر! فقال لي: أنت أعلم الآن ، إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكت! فتشددت ثم قلت: لا بل أنشد ، قال: هات ، فأنشدته:

لله دَرُّ عِصَابـــــــــةٍ نادمْتُهـــا يوماً بجِلِّقَ في الزَّمـــــــــان الأوّلِ

أولادُ جَفْنَةَ عند قبـــــــــر أبيهمُ قبرِ ابن ماريَـــــــــة الكريمِ المُفْضِلِ

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريـــصَ عليْهِم كأســـاً تُصفَّقُ بالرحيـــق السلسلِ

يُغشَوْنَ حتّى ما تَهِـــــــرُّ كلابُهُمْ لا يسألون عن الســـــــوَّاد المُقْبل

بيضُ الوجوهِ كريمـــــةٌ أحسابُهُمْ شُمُّ الأنـــــــــوفِ من الطِّرازِ الأولّ

فقال لي: ادنه ادنه ، لعمري ما أنت بدونهما. ثم أمر لي بثلاثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد ، وقال: هذا لك عندنا في كل عام". واستمر الغساسنة في وصل حسان بالجوائز السنية حتى بعد أن دخل الإسلام ، وصار شاعره الذي يذود عنه بلسان صلد يفلق الحجر ، ومن يُدقق النظر في الصلة الشديدة التي جمعت شاعرنا المُفلق الخِنذيذ بالغساسنة يصل إلي يقين راسخ لا يُخامره شك ، أو تتخله ريبة ، بأن حسان كان صادقاً في تلك القصائد الجياد التي تسحَر العقول ، وتخلِب الألباب ، فلقد كال لهم المدح ، وقرظهم بأزين وصف ، وأتقن رصف ، وأفصح لسان ، ولعل صلة القرابة التي تربطه بهم هي التي جعلته يستفرغ الوسع في الإحاطة بشمائلهم ومناقبهم ، لأنهم عِترته وعُصبته الذين لا يبلغهم مُكاثِر ، ولا يُطاولهم مفاخِر. ولقد تركت العيون النابعة ، والثمار اليانعة ، والمروج الخضراء ، أثرها في نفس حسان ، وشعره الذي أمسى يتدفق عُذوبةً وسلاسة ، ففي غوطة دمشق ، وعلى ضفاف بردى والبريص ، رفل حسان في دوح وارف ، وكنف موطّأ ، ورشف الرحيق السلسل ، فصقلت طبيعة الفيحاء موهبته الأصلية ، وخلعت عليه من جمالها واعتدالها ، وصفائها وبهائها ، ما صفّى شعره ، وارتقى بخياله ، ولوّن صوره ، ووقّع موسيقاه ، ورقّق طبعه ، فأبدع في الغزل والخمر إبداعه في المدح والفخر ، ووهب من الغساسنة من الفن الخالد فوق ما وهبوه من المال البائد. أما مدح حسان للمناذرة ، فرغم ما قيل من وفود حسان على الحيرة ، وعن المال الوفير الذي رفده منهم ، وعن المكانة العظيمة التي نالها عند ملوكهم الذين كانت لهم جلالة تغشى العيون ، وقداسة تملأ الصدور ، إلاّ أن ديوان الشاعر نفسه على طوله وكثرة مدائحه التي كأنها وشي مرقوم ، وروض مرهوم ، لم تثبت وفوداً أو رفوداً ، فليس في ديوانه الذي حققه – البربوقي - أي أشعار أزجى فيها قلائد الشكر لأبي قابوس النعمان بن المنذر ، الذي قلب ظهر المجن للنابغة الذبياني ، أو أهدى محاسن الذكر لغيره من ملوك الحِيرة ، الأمر الذي يقود إلي ظنون بضياع بعض أشعار حسان رضي الله عنه. أو أن تكون تلك الأخبار المتناثرة في المصنفات

القديمة محض افتراء من الرواة. أو أن يكون حسان قد وفد على الحيرة ، ونشر مآثر أبي قابوس النعمان في المحافل ، وسيّر ذكر محامده في الآفاق ، إلا أن مدائحه تلك جار عليها الزمان ، وطواها تعاقبُ الحَدَثان. وهناك بدعة ضاربة في أطناب التاريخ ، ابتدعها رجال مكتظة أنفسهم بالجرائر ، مثقلة أفئدتهم بالكبائر ، أوغاد يتربصون بالإسلام الدوائر ، ويرومون ذهاب ريحه ، وضياع مجده ، بدعة مضغتها أفواه من سبقونا ، واجترتْها أقلام المُحدَثين في سماجة دون تدبر أو تمحيص ، تلك الأقلام التي لا تتورع عن تصديق الترَّهات وتأييدها ، ولا تتحرج عن التشبث بأفنانين الكذب والافتراء ، بدعة تصف شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سخر قريحته الجياشة للذّب عن بيضة الدين ، وعن نبيه الخاتم ، بالجبن والخوف ، وأمعنّت في رميه بصفات يندى لها الجبين ، ولعل المُسَوِّغ لذلك البهتان الذي لا يُمِت للواقع بصِلة أو يصل إليه بسبب أن حساناً لم يشهد المعارك ، بل كان يتسقط أخبار المسلمين في الحروب ويتسمع تفصيلاتها ، ثم ينظم في ذلك شعراً. ونسيت أو تناست أن أبا عبد الرحمن رضي الله عنه وأرضاه كان قد حبا نحو الستين حينما وطئت راحلة المصطفى عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم رمال المدينة ، وحينما كحلّ حسان رضي الله عنه عينيه برؤية النبي صلى الله عليه وسلم كان قد انهار جرف شبابه وذوى عوده ، ووهن عظمه ، كما أن هناك حقيقة تنقضُ افتراءات من تجرأ على سيدنا حسان ، وتجعلهم يقبعون بين ثنايا أنفسهم التواقة لتلفيق التهم ذائبين من الخجل والحياء ، فتقاعسُ حسان عن الطعن والضراب لم يكن سببه جبنٌ مؤثل في فؤاد حسان ، أو مَردّه تشبثه بالحياة ، وكراهية الموت ، لا أيها السادة لم يكن الرجل الذي خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم حاثاً إياه أنّ"يشد الغطاريف على بني عبد مناف وأقسم عليه الصلاة والسلام بأن شعره أشدّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام. بالخوار الرعديد ، لم يكن ابن الفريعة يَهابُ ساحاتِ الوَغى وموارد الطعان ، بل كان أكحله قد قُطع كما ذكر أبي فرج الأصفهاني ، فقد جاء في كتابه المصقول الحواشي: "قال الزبير: وحدثني عمي عن الواقدي قال: كان أكحل حسان قد قُطع ، فلم يكن يضرب بيده". إن العِلة التي لازمتْ حسان رضي الله عنه هي السبب في مجافاته للضرب والطعان ، والتحام الأقران بالأقران ، وكيف يتسنى لمن تصدى لأعداء الله ورسوله حمل السيف والتلويح به وإغماده في نحور العدي وهو من يتصون عن مؤاكلة الملوك خشية أن تحرجه يده الشلاء ، وهو صاحب العزة التي يكره أن تُضام. يقول حسان دالاً على تبرمه وضيقه بتلك العِلة التي منعتْه من مُواتاة الهيجا والوقائع:

أضرّ بجسمي مرُّ الدهـــــور وخان قراع يدي الأكحـــل

وقد كنت أشهد عين الحروب ويحمرُّ في كفيّ المنْصـــل

كما ينبغي علينا أن ندرك أن من شِيم الرعديد الذي يَفرقُ من أبيه أنه حتى يظل آمناً من كل سوء ، ونأَبيا عن كل فتنةٍ ، لا يُروض شعره في السخرية من أصحاب الساعد المجدول ، والعضد المفتول ، حتى لا تلحقه بوائقهم ، وتناله شرورُهم ، وهذا ما لم يفعله أبو الوليد طوال حياته ، فقد ظّل لفتراتٍ طِوال من حياته مغموراً بعداوات الرجال ، لشره لسانه في الهجاء ، ولجرأته الأدبية ، الأمرُ الذي يشيرُ إلي أنه من ذوي الشدة والبأس ، والجرأة والإقدام ، ومما لا يند عن ذهن أو يغيب عن خاطر ، أنا حساناً لو كان يحيد عن ظله جزعاً ، لاستهزئ منه أعدائه ولساموه الخسف والهوان في أشعارهم. وحسان بن ثابت عندما كان في معية الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتفع كثيراً بهذي المعية النبوية المباركة! فبعد أن صدع الرسول صلى الله عليه

وسلم بما أمره به الله ، وأنذر عشيرته الأقربين ، فضلاً عن الخلق كافة ، بعبادة الله عز وجل ونبذ عبادة الأصنام التي في عبادتها كل كدر وعيب ، ولكن صَناديد قريش وعُتاتهم لم يروق لهم ذلك ، وناصبوا رسول العزة العداء ، وأنزلوا به وبأصحابه صنوف الأذى حتى ضاقت عليهم بطحاء مكة رغم اتساعها ، الأمرُ الذي جعلهم يشدون الرحال إلي الحبشة فراراً بدينهم ، ثم إلي المدينة التي هشت لمقدم النبي الخاتم ، وضربت الدفوف لاستقباله ، وتحامى القوم في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنافسوا في الحَفاوة به ، وبعد أن شرع النبي صلى الله عليه وسلم في بسط القوانين ووضع الشرائع التي تكفل العيش الهانئ ، والاستقرار الخليق بالبقاء والنماء وعمارة الأرض ، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وكان من ضمن طوائف الأنصار ، بنو النجار أخوال النبي صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ، وكان من أشهر رجالهم ، حسان بن ثابت ، وأخوه أوس الذي آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينه وبين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ورغم أنّ أمهات الكتب لم تخبرنا عن السنة التي دخل فيها حسان الإسلام ، إلاّ أنها وضّحت بمنطق لا يخالطه غموض أنّ حسانّ بن ثابت منذ أن أعلن إسلامه وضع "موهبته الفذة تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقبله النبي صلى الله عليه وسلم بقبول حسن ، وأعلى من شأنه ، وأطرى شعره ، فاطمأن قلب حسان ، وطاب بما أصاب ، وخلع أوزار الجاهلية ، وادّرع درع البرّ والتقوى ، وأخلص للدعوة الجديدة ، وشحذ لسانه للدفاع عنها ، فكان المقدّم في كل محفل ، والمنافح في كل معترك". وحسان شاعرنا الفحل الغطريف لم يكن يدخر وسعاً في الذود عن حمى الإسلام ، ولم يكن حسان وحده في الساحة ، بل انبرى معه شعراء يقولون الشعر من غير كدّ ذهن أو تسهير جفن ، أو تشحيذ خاطر ، فكون حسان "مع صاحبيه كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة رابطة المدينة الشعرية التي كانت تنافح عن الإسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وترد الهجوم الشعري المشرك الذي كان يقوده شعراء الكفر في مكة. وقد استحق حسّان وصاحباه لقب (شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم)". وقد أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم الدور الكبير الذي يلعبه هؤلاء الشعراء في مجابهة قوى الكفر والضلال فعوَّل عليهم ، وثمّن جهودهم ، كما "عرف عليه الصلاة والسلام مكانة حسان وشعره ودوره في الرد على المشركين حين خاطب الأنصار بقوله: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال: والله ما يسرني به مِقوَل بين بصرى وصنعاء ، ولو شئت لفريت به المزاد ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: إني أسلُّك منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين. فقال النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: فاذهب إلي أبي بكر ، فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم وأهجهم وجبريل معك. ويكفي حسان فخراً ومكانة أن جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره معضداً بالوحي وبجبريل ، وبروح القدس بياناً لمكانته ودفاعه عن الدعوة الإسلامية". ولقد اتخذ حسان في هجائه لعِترة النبي صلى الله عليه وسلم وقرابته أسلوباً حكيماً ، فقد كان "يجعل فيه المهجو من خشارة قريش لا يرتفع له رأس إلي الؤابات من هاشم ، كهجائه لأبي سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب ، فإنه في هجوه إياه يهجو بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما استقام له أن يمعن في ذم والده الحرث ، فاقتصر على أنه يجعله عبداً بين إخوته والد النبي صلى الله عليه وسلم وأعمامه ، ثم عطف على أبي سفيان من جهة أمه وأم أبيه فهشمهما ، وجعل أبا سفيان من بني هاشم كقدح

الراكب من الرحل ، فأخرجه من الدوحة الهاشمية التي ينتمي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:

هو الصن ذو الأفنـــــــا ن لا الواحد الوغـــــــد

ومثل هذا الهجاء مؤلم مُمض يوغر الصدور ، ويُثير الضغائن ، ويهتك الحرمات والأنساب. قيل لما بلغ أبا سفيان أصاب منه مقتلاً ، فقال: هذا شعر لم يغب عنه أبي قُحافة ، فهو يعلم أنّ تلك الأمور لا يعرفها إلا علامة بالأنساب كأبي بكر رضي الله عنه". والشيء الذي لا يخامرنا فيه شك أن الهجاء لم يكن غاية في حد ذاتها ، بل وسيلة لصد تلك السهام التي كانت تترى للنيل من رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولكسر شوكة جبابرة قريش الذين يكن لهم هاجس يؤرق مضجعهم سوي القضاء على الدين الذي ظهر علاؤه ، وشهر سناؤه. وبهر ضياؤه جوانب الأرض ، وخوافق السماء. ونجد أن شاعرية حسان الهادرة وقدرته التي لا تضاهى في إخماد كل الأصوات التي تنعق بمعاداة الإسلام واضحة جليه في أشعاره ، فلقد أغنى رصفائه مؤونة الرد على كل مترديةٍ ونطيحة تناصب الإسلام العداء. فنجده يرد على شعر بن الزبعري في بدر قائلاً:

ذهبتْ بابنِ الزبعرى وقعـــــةٌ كانَ منا الفضلُ لوْ كانَ عـــــدلْ

ولقدْ نلتـــــمْ ونلنا منكـــــمُ وكذاكَ الحـــــربُ أحيانـــاً دُولْ

إذ شددْنا شـــــدَّةً صادِقَـــــةً فأجأناكمْ إلى سفـــــحِ الجبـــلْ

إذْ تولُّـــــونَ على أعقابكـــــمْ هرباً في الشعـــبِ أشباهَ الرسـلْ

ونجده يرثي بأشعار تستدر وكف العيون قتلى بئر المَعونة ، فقد طلب ملاعب الأسنة عامر بن مالك من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث قوماً من الأنصار ، فبعث إليه جماعة وأمرّ عليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فاغتالهم عامر بن الطفيل الذي عاضده نفر من بني سليم فأفنوهم ، فقال حسان:

على قتلي معونـــةٍ فاستهلي بدمع العين سحاً غير نـــزر

على خيل الرسول غداة لاقوا مناياهم ولاقتهم بقـــــــدر

أصابهم الفنـــاء بعقد قـــوم تخون عقد حبلهم بغـــــدر

فيا لهفي لمنـــــذر إذ تولـــى وأعنق في منيته بصبـــــر

وحادثة أخرى يميد فيها حسان من الغضب ، ويتفجر من الغيظ، حينما أقدمت عشيرة الحارث بن عوف المرى على قتل رجل من الأنصار كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسله للدعوة للإسلام بعد أن أدخله الحارث في جواره:

يا حار من يغدر بذمـــة جاره منكم فإن محمداً لا يغـــــدرُ

إن تغدروا فالغدر من عاداتكم واللؤم ينبت في أصول السخبرِ

وأمانة النهـــدي حيث لقيتها مثل الزجاجة كسرها لا يجبـرُ

وقد بكى حسان بدمع مدرار ، وقصائد تجعل الجملود يهش بالبكاء ، أسد الإسلام ، وسيد الشهداء ، سيدنا حمزة بن عبد المطلب في عدة قصائد ، يقول في إحداها:

أبيض في الذروة مِنْ هَاشِمٍ لَمْ يَمُرّ دُونَ الْحَـــقّ بِالْبَاطِـلِ
مال شهيداً بين أسيافكـــم شلت يـــدا وحشي من قاتـل
أي امرىء غادر في آلـــة مطـــرورة مارنة العامـــل
أظلمت الأرض لفقدانـــه واســـود نـور القمر الناصل
صلى عليه الله في جنـــةٍ عاليـــة مكرمـــــة الداخل
كنا نرى حمزة حِـــرزاً لنا في كل أمـــر نابنا نـــــازل

لقد جاهد حسان بلسانه طوال العشرة أعوام الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان له في كل موقف من مواقف المسلمين قصائد جياد ، ولذلك يعد شعره مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي لتلك السنوات ، فقد جاهد بلسانه في يوم بدر ، ويوم أحد ، ورثى حمزة رضي الله عنه كما رأينا ، ورثى خبيب بن عدي وأصحابه حينما غرت بهم هذيل ، وهجاها هجاءً مُراً كما رثى شهداء مؤتة: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم"؟ يقول حسان:

رأيت خيار المؤمنين تـــواردوا شعُوبَ وَخَلفًا بَعْدَهُمْ يَتَأَخّـــرُ
فلا يُبْعِدَن اللّهُ قَتْلَى تَتَابَعُـــوا بِمؤْتةِ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللّهِ حِينَ تَتَابَعُـــوا جَمِيعًا وَأَسْبابُ الْمَنِيّةِ تَخْطِـــرُ
غَدَاةَ مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ إلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النّقِيبَةِ أَزْهَرُ
أَغَرّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَبِيّ إذَا سِيمَ الظّلَامَةِ مِجْسَـــرُ

كما نجد أن شعره صا مؤيداً لما يتفوه به الرسول صلى الله عليه وسلم من قول ، ولعل أصدق ما يستدل به لصحة هذا القول ، الغضب الذي اجتاح النبي صلى الله عليه وسلم عندما تعرض أقوام لوديده وأعزّ أصدقائه الذي لم يتلجلج عندما عرض عليه أمر دعوته ، وصدّق خبر رقيه للسماء حينما كذّبه جماعة مما لزموا غرسه ، ورافقه في رحلته وكان ثاني اثنين هذ هما في الغار ، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم منبره ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، قال فيما معناه: أيها الناس ليس أحد منكم أمنّ عليّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر ، كلكم قال لي كذبت ، وقال لي أبو بكر صدقت ؛ فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً". ثم التفت عليه الصلاة والسلام إلي صاحب اللسان الذي يقلبه في كفيه كي شاء ، حسان رضي الله عنه الذي قال عن لسانه أنه إذا وضعه على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ، فقال: هاتِ ما قلت فيّ وفي أبي بكر ، فقال حسان: قلت يا رسول الله:

إذا تَذَكّرتَ شَجْواً مِنْ أَخٍ ثِقَـــةٍ فَاذْكُرْ أَخَاكَ أبا بَكـــــرٍ بما فَعَلا
التَّالِيَ الثّانِيَ المَحْمُـــود شِيْمَتُهُ وأَوّلُ النّـــاسِ طُرّاً صَدَّقَ الرُّسُلا

والثّاني اثنَينِ في الغــارِ المُنيفِ وَقَدْ طافَ العدوُّ به إذْ صَعَّدَ الجَبَلا

وكانَ حِبَّ رَسولِ اللَّهِ ، قد عَلِموا مِنَ البرِيَّـــــةِ ، لم يَعْدِلْ به رَجُلا

خَيرُ البَرِيَّـــــةِ أتقاها وَأَرْأَفُها بَعْدَ النّبيّ ، وأوْفاهـــــا بما حَمَلا

إن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقدر عطاء شعر حسان الدافق ، ويدرك مآثره في الدفاع في الإسلام بقوافيه التي تلجم كل من تسول له نفسه التعرض لحماه ، "لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسّم له في الغنائم بعد عودته من الغزوات كأي محارب شارك فيها بسيفه ، وكان صلى الله عليه وسلم دائم الثناء عليه ، حتى أنه تغاضى عن موقفه من عائشة في حديث الإفك المشهور ، كما تغاضى عن تعريضه بالمهاجرين ذات مرة ، وحين ضربه صفوان بن المعطل بسيفه لهجائه اياه ، عوَّضه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك بإعطائه بستاناً ، ووهبه سيرين القبطية ، أخت مارية أم ولد الرسول إبراهيم. "فولدت له ابنه الشاعر المفوه عبد الرحمن. وتشكك بعض المصادر في أن حسان الذي يضمخ الرسول صلى الله عليه وسلم بأشعار المدح والثناء ، يخوض في عرض زوجته الحميراء التي ذهبت بنصف الدين ، ربيبة الشرف والعفة ، والشيء الذي يدعم هذا الشك أننا إذا بحثنا وتقصينا في أشعاره لم نجد ما يؤكد هذا التلفيق ، "بل نجد أشعاراً يعلن فيها براءته من الوقوع في هذا الإثم ويعتذر عما خاض فيه مادحاً السيدة عائشة". نجده يقول:

حَصان رَزان ما تُـــــزَنُّ بريبَةٍ وتصْبِحُ غَرْثَى من لُحومِ الغَوَافِلِ

فإنْ كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتُـمُ فلا رفعـــــتُ سَوْطِي إليَّ أنَامِلِي

وكيف ووُدِّي من قديمٍ ونُصْرَتـي لآلِ رســـــولِ الله زَيْنِ المحَافل

واستمر حسان يقمع المتربصين بالإسلام ، ويخمد جذوة نيرانهم المتأججة تجاه الدين الخاتم ، حتى وافى الأجل المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة ، فرثاه بأبيات تتقطر أسى ولوعة ، يقول حسان المكلوم كما جاء في نهاية الأرب".

آليت حلفة برٍ غير ذي دخـــــــــل مني ألية حقٍ غير إفنـــــــــــاد

تالله ما حملت أنثى ولا وضعـــــت مثل النبي نبي الرحمة الهـــــادي

ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحدٍ أوفي بذمة جارٍ أو بميعـــــــــاد

من الذي كان نوراً يستضـــــاء به مبارك الأمر ذا حزم وإرشـــــــاد

وتكاد تخمد جذوة شاعرية حسان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا نجد له شيئاً ذا بال غير أبيات قالهن في مدح الزبير بن العوام ، وقطع أخرى يبكي بها الخليفة عثمان بن عفان حين اعتدى عليه المعتدون ، وانتهكوا بقتله حرمة الإسلام ، فهو ينعي على أهل المدينة وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قعودهم عن نصرته وخذلانهم إياه. والجدير بالذكر أن ندرك أن قريحة حسان الجياشة جعلته يتميز في شعره وأسلوبيته! إنّ الشاعر حينما تتدفق شاعريته وتنثال عليه المعاني سهواً ورهواً ويبدأ في نظم القريض إنما يريد أنّ يعبر عن شيء قد استبدّ في ذهنه وربض في دواخله ، ولأن الشاعر يتخير تعبيره وينتقي ألفاظه ، ويتنزه بها

عن التعابير الممجوجة التي يتفوه بها ملايين البشر ، يأتي تعبيره مغايراً لتلك التعبيرات التي يجود بها الشخص العادي ، تعبير أكبر من أن يتسامى في ابتداعه شخص ناضب القريحة ، صلد الذهن ، تعبير يبهر العيون ، ويسحر الأفئدة ، كلام فني انسجمت قطعه وحسُن توزيعه ، وألفاظ أتأدت حركاتها ، واتزنت كلماتها ، جُمل مُرصّفة تضفى على النفس ما يضفيه شدو القيان ، وهزج المزامير ، جُمل مترعة بالصور الشعرية الخلابة ، فالألم الذي يصلي الضلوع ، ويضرم الأنفاس ، شائع منذ قديم الأزل ، ومنغصات العيش ، وغصص العمر ، ومكدرات الحياة طعنت بسيفها المصقول حتى من لم يصدع بكلمة بعد ، أو يتفوه بحرف ، ولكن البوح عن الداء والشقاء أمر لا يتسنى إلا للشعراء الذين يجلوا أبكار المعاني ، ويروضوا القوافي الصعبة. وحسان بن ثابت رضي الله عنه من طليعة الشعراء الذين برعوا في ذلك ، فنجده قد بزّ أقرانه ، وبان شأوه على رصفائه ، فشعره وخاصة الذي حاكه في عنفوان الشباب يمتاز برقة اللفظ ، وسحر النظم ، وصدق العبارة ، الأمر الذي يجعله يلامس شغاف الأفئدة ، ويستقر في مهاد الذهن ، ومن أهم الخصائص الفنية التي تميز بها شعر حسان الإسلامي الهادر ، التدفق أو التدافع الذي ينبع من تأثره بالحدث الذي يحرك كوامن شاعريته ، "فعاطفته الجياشة كانت تستجيب طوعاً ، لإيمانه الصادق بالموقف ، وقد كانت طبيعة الموقف ، وسرعة الأحداث لا تمهلانه وقتاً لينقح شعره أو يهذبه أو يتفحصه". ولقد رأينا عن كثب أن معظم أشعار حسان كان يرتجلها ارتجالاً ، لا يكد فيها ذهنه ، ولا يشحذ خاطره ، وهذا مؤشر على تفرده وتدفق قريحته الفياضة التي تقول الشعر ولا تسهر عليه جَفناً ، ولا تكد فيه طبعاً ، كما يفعل عبيد الشعر الذين يتعهدون أشعارهم وينقحونها قبل إشاعتها على الناس ، كما كان يفعل زهير بن أبي سلمى وابنه كعب والحطيئة. وبعض النقاد يذهبون إلى وجود مثالب بسيطة في شعر حسان: فمن يتأمل أشعار حسان رضي الله عنه يجد شيء من الاضطراب يقطن فيها هذا الاضطراب سببه الانفعال الطاغي الناجم من الحدث الذي دفعه لقول الشعر قبل التأني والتريث حتى تخرج أبياته مصقولة الحواشي ، ريا الأماليد ، فأبياته التي جاء مخاضها قسراً ، نرقب فيها حسان رضي الله عنه وقد استشاط غضباً وخرج من إهابه ، لتعرض بعض السفلة لخير البرية عليه الصلاة والسلام ، فقد كان جوف حسان يغتلي بسيل عرم من المشاعر لا يردها أو يحبسها ، وهذا هو طابع شعره الإسلامي الراقي الذي خلا من الاسترسال في الوصف ، وكثرة التشبيهات التي تضفي على الشعر هالة من الجمال ، فحسان في شعره الإسلامي قلق مضطرب في سرد موضوعاته الأمر الذي يجعل أشعاره مفتقده للترتيب الموضوعي ، ولا تترك أي نوطة في القلب ، أو روعة في النفس ، سوي الإكبار لتصديه للذّب عن بيضة الدين. ورأي بعض النقاد بعض الركاكة شعر حسان الإسلامي: فنجد أنّ الأصمعي قد علل ظاهرة تضعضع شعر حسان الإسلامي بأن الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فيه الخير ضعف ، ويستدل بشاعرنا المتصرف في فنون الشعر حسان ، فيقول: هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره. وقال مرة أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام لحال النبي صلى الله عليه وسلم". ونجد أن الأصمعي يعقد مقارنة بين شعر حسان في الجاهلية وبين شعره في الإسلام ، مبرراً أن الشعر تواق للشر والإغراق في الدعوى والمبالغة في الوصف ، فإذا سكبت عليه شيء من قيم خمد وذهب توهجه ، والحقيقة أن شعر سيدنا حسان في نزقه وطيشه لم يكن على نمط واحد من الإبداع والجودة ، بل كانت له قصائد حازت على الألفاظ الضخمة ، والأساليب الفخمة ، وسلاسة الأنغام التي تأخذ بمجامع القلوب ،

كما كانت له قصائد تتسم بالضعف والحشو والإسفاف ، هذا شيء ، الشيء الآخر أن "شعر حسان كثر الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره ضعف ولان كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله الكثير من الوضع والإنتحال". فكثير من النقاد ذهب إلي أن الكثير من الشعر الموضوع ارتبط اسمه باسم شاعر الرسول ، فلقد تكالب العديد من رواة المغازي والسير حول مروج حسان الخضراء ، وحدائقه المصقولة الحواشي ليزرعوا حولها الحصرم والزقوم ، ولقد أقر الأصمعي فيما بعد بأن حسان تنسب له أشياء لا تصح عنه ، ومن هذا الباب "أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفهم وإلي جانبهم ، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحاربون الرسالة الإسلامية". وهذا ما أكده ابن سلام ونصّ عليه بقوله: "وقد حُمِل عليه ـ يعني شعر حسان ـ ما لم يحمل على أحد. لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنفى". كما علل النقاد اللين الغالب في شعره بأن حسان رضي الله عنه من شعراء الحضر ، والسمة الطاغية على شعراء الحضر هي رقة الشعور ، وصفاء الطبع ، وطلاوة الأسلوب ، ولقد ازداد شعر حسان لِيناً بتأثر حسان بأسلوب القرآن التصويري الذي جاء بدعاً في الأساليب والصّور ، وحسان الذي خلى شعره من بلاغة الوصف ، ومن الصور الخيالية الخلابة ، والذي عكف على الارتجال ولاذ ببابه ، عوضاً عن التنميق والتنخل ظهر تأثره بالقرآن واضحاً جلياً من خلال نبذه "للألفاظ الغريبة إلي الرقيقة السهلة ، ولكن أنيّ لحسان أن يجاري القرآن في نصاعة بيانه وبلاغة تعبيره ، فازداد شعره لِيناً على لِين ، على أن له بعض قصائد في الهجو والفخر وذكر الوقائع تعد من أطيب الشعر وأجوده". وأخيراً ماذ عن سمات شعر حسان في الجاهلية والإسلام؟ إن أهم السمات والدلائل التي اتصف بها أسلوب حسان في الإسلام هي تأثره بمعاني وقيم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما يلاحظ كثرة ورود الألفاظ الاسلامية في شعره. وأن حسان لم يكن يتعهد شعره بالتجويد والتنقيح. أما معانيه في الجاهليه فقد كانت تماثل شعر غيره من راضة القوافي في ذلك العصر ، ونجده في جاهليته قد مدح الملوك بأشعار سارت في كل صقع وواد ونال من عطاياهم وروافدهم ، كما نجده قد تشبب بالخرائد وسكب في عشقهن القصائد المترعة بالجمال ، ولقد تغزل بشعثاء وعميره وغيرهن ، أما في الفخر فلقد أطنب حسان في الافتخار بقومه وذكر مآثرهم ومناقبهم في أشعاره ، وفي الهجاء فنجد قصائد المناقضات التي كانت بينه وبين شعراء الأوس الذين نكّل بهم وسامهم الخسف والهوان ، وطحنهم طحن الرحى ، ولم يأمنوا من حدة لسانه إلا بعد أن دخلوا جميعاً في دين الله الخاتم أفواجاً ، وذهبت ضغائن الجاهلية إلي الأبد. ليصقل لسانه ويلهب به ظهور أعداء الدين. إن أهمية شعر حسان تكمن في قيمتها التاريخية في الجاهلية والإسلام ، فلقد أرخ حسان للحروب الطاحنة ، والحوادث الجسام التي وقعت في عهدين عاشهما ، وسجّل بقريحته الجياشة أهم وقائعها ، فقصائده الغر الجياد تضبط لنا مواطن اللبس فيها ، وتصحح شوائب الخطأ ، فحسان رضي الله عنه كان رائد الشعر السياسي في ذلك العهد الأول الذي يصطلي بالصراعات ، ويموج بالأحداث ، وقد وظف شعره وإمكانياته البلاغية للزود عن دين عصفت به الأنواء ، ونبي يتسابق القربى إلي حربه ، ويتنافس الغرباء إلي سلبه ووأد دعوته ، ونجده قد أسقط حُجَج الباغين ، وأورى زناد الساخطين ، وأشفى صدور قوم مؤمنين ، بالإبداع في

وصف القتال ، ومرارة الهجاء ، وإجادة الرثاء ، فاستحق ثناء المسلمين والنقاد الذين وصفوه بأنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. تغمده الله برحمته وأنزل على قبره شآبيب مغفرته ، وجمعنا به وبنبيه المصطفى في أعالي الجنان).هـ. ونحن نفخر أن تكون هذه الدراسة الأسلوبية لشعر حسان بن ثابت فاتحة خير ليتجه النقاد نحو الأسلوب عند حسان ، لتكون هناك مجموعة من الأبحاث والدراسات والأطروحات التي تتناول كل أسلوبيةٍ على حِدة! فالرثاء له أسلوبية متميزة عن المدح والفخر ، وتدرس كذلك بكائيات حسان على الأطلال! وتدرس قصائده عن الغزوات والسرايا والمعارك ، وتدرس أسلوبية ذوده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ودفاعه عن الإسلام! وتدرس أسلوبيته في الهجاء الذي تميز به لدرجة أن شعراء المشركين كانوا يسألون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكف حسان عنهم! وتكون هناك مقارنات بين شعر حسان في الجاهلية وشعره في الإسلام! والدراسات كثيرة ، ولكنني أعني دراسة الأسلوب!

الفصل الرابع عشر

(شخصية حسان بن ثابت في الأدب الإسلامي)

لا شك في أن حسان بن ثابت تميز من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشخصيةٍ عظيمةٍ صمدتْ في وجوه الأعداء بالكلمة والقصيدة! ومن هنا تميز شعره عن شعر غيره من شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم كابن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير وغيرهما! لقد صقل الإسلامُ حسان فخرج بشعر متوضئ طاهر وضيء له رسالته التي لا يزال يحملها التاريخ للأجيال! لقد كان لشخصية حسان الشعرية كبير الأثر ليس فقط على الناطقين بالعربية من المسلمين أو غير المسلمين منهم ، بل كان لشخصية حسان أثر كبير على بعض المستشرقين والباحثين الأجانب المنصفين العقلاء من غير الناطقين بالعربية ، وذلك بعد أن ترجمت أشعار حسان لهم ، وبعد أن أحيطوا علماً بجانب كبير عن حياة حسان في الجاهلية وحياته في الإسلام ومرافقته للرسول صلى الله عليه وسلم! ولقد أتاح له العمر المديد (120 سنة) فرصاً كثيرة لأن يعرف على مدى جيلين عاصرهما ، ثم خلد الله اسمه وشعره وشخصيته للأجيال المتعاقبة! يقول الأستاذ رشيد الزات تحت عنوان: (شخصية حسان بن ثابت في الأدب الإسلامي) ما نصه بتصرف زهيد: (نظراً لأن الأدب الإسلامي "تعبير جمالي شعوري باللغة عن تصور إسلامي للإنسان في الكون والحياة ، يجمع إلى الفن والجمال التعبيري الرؤية فإن هذا البحث قد ارتكز حول حسان بن ثابت وشعره في "الفكرية المنطلقة من عقيدة الإسلام الإسلام ، لاعتبار أنه أول تجربة يباركها الرسول عند ظهور الإسلام ، وكأن مباركته هذه استجابة للمقولة المأثورة: "الشعر ديوان العرب" ومادام النبي عربياً وبعث من العرب فلن يخرج عن نهجهم الأسمى الذي كانوا عليه ، وكأني بالنبي بعدما هاجم القرآن ـ نوعاً من الشعر ، بارك النبي شعر حسان ليريهم النموذج الذي ينبغي أن يكون عليه الشعر ، وكذلك ليهاجم من كان يهجوه ويهاجم دعوته بالسلاح نفسه فلا يصدر عنه ليقال إنه التجأ إلى سلاح آخر ، فاتخذ النبي حساناً شاعراً منافحاً عن دعوته ، ووشاه بالعديد من الأوسمة ، التي ظلت ترفع من شأنه مدى الدهور ، وعلى تغير الأزمان والعصور ، حتى غدا لقب شاعر الرسول ، لقباً ملازماً له متى ذكر رضي الله عنه! فماذا عن أقوال النقاد فيه ، وهل مارس النقد. من المعروف أن النقد الأدبي بدأ قديماً مع الجاهليين ، وإن كان هيناً يسيراً ملائماً لروح عصره ، ويورد أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني رواية مفادها أن حسان بن ثابت تعرّض للنقد أوائل تشَعُّره حين كانت تضرب للنابغة الذبياني قبة في سوق عكاظ لتعرض عليه أقوال الشعراء ، فعرَض عليه حسان شعره مدعياً أنه أشعر منه ، فزجره وأسكته وقال له: أنت لا تحسن أن تقول كذا ، وساق النابغة بيتين له ، ثم تقدمت الأيام وحصل أن جاء النابغة إلى المدينة فجلس حسان بين يديه وأنشده، فقال النابغة: أنت أشعر الناس! ويقول أبو عبيدة: فَضُل حسان الشعراءَ بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام وقال: أجمعت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف على أن أشعر أهل المدر حسان. وقال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان. ويورده ابن سلام في طبقات الفحول من شعراء القرى العربية: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وأشعرهن قرية المدينة وقال: "وأشعرهم حسان بن ثابت ، وهو كثير الشعر جيده". كما مارس حسان نفسه النقد على الشعراء ، مما يدل على رسوخ قدمه في فن

الشعر ، وعُمق نظرته الأدبية ، فقد أورد ابن سلام قصة مشهورة مفادها أن حسان بن ثابت سئل: من أشعر الناس؟ فقال: أرجلاً أم حياً؟ قيل: بل حياً ، قال: أشعر الناس حياً هذيل ، وأشعر هذيل أبو ذؤيب". ويبقى السؤال المرير الذي أخفق في الإجابة عنه كثيرٌ من الغابرين وكثيرلٌ من الحاضرون: هل ضعف شعر حسان ولان؟ وامتدادا لقضية ضعف الشعر في المرحلة الإسلامية وخاصة في المرحلة النبوية ، أراه زعماً تنطق به الألسنة لا يزيد! ، فقد كان شعر حسان بن ثابت في صميم الشعر الموسوم بالضعف اعتباراً لكونه النموذج الأول في الإسلام الذي يأخذ مكانته الرسمية فيه بمباركة النبي – صلى الله عليه وسلم -. وأقدم أثر نقدي في القضية قول الأصمعي: "الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير يضعف. لأن هذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره". ويقول الثعالبي: "فلما أدرك يعني حسان - الإسلام وتبدل الشيطان تراجع شعره ، وما دامت القضية امتداداً لإشكالية ضعف الشعر في الإسلام ، فإننا بالطبع سنجد موقفاً يُقِر وآخر ينفي ونحن إذ نقف على قبر حسان لنسائله عن مدى صحة قول الأصمعي فيه ، يُجيبنا جواب الحكيم ليقر بذلك بل ليبين سببه ، وذلك لما قال له السائل: لان شعرُك وهرِم يا أبا الحسام ، فقال للسائل: يا ابن أخي ؛ إن الإسلام يحجز عن الكذب. يعني أن الإجادة في الشعر هو الإفراط في الذي يقوله ، وهو كذب يمنع الإسلام منه ، فلا يجيء الشعر جيداً! ولا ننسى أن حسان قد أسس نظرية الصدق في الشعر لما قال:- (وإن أشعـــر بيت أنت قائلـــــه بيت يقال إذا أنشدته صدقـــــا). يقول التنيسي في المنصِف: "إنّ الصدق غير ملتمس من الشاعر ، وإنما المراد منه حسن القول في المبالغة في الوصف والشعر وفي فنون الباطل واللهو أمكن منه فنون الصدق والحق ، دليل ذلك شعر حسان في آل جفنة في الجاهلية ، فإنه كان كثير العيون والفصول ، قليل الحشو والفضول ، فلما صار إلى الإسلام طلب طريق الخالق واستعمال اللفظ الصادق فقل تناهيه وضعفت معانيه فهذه بلغة كافية من هذا المثال. والمعروف عن ابن خلدون رفضه ضعف الشعر في الإسلام ، ممثلًا بشعر حسان وغيره ، فها هو يقول في مقدمته: "كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير.. في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة. ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة. والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك ، وأصفى مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة. ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا. ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ، ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري! فقلت له: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ، ولعله السبب فيه. وذكرت له هذا الذي يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب كتبت فسكت معجباً ، ثم قال لي وثمت شيء آخر قد يكون سببا للقول بضعف شعر عند حسان عند من يقول بذلك - ألا وهو

الموضوعات التي يتناولها شعره الإسلامي من ربانيات ونبويات. ويكاد ابن خلدون حين يعترف بهذا يسقط في هوة التناقض ، إذ المعروف أن شعر حسان الإسلامي غالبه في هذا المنحى ، إلا أنه يتدارك الموقف ، بإرجاعه قوة الشعر في هذه الأغراض إلى الفحولة التي لا شك يُكرم بوسامها حسان بن ثابت. يقول ابن خلدون: "..ولهذا كان الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ، ولا يحذق فيه إلا الفحول وفي القليل ، على العسر ، لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك. ويقول سيد حنفي مقارناً لشعر حسان الجاهلي به في الإسلام "الجاهلي قوي جزل صادق التعبير ، ينبض بالحيوية ، ويتدفق بالأحاسيس التي توارثها جيلاً بعد جيل ، أما الإسلامي فقليل الذي يحتفظ بمستواه ، وكثير الذي يسقط ويضعفوتبقى كلمة الناقدين أن ما نظمه حسان بعد إسلامه افتقر إلى الجزالة ، وقوة الصياغة التي كانت له في الجاهلية. ولكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الحيوية والرقة والسلاسة ، ويتوهج من حين إلى آخر بتدفق عاطفي يكشف عما في قلبه من دفءٍ وحرارة. ويتفق النقاد على أن أساليب حسان بن ثابت بعد إسلامه قد سلمت من الحوشية والأخيلة البدوية ، ولكن خالطها لين الحضارة ، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة اللفظ ، وفخامة المعنى والعبارة ، كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي ورسالته ومعارضته المشركين وهجومهم. ويقول الناقد محمد مصطفى سلام: "لقد غلبت على أساليب حسان الشعرية الصبغة الإسلامية ، كتوليد المعاني من عقائد وتشبيهاته ولطيف كناياته ، وضرب أمثاله ، الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين ، كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال ، وأكثر ما نرى ذلك في شعر وتنزيهه ، وتهجين ونبذ عبادة الأوثان ، ووصف الشعائر الإسلامية وذكر الدعوة إلى توحيد الله مآثرها وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين وبعض ما مدح به الرسول أصحابه أو رثاهم به. والظاهر أن هذا هو قصد الأصمعي حيث "قد قصر مجال الشعر على الشؤون الدنيوية التي كانت سائدة في الجاهلية ، وحدد موضوعات تصلح له لا ويصلح لها ، وجعل صفة اللين عالقة بالموضوعات المتصلة بالخير والدين كلاماً مقارباً لهذا في نقده للبيد وشعره في ذكر الله. إن من يتعمق في ديوان حسان بن ثابت ، يجد أن فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته وإسلامه ، وفي فخامته وعذوبته ، ولا شك في أن ما يظهر من ضعف ولين في بعض إسلامياته ليس أصيلاً في فنه وإنما هو عارض ، ولعل ذلك يرجع إلى تقدمه في السن ، فضاقت مشاعر الشيخ عن فسحة التعبير الشبابي ، وذبلت خيالاته الشبابية ، وحدثت أحوال مثيرة لنوع جديد من العاطفة ، حمي فيها النضال واستعر القتال ، فانصرف الشاعر إلى الارتجال ، والسرعة في القول والتدقيق الموضوعي. وقد يكون بعض ذلك الضعف ناتجاً عما أضيف إلى ديوان حسان بن ثابت من الشعر المنحول. وحسب دراسة د. محمود عبد الله أبو الخير ، فإن ديوان حسان يضم ديوان مائة وخمساً وعشرين قصيدة ، إذا أخذنا بالرأي القائل إن القصيدة تتألف من سبعة أبيات على الأقل. ومن هذه القصائد خمس وثلاثون شكك فيها الباحثون ، وتسعون صححوا نسبتها إليه. والقصائد صحيحة النسبة إليه منها خمس وسبعون إسلامية ، وخمس عشرة جاهلية النحل على لسانه. ولقد لقي حسان بن ثابت من نحل الأبيات والقصائد على لسانه ما لم يلقه كثير من الشعراء ، نظراً لمكانته شاعرا للرسول ، فمن مدحه زكاه ومن هجاه أذله ، وكأنه اكتسب من وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد". يقول ابن سلام الجمحي: "لما تعاضدت قريش واستبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى. ويرجع الباحثون (كسيد حنفي في مقدمة

تحقيقه لديوان حسان) أسباب ذلك إلى الخصومات أو سياسية بين الأمويين والزبيريين والعباسيين ، كالتي كانت تأتي تارة عشائرية بين قريش والأنصار ، وإلى اختلاط شعره بشعر غيره ككعب بن مالك ، وابن رواحة ، ومن بعدهم كعبد الرحمن بن حسان ، لكن دخول شعر كعب في شعر حسان أكثر لكون كل منهما يهجو بالأنساب والأيام ، وابن رواحة بالكفر. ومما نحل عليه في هذا الباب: قول كعب:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم إلى الرسول فجند الله مخزيها

قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد لكعب. وقد حذف من سيرة ابن اسحاق من خمس عشرة قصيدة منسوبة إلى حسان ، عشر منها قد وردت في ديوانه. وينظر مقدمة تحقيق ديوان حسان بن ثابت للدكتور سيد حنفي حسنين فقد ناقش فيها قضية المنحول من شعر حسان ببعض التفصيل. ومن أغراض شعر حسان بن ثابت الهجاء ، وما تبقى في الافتخار بالأنصار ، ومدح محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم. ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل ، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام. ومن خلال نظرتين إلى شعر حسان بن ثابت، نظرة جاهلية وأخرى إسلامية، نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقة في التعبير بعد أن عمر الإيمان قلوب الشعراء، لا يخلو من في غالبه بل في كله عن النفس الإسلامي، فهو شديدة التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف في قالب الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصة فإن كلا منها يعبر عن موضوع واحد، هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهموسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام ثلاثة في الجاهلية والرابعة في الإسلام. حسان شاعر القبيلة: قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام ، كان منصرفاً إلى الذود عن حِياض قومه بالمفاخرة ، فكان شعره النضال القبلي تغلب عليه صبغة الفخر. أما الداعي إلى ذلك فالعداء الذي كان ناشباً بين قبيلته والأوس. ولقد كان فخر حسان لنفحة عالية ، واندفاعاً شديداً. فها هو ذا توقفه نسوة فيهم عمرة التي خطبها سراً ، فكلفنها أن تسأله عن نسبه وأخواله ، فقال:-

قَالَتْ لَهُ يَوْماً تُخَاطِبُـــــــهُ نُفُجُ الحَقِيبَةِ غَادَةُ الصُّلْــب
أما الوَسَامَةُ وَالمــرُوءَةُ أَوْ رَأْيُ الرِّجَالِ فَقَدْ بَدَا. حَسْبِي
فَـــــوَدِدتُ أنَّك لَو تُخْبِرُنـا مَن وَالِدَاكَ وَمَنْصِبُ الشَّعْبِ
فَضَحكتُ ، ثم رَفَعْتُ مُتَّصِلاً صَوْتي أَوَانَ المنْطِقِ الشّغَبِ

حسان شاعر التكسب: اتصل حسان بالبلاط الغساني ، فمدح كثيرا من أمراء غسان أشهرهم عمرو الرابع بن الحرث ، وأخوه النعمان ، ولاسيما جبلة بن الأيهم. وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوا له مرتباً سنوياً. ولم يكن يستدِرُّ بمدحهم العطاء فحسب ، يفاخر أيضا بهم لأنهم أخواله ، وكان شديد التعصب لهم حتى طلَّق امرأته عمرة بنت صامت حين عيرت أخواله ، ثم ندم على طلاقها فأرجعها ، فأنشد في مدح الغساسنة قصيدته المعروفة التي يقول مطلعها:-

أَجمعَتْ عَمـــــرةُ صَرْمـاً فَابْتَكِرْ إنما يُدهِـــــــنُ للقَلْبِ الحَصِرْ

وفيها: سَأَلتْ حَســانَ مَنْ أخْوالُه إنما يَسأَلُ بِالشيء الغُمـــــــــر

وفيها: منهمُ أَصْلي فَمن يَفْخَرْ بِه يَعْرِفِ النّاسُ بفَخْـــــرِ المُفْتَخِر

حسان شاعر اللهو: كان حسان بن ثابت مبتلىً بشرب الخمر والاستمتاع بالغناء ، والتغزل بالنساء ، وما يتبعه من لهو وعبث ، قبل دخوله الإسلام. وله في الخمر أوصاف شهيرة تأتي خصوصاً في مدائحه لملوك غسان ، كما له غزل ، وشعره هذا غير مستقل يختلط عادة بالفخر والمدح. وغزله تقليدي في معانيه وصوره. فمن خمرياته:

وَمُمْسِكٌ بِصداعِ الرأس مِن سُكُر نَادَيْتُه وهْوَ مغلُـــــوبٌ ففَدّاني

وفيها:

فاشْربْ من الخمر ما آتاك مَشْرَبُه وَاعلم بِأن كل عيش صالـح فاني

ومن تغزله بليلى:

لقد هاج نفسَكَ أشجانُهـــا وَعَاودَها اليـــــوم أدْيانـها

تذكـــــرتُ ليلى ، وأنّي لها إذا قُطِّعـــــت منكِ أقرانـها

الخاتمة

الحمد لله سبحانه وتعالى وعز وجل ، القديم في مجده ، الكريم في رفده ، الرحيم فكل خير من عنده ، اللطيف في كل حال بعبده ، مد الأرض بقدرته والعجب في مده ، وزينها بنباتها وألوان ورده ، وسقاها كأس القطر بواسطة برْقه ورعده ، وجمع في الغصن الواحد بين الشيء وضده ، وقوم الثمار بالماء من حر الشمس وبرده ، إله خوّف بوعيده وشوّق بوعده ، وقدر فاهتدى من هداه وضل من لم يهده ، وسمع فلم يعزب عن سمعه صوت المضطر بعد جهده ، وأبصر فرأى جريان دم العبد في عرقه وجلده ، وعلم عز وجل ما في باطن سره من بره وحقده ، وعزمه وحزمه وبغضه ووده ، وغمه وفكره وعلمه وقصده ، وحلمه وحبه وزهده ، ولفه ونقضه وأخذه ورده ، وقدر أعماله في حياته وحاله في لحده ، وجعل في الحكمة نسيان أهله من بعده ، فإن كان صالحاً عبق في قبره نشر ورده ، وإن كان عاصياً خلى بقبيحه وخطى ء ببعده ، فسبحان من لا يعترض العقل على أفعاله بل يقف على حده ، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)! أحمده سبحانه حمداً لا يقدر الخلائق على عده ، وأصلي وأسلم على رسوله وعبده ، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي كان الإسلام منحلاً لولا قوة شدّه ، وعلى عمر وحيد التدبير في السياسة وفرده ، وعلى عثمان قائم الليل والدمع يجري على خده ، وعلى علي المصلي مع الرسول قبل بلوغ رشده ، وعلى عمه العباس الذي أخذ له البيعة على جنده! وعلى جميع أصحابه الذين آثروا اتباعه وحبه وماتوا على بره ووده ، وعلى أتباعه الذين اتبعوه وحافظوا على عهده لينالهم من وعده! ألا إن الدنيا بحر عجاج ، ليس راكبه بناج ، الدنيا كظلمة ليل داج ، ليس فيها إلا الزهد سراج ، هدوءها انزعاج ، وسكونها اختلاج ، ضيقة الفجاج ، كدرة المزاج ، لا تغرنك ولو ألبستك التاج ، وقد خاطر من حمل في الوحل الزجاج ، تريك السلامة تغريراً وتمويها ، وتظهر المحاسن والقبائح وتخفيها ، تبين لنا كل كف كانت تبنيها ، ما تعتذر إلى جريحها كِبراً وتِيها! انتبهوا يا نيام ، افهموا هذا الكلام ، قد بقيت لكم في الدنيا أيام ، هذا عُود الحياة قد يبس ، ونور الشباب بالشيب منطمس ، ولسان الفرح بالترح قد خرس ، وسواء في الموت المهمل والمحترس ، ولا فرق عنده بين اللين والشرس ، أيها القراء كم رأيتم من قبر مندرس ، أيها القراء كم تلي عليكم زجر ودرس ، أيها القراء كأنكم في كف المختلس ، إنما هو نفس منطلق وكأن قد حبس ، ترى متى ينقى هذا القلب الدنس ، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس ، إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقِس! يا حريصًا على الدنيا مضى عمرك في غير شيء ، انقشع غيم الزمان لا عن هلال الهدى ، ما لذت لذة الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة ، أو لقليل العقل لا ينظر في عاقبة ، الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، إلى أي حين مع الصبا؟ أما يكفي ما قد مضى؟ إلى كم هذا الكرى؟ أين التيقظ لحلول الثرى؟ كم قد قتل قبلك المُنى؟ وإنما يفهم أولوا النهى! يا أسير رقاده ، يا مريض فساده ، يا معرضًا عن رشاده ، يا من حب الدنيا في سواد سواده ، ما ينفعه النصح على كثرة ترداده ، سواء عليه ناداه أم لم يناده ، تالله لقد غمزتك الحوادث بسلب القرناء غمزا ، ولزك المتقاضي بالأجل لو فهمت لزا ، أما في كل يوم بمحبوب تعزى ، أما ترى الأسنة تعمل طعنًا ووخزًا ، أما تشاهد مهندات السيوف تهز هزًا ، أين من أوعد ووعد هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا! قرائي الأحبة هذه الأيام مطايا ، فأين العدة قبل المنايا؟ أين الأنفة من دار الأذايا؟ أين العزائم أرضيتم بالدنايا؟ إن بلية الهوى لا تشبه البلايا ، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا ، يا مستورون ستظهر الخبايا ، سرية الموت لا تشبه السرايا ، قضية الزمان ليست كالقضايا ،

راعي السلامة يقتل الرعايا ، رامي المنون يصمي الرمايا ، ملك الموت لا يقبل الهدايا ، أيها الشاب ستسأل عن شبابك ، أيها الكهل تأهب لعتابك ، أيها الشيخ تدبر أمرك قبل سد بابك ، كنت في بداية الشباب أصلح ، فيا عجبا كيف أفسد من أصلح ، يا مريض القلب قف بباب الطبيب ، يا مبخوس الحظ اشك فوات النصيب ، لذ بالجناب ذليلا ، وقف على الباب طويلا ، واتخذ في هذا العشر سبيلا ، واجعل جناب التوبة مقيلا ، واجتهد في الخير تجد ثواباً جزيلا ، قل في الأسحار أنا تائب ، ناد في الدجى قد قدم الغائب! يا من قد سارت بالمعاصي أخباره ، يا من قد قبح إعلانه وإسراره ، فقيرٌ يا من الهدى أهلكه إعساره ، أتؤثر الخسران قل لي أو تختاره ، يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره ، يا مأسورا في حبس الزلل لا ينفعه إحصاره ، نقدك بهرج إذا حك معياره ، كم رد على مثلك درهمه وديناره ، يا محترقًا بنار الهوى متى تخبو ناره ، ما يلين قلبك لغامز ، وما يرى لما تشتهي متجاوز ، ما هذا الفعل أبداً فعل فائز ، إن مطيع الزمان حال عاجز ، وإن بين يديك لمفاوز ، فيها أهوالٌ وهزاهز ، تقومك ولا تستوي من يغير الغرائز! أين من ملك وقهر ، واستعمل في حفر النهر ونهر ، ضم الموت ذلك البشر ، وأخمد التلف ذلك الشرر ، وانتضت الآفات قويات المرر ، وعلموا أنه لا يصلح الأشر ، البشر واستبانوا أن بيعهم بيع الغرر ، كم راعت المنون سربا سربا ، كم أثارت قسطلاً وحربا ، تالله لقد جالت بُعداً وقربا ، فاستلبت البعدى وذوي القربى ، كم عمرت بخراب دورهم تربا ، فسل بها حال سلبها كيف استلبتهم سلبا ، أين ملوكها وأمراؤها ، ومُداحها وشعراؤها ، وخدامها وسحراؤها ، وأحرارها وأرقاؤها ، وغناؤها بالأموال وثراؤها ، باكرتهم والله بكراؤها ، فأعجز إبطاءهم إيرادها ، فضمتهم عن قليل صحراؤها! وتحت عنوان: (حسان بن ثابت "مداح الرسول عليه الصلاة والسلام") كتبت الأستاذة ياسمين محمود ما نصه بتصرف يسير: (لقد كان للشعراء حظ عظيم في الجاهلية وفي عصر صدر الإسلام ، حيث كان هؤلاء الشعراء لسان حال هذه القبائل ، ومن هنا تنوعت أغراض الشعر بين المديح والهجاء والغزل ، وحتى في عصر صدر الإسلام كان هناك عدد ليس بالقليل من الشعراء ، ولكن اختلفت أغراض الشعر ، ومن أهمها مدح الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وكان من بين هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت شاعر الرسول.

ولما كان مولده بالمدينة قبيل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بثمانية أعوام ، فكان بذلك شاعراً مخضرماً عاش في الجاهلية وعاصر الإسلام أيضاً. وكان حسان بن ثابت شاعراً عظيماً وصحابياً جليلاً ، وعلى الرغم من أنه عاش في الجاهلية ستين عاماً ، إلا أنه دخل في الإسلام ليصبح بعد ذلك شاعر الرسول ، وإذ كان انتماؤه إلى قبيلة الخزرج ، فكان بذلك من ضمن الأنصار الذين استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. وكان حسان بن ثابت على صلة كبيرة جداً بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشاد بالرسول وبالصحابة أيضاً ، وأهداه الرسول صلى الله عليه وسلم جارية قبطية اسمها سيرين بنت شمعون ، وهذه الجارية قد أهداها المقوقس ملك القبط إلى النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، فتزوجها حسان وأنجب منها عبد الرحمن ، والجدير بالذكر أن سيرين هي أخت مارية القبطية زوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم -. كما كان لحسان بن ثابت قبل الإسلام مكانة كبيرة جداً عند كبار الشعراء ، وأيضاً لكبار القبائل والغساسنة بالخصوص ، فكان يتصل بهم ليمدحهم مثله مثل سائر الشعراء ، واتصل أيضاً بالنعمان بن المنذر ، حتى أنه حل محل النابغة الذبياني في مدح النعمان ، وأيضاً عرف شعر الهجاء ، واشتملت أشعاره على ألفاظ جزلة قوية. وعندما أشرق نور الإسلام وسمع به حسان بن ثابت ، لم يبرح حتى دخل فيه ، وأخذ يدافع عن الإسلام والمسلمين

طيلة حياته ، إما عن طريق الشعر أو عن طريق الغزوات والفتوحات الإسلامية ، سواء كانت في عصر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أم في عهد الخلفاء الراشدين ، فتقرب حسان بن ثابت من الرسول وأخذ يمدحه حتى أنه مدحه بقصيدة البردة الشهيرة ، ومن كثرة إعجاب الرسول عليه الصلاة والسلام بشعر حسان منحه بردته حتى سميت هذه القصيدة بالبردة. ومما لا شك أن شهرة حسان بن ثابت لم تأتِ من فراغ ، وإنما أتت من بعد نظمه للشعر ، ويكفي أنه كان شاعر الرسول ، فلقب بمداح الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكما قام بنظم الشعر في المديح سواء كان قبل الإسلام أو بعده ، فإنه أيضا شارك في الفتوحات الإسلامية ، حتى إنه لم يهتم بالشعر في عهد الخلفاء الراشدين بقدر ما اهتم به في عهد رسول الله ، ولذلك اتفق الرواة والنقاد على أن حسان بن ثابت هو أشعر أهل المدر في عصره وأيضاً هو أشعر أهل اليمن جميعاً ، وترك لنا الكثير من الدواوين الضخمة التي كان شاهداً حقيقياً على بلاغته).هـ.

نبذة عن أحمد علي سليمان عبد الرحيم

(الشاعر والكاتب والناقد / أحمد علي سليمان عبد الرحيم ، ولد في جمهورية مصر العربية - محافظة بورسعيد - تقاطع شارعي روس وأسوان ، في يوم 15 / 10 / 1963م. تخرّج في كلية الآداب – قسم اللغة الإنجليزية - جامعة المنصورة - مايو عام 1985م. والشاعر بدوي صَعيديٌ قح أباً وجداً وأعماماً من بيت خليفة - الكولة - مركز أخميم - محافظة سوهاج. يدعو في أدبه إلى القيم والأخلاق والمبادئ بوسطية ودليل! وهو معلم لغة إنجليزية - لم يُقدمه للناس أحد! وإنما قدمه أدبه وشعره ونقده بالحسنى - بتوفيق الله تعالى! وأما الدواوين والقصائد والمجموعات الشعرية والكتب:

أولاً: الدواوين الشعرية

1 – نِهاية الطريق: (ديوان شعر).
2 – عزيزُ النفس: (ديوان شعر).
3 - سُويعات الغروب: (ديوان شعر).
4 – القوقعة الدامية: (ديوان شعر).
5 - ترنيمة على جدار الحب: (ديوان شعر).
6 – الأملُ الفواح: (ديوان شعر).
7 – من وحي الذكريات (1): (ديوان شعر).
8 – الصعايدة وصلوا: (ديوان شعر).
9 – ذلُ الجمال: (ديوان شعر).
10 – ماسحة الأحذية: (ديوان شعر).
11 – دموعُ التصبر: (ديوان شعر).
12 – عِتابٌ وشكوى: (ديوان شعر).
13 – فأعِضُّوهُ ، ولا تكنوا: (ديوان شعر).
14 – الشعر مِسبحتي وتَغريدتي: (ديوان شعر).
15 – غادة اليمن: (ديوان شعر).
16 – عَزة الخير: (ديوان شعر).
17 – مَنارُ الخير: (ديوان شعر).
18 – غربة وحَربة وكُربة: (ديوان شعر).
19 – الطبيبتان: (ديوان شعر).
20 – عجبتُ مِن قدرة الله تعالى: (ديوان شعر).
21 – أعلامُ الأرض المقدسة: (ديوان شعر).
22 – كالقابض على الجَمر: (ديوان شعر).
23 – من وحي الذكريات (2): (ديوان شعر).
24 – خانك الغيث: (ديوان شعر).
25 – الشعرُ رَحِمٌ بين أهله: (ديوان شعر).
26 – وَداعاً أيها القريض! (ديوان شعر).
27 – يا شعرُ كُنْ لي شاهداً! (ديوان شعر).
28 - اللهمّ تقبَّلْ مِني شِعـــري! (ديوان شعر).
29 - اللهَ اللهَ في شِعر أبيكم! (ديوان شعر).
30 - ترجمة الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم.

ثانياً: الكتب الأدبية والنقدية

1 - قراءة أسلوبية في شعر الصحابي الجليل المُخضرم: حسان بن ثابت الأنصاري (رضي الله تعالى عنه).
2 – قراءة أسلوبية في شعر أحد أغربة الجاهلية وشعرائها: عنترة بن شداد العبسي.
3 - السيرة والمسيرة (دراسة نقدية لحياة التابعية الأميرة: زبيدة بنت جعفر بن المنصور) (رحمها الله).
4 - مشاركاتي على الفيس بك والواتس آب! (لغوية وأدبية وشعرية ونحوية).
5 – ثلاثمائة سؤال وجواب في سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم -!
6 – إن من الشعر حكمة! (مجموعة من الأبيات الشعرية لآخرين تأثرتُ بها في حياتي العملية والعلمية)
7 – مائة ألف معلومة ومعلومة! (معلومات قيمة في مختلف فروع العلوم على هيئة سؤال وجواب!)

ثالثاً: القصائد الشعرية ذات الشأن

1 – الشاعر ليس نبياً ليكون شعره وحياً!
2 – القاتل البطيء (التدخين)
3 – بين شوقي وحافظ!
4 – ثاني اثنين إذ هما في الغار!
5 – عُمَير بن وهب الجمحي – رضي الله عنه -.
6 – لو كان له رجال! (سيرة الحاجب المنصور)
7 – من أجل زوجي!
8 – هشام الشريف (القاضي المصري الرحيم)
9 – فرانك كابريو (القاضي الأمريكي الرحيم)
10 – يا ليل الصب متى غده! (معارضة للقيرواني)
11 - يزيد بن معاوية (ما له وما عليه)
12 – رباعيات الخيام اليمنية (معارضة لعمر الخيام)
13 – ابتسم! (معارضة لإيلياء أبو ماضي)
14 – إبراهيم مصطفى صَديقاً وصِهراً
15 – أبو غياث المكي – رحمه الله –
16 – أتيناكم! أتيناكم!
17 – أحمد الجدع مؤرخاً وشاعراً ونحوياً وناقداً
18 – أستاذي قال لي! (عريف الكُتاب – رحمه الله -)
19 – قراءة في أوراق الماضي (القصيدة الوحيدة من شعر التفعيلة)
20 – أسماء الله الحسنى (مدح الله تعالى)
21 – الآن طاب الموت (السلطان سليمان القانوني)
22 – التلون أخو النفاق من الرضاعة
23 – موقع (الديوان) منتجع الشعراء
24 – (الزاهية) تحدثنا عن نفسها
25 – أبجديات شعرية
26 – الشعر رَحِمٌ بين أهله
27 – الله يرحمُ مُزنة
28 – رسالة شعرية إلى أم يوسف
29 – امتَهنوا فما امتُهنوا! (علماء السلف رحمهمُ الله)
30 – تراني عندما أرى لِحيتك!
31 – لا فضّ فوك يا دكتور بدر العتيبي!
32 – بُردة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –
33 – بردة عائشة بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما –
34 – بردة عثمان بن عفان – رضي الله عنه –
35 – بردة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –
36 – بردة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –
37 – بردة فاطمة بنت محمد – رضي الله عنها –
38 - بكائية إسماعيل علي سليم (فقيد التربية والتعليم)
39 – نعم المَيّت ، ونعمت المِيتة! (رثاء فقيد الأزهر الشريف)

40 – تحية رقيقة إليك يا غدير!
41 – تحية أهل الشعر في جروب (أهل الشعر)
42 – تغير الحال أم الخال؟!
43 – عزائي وتأبيني للشيخ الصابوني – رحمه الله تعالى -
44 – تيس يرث نعجة! (جيء به مُحَللاً فورثها)
45 – ثلاثة أقمار وأنت رابعتهن! (رؤيا عائشة)
46 – جاز المعلمَ وفهِ التبجيلا! (معارضة لشوقي)
47 – حادي القلوب (ظفر النتيفات)
48 – حبيبتي أقبلتْ! (معارضة لجاءت معذبتي لابن الخطيب)
49 – حرامية الشعر!
50 – حنين القلب (رثاء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد)
51 – حنين بقلبي (معارضة للعشماوي)
52 – خانك الغيث (معارضة للسان الدين بن الخطيب)
53 – رثاء الدكتور الشربيني أبو طالب (معارضة لشوقي)
54 – رثاء الحاجة فاطمة (أم زكريا مجاهد) (معارضة لشوقي)
55 – رسالة إلى دائنة! (ابنة السويدي)
56 – رضيعة الحاوية (رماها أبوها رضيعة فنفعته في كبره)
57 – رفقاً بنفسكِ يا صاحبة الدموع (عائشة – رضي الله عنها -)
58 – رُفيدة بنت سعد الأسلمية – رضي الله عنها –
59 – سلطان المجنوني (رائد القصة الهادفة)
60 – سُمية بنت خياط – رضي الله عنها –
61 – سنسافر أنا والكتب (عبد الرشيد صوفي)
62 – ضحية تعتب على قاتلها! (بعد استشراء ظاهرة قتل البنات)
63 – طِبت حياً وميتاً يا أبتاه!
64 – طِبت حياً وميتاً يا رسول الله!
65 – طبيب الغلابة (الدكتور محمد المشالي – رحمه الله -)
66 – ظلم الشقيقتين (كفلهما شقيقهما صغيرتين وخذلتاه في الكبر)
67 – عاشقٌ عزيز النفس (معارضة لقصيدة نزار قباني: يا من هواه)
68 – موقع (عالم الأدب) مأوى الشعراء
69 – عجبتُ للنذل
70 – عجبت من قدرة الله تعالى! (معارضة لقصيدة: عجبتُ لا تنتهي)
71 – غادة اليمن (معارضة لغادة اليابان لحافظ)
72 – وربما حار الدليل!
73 – الكائنات الفضائية!
74 – لصوص القريض
75 – لقاؤنا في المحكمة
76 - لوعة الرحيل
77 - مسألة كرامة (تحويل (تبيني صدق لحامد زيد) إلى العربية الفصحى)
78 – كفى تبرجاً وقبحاً (معارضة لقصيدة: أفوق الركبتين للخوري)
79 – مصابيح الدجى (علماء السلف – رحمهمُ الله -)

80 – مكتبة نور مأوى الأدباء والعلماء والشعراء
81 – منار الخير (هدية لجمعية حماية اللغة العربية)
82 – ميلاد أمة بميلاد نبيها (معارضة لقصيدة شوقي: ولد الهدى)
83 – هذا بعض ما أعيش! (معارضة لقصيدة الأميري: أين الضجيج؟)
84 – الأطلال اليمنية (1 & 2) (معارضة لقصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي)
85 – كن كما أنت! (انتصارية للشيخ الصابوني رحمه الله)
86 - تلميذي البار شكراً!
87 - القصيدة الزينبية (محاكاة لزينبية ابن عبد القدوس) 2
88 - شمس العرب تسطع على الغرب!
89 - تحيتي لموقع الشعر والشعراء!
90 - الخلق والعلم معاً - الأستاذ محمد الكيلاني!
91 - الشعر حَنينٌ ورنينٌ وأنين!
92 - امرأتان من صعيد مصر! (هاجر&مارية)
93 - المقابر تتكلم 1 (إنها تذكرة!)
94 - زواجٌ بالإكراه!
95 - شِعرٌ يؤنّبُ صاحبَه!
96 - وهل من مات يعود إلى الدنيا؟!
97 - محاكاة لامية ابن الوردي!
98 - امرأة تزوجتْ رجلين!
99 - أصابَكَ عشقٌ أم رُميتَ بأسهم؟ (محاكاة ليزيد بن معاوية)
100 – مروءة ولى زمانها!
101 - أحب الصالحين! (محاكاة للشافعي وأحمد)
102 – زلزال تركيا المدمر!
103 - المقابر تتكلم 2 – (نصيحة لزائري القبور)
104 - المقابر تتكلم 3 – (وصية أصحاب القبور)
105 – المقابر تتكلم 4 – (حوار بين ميتٍ وقبره!)
106 – دمه وماله وعِرضه! (الصهر الكذاب)
107 – سعة علم أبي يزيد البسطامي!
108 – رمضان أشرقْ!
109 – يا شعرُ كن ليَ شاهداً!
110 – المقابر تتكلم 6 (العفو عند المقبرة)
111 - القطة وإمام المسجد – وليد مهساس
112 – مكافأة لا قِصاص! (عمر بن عبد العزيز)
113 - حللت أهلاً ونزلت سَهلاً يا عيد الفطر!
114 - تحية للأستاذ مهدي سعد زغلول (معلم اللغة العربية بمدرسة كفر سعد الثانوية)
115 – المقابر تتكلم 7 (المبالغة في البناء)
116 – شبعة من بعد جوعة (رسالة إلى أسرةٍ وضيعة)
117 – فإذا أمن بعضكم بعضاً! (رسالة إلى متكسِّب بالقرآن!)
118 – عَظم الله أجرك في الكتب! (رسالة إلى سارق الكتب)
119 – لا تقولوا: ضحِية زوجته!
120 – غادة الأزهر! (حبيبة السيد مصطفى خليفة)
121 – منتقبة لا مُنقبة!

122 – نقابي حِشمتي!
123 – منتقبة لها دَورُها!
124 - النقاب والمنتقبات في شعر أحمد علي سليمان
125 - أخرْتُ عمّنْ هان رد سلامي! (معارضة لحمزة شحاته)
126 – لا يُؤت الإسلام من قبلك يا ذات النقاب!
127 – النقابُ ثلاثة أنواع!
128 - دموع المآقي في تأبين كريم العراقي!
129 – ليتني أطعتُ صِحابي!
130 - غِريد القرآن عبد الباسط عبد الصمد!
131 - منتقبة ذات علم وخلق!
132 – الأعمال بالخواتيم 2 (العروس الصادقة)
133 – الأعمال بالخواتيم 3 (يوم عرسها ماتت!)
134 – المنتقبة الصغيرة!
135 – تدل على الرجال مواقفهم (محمود هلال)
136 – وليس العُري كالستر!
137- إعصار ليبيا المُدَمر (دنيال)
138 - المنتقبة والعصفور!
139 - عروسة المولد!
140 - ما ذنب النقاب يا قوم؟!
141- العدل بين الزوجات أولى!
142 - الأعمال بالخواتيم 3 - عروسٌ تموت وهي ترقص!
143 - المنتقبة الفارسة!
144 - ممارسات تُزري بالمنتقبة!
145 - قصة المنتقبة مع قطتها!
146– ذات النقاب والفارس!
147 – منتقبتان في الحديقة!
148 – المنتقبتان الضرّتان!
149 - المنتقبة والبحر!
150 - المنتقبة والقطة المبتلاة!
151 - المنتقبة واليتيمتان!
152 - دعاء مغترب!
153 - لباقة منتقبة!
154 - نسيم الشعر على عطية صقر!
155 - وداعا صديقي محسن مأمون رسلان!
156 - عندما يتبرج النقاب!
157 – هدية امرأة منتقبة!
158 - منتقبات في حلقة التحفيظ!
159 - منتقبة تتزود للآخرة!
160 - من فات قديمه تاه!
161 - أبتاه عُذراً!
162 – نقاب غطته الدماء! (رزان)
163 – النقاب للستر ، لا للنشر!

164 – أطفال تحت الأنقاض!
165 – مراعاة شعور الآخرين مروءة!
166 – القارئ المرتل ظافر التائب
167 – نجومٌ في ظلمات حياتنا!
168 – إحدى الحسنيين!
169 – أرسلوا النعوش والأكفان!
170 – الحجاب ليس حِكراً على النساء!
171 – السمط الثمين في حكمة ابن عُثيمين!
172 – مراعاة شعور الآخرين مروءة!
173 – الوقت كالسيل لا كالسيف!
174 – النفس وظلمات التيه!
175 – جرح المتهم البرئ!
176 – رسالة إلى الشاعر (الفولي عصران)!
177 - البدوية المنتقبة!
178 - الجوهرة تُحفظ لا تُعرض!
179 - النصر حفيد الصبر!
180 - إلى خنساوات أرض الرباط!
181 - بريءٌ دَهته المنايا!
182 - فيم الصمتُ عن أرض الرباط؟
183 - القمرُ المنتقبُ الصغير!
184 – المقابرُ تتكلم 8 (بدع الجنائز والمقابر)
185 - الأزهري الصغير معاذ!
186 - المُنتقبات الخمس الصديقات!
187 - النقاب تشريع لا تقليد!
188 - منتقبة تشتكي إلى الله! (نانا)
189 – عهد المنتقبات!
190- رجل جمع القرآن صوتياً (الدكتور لبيب سعيد)
191 – تحية لمصانع الأزياء الإسلامية!
192 - لك حُبي واحترامي!
193 - لا وقت للدُمَى ، يا بُنَي!
194 - حكاية الجرسونة (روزا)!
195 – سنرحلُ ويبقى الأثر! (المشالي & عطية)
196 – لماذا تبكي النّساء؟!
197 – هرقل والمُلك الزائل!
198 – هل في القزع جمال؟!
199 – في مكتب مدير المدرسة (1)!
200 – في مكتب مدير المدرسة (2)!
201 - إلى أين يا عدوة نفسها؟
202 – أختٌ من الأب!
203 – مالكُ بنُ دينار وابنته!
204 – تذكَرْ يوسف وموسى!
205 – التجمّل الباطل في وسائل التواصل!

206 – حَميد الله الهندي!
207 – البذاذة من الإيمان!
208 – مُحْيي الدين عبد الحميد!
209 – كلابٌها أصدق من أهلها!
210- رسالة منتقبة حكيمة!
211 – عليهِ العِوَض ، ومنهُ العِوَض!
212 – هل مات العريس؟!
213 – الله الله في شعر أبيكم!
214 – هل أصبحتُ وباءً؟!
215 – من المحنة تأتي المنحة!
216 – الخمسة أولادي!
217 – رجلٌ جمعَ القرآن صوتياً (الدكتور لبيب سعيد!)
218 – ياسمين والرحيل إلى الله!
219 - سامحوني أيها الأبناء!
220 – هل في القزْع جمال؟
221 – كذبتني ، فهل صَدَقتَ؟!
222 – امرأة بألف رجل!
223 – الواعظة الصغيرة!
224 - زوجات مبتكرات!
225 - اللهم تقبل مني شعري!
226 - الكلاب في شعر أحمد سليمان! 1 -
227 – قالت رحابُ ، وقلتُ! (محاكاة لرحاب المحمود)
228 – خياران أحلاهما مُر!
229 – كم أعطوك؟!
230 – الخديعة الكُبرى!
231 – نحن جاهزون للطلاق!
232 – الوريث الوحيد!
233 – فاعدل بينهم!

رابعاً: المجموعات الشعرية الموضوعية

1 – الغربة سلبيات وإيجابيات
2 – إلى هؤلاء أتكلم!
3 - آمال وأحوال
4 – أمتي الغائبة الحاضرة
5 – أنات محموم وآهات مكلوم
6 – أوبريت هيا إلى العمل (أوبريت غنائي للأطفال)
7 – تحية شعرية ، والرد عليها
8 – رمضان شهر الخير والبركة
9 – عندما لا نجد إلا الصمت
10 – يا أماه ويا أختاه كُفا الدمع!
11 – بيني وبينك!
12 – تجاذبات مع الشعر والشعراء

13 – دموع الرثاء وبكاء الحُداء (1 & 2)
14 – رجالٌ لعب بهمُ الشيطان
15 – رسائل سليمانية شعرية
16 – شخصيات في حياتي! (1 & 2)
17 – شرخ في جدار الحضارة
18 – شريكة العمر هذي تحاياك! (أم عبد الله)
19 – ضِدَّان لا يجتمعان: الشهامة والنذالة (1 & 2&3)
20 – عندما يُثمِرُ العِتاب
21 – فمثله كمثل الكلب!
22 – قصائدُ لها قِصصٌ مُؤثرة (1 : 10)
23 – كل شعر صديق شاعره!
24 – مساجلات سليمانية عشماوية!
25 – مُراودة ومُعاندة (بين نذل وزوجة أخيه المسافر)
26 – الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور – رحمها الله –
27 – الزاهية تُحدثنا عن نفسها (مسرحية شعرية من عشرة فصول)
28 – الشهادة خيرٌ من النفوق!
29 – الصبر تِرياق العِلل والداءات
30 – الصعيد مهد المجد والسعد
31 – الضاد بين عدو وصديق
32 – العيد السعيد جائزة الله تعالى
33 – الغربة دُربة على الطريق
34 – الغيرة غير القاتلة
35 - القصيدة ابنتي
36 – اللغة العربية وصراع اللغات
37 – اللقيط برئٌ لا ذنب له!
38 – المال والجمال والمآل
39 – المشاكل الزوجية توابل الحياة (1 & 2)
40 – المعلم صانع الأجيال!
41 – الوحدة بر الأمان (مسرحية من فصل واحد)
42 – اليُتْم غنمٌ لا غرم
43 – أمومة وأمومة
44 – أهازيج بين الشعر والشاعر
45 – أهكذا تكون الصداقة يا قوم؟!
46 – أهكذا يُعامَل الشقيقُ يا أوباش؟!
47 – بين الفتنة والفطنة!
48 – بين هندٍ وزيد!
49 – جيران وجيران!
50 – رب ارحمهما كما ربياني صغيرا! (شاعر يرثي أبويه)
51 – عزة الخير (أم عبد الله)
52 – فداك أبي وأمي ونفسي يا رسول الله!
53 - قصائدي القصيرة المشوقة (1 & 2)
54 – مدائح إلهية شعرية!

55 – اليمن في شعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم
56 – البُردات الشعرية السليمانية
57 – عيون الدواوين السليمانية
58 – معارضات سليمانية شوقية (معارضاتي لشوقي)
59 – المعارضات الشعرية الكاملة (معارضاتي لبعض الشعراء)
60 - مقدمات وإهداءات شعرية
61 – من أزاهير الكتب
62 – من الأجوبة المُسكتة المُفحمة
63 – من أناشيد الأفراح
64 – نحويات شعرية
65 – نساء صَقلتهن العقيدة
66 – نساءٌ لعب بهن الشيطان
67 – وتبقى الحقيقة كما هي!
68 - وصايا شعرية!
69 – أم المؤمنين عائشة في شعر أحمد علي سليمان
70 – النفس في شعر أحمد علي سليمان
71 – الأندلس في شعر أحمد علي سليمان
72 – الحجاج في شعر أحمد علي سليمان
73 – الدنيا في شعر أحمد علي سليمان
74 – الصحابة في شعر أحمد علي سليمان (1&2&3)
75 – العثمانيون في شعر أحمد علي سليمان
76 – المنشدون في شعر أحمد علي سليمان
77 – علماء السلف في شعر أحمد علي سليمان
78 - علماء الخلف في شعر أحمد علي سليمان
79 – رسائل شعرية لمن يهمه الأمر
80 – ماذا قال لي شعري؟ وبم أجبته؟
81 – مواقع متفردة لهمم مغردة!
82 – المرأة في شعر أحمد علي سليمان 1 & 2 & 3
83 – التوبة في شعر أحمد علي سليمان
84 – بر الوالدين في شعر أحمد سليمان!
85 – أبو بكر الصديق في شعر أحمد علي سليمان
86 – نصيب طلابي من شعري!
87 – حضارة البِطنة لا الفِطنة!
88 – إحقاقاً للحق وإظهاراً للحقيقة 1 & 2
89 – لا ينبغي أن ننخدع بلحن القول!
90 – الإدمان ذلك الشبح القاتل!
91 – دعاة الحق في شعر أحمد علي سليمان
92 – المُرتزقة في شعر أحمد علي سليمان
93 – القرآن الكريم في شعر أحمد علي سليمان
94 – وترجون من الله ما لا يرجون!
95 – قرية ظفر في شعر أحمد علي سليمان
96 – الفاروق عمر في شعر أحمد علي سليمان

97 – الإسلام في شعر أحمد علي سليمان
98 – صنائع المعروف تقي مطارق السوء! (3&2&1)
99 – الموت في شعر أحمد علي سليمان
100 – لماذا؟
101 – (لا) كلمة لها وقتها!
102 – هارون الرشيد في شعر أحمد علي سليمان
103 - يا جارة الوادي اليمنية (1 & 2) (معارضة لشوقي)
104 - العشق في شعر أحمد علي سليمان
105 - الحكمة في شعر أحمد علي سليمان (3&2&1)
106 – أين؟!
107 – الحب في شعر أحمد علي سليمان
108 – القلوب في شعر أحمد علي سليمان
109 - الشعر والشعراء في شعر أحمد علي سليمان (2&1)
110 - الطب والأطباء في شعر أحمد علي سليمان
111 – أيومة إلى الأبد!
112 – شتان بين البر والعقوق
113 – الملك والأميرة!
114 - عنوسة مع سبق الإصرار والترصد
115 – الظلم والظالمون في شعر أحمد علي سليمان
116 - النفاق والمنافقون في شعر أحمد علي سليمان
117 - الطبيعة في شعر أحمد علي سليمان
118 – الأميرات الثلاث!
119 – عندما!
120 - تحايا شعرية سليمانية (3&2&1)
121 – قصائد يوتيوبية سليمانية (1) & (2)
122 - مشاركاتي على الواتس آب والفيس بك!
123 - مجلس التهاني في قناة المجد الفضائية!
124 - رحلتي مع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد!
125 – النقاب والمنتقبات في شعر أحمد علي سليمان!
126 - الأنين في شعر أحمد علي سليمان!
127 - الطفولة في شعر أحمد علي سليمان!
128 - الأريج في شعر أحمد علي سليمان!
129 - الأنين في شعر أحمد علي سليمان!
130 - الطفولة في شعر أحمد علي سليمان!
131 - القلم في شعر أحمد علي سليمان!
132 – حسابي مع الأوباش!

خامساً: الكتب القصصية

شرائح قصصية سليمانية في ثلاثة آلاف قصة وقصة ، مقسمة على ثلاثين جزء ، كل جزء يحتوي على
مائة قصة مختلفة الموضوعات ومتنوعة في الكم والكيف!

سادساً: الكتب المحققة والمخرّجة

سابعاً: الكتب الإنجليزية

1 . Proofreading Drills (1-12)

2. Reading Drills (1-50)

3. Reading Quizzes (1-111)

4 – Airborn (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

5 - Allied with Green (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

6 - Conversation Skills

7 - Correction Exercise (1-100)

8 - Frederick Douglass (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

9 - Grammar Tasks (1-77)

10 - Harriet Tubman (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

11. Kensuke' s Kingdom (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

12. Punctuation Tasks (1-56)

13. Reorder Quizzes (1-34)

14. Two Legs or One (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

15. Writing Practices (1-76)

16. Eleanor Roosevelt (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

17. Roughing It (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

18. Raymond's Run – Toni Bambara

19. Clean Sweep (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

20. The Treasures of Lemon Brown (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

21. O' Captain! My Captain! (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

22. The Ransom of Red Chief (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

In addition to hundreds of social essays to enrich the students backgrounds in English and make them love English! & 77 Translation Passages

Teaching English - Arabic and Religion only to the foreign students

Academic Rank	Teacher - Coordinator – English - Programmer – Poet – Writer
Degrees	Bachelor of Arts .Department of English and its Literature, Mansoura University – Egypt, May 1985.
Research field	Teaching English as a first language. Teaching social studies. Teaching Arabic using Arabic or English. Teaching French. Teaching Social Studies to Non-Arabs .Teaching Literature
Publications	1. The Basics of Education. (Criticism) New Education Magazine 2. Education Yesterday, Today and Tomorrow. Forum 3. Modern technology and Education. Usual Reader 4. The Best Qualities of a good teacher. Forum 5. How to teach Vocabulary. (Criticism) Forum 6. How to teach a song. Forum 7. How to teach a short story. Usual Reader 8. How to study English with your son. Usual Reader 9. How to present general information. Usual Reader 10. Skimming Reading and Scanning Reading Skills. 11. William Hazlet as a critic. 12. Aldous Huskily as a critic. 13. Styles of translation.

	14. How to teach Grammar. 15. Writing Operation Skills. 16. The Listening Lesson. 17. Glorious Classroom Management. 18 – How to prepare your exam paper.
Courses taught **(last 3 years)**	1. Straight Planning (European System) 2. Strategic Planning (American System) 3. Poor Students Evaluation. 4. Education Theories. 5. Scientific Research Results. 6. The Successful Education. 7. Advantages of Culture and disadvantages of it. 8. Roles of Computers in Educational Operation. 9. English away from Classroom. 10. How to test your students.
Employment	* English Teacher from 1986- 1990 in Egypt (Secondary Stage) * English Teacher since 1996 in Ajman (Primary Stage) * English Teacher since 2008 in UAQ (Preparatory Stage) * English Teacher since 2009 in RAK (Preparatory Stage) * English Teacher and English Coordinator since 2010 till today in the (American English) in the American Department. For the upper grades from 7, 8, 9 American.

Honors and Awards	1. Appreciation Certificate from faculty of Arts 1985 in Translation. 2. Appreciation Certificate from Secondary Institute in 1986. 3. Appreciation Certificate from Al-Rashidiah School in 1993 4. Appreciation Certificate in 1998. 5. Appreciation Certificate in 2008. 6. Appreciation Certificate from Modern School in 2009. 7. Appreciation Certificate from National School in 2010. 8. Arabic Protection Community 2004.
Volumes of Poetry	1 – The End of the Road 2 – The Confident Man 3 – The Hours of the Sunset 4 – The Bloody Snail 5 – A Tone on the Love's Wall 6 – The Perfume Aspiration 7 – The Tendency of Memories (Part One) 8 – The Upper-Egyptians had arrived! 9 – The Surrendering of the Beauty 10 – The Shoes Woman-Cleaner 11 – Patience Tears 12 – Blaming and Complaint 13 – Say frankly without Simulation 14 – Poetry is my Rosary

	15 - Yemeni Young Girl 16 – Azzah, the Lady of Goodness 17 – The Beacon of Goodness 18 – Estrangement, Bayonet and Sadness 19 – The Two Women –doctors 20 – I wander of the Ability of Allah, The Al-Mighty 21 - The Gentlemen of the Sacred Land 22 – Like the One who catches Fire! 23 - The Tendency of Memories (Part Two) 24 – The Rain betrays you! 25 – Poetry is a Merciful Mother among Poets! 26 – Bye Bye, My Poetry! 27– Oh, My Poetry, Be my Witness! 28 – Oh, Allah, Reward my Poetry! 29 – Allah, Allah, in your father's Poetry!
Other Literary Books	1 – Stylish Reading in the Poetry of Hassan Bin Thabit Al-Ansari – May Allah Be Pleased with Him -. 2 - Stylish Reading in the Poetry of Antara Bin Shaddad Al-Absi. 3 – The Story life and the Self-Road 4 – Ahmad Solaiman's Life

فهرست كتاب (دراسة أسلوبية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري)

مسلسل	عنوان الموضوع	الصفحة
1	الإهداء	7
2	المقدمة	9
3	الافتتاحية	11
4	ماهية النقد الأسلوبي	13
5	ترجمة حسان بن ثابت	19
6	ماهية الشعر الإسلامي	34
7	الفصل الأول (توجه حسان بن ثابت الإسلامي في شعره)	71
8	الفصل الثاني (الغزوات والسرايا في شعر حسان)	94
9	الفصل الثالث (شاعرية حسان بن ثابت وأسلوبيته)	106
10	الفصل الرابع (الملكة النقدية وعلاقته بالمرويات النقدية ، وعلاقتها بأسلوبية حسان)	120
11	الفصل الخامس (قيمة ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الفنية)	126
12	الفصل السادس (حسان بن ثابت والخنساء ـ قراءة أسلوبية)	130
13	الفصل السابع (حسان بن ثابت بين الجاهلية والاسلا م)	133
14	الفصل الثامن (صراع القيم الجاهلية والإسلامية في شعر حسان بن ثابت)	137
15	الفصل التاسع (الدفاع عن حسان بن ثابت الشعر والأسلوب)	144
16	الفصل العاشر (أسلوبية الهجاء عند حسان بن ثابت)	151
17	الفصل الحادي عشر (الخصائص الفنية في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه)	162
18	الفصل الثاني عشر (الإيمان بالله وصفاته في شعر حسان بن ثابت)	173
19	الفصل الثالث عشر (الخصائص الفنية في شعر حسان بن ثابت)	181
20	الفصل الرابع عشر (شخصية حسان بن ثابت في الأدب الإسلامي)	192
	الخاتمة	197
	ترجمة الشاعر	201
	الفهرس	217

تم بحمد الله وتوفيقه وعنايته ورعايته إتمام (دراسة أسلوبية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري)